

السَّيِّدُ عَبْدُ الْمُحْسَنِ الْقَزْوِينِي

رَحْمَةُ الْحَلِّ عَمَّا قَدْ لَبَّسَتْ



منشورات

منشورات
مؤسسة الأمل للطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب. ٧١٢٠



مِجْلَد
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا
لِلْإِسْلَامِ

رَحْمَةٌ إِلَى الْعَبْدِ الْقَائِلِ بِنَفْسِهِ

تَأَلَّفَ
السَّيِّدُ عَبْدُ الْمُحْسَنِ الْقَزْوِينِي

منشورات
مؤسسة الأمل للطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب. ٧١٢٠

الطبعة الأولى
بحقوق الطبع محفوظة للمؤلف
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

مؤسسة الأعلامي للطبوعات :
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة .
ملك الاعلي . ص.ب. ٧١٢٠١
الهاتف : ٨٣٣٤٤٧ - ٨٣٣٤٥٣

PUBLISHED BY
Al Alami Library
BEIRUT - LEBANON
P.O. BOX 7120

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين .

لا تعرف الدنيا مبدأ، أو نظاماً، يرعى شؤون الحياة، رعايةً شاملةً دقيقة، كما يفعل ذلك الدين الإسلامي، فهو يمتاز برعاية الحياة المادية والمعنوية، ورعاية أمور الدين وأمور الآخرة، وتتسم تعاليمه بالشمولية المطلقة، حيث لا تدع بعداً من أبعاد الحياة إلا وتشملها هذه التعاليم والمناهج .

يهتم هذا الدين بحياة الإنسان، منذ انعقاد نطفته، ويرعاه جنيئاً، ووليداً، ورضيعاً، وطفلاً، وكبيراً... وحتى النهاية، يستوعب دقائق حياة البشرية، وتفصيلاتها، ويعطيه من العناية والاهتمام ما لا حدَّ له ولا حصر .

لئن كانت الأديان السائدة المعروفة اليوم، تهتم ببعض الجوانب الروحية، وتعرض عن الجوانب المادية في حياة الإنسان. ولئن كانت الأنظمة الوضعية لا يهتمها سوى البعد المادي في حياة الناس، ولا علاقة لها بحياتهم المعنوية والروحية .

ولئن كانت موارد الاهتمام في الأديان والأنظمة تبقى محدودة، لا تستوعب كل الأبعاد .

فإن الإسلام، يتابع كل الأبعاد، وكل الشؤون، ويعنى بحياة الإنسان بدقة! ويهتم كثيراً أن تكون حياةً طيبةً هانئةً كريمةً، ويهتم أن يحظى الإنسان

بسعادة الدنيا والآخرة، وبلغ الخير في حياته وبعد وفاته .

وشيء آخر، يمتاز به الإسلام، دون المبادئ والأنظمة، يتمثل في النظرة السامية التي ينظر بها للإنسان. يعتبره خليفة الله في الأرض، والعنصر الأكرم في هذا الكون، وكل شيء في الكون مسخرٌ لخدمته وسعادته، فهو الخلقُ الممتاز، والموجود المفضل على سائر الخلق، شريطة أن يكون مؤمناً صالحاً، خاضعاً لربه سبحانه وتعالى .

ولا يتم ذلك للإنسان إلا بمعرفة نفسه، ومعرفة الوسائل التي يستطيع بها إصلاحها .

إن الإنسان الممتاز، ذلك الذي يمتلك نفسه، ويقوى على زمّها، وكبح جماحها، ليمنعها من الانحدار والسقوط والانتكاس في الجهل والبهيمية .

إن النفس هي المعيار والمقياس، في سمو الإنسان أو انحطاطه، فإن كان يحمل نفساً مهذبةً طاهرةً مستقيمة، فهو المطلوب. وإن لم يكن كذلك، فهو تافه صغير، لا يختلف عن البهائم في شيء .

إن علم الإنسان مهما كان غزيراً، لا يرفع بمستواه، إلا إذا كانت نفسه عالية، وإن عقله لا ينفعه في شيء إلا إذا كانت نفسه سامية .

قال علي عليه الصّلاة والسلام : «كلما زاد علم الرجل، زادت عنايته بنفسه، وبذل في رعايتها وإصلاحها جهده»^(١) .

وقال عليه السلام : «بالعقل كمال النفس»^(١) وقال : «من لم يهذب نفسه لم ينتفع بالعقل»^(١) إن من أهم وظائف الإنسان، في هذه الحياة : البحث عن مكان نفسه، وخبائها، وخفاياها، والتعرف على مكنوناتها، ليتسنى له معرفتها بدقّة، ويصل بالتالي إلى معرفة الحق والحقيقة .

«دخل رجل على رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله، كيف الطريق إلى معرفة الحق؟ فقال : معرفة النفس»^(٢) .

(١) غرر الحكم : ٢٤٨ ، ١٤٨ ، ٢٩٣ .

(٢) بحار الأنوار للمجلسي : ٧٢/٧٠ .

وقال علي عليه السلام : «معرفة النفس أنفع المعارف»^(١) .

وعن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام : «ولا معرفة كمعرفة نفسك»^(٢) .

إن النفس البشرية، هي محور الحياة وأُسُها، في خيرها وشرها، وعليها نبني قواعد حياة الفرد، ومنها ينطلق الإنسان باتجاه السعادة أو الشقاء .

وقد تكفل الإسلام وحده، من بين المبادئ والأنظمة، برسم الطرائق، ووضع المناهج القويمة، من خلال القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، وأخبار وروايات أئمة الهدى، عليهم الصلاة والسلام؛ لإصلاح النفوس، وتقويمها، وتوجيهها، صوب الصلاح والهداية، وليس على المرء إلا أن يتابع هذه البرامج، والأساليب النفسية، ويعمل بها ليحقق لنفسه الفوز الأكبر .

قال علي عليه السلام : «نال الفوز الأكبر، من ظفر بمعرفة النفس»^(٣) .

وقال عليه السلام أيضاً : «نظر النفس للنفس، العناية بصلاح النفس»^(٣) .

وإنني، ومنذ مدة، تراودني فكرة الكتابة والبحث، في موضوع النفس، ودراسة النظريات الإسلامية عن هذا الموضوع، وكذلك الوقوف على النظريات والأفكار في علم النفس الحديث، ومحاولة الجمع بين الفكرتين والمقارنة بينهما في كتاب واحد .

ولقد بذلت بالفعل، في هذا الكتاب، جهداً متواضعاً، للإلمام ببعض الشذرات من علم النفس الإسلامي، ومحاولاته في معالجة الأمراض النفسية، على ضوء أي الذكر الحكيم، والنصوص الشرعية الأخرى، وكذلك بحثت في بعض محاولات علم النفس الحديث بهذا الصدد، وتطرقت إلى بيان حالات النفس، وتقلباتها، وما تعترئها من الإقبال والإدبار . . . أمل بذلك،

(١) غرر الحكم : ٣١٩ .

(٢) تحف العقول : ٢٠٨ .

(٣) غرر الحكم : ٣٢٢ .

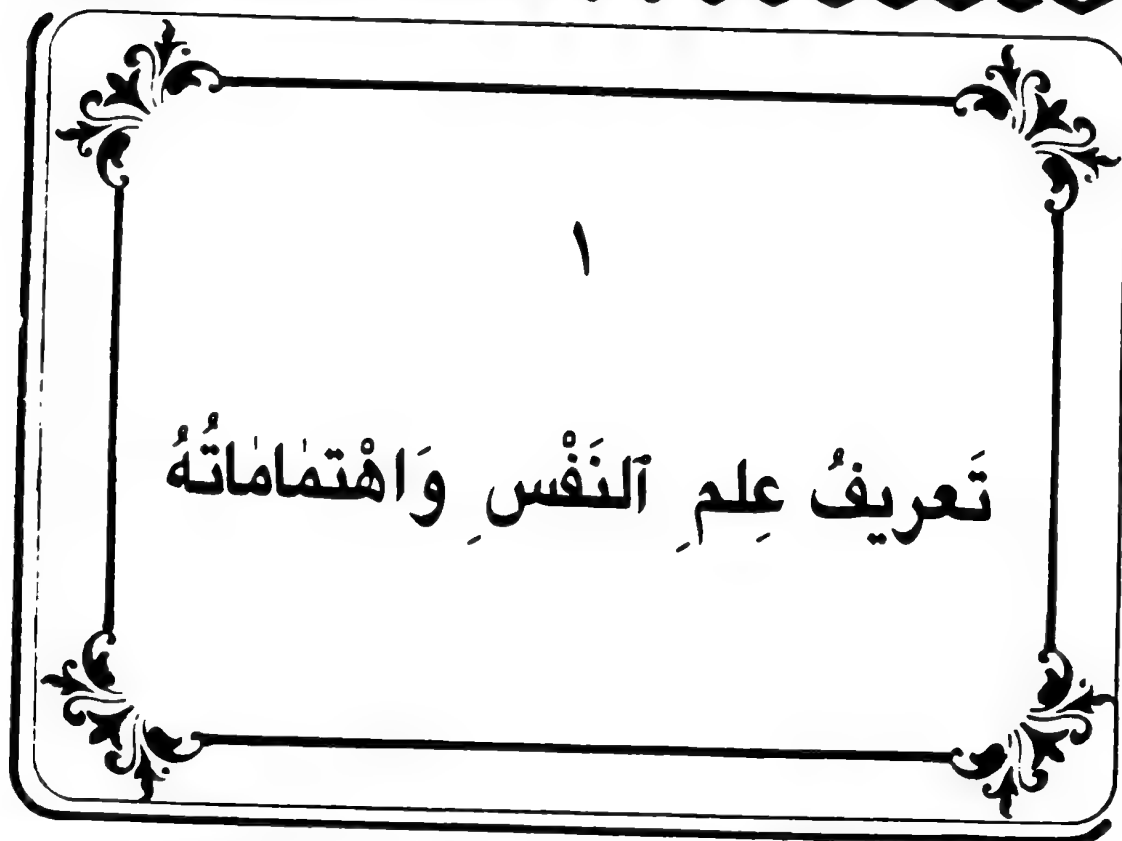
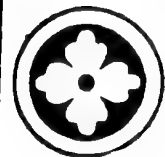
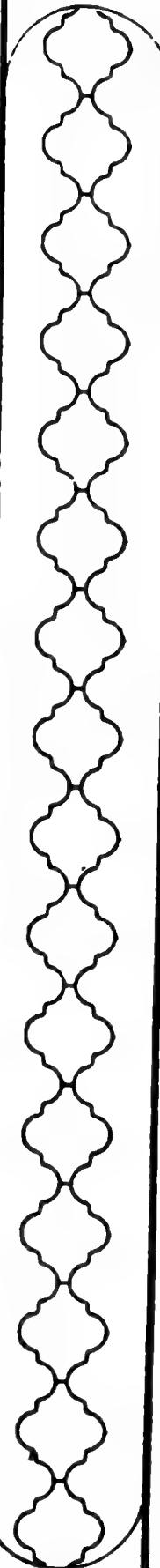
أن أكون قد أدّيتُ بعض الواجب في سبيل إصلاح نفسي ، ونفوس الآخرين .
والكتاب ، وإن لم يكن يحوي كل القضايا النفسية ، إلا أنه يشتمل على
فصول مهمّة ، قد لا يستغني عنها الفرد في مسيرة حياته .

ولقد طعّمتُ الكتاب بالقصص الشيّقة التاريخية ، لأن القصّة أقدر على
النفاذ إلى النفس قياساً إلى غيرها من الوسائل الأدبية ، فهي ترسم خلجات
النفس ، وتصور السّمات والأخلاق والعادات بشكل مؤثر فعال ، خاصة إذا
كانت شريفة الغرض ، نبيلة المقصد .

ولما كان الهدف من هذا الكتاب ، السعي لتهديب الطباع ، وترقيق
النفوس ، وإصلاحها ، كان لا بدّ من الاستشهاد بالقصص ، لأنها ذات شأن
رفيع في آداب كل الأمم ، وقد وردت القصّة في القرآن الكريم ، وفي آثار
الشعوب جميعاً . . . فأردت أن آخذ نصيبي من القصّة في هذا الكتاب لتكون
مواضيعه ، ومحتوياته ، أقرب للنفس ، وأعمق أثراً فيها .

ولقد سبق لي أن ألقيت محتويات هذا الكتاب ، على شكل خطابات
ومحاضرات رمضانية ، في حسينية آل معرفي في الكويت سنة ١٤١٤ هـ ، فقد
كنت أخطب هناك كل ليلة من ليالي الشهر الفضيل ، فكانت مواضيع هذا
الكتاب مادة خطاباتي هناك .

وإنني إذ أشكر الله أن وفقني لإخراج هذا الكتاب ، وأداء هذه الخدمة
المتواضعة ، أتقدم بالشكر أيضاً للاخوة القائمين على هذه الحسينية المباركة ،
على ما يبذلونه من جهود وطاقات كبيرة ، لإقامة المجالس والدروس
والمحاضرات ، والقيام بتسجيلها صوتاً وصورة ، وأسأل الله تعالى لهم الخير ،
وزيادة العمل الصالح وأن يتقبّل منا جميعاً ، بكرمه ومنه ولطفه ، فهو ولي
التوفيق وهو المستعان .



١

تَعْرِيفُ عِلْمِ النَّفْسِ وَاهْتِمَامَاتُهُ



سئل (كاتل) Cattel العالم النفسي الأمريكي المشهور : أن يضع تعريفاً لعلم النفس فأجاب بأن «علم النفس هو ما يعنى علماء النفس بدراسته» .
ولقد أراد كاتل بذلك أن ينبه إلى أننا إذا عرفنا موضوعات علم النفس، استطعنا أن نعرف علم النفس تعريفاً دقيقاً .

ولهذا فنحن نحاول أن نستعرض الموضوعات التي يكتنفها هذا العلم، أو التي ترتبط بشكل أو بآخر بهذا العلم، فإن ذلك سيساعدنا - لا شك - على تكوين فكرة صحيحة عن علم النفس، وسيجعلنا أقدر على وضع تعريف دقيق له .

وليس خافياً طبعاً، على أهل هذا الفن، أن علم النفس يرصد كل نشاطات الإنسان تقريباً، ولا يدع عملية أو حركة أو نشاطاً إلا ويتدخل فيه .
وبعبارة أخرى : ما من نشاط للإنسان إلا ويكون لنفسه فيه تأثير بالغ، مباشر وغير مباشر .

من هنا تواجهنا تعاريف عديدة لعلم النفس، قد لا نحتاج هنا ذكرها جميعاً .

وقد حددت اهتمامات هذا العلم، وأغراضه بشكل مفصل، أذكر - على سبيل المثال - بعضها :

١ - يعنى علم النفس بسلوك الكائن الأدمي ، في شتى مجالات نشاطه ، بيد أن الزاوية التي يشدد عليها في مجالات النشاط تنحصر في العملية التالية : (الاستجابة) حيال (مثير) معين . . . (١) .

٢ - إن علم النفس ، يعتمد على الاسلوب العلمي في بحوثه .

٣ - إن علم النفس ، يدرس الظواهر النفسية على حالتها .

٤ - إن علم النفس ، يبحث في علاقة الفرد بالبيئة التي يعيش فيها .

٥ - إن علم النفس ، علم إيجابي يعمل على المساهمة في رفع شأن الأفراد والجماعات ، وتحسين أساليب السلوك .

٦ - إن علم النفس ، يدرس حالات الأفراد العاديين ، والأفراد الشواذ أيضاً .

٧ - إن علم النفس ، هو العلم الذي يبحث في دوافع السلوك ، ومظاهر الحياة العقلية ، الشعورية منها واللاشعورية ، دراسة إيجابية موضوعية ، تساعد على افساح المجال للقوى والمواهب النفسية ، كي تنمو ، وتُسْتَغْلَ فيما يساعد على حسن التكيف مع البيئة ، وما يؤدي إلى تحسين الصحة النفسية للأفراد والجماعات (٢) .

هذه هي باختصار بعض أنواع السلوك التي يهتم علماء النفس بدراستها ، وبمنظرة سريعة نلقيها على الموضوعات السابقة ، يتبين لنا بوضوح ، ان علم النفس يعنى بدراسة جميع أنواع السلوك الإنساني في جميع مراحل حياته المختلفة ، وهو يحاول أن يستخلص من هذه الدراسة ، المبادئ العامة للسلوك الإنساني . إن الإنسان كائن حي ، يقوم بأنواع كثيرة من السلوك والنشاط ، وتتسم جميع أنواع السلوك الإنساني بصفتين : صفة بدنية وصفة نفسية ، ولا يمكن الفصل بينهما ، فالتفكير مثلاً - وهو يبدو كأنه وظيفة عقلية بحتة ، لا يمكن أن يتم بدون الاستعانة بعمل الخلايا العصبية في المخ .

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي ص : ١

(٢) علم النفس والحياة للدكتور محمد نجاتي .

ثم إننا حين نفكر، لا بد أن يكون الفكر مصحوباً ببعض الحالات النفسية، كالخوف، والفرح، والحزن، وما شاكل ذلك . . .

إذن أصبح هذا السلوك متكوّناً من حالة جسميّة، وحالة نفسيّة، وحتى بعض السلوك الذي تغلب عليه الناحية البدنية، مثل لعب الكرة، أو السباحة، فإننا لا نستطيع أن نصفها بأنها بدنية بحتة، بل إنها تتضمّن كثيراً من الحالات النفسية الباطنية . . .

وهكذا فكل أنواع السلوك الإنساني، لا بد وأن تكون ذات طابع بدني، وآخر نفسي، ولكن بدرجات متفاوتة، ولا يمكن الفصل بين الحالتين بحال من الأحوال .

وعلم النفس يدرس جميع هذه الأنواع، انه يدرس الأفعال، كما يدرس الأحاسيس، والتخيلات وما يدور في الفكر .

«وإذا أردنا - بعد ذلك - أن نضع تعريفاً عاماً لعلم النفس لقلنا: انه الدراسة العلمية لسلوك الإنسان، ولتوافقه مع البيئة» .

«ونذكر في تعريفنا (الدراسة العلمية) لنؤكد أهمية تطبيق مناهج البحث العلمي في دراسات علم النفس، ونقصد بالسلوك، جميع أنواع النشاط الذي يصدر عن الإنسان، سواء كان حركاتٍ، أو انفعالاتٍ أو تعلماً، أو تذكراً، أو غير ذلك من أنواع النشاط الإنساني» .

«ونذكر (توافق الإنسان مع البيئة) لأن الإنسان لا يعيش منعزلاً، وإنما يعيش في بيئةٍ معيّنة، طبيعية، واجتماعية، ويصدر سلوك الإنسان أثناء تفاعله مع البيئة، وتوافقه معها»^(١) .

من هنا أصبح من الطبيعي أن تتسع أبحاث علم النفس، لتشمل جميع الميادين التي تتصل بالسلوك البشري، وعلى هذا الأساس، برزت فروع كثيرة لعلم النفس، وكان لازماً على الجميع أن يُلمَّ ولو بأوليات علم النفس، ليكون في مقدوره تسيير دفة الحياة بشكل أفضل .

(١) علم النفس والحياة للدكتور محمد نجاتي .

فالخطيب - مثلاً - لا بدّ له من أن يكون ملماً بشيء من القواعد النفسية، ليتعرف على نفسية مستمعيه، والمربّي كذلك، انه أحوج ما يكون إلى علم النفس، ليتسنى له تقييم نفسيات تلامذته، وكذلك الأم، لو كانت عارفة ببعض أصول علم النفس، لاستطاعت أن تقوم على تربية أولادها، وإدارة زوجها وبيتها بشكل أفضل وهكذا حتى يأتي الدور على الحرفيّ والصنّاعيّ . . . وكل طبقات المجتمع .

ومن الميادين التي يخوضها علم النفس، أذكر على سبيل المثال :

١ - علم النفس العام :

ويعنى بدراسة المبادئ العامة لسلوك الإنسان، الراشد السويّ، ويستخلص الأسس العامة (النفسية) لجميع الأفراد وبصرف النظر عن الحالات، والمواقف الخاصة التي تختلف من شخص لآخر.

مثلاً : المبادئ العامة للتعليم، بصرف النظر عن المواضيع التي تُدرّس، أو المواد التي تلقى على الطلاب، أو السن التي يتعلم فيها الطالب، أو الظروف المحيطة بالتعليم، أو الأماكن التي يتم فيها التدريس، بصرف النظر عن كل ذلك، يهتم علم النفس العام بالمبادئ العامة في النفسية البشرية .

٢ - علم النفس الفسيولوجي :

ويتولّى دراسة الحالات العصبية، ووظائف الجهاز العصبي، محاولاً فهم الرغبات والأحاسيس، أو ما يعبر عنه في علم النفس الإسلامي بـ (الغرائز)، وسائر الدوافع .

٣ - علم النفس الفارق :

ويحاول هذا العلم، دراسة الفوارق بين الأفراد، والمجموعات، والطوائف، وآثار البيئة، والوراثة والمحيط فيها، ويستخدم علماء النفس، المقاييس النفسية المختلفة، والتجارب، لتحديد قوة الذكاء، والقدرات العقلية، وتقدير الفروق بين الأفراد، والجماعات، والسلالات، وبين الذكور

والاناث .

٤ - علم نفس الطفل :

ويقوم بدراسة نمو الطفل، والمراحل المختلفة التي تمرُّ بها عملية النمو، والعوامل المؤثرة، ويدرس شخصية الطفل، ويعنى بفهم سلوكه ودوافعه، في مراحل حياته المتفاوتة، مما يجعل الوالدين، أو سائر المربين، أقدر على تربية الطفل، وتوجيهه .

٥ - علم النفس التربوي :

وهو الذي يلاحظُ به مراحل النمو المختلفة، بحيث يتسنى للمُربين وضع المناهج الدراسية، التي تتناسبُ مع مستويات النمو المختلفة، ويشمل أيضاً الأسس العامة للتعليم، والأجواء التربوية .

٦ - علم النفس الاجتماعي :

وهو يراعي العلاقات بين الطبقات من الناس، وتفاعل الفرد مع الجماعة، والتنشئة الاجتماعية للفرد، وكيفية تأثره بالنظام الاجتماعي، وبالثقافة التي ينشأ عليها، ويدرس هذا العلم سيكولوجية الجماهير، والرأي العام، والدعاية... وكثيراً من المشاكل الناشئة عن العلاقات بين الأفراد والجماعات كالتعصب، والمنازعات الطائفية، والطبقية، والثورات، والحروب....

٧ - علم النفس الارشادي :

ويتولى مساعدة الأفراد على التوافق في الحياة، وتهيئة الحياة المطمئنة، الخالية من المشاكل النفسية. وربما يصح التعبير عن علم النفس الإسلامي، بعلم النفس الارشادي، فإن التعاليم النفسية الإسلامية تقوم بنفس المهمة، وتؤدي نفس الغرض، وهو توجيه الفرد إلى العيش بسلام واطمئنان .

٨ - علم النفس التطبيقي :

إن كثيراً من الفروع التي سبق ذكرها، هي في الواقع، فروع لعلم

النفس التطبيقي، فعلم النفس التربوي - مثلاً - يقوم بتطبيق مبادئ علم النفس في ميدان التربية، وعلم النفس الصناعي - هو الآخر - يطبق مبادئ علم النفس في ميدان الصناعة، وهكذا . . .

ولعلم النفس تطبيقات أخرى كثيرة، لم يشملها هذا العرض الموجز لفروع علم النفس، ولذلك يحسن الإشارة إليها على سبيل الإيجاز والاختصار .

يطبق علم النفس في دراسته مشكلات الأسرة والزواج، للوصول إلى الأسباب التي تؤدي إلى سوء التفاهم، أو القطيعة بين الزوجين، وسبل القضاء على هذه المشاكل، وإزالتها، ليعود التفاهم والاستقرار إلى الحياة الزوجية، وتعود المياه إلى مجاريها .

ويطبق علم النفس أيضاً، في ميدان الخطابة، لتقوية نفس الخطيب، أو المتكلم، ولمعرفة أحاسيس المستمعين، والجماهير، لغرض التأثير الخطابي في نفوسهم، والأجواء النفسية التي يعيشها كل من الخطيب، والمستمع .

ومن ميادين تطبيق علم النفس أيضاً، ميدان التجارة، وخاصة الإعلان التجاري، لدراسة الطرق الناجحة في التأثير على اتجاهات المزاولين لهذه المهنة .

ويطبق علم النفس أيضاً، على الآداب والفنون، لدراسة العوامل النفسية التي تؤثر على الانتاج الفني للادباء والفنانين .

ويطبق علم النفس أيضاً، في السياسة لدراسة سلوك الإنسان السياسي، كالعوامل النفسية التي تدفع الناس إلى اعتناق بعض المبادئ السياسية، أو التي تدفعهم إلى تفضيل بعض المرشحين في الانتخابات، أو دراسة نفسية المستبدين، والطغاة والظالمين، لمعرفة الدوافع والأسباب التي وراء طغيانهم، واستبدادهم، فالسياسي السوي الراشد، لا يمكن بأي حال من الأحوال، أن يطغى ويستبد برأيه، ويعامل الرعية بقسوة وشدة .

وعلى العموم، فإن علم النفس يمكن - في الواقع - أن يطبق في كل

ميدان يبذل فيه الإنسان نشاطاً لأنه يدرس أي ناحية من نواحي حياته، وأي ميدان من ميادين نشاطه .

من هنا كان الإقبال على دراسة علم النفس ضرورياً، لأنه مفيد من وجوه عديدة، فالموضوعات التي يدرسها علم النفس، لها علاقة مباشرة ووثيقة بحياتنا، وهو يساعدنا على فهم مشاعرنا أولاً، ثم فهم مشاعر الآخرين، ومعرفة انفعالاتنا، ودوافعنا، وأفكارنا، واتجاهاتنا، وأفعالنا إنه يزيدنا معرفة بأنفسنا .

وتأتي الإرشادات النفسية الدينية، لتؤكد أهمية معرفة النفس، ولتضفي على علم النفس جواً من الروحانية .

قال علي عليه السلام : «العارف من عرف نفسه، فأعتقها، ونزَّهها عن كل ما يبعدها»^(١) .

ولعله يريد بكلمة (فأعتقها) تحريرها من قيود الآثام والانحرافات، التي تُثقل كاهل النفس، وتسبب لها الحرج والضيق .

ويعتبر الإمام عليه السلام ، جهل الإنسان بنفسه، أعظم الجهل، بل هو جهل بالخالق المتعال أيضاً .

قال عليه السلام : «أعظم الجهل، جهل الإنسان بنفسه»^(٢) .

وقال عليه السلام : «أفضل العقل، معرفة المرء بنفسه، فمن عرف نفسه عَقِلَ، ومن جهلها ضَلَّ»^(٣) .

وقال عليه السلام : «عجبتُ لمن يجهل نفسه، كيف يعرف ربه؟»^(٤) .

وقال عليه السلام : «غاية المعرفة، أن يعرف المرء نفسه»^(٥) .

وقال عليه السلام : «كيف يعرف غيره، من يجهل نفسه؟»^(٦) .

وقال عليه السلام : «كفى بالمرء معرفةً، أن يعرف نفسه، وكفى بالمرء جهلاً، أن يجهل نفسه»^(٧) .

(١) - (٧) الميزان في تفسير القرآن ج ٦ ص ١٧٣ .

وقال عليه السلام : «من عرف نفسه، كان لغيره أعرف، ومن جهل نفسه، كان لغيره أجهل»^(١).

وقال عليه السلام : «لا تجهل نفسك، فإن الجاهل معرفة نفسه، جاهل بكل شيء»^(٢).

وقال عليه السلام : «أعظم الحكمة معرفة الإنسان نفسه»^(٣).

ويعدُّ الإمام عليه السلام ، معرفة النفس ضالَّةً، ينبغي أن ينشدها المرء، وإلا تاه في ظلمات الحياة، ولم يكن بمقدوره مواصلة السير على الطريق الصحيح .

قال عليه السلام : «عجبت لمن يُنشدُ ضالَّتَهُ، وقد ضل نفسه فلا يطلبها»^(٤).

ويعتبر معرفة النفس، والإحاطة بمكنوناتها، واسرارها، وسيلة للوصول إلى غاية سامية وفي سبيل ذلك، لا بد للمرء أن يجاهد بعض الشيء، ويعاني في هذا الطريق .

قال عليه السلام : «من عرف نفسه تجرَّد»^(٥).

وقال أيضاً : «من عرف نفسه جاهدها، ومن جهل نفسه أهملها»^(٦).

وقال أيضاً : «من عرف نفسه، جَلَّ أمرُهُ»^(٧).

وقال عليه السلام : «من عرف نفسه، فقد انتهى إلى غاية كل معرفة وعلم»^(٨).

ويعتبر معرفة النفس بمثابة الإحاطة بكل المعارف والغايات، وهو كذلك بالفعل، لأن الإنسان مهما عظمت معرفته بنفسه، حاول أن يسدَّ الثغرات في حياته، وأن يصلح ما تعرض للفساد فيها، فهو يستزيد كل يوم علماً، وديناً، وأخلاقاً، وتنظيماً لشؤونه . . .

قال عليه السلام : «من لم يعرف نفسه بعدَّ عن سبيل النجاة، وخط في

(٨/١) الميزان في تفسير القرآن ج ٦ ص ١٧٣ .

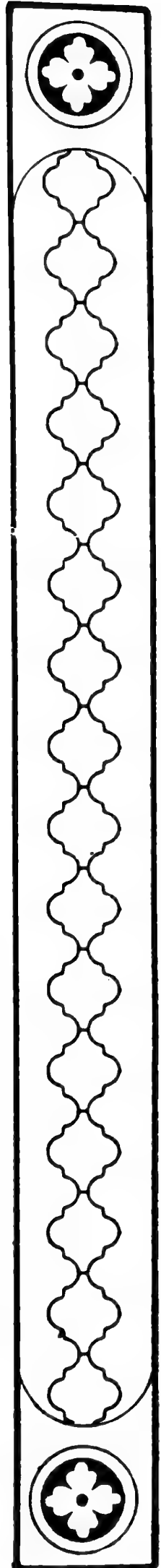
وقال : «معرفة النفس أنفع المعارف»^(٢).

وأخيراً، قال رحمه الله : «نال الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس»^(٣).

ولا يخفى ما في هذه النصوص الشريفة، المروية عن سيدنا ومولانا، أمير المؤمنين عليه السلام، من دلالة كافية، على أن علم النفس، ومعرفة خفايا وخبايا هذه النفس العظيمة، له أهمية عظيمة بالغة، تجعلنا أكثر اقتداراً على فهم أنفسنا، وفهم الآخرين، وإدراك سلوكنا وسلوك الآخرين ولا شك أن هذه المعرفة، تجعل الناس، أكثر قدرة على التفاهم، والتوافق فيما بينهم، وأقوى على التعامل الصحيح، فيما بين الأفراد .

والملاحظ، أن هذه الروايات والنصوص، كانت كلها تسلط الضوء على أصل معرفة النفس، وأهمية هذه المعرفة، دون تحديد للسبل والوسائل التي تؤدي إلى هذه المعرفة، وسنرى - في الصفحات القادمة - نماذج من المنهج التفصيلي الواسع، الذي وضعه قادة الإسلام، وأئمة الهدى عليهم السلام، عن كيفية معرفة النفس، وطرق التوصل لهذه المعرفة، وبيان مواطنها، ومصاديقها .

(٣/١) الميزان في تفسير القرآن ج ٦ ص ١٧٣ .



٢

عِلْمُ النَّفْسِ الدِّينِي

ربما يَرُدُّ سؤال : هل يتعرض الدين لهذه الأبواب، والفروع، التي ذكرناها آنفاً، كما يتعرض لها علم النفس الحديث ؟

وهل تشمُل المباحث النفسية الدينية، كل جوانب السلوك الإنساني، كما يفعل ذلك علم النفس الحديث ؟

وللجواب على هذا التساؤل، نقول : إن الجوانب التي يبحثها علم النفس الديني، أوسع بكثير مما يخوض فيه علم النفس الحديث، والمجالات النفسية التي رصدها القرآن الكريم، والرسول ﷺ، وأهل البيت الكرام عليهم السلام، أشمل بكثير، من هذه الزوايا المحدودة التي يناقشها علم النفس الأرضي .

ففي كتاب الله، دعوة صريحة إلى التأمل والنظر في أعراض، وتأثيرات النفس الإنسانية العجيبة، وما تنطوي عليه من أسرار غريبة .

وثمة عشرات الآيات الكريمة التي يحويها القرآن الكريم، والتي تتناول النفس الإنسانية، بمختلف جوانبها، وحالاتها، سوية وشاذة، خيرة وشريرة، مقبلة ومعرضة، فيسميها تارة : الأمانة بالسوء، في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَبْرَىٰ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾^(١) .

وتارة أخرى، يعتبرها المُلهمّة، في قوله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا

(١) سورة يوسف ؛ الآية : ٥٣ .

فألهما فجورها وتقواها ﴿١﴾ .

ويدعو إلى تزكيتها، وتطهيرها من الشوائب، والأمراض، والزلات النفسية، والترصد لها وتقويمها، على أساس من تعاليم الشرع الحنيف .

قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (٢) .

وكثيراً ما ينسب الصفات إلى النفس، كالشح مثلاً : ﴿وَأَحْضِرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾ (٣) ﴿وَمَنْ يَوْقَ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ﴾ (٤) .

والحديث في علم النفس الديني، يتميز بكونه نابعاً من مصدر إلهي . . . من الله عز وجل، خالق النفس، العليم بأسرارها وخفاياها، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٥) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟﴾ (٦) .

والدارس لكتاب الله العزيز، يخرج بنتيجة: انه يحوي التوجيهات الكاملة، والكافية، لإنشاء نظرية نفسية، عجز عنها العلم الحديث، ناهيك عما ورد في الأحاديث، والأخبار، والروايات التي نقلت عن الرسول وآله الأطهار عليهم الصلاة والسلام، وكذلك عن سائر علماء وفلاسفة وحكماء المسلمين، ابتداءً بأصحاب الرسول ﷺ ، وانتهاءً بالعلماء الدينيين الأفاضل في مجال النفس، وأعراضها، وحالاتها، وكلما يُمْتُ إليها بصلة .

ولو حاولنا كمسلمين، أن نصل إلى حقائق النفس، وسبر اغوارها، والغوص في أعماقها، فإننا - ولا شك - نحوز قصب السبق في هذا المجال . ولاستطعنا الإحاطة الواسعة بعلم النفس وشؤونه، ووضع التفصيلات المتعلقة به موضع الدراسة والاستفادة، ولسوف نتقدم - لا محالة - على غيرنا، ممن

(١) سورة الشمس ؛ الآيتان : ٧ ، ٨ .

(٢) سورة الشمس ؛ الآيتان : ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة النساء ؛ الآية : ١٢٨ .

(٤) سورة الحشر ؛ الآية : ٩ ، سورة التغابن ؛ الآية : ١٦ .

(٥) سورة ق ؛ الآية : ١٦ .

(٦) سورة الملك ؛ الآية : ١٤ .

عالجوا هذه النفس بشكل انحرافي ، غير قويم .

فغيرنا (كفرويد) مثلاً، يرى الإحساس بالذنب؟ مرضاً، والتوبة نكوصاً، والندم تعقيداً، والصبر على المكافاة بروداً، وقمع الشهوات كبتاً له عواقبه الوخيمة، وآثاره السيئة .

بينما يقف الدين الإسلامي الحنيف، على النقيض في كل ذلك تماماً، فيعلمنا أن قمع الشهوات دليل على سلامة النفس وقوتها، وأن الإحساس بالذنب علامة صحة، وأن التوبة موقف علم، والندم موقف علم، تدل جميعها على فطرة سليمة سوية، ونفس قوية أدركت الله تعالى، وعرفت أنه مع الحق والعدل .

ولا يرى الدين أن النفس محض فجور، بل يصفها بأنها قابلة للفجور والتقوى، ولا يرى (فرويد) من الأحلام إلا الجانب الجنسي الحسي الشهواني، فالأحلام عنده، كلها (اشباع لرغبات مكبوتة) .

أما القرآن الكريم فيعلمنا: أن هناك نوعين من الأحلام، نوع يُطلق عليه (أضغاث أحلام) حيث النفس الأمانة بالسوء وبالشهوات، وهو ما اشتغل (فرويد) بتفسيره .

ثم هناك نوع آخر من الأحلام، وهي الرؤى التي تأتي إلى النفس من الملأ الأعلى، ومثال ذلك الرؤى الصادقة، وسيأتي الحديث عنها في فصل خاص، إن شاء الله .

كذلك (النسيان) ينظر إليه فرويد، على أنه حالة لاشعورية، بسبب موضوع مؤلم، أو كبت، بينما ينظر الدين إلى الموضوع، بمنظار مختلف تماماً، فالنسيان - تارة - يكون نعمة يُنعم الله بها على الإنسان، لكي لا تتحول نفسه إلى مخزن للهموم والأحزان، بل ينساها، ليعيش حياة طبيعية هادئة .

وتارة أخرى، يكون النسيان، نسياناً لله عز وجل، وآياته، ودلائله، وصفاته سبحانه وتعالى، فهو نقمة، ومصيدة للشيطان، فمن كان ذاكرةً لله، قريباً منه، كانت نفسه مستجمعة للقوى، حاضرة جاهزة، لا ينسى شيئاً، ولا يغيب عنه شيء، لأنه في دائرة النور، أما البعد عن الله تعالى فيدخل صاحبه

في دائرة الظلمة، وهؤلاء هم الذين يتخبطون في النسيان .

﴿ولا تكونوا كالذين نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١) .

«ويختلف الدين في موضوع العلاج النفسي، فبينما لا يرى فرويد، إمكانية تبديل النفس جوهرًا، لأن النفس تأخذ شكلها في السنوات الخمس الأولى من الطفولة، ولا يبقى للطبيب النفسي دورٌ سوى إخراج المكبوت إلى الوعي . . . يرى الدين إمكانية تبديل النفس وتغيير جوهرها، وإخراجها - مثلاً - من ظلمة البهيمية إلى ذروة الكمال الأخلاقي»^(٢) وذلك بالمجاهدة مع النفس، ولا تنجح هذه المجاهدة، إلا بطلب العون من الله تعالى، فذروة العلاج النفسي في الإسلام، في ذكر الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣) .

والنفس مشار البحث، منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها، فالفلاسفة القدماء، وعلماء الأخلاق، والتربويون . . إلى علماء النفس في يومنا هذا، يهتمهم كثيراً البحث والجدل، في قضايا النفس، لكننا نعتقد اعتقاداً جازماً، أن الإسلام، قام بتحليل النفس وتثريتها ثم تهذيبها، وتقويمها، ثم توجيه الناس إلى إصلاحها توجيهاً كاملاً ومتكاملاً، ودعى إلى الاهتمام بها، كما لم يفعل أي دين أو مبدأ آخر، فالجميع يعتني بجانب من جوانب النفس ويدع جوانب أخرى، بينما الدين الحنيف، احتواها من كل أبعادها، وعالجها معالجة أساسية كلية .

ولدى النظر إلى مجموعة التعاليم، والمناهج الإسلامية، نجد أن الشرع الإسلامي، بحث في كنه النفس وذاتها، كما يبحث في آثارها، وعوارضها، بخلاف الآخرين الذين اكتفوا بالبحث في بعض أعراضها فحسب .

يقول العلامة السبزواري في منظومته .

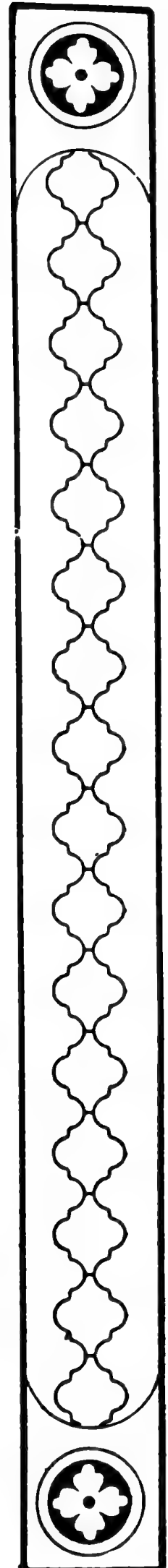
(١) سورة الحشر ؛ الآية : ١٩ .

(٢) التحليل والصحة النفسية : إبراهيم عبد الله والدكتور محمد مصطفى زيدان .

(٣) سورة الرعد ؛ الآية : ٢٨ .

النفس في وحدتها كل القوى وفعلها في فعلها قد انطوى

ومجمل القول : إن علم النفس الديني يتميز عن غيره - فيما يتميز به -
وسعة أبوابه التي خاضها في علم النفس، ولكن يبقى علينا أن ننهل من هذا
لمعين العذب، الذي لا ينضب، ونغوص في بحار علوم الإسلام،
لإستخراج لآله، ودرره الثمينة .



٣

النفس والرؤية القرآنية

﴿ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ .

للنفس في القرآن الكريم، محلٌّ مرموق، وحديث طويل، والمُلاحَظ أن القرآن الكريم يريد بكلمة النفس - في بعض الأحيان - الإنسان بذاته، المتألف من لحم ودم وعظم، كقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق...﴾^(١) وكقوله تعالى: ﴿ليجزى الله كلَّ نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب﴾^(٢) .

وفي أحيان أخرى، يريد هذه القوة الباطنة، التي نحن بصدد البحث عنها، والتي تفعل وتنفع، وتتقلب، وتتلون.

وقد تحدّث عنها في أكثر من موضع، معبراً عنها بكلمة القلب، ويريد به النفس، كما في قوله تعالى: ﴿... ولكن حَبَّبَ اليكم الإيمان وزَيَّنَهُ في قلوبكم﴾^(٣) وفي قوله تعالى: ﴿... وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾^(٤) فالقلوب - في مثل هذه الآيات - ليس المراد منها ذلك الجهاز الكمثري الشكل، الموضوع في الجانب الأيسر من الصدر، إنما المراد - لا شك - النفس البشرية التي تفرح وتحزن، وتنشرح وتنقبض، وتخاف

(١) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٥١ .

(٢) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٥١ .

(٣) سورة الحجرات ؛ الآية : ٧ .

(٤) سورة الأنفال ؛ الآية : ١١ .

وتطمئن . . .

ولما كان لا بد من الإشارة إلى النفس، أشار القرآن إلى القلب، الذي هو - ربّما - وعاء للنفس مجازاً، ولينوب القلب المحسوس، عن النفس التي لا تُدرَك بالحواس، وربما اطلق القرآن كلمة الصدر لتقوم مقام النفس، كما في قوله تعالى : ﴿رَبِّ اشرح لي صدري...﴾^(١) وكقوله تعالى : ﴿ولقد نعلمُ أنّك يضيق صدركُ بما يقولون﴾^(٢)، كل ذلك كناية عن النفس لأنها المحور الحقيقي للانفعالات، والتقلبات .

ولبيان عظمتها، وأهميتها، أقسم بها الله عز وجل، في كتابه العزيز، والعادة أن يكون القسم الإلهي بالشيء العظيم، فقد جعل الشمس والقمر، والنجوم، والبلد الحرام، وغيرها، من جلائل خلقه، مقسوماً بها .

كذلك النفس، أقسم بها في قوله تعالى : ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾^(٣) أي : قسماً بالنفس، وبخالقها العظيم، الذي فَطَرَهَا، وخلقها، فعظمة الخالق تتجلى في خلقه، وعظيم آثاره، ومنها النفس العظيمة العجيبة، التي ألهمها فجورها وتقواها «أي عرّفها طريق الفجور والتقوى، وزهّدها في الفجور، ورغبها في التقوى، وعَلَّمها الطاعة والمعصية، لتفعل الطاعة، وتذر المعصية وتجتني الخير، وتجتنب الشر»^(٤) .

ثم صرح بأن عملية نزكية النفس، وإصلاحها، ليست عملية شاقة عسيرة، كما يظن البعض بل هي ممكنة ويسيرة .

فقال عز من قائل : ﴿قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾^(٥) .

فالمستفاد من الآيتين الكريمتين، أن الإنسان يملك الاختيار في اتخاذ أي قرار شاء لنفسه، وأي طريق شاء، طريق السلامة، أو طريق العطب

(١) سورة طه ؛ الآية : ٢٥ .

(٢) سورة الحجر ؛ الآية : ٩٧ .

(٣) سورة الشمس ؛ الآيتان : ٧ - ٨ .

(٤) تفسير مجمع البيان : ٧٥٥ / ١٠ .

(٥) سورة الشمس ؛ الآيتان : ٩ ، ١٠ .

والفساد، فقد وُكِّلَ الله سبحانه إليه تزكية نفسه، وتقويمها، كما وُكِّلَ إليه اضلالها وتلوّثها إن شاء .

عن ابن عباس، رضوان الله عليه، (أفلح من زكّى نفسه، أي طهرها، وأصلحها، بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دساها: أي أحمّلها، واخفى محلّها، وأهلكها، وجعلها خسيسة قليلة) (١) .

وروي عن سعيد بن هلال، قال: كان رسول الله ﷺ ، إذا قرأ هذه الآية ﴿قد أفلح من زكّاها﴾ وقف ثم قال : «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكّها، وأنت خير من زكّاها» (٢) .

وتوحي الآيات الكريمة، أيضاً، أن الله سبحانه، يؤيد بنصره من يحاول تزكية نفسه، فقلوله تعالى ﴿قد أفلح من زكّاها﴾ لا تخلو من الإشارة إلى النجاح والفلاح، في عملية التطهير، والتعديل، والتوجّه إلى الله تعالى، وهي نوع من الجهاد، بل هي الجهاد الأكبر ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ (٣) ولما كان جهاد النفس من أكبر الجهاد، ومحاولة اصلاحها عمل إلهي، لا شك - حينئذ - أن الله عز وجل، يدعم هذا الجهاد بوسائله الجليلة، ولا يدع المجاهد يعاني من حبائل الشيطان ومكائده .

فالنفس التي - بطبيعتها - تأمر بالسوء بإلحاح، ويحول الشيطان بينها وبين تزكيتها واصلاحها، قد يبدو تقويمها عسيراً، وثنيها عن السوء صعباً بعض الشيء .

﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ (٤) .

قد يتراءى للإنسان في أول وهلة، أن صناعة نفس طاهرة، نقيّة، والقضاء على النفس السجينة الملوثة، تكلفه فوق طاقته، وتحمله فوق مقدوره، ولكن حين يأخذ بمجاهدتها، ويحاول إصلاحها ويمارس ذلك

(١) تفسير مجمع البيان : ٧٥٥/١٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سورة العنكبوت ؛ الآية : ٦٩ .

(٤) سورة يوسف ؛ الآية : ٥٣ .

بالفعل، يتبين له، أن الله سبحانه وتعالى، لا يدعه وحده، بل يمهد له السبيل، ويفتح له الطريق، للوصول إلى هدفه السامي المنشود .

إن مثل النفس، مثل الطينة الرطبة، يمكنك أن تشكّلها كيف تشاء، ولكن لو اخترت لها قُبْحَ السريرة، وسوء الذات - والعياذ بالله - تتجمد على هذه الصورة، وتأخذ هذا الشكل القبيح .

هنا يرى (فرويد) أن النفس تتشكل في السنوات الخمس الأولى، من أيام الصبا، فإذا تجاوز الإنسان سن الطفولة، لا يمكنه - حينئذٍ - أن يغير في نفسه شيئاً، ولكن الإسلام يرفض هذا الزعم، ويرى أن بإمكان الإنسان أن يجالّد نفسه، أبداً دائماً، وفي أي مرحلة كان من مراحل الحياة. فلو حاول تطهير نفسه، وتخليتها من الوسخ والكدر، والخطايا والذنوب، لوجد الله ناصِرةً، ومؤيِّدةً، ومعينه، فالتعرض لنفحات الله، كافية للدخول في ظلّ رحمته تعالى .

قال ﷺ : «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، فتعرّضوا لها...»^(١) فمن تعرض لها، كان كمن أغلق الأبواب على شياطين النفس، وفتحها لفيوضات رحمة الله عز وجل، واستعدّ لتلقي العلاج ...

كان كمن أزاح أعراض المرض، واستعدّ لتلقي العافية، وقبول الصحة والسلامة .

لا بد اذن، من إزاحة الأوساخ المتراكمة على النفس، المتمثلة بالمعاصي، والخلال السيئة حتى يتسنى التقرب إلى الله عز وجل، وورود مناهل المعرفة والفضيلة. فالأخلاق السيئة، بمثابة الغطاء للنفس، تحجب عنها الفضيلة، ولا تدع للتقوى مجالاً، ليتسرّب إلى النفس، مثُلُ النفس معها، مثل الاناء المملوء ماءً، فلا يمكن أن يدخله هواء .

فالنفوس المشغولة بغير الله، لا تدخلها معرفة الله، وحبّه وأنسه .

قال ﷺ : «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم، لنظروا

(١) جامع السعادات للعلامة النراقي : ١٢/١ .

إلى ملكوت السموات والأرض»^(١) .

فشیطان النفس، مانع وعائق في طريق العروج والرقی، إلى محل التقی والإیمان والفضيلة .

يقول العلامة النراقي، في كتابه (جامع السعادات) : (ثم ما لم تحصل التخلية، لم تحصل التحلية، أي ما لم تتم تصفية الخطايا والسيئات، لا يتم التحلي بالفضائل، كما أن المرأة، ما لم تذهب عنها الكدورات، لم تستعد لارتسام الصور فيها، والبَدَن، ما لم تَزَل عنه العِلَّة، لم تُتَّصَرَّ له إفاضة الصحة... فالمواظبة على الطاعات الظاهرة، لا تنفع، ما لم تَتَطَهَّر النفس من الصفات المذمومة، كالکبر، والحسد، والرياء، وطلب الشهرة...)^(٢) .

(والرحمة الإلهية) بحكم العناية الأزلية، مبذولة على الكل، غيرُ مضمونٍ بها على أحد، لكن حصولها موقوف على تصقيل مرآة القلب، وتصفيته عن الخبائث، ومع تراكم صدئها الحاصل منها، لا يمكن أن يتجلَّى فيها شيءٌ من الحقائق، فلا تُحَجَّبُ الأنوار عن قلب من القلوب، لبُخلٍ من جهة المنعم تعالى، بل الاحتجاب إنما هو من جهة القلب لكدورته، وخبثه، واشتغاله بما يضادُّ ذلك)^(٣) .

النفس اللوامة :

ومن عجيب ما يحويه القرآن الكريم، من أمر النفس، هو اعتبارها (لوامة) ﴿... ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾^(٤) تعتصر القلب - في بعض الأحيان - لكثرة لومها، على ما جنت يدا صاحبها من مآثم، واجترح من منكرات .

انه تأنيب الضمير، كما يعبر عنه في الاصطلاح النفسي، وهو من عظيم الدلائل على وجود الله تعالى، فلو كانت المادَّة وحدها، أو الطبيعة وحدها،

(١) جامع السعادات للعلامة النراقي : ١٢/١ .

(٢) - (٣) جامع السعادات للعلامة النراقي : ١٢/١ .

(٤) سورة القيامة ؛ الآية : ٢ .

تتحكم في خلق الإنسان، فلا معنى - حينئذ - للنفس اللوامة، انها قوة باطنة، يسيرها الله عز وجل، لتلجم الإنسان من التماذي في الظلم، والغى، والحرام .

ولا فرق في لوم النفس بين مسلم وكافر، ومؤمن وفاسق، فالجميع لا بد أن يستشعر اللوم والندم، في لحظة من اللحظات، على ما بدر منه من خطايا وآثام، في هذه الحياة، وقبل يوم القيامة، ليكون وَخْزُ الضمير رادعاً عن التماذي في الزيف .

فما من نفس برة أو فاجرة، إلا وهي تلوم صاحبها، وتقول: يا ليتني لم أفعل^(١) أما لوم النفس في الآخرة، وإن كانت وردت بذلك بعض الروايات، والأخبار^(٢)، ولكن لا طائل من ورائه، إذ يكون دور العمل قد انتهى وولّى، وبدأ دور المحاسبة، والثواب والعقاب، فما معنى أن تلوم الإنسان نفسه ؟

واللوم يقع من النفس الفاجرة، كما يقع من النفس المؤمنة أيضاً، فالنفس الكافرة الفاجرة، تلوم صاحبها، وتحاسبه في الدنيا، لما سلف منها من ذنوب، والنفس المؤمنة تلوم صاحبها على ما قصرت في طاعة الله، وتوانت في جنب الله، أو ربما صدر منها بعض ما لا يرضي الله ولكن المتبادر إلى الذهن، من كلمة (النفس اللوامة) هو ما يعيشه أهل الظلم والفسوق والفجور، من تأنيب الضمير، لما ركبوا من أعمال منافية للدين والأخلاق .

كالحجاج بن يوسف الثقفي - مثلاً - حين عمد إلى سعيد بن جبير، وقتله ظلماً، وعدواناً يحكى عنه: انه كان - بعد قتله لهذا الرجل الفقيه الصالح - يقول: (مالي ولسعيد بن جبير) (طال ليلى من سعيد بن جبير)^(٣) .

وكذلك معاوية بن أبي سفيان، كان يؤرقه قتله لحجر بن عدي

(١) راجع تفسير سورة القيامة في تفسير مجمع البيان .

(٢) راجع تفسير سورة القيامة في تفسير مجمع البيان .

(٣) بحار الأنوار : ١٨٨/٢٥ .

وأصحابه، رضوان الله عليهم وكان يقول إذا تذكر قتله : (ليلي منك طويل يا حجر)!

ولوم النفس من السُّنن الكونية التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان، ليكون قادراً على أن يمسك زمام نفسه، من اتباع الهوى والشيطان، فالنفس البشرية، تنزع تارة للخير، وتارة للشر، تميل للتقوى مرةً، وللفجور أخرى، ولكنها حين تنزع للشر، وتعمل بالسوء، تتحرك النفس اللوامة، لتفعل فعلها، وتؤدي دورها، لردع الإنسان، ومنعه، ومعاتبته على السوء والفجور .

وربما تموت النفس اللوامة، في بعض الناس، أو تعمى، كما يعبر عن ذلك القرآن الكريم :

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾^(١)
فحينئذ لا تكون في الطريق إلى الضلال، حواجز ذاتية وموانع نفسية، لكي تصدّ عن الأخطاء، والقبائح، والموبقات .

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾^(٢) .

﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾^(٣) .

وعندها تتحكم فيه النفس الأمارة بالسوء، وتسوّل له، لأنها الوحيدة على الساحة .

﴿كذلك سَوَّلَ لي نفسي﴾^(٤) .

وتهوّن له ارتكاب الاثم، واجتراح السيئة، وتطوّع له الحرام .

﴿فطَوَّعَتْ له نفسه قتل أخيه فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٥) .

(١) سورة الحج ؛ الآية : ٤٦ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٧ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ١٠ .

(٤) سورة طه ؛ الآية : ٩٦ .

(٥) سورة المائدة ؛ الآية : ٣٠ .

وبما أن الله عز وجل، عالم بخبايا النفس، ومطلع على أسرارها ومكنوناتها، وما يخفي الإنسان فيها، فانه عز وجل، يعطي كلاً على ما تحويه نفسه، ويبدله بما هو أهل له .

﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾^(١) .

﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾^(٢) .

إن الله تعالى ينظر إلى القلوب، ويرى ما فيها بدقة، فإن كان المرء ذا قلب ذاك، نير، ونفس قابلة للهداية والإصلاح، تميل إلى التقى والإيمان، زاده الله إيماناً وهداية، وأعاناه على اصلاح نفسه، وَوَجَّهَهُ إلى الخير والصلاح .

﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم﴾^(٣) .

﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً﴾^(٤) .

﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾^(٥) .

﴿إِنَّ يَـٰلَهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾^(٦) .

ومن كانت نفسه ملوثة بالآثام، وقلبه مريضاً، بحيث صار ميؤوساً منه، لا ينفع معه صلاح واصلاح، ولا يستحق أن تشملته هداية، فإن الله يَكِلُهُ إلى نفسه، ويزيده مرضاً إلى مرضه، وضلالاً إلى ضلاله .

﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾^(٧) .

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ١١٦ .

(٢) سورة الإسراء ؛ الآية : ٢٥ .

(٣) سورة التغابن ؛ الآية : ١١ .

(٤) سورة الفتح ؛ الآية : ٤ .

(٥) سورة الحديد ؛ الآية : ٢٧ .

(٦) سورة الأنفال ؛ الآية : ٧٠ .

(٧) سورة غافر ؛ الآية : ٣٥ .

﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾^(١) .

﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾^(٢) .

وفي القرآن الكريم، تصريح، بأن الوقوف في وجه النفس، وصدها عن هواها، ومشتهاياتها، بعزم وصلابة، ومجالدة رغباتها، ومجاهدتها، دليل على قوة الشخصية، وعظمتها، وبذلك يستحق الإنسان، أن ينال الجنة ثمناً لهذا الموقف الإلهي الجليل .

فالإنسان، حين يصمد أمام هوى النفس، لأجل الله، ويُعرض عن المشتهايات الممنوعة، فإنه بذلك يثبت كونه عظيم النفس، قوي الإرادة، فلا غرؤ لو تكون الجنة مأواه، ومنتهاه .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَيَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٣) .

يستشهد لنا القرآن الكريم، بموقف عظيم، من نبي كريم، هو يوسف الصديق، على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام، ويشيد به، وبإخلاصه لله تعالى، حين راودته امرأة العزيز (زليخا) عن نفسه، وأرادت منه الفحشاء، وهو الشاب الحسن الوجه، الذي لا يخلو من شهوات ونفس أمارة بالسوء، ولكنه أبى، واستنكر بشدة، وغالب نفسه، وخالفها، ووقف موقفاً عظيماً، استحق به الخلود في الدنيا، والمقام الكريم في الآخرة .

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٤) .

إن مثل هذه المواقف، ليس لها جزاء سوى الجنة التي أعدها الله للمتقين، وما أكثرها في حياة المؤمنين، والأخيار من الناس .

(١) سورة الجاثية ؛ الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الروم ؛ الآية : ٥٩ .

(٣) سورة النازعات ؛ الآية : ٤٠ .

(٤) سورة يوسف ؛ الآية : ٢٤ .

يروى أنه أصاب الناس قحطٌ في أيام أبي بكر، فشكوا ذلك إليه، فقال: انصرفوا واصبروا فلما كان آخر النهار، ورد الخبر بأن قافلة تجارية لبعض الصحابة، جاءت من الشام، فخرج الناس يتلقونها، فإذا هي ألف بعير تحمل الحنطة والزيت والزبيب، فأناخت بباب هذا الصحابي، فلما جعلها في داره، جاءه التجار، فقال لهم: ما تريدون، قالوا: إنك لتعلم ما نريد، بعنا من هذا الذي وصل إليك، فإنك تعلم حاجة الناس إليه !

قال : حباً وكرامة، كم تربحونني على شرائي؟ قالوا : الدرهم درهمين، يعني ضعف ثمن شرائه، قال : أعطاني غيركم أزيد من هذا. قالوا: نعطيك على الدرهم، أربعة دراهم! قال : أعطاني غيركم أزيد من هذا! قالوا: خمسة! قال : أعطيتُ أكثر من هذا .

قالوا له : لم يبق في المدينة تجارٌ غيرنا، وما سبقنا إليك أحدٌ، فمن ذا الذي أعطاك أكثر منا؟ قال : إن الله أعطاني بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا : لا. قال : فإني أشهدُ الله أنني جعلت ما حملت هذه العير صدقةً لله على المساكين، وفقراء المسلمين^(١) !

إن هذا الرجل، كانت تدعوه نفسه - لا شك - إلى الاتجار، والاستزادة من المال، فإن النفس مجبولة على حب المال، والإنسان بطبعه حريص عليه، وبخاصة لو كان هذا المال حلالاً، ولكنه جالد نفسه، وخالف هواها، وباع المال لله، ففرقه بين الفقراء وأهل الحاجة .

ربما تكون النفس تشتهي الحلال، وتهوى المباح، ولكن المرء يحرمها من هذا الحلال، ويمنعها من هذا المباح، إثارةً للآخرين، ورياضةً للنفس، وتقويةً لإرادتها . . .

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : كان علي بن الحسين، إذا كان اليوم الذي يصوم فيه، يأمرُ بشاة فتذبح، وتُقَطَّعُ أعضاؤها، وتُطَبَّخُ، وإذا كان عند المساء أكب على القدور، حتى يجذَّ ريح المرق، وهو صائم، ثم يقول:

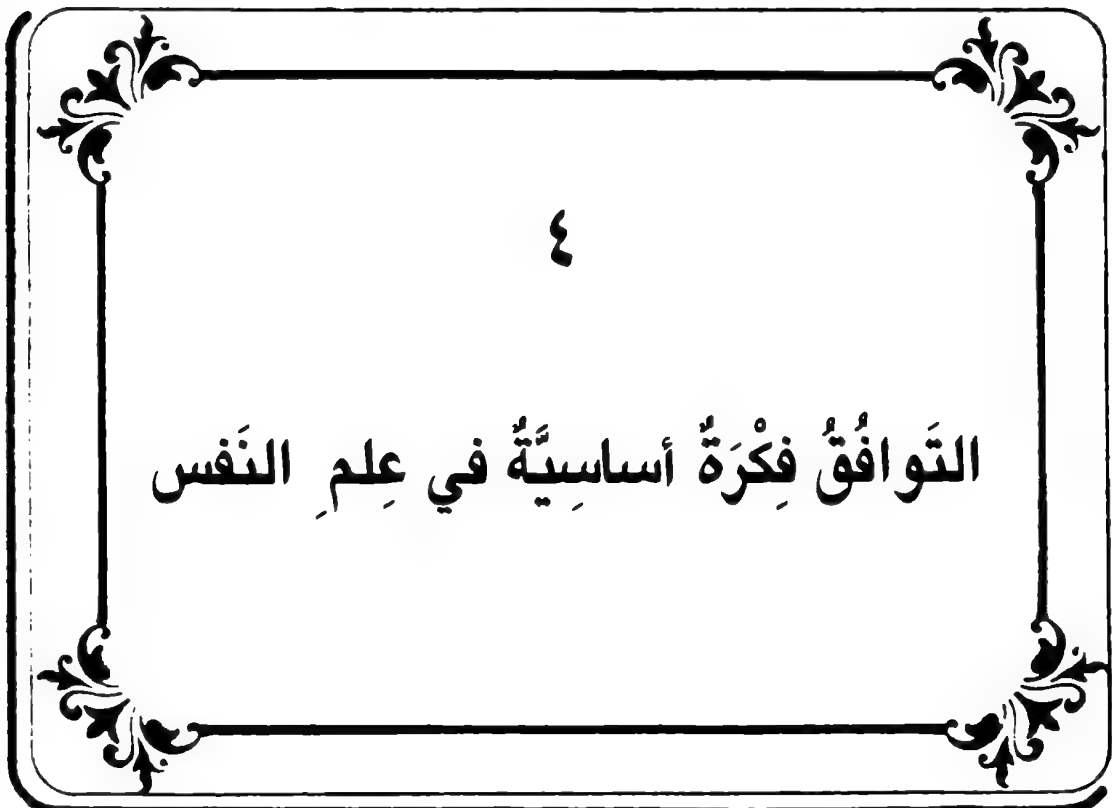
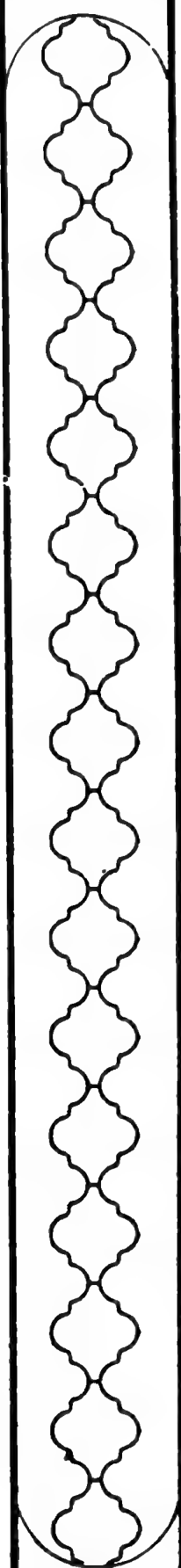
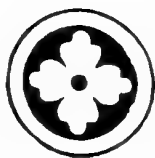
(١) قصص العرب : ١٨٩/١ نقلاً عن غرر الخصائص : ١٥٣ .

هاتوا القصاع، اغرفوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان، حتى يأتي على آخر
القدر، ثم يكون إفطاره بشيء من الخبز والتمر^(٢) !!

هكذا... يمنع نفسه من اللذائذ المباحة، ليشبع بطون الآخرين.
ويزهد في أطايب الدنيا، لينال الحظوة الكبرى، لينال الجنة .

وقد يجد الباحث في القرآن الكريم، ما يشبع رغبته من الحقائق،
والأفكار، في مجال النفس، ويكتشف رؤية واسعة، أوسع بكثير مما أشرنا
إليه في هذه الالمامة السريعة .

(٣) حياة زين العابدين لمحمد علي الدخيل : ٢٨ .



٤

التَّوَافُقُ فِكْرَةٌ أَسَاسِيَّةٌ فِي عِلْمِ النَّفْسِ



يقول علماء النفس : إن الموضوعات التي يبحثها هذا العلم ، كثيرة ومتشعبة ، ومن الممكن عرضها بصور مختلفة كثيرة ، غير أنه من الممكن أن نجد في (التوافق) مفهوماً أساسياً يمكن أن نستعين به في نظم جميع موضوعات علم النفس ، في وحدة متكاملة ، (ولعل أبسط صورة للتوافق ، ميل البدن الطبيعي إلى الاحتفاظ بحالة ثابتة من التوازن العضوي ، والكيميائي) .

(فإذا ازدادت حرارة البدن - مثلاً - عن حدٍّ معين ، بدأ العرق يتصبَّب بطريقة تلقائية ، لكي تنخفض درجة الحرارة ، ويعود البدن إلى حالته السابقة المعتدلة) .

(وإذا زاد أوكسيد الكربون في البدن ، زادت سرعة التنفس بطريقة تلقائية ، لكي يتخلص البدن من هذه الكمية الزائدة من ثاني أوكسيد الكربون) .

(وبالاختصار : فإن في الجسم ميلاً طبيعياً إلى الاستجابة للتغيرات التي تطرأ عليه ، وإلى القيام بأنواع معينة من النشاط ، لكي يتخلص من هذه التغيرات ، ولكي يعود البدن مرة أخرى إلى حالته الطبيعية السابقة ، من التوازن والاعتدال) .

(ولا يتوافق الإنسان للتغيرات التي تحدث في داخل بدنه فحسب ، بل يتوافق أيضاً ، لكثير من المؤثرات التي تطرأ عليه ، من البيئة التي يعيشها ،

فالإنسان يعيش في بيئة طبيعية معينة، وفي مجتمع خاص، له حضارته، وعاداته، وتقاليده الخاصة).

ويتفاعل الإنسان دائماً مع البيئة التي يعيش فيها، فهو يتأثر بها، ويؤثر فيها، وليست حياة الإنسان في الواقع، إلا سلسلة متصلة من التوافق مع البيئة التي يعيش فيها، فإذا نجح الإنسان في توافقه، استطاع أن يحتفظ بوجوده، ويبقى على حياته. وإذا فشل في توافقه، تعذرت عليه الحياة، وقد يؤدي ذلك إلى هلاكه).

(ومن أمثلة توافق الإنسان مع البيئة، ما نشاهده من حدوث انفعال الخوف في مواقف الخطر، فحينما يجابه الإنسان موقفاً يهدده بالخطر، فإنه يخاف، ويحدث في بدنه أثناء الخوف، كثير من التغيرات الفسيولوجية، فتشتد دقات القلب، مما يساعد على سرعة تدفق الدم في الأوعية الدموية. . . . إلى محاصرة الدم للقلب، وهبوطه من الوجه. . . وهكذا نرى انفعال الخوف، وما يصاحبه من تغيرات فسيولوجية، قد أدى في نهاية الأمر إلى تهيئة الإنسان للقيام ببعض الأعمال العنيفة التي تتطلبها مواقف الخطر.

فانفعال الخوف إذن، عملية (توافقية) تساعد على بقاء الإنسان وحفظ حياته^(١).

وحينما يشعر الكائن الحي بدافع معين، فإنه يقوم، عادة، بنشاط يؤدي إلى إشباع هذا الدافع، وهذا النشاط، هو ما نسميه عادة، بالتوافق، وتتم عملية التوافق في حياة الفرد بشكل دائم مستمر. فمثلاً: حينما يشعر الإنسان بالجوع، يدفعه هذا الشعور إلى البحث عن الطعام لسدّ الجوعة، وإشباع البطن، ليعيد إلى انسجته حالتها الطبيعية.

كذلك إذا شعر بالعطش، يدفعه ذلك الشعور للبحث عما يروي عطشه، ويحفظ أنسجته من العطب والتلف.

وربما شعر بالبرد القارس، فيسعى إلى التماس الدفء والحرارة، ليقى نفسه من البرد الشديد، وقد يشعر بالحر الشديد، فيبحث عن الجو المعتدل،

(١) علم النفس والحياة، الدكتور محمد عثمان نجاتي.

أو المكان المبرّد، ليستريح من عناء الحر . . . وبتدقيق النظر إلى حياة الإنسان، تجد أن الحياة كلها كذلك .

هذا عن الجانب المادي في حياة الإنسان، كذلك الحال نسبة إلى الجانب الروحي النفسي فربما دفع الإنسان حسده إلى الحقد والانتقام، وربما دفعه الغضب إلى الضرب والسب والتحطيم وربما دفعه حب المال، أو خوف الفقر، إلى الإثراء الغير مشروع وهكذا،

وهنا تظهر معادن الرجال، واختلاف النفوس، ومدى قدرة الإنسان على اختيار التوافق الأنسب والأصلح، أو زم النفس وكبح جماحها امام التوافق السيء .

وقد تكون عملية التوافق - في بعض الأحيان - أمراً سهلاً، يقوم به الإنسان من غير عناء ومشقة فقد يشعر بالبرد الشديد، ويجد المكان الدافئ واللباس الكافي، دون بذل مجهود يذكر .

وقد تكون عملية التوافق - في أحيان أخرى - أمراً عسيراً شاقاً، يكلفه الكثير من العناء والتعب فقد لا يجد الإنسان طعاماً يسد به رمقه، في المكان المألوف، فيحتاج إلى سعي حثيث، في أماكن أخرى لم يألفها من قبل، حتى ينتهي به المطاف إلى العثور على الطعام، وقد بذل مجهوداً كبيراً في سبيل ذلك .

وعلى هذا الأساس، تكون ظروف الحياة في تقلّب دائم، وتغيير مستمر، مما يجبر الإنسان على تعديل استجاباته أو تغيير نشاطاته، كلما تغيرت البيئة التي يعيش فيها .

والإنسان لا يحتاج إلى التوافق لإشباع دوافعه المادية فحسب، بل انه يحتاج أيضاً إلى التوافق لإشباع كثير من الدوافع النفسية والاجتماعية أيضاً، ولعل التوافق لإشباع الدوافع النفسية والروحية والاجتماعية، أكثر صعوبة وتعقيداً، وأعظم خطراً في حياة المرء من التوافق لإشباع الدوافع المادية (البيولوجية) .

فالاسرة تكفل لأولادها - عادة - ما يحتاجون إليه من طعام، وملابس،

ومأوى، ولكن ليس ذلك هو كل ما يحتاج إليه الأطفال، فهم يحتاجون أيضاً إلى العطف، والحب، واستحسان الناس لهم، وإعجابهم بهم، كما يحتاجون إلى الشعور بالأمن والطمأنينة، ويحتاجون في بعض الأحيان إلى قضايا روحية ومعنوية، ويحسّون برغبة عارمة في سدّ الفراغ الفكري، وفي تغذية العقل بالمفاهيم الصحيحة .

وإن عملية التوافق، قد تكون حسنة موفقة مناسبة، وقد تكون سيئة غير مناسبة، وثمة أمثلة كثيرة على ذلك في حياة الإنسان، ومما يزيد فهمنا لهذه العملية، أن نذكر بعض الأمثلة على ذلك :

١ - كان طفل يلعب بالكرة في حديقة منزله، فتعلقت الكرة بين أغصان شجرة عالية، وأراد الطفل أن يستعيدها، ليعاود لعبه مرة ثانية، فأوصله فكره إلى أن يتسلق الشجرة، ولكنه عجز عن الاستمرار في تسلقها ليلعب مكان الكرة، فعدل عن تلك الفكرة إلى فكرة أخرى، فجعل يبحث عن سلم ليستخدمه في الوصول إلى الكرة، ولما لم يجد سلماً في أطراف المنزل، عنّت له فكرة جديدة، وهي استخدام العصا لإسقاط الكرة من على الشجرة، فأخذ يبحث عن عصا طويلة، ليستخدمها في هذا الغرض، ولكنه لم يجد، وهكذا حاول محاولات كثيرة غير مجدية . . .

وأخيراً توصل إلى حل آخر، أخذ بعض الأحجار من الحديقة، وقذف بها الكرة فسقطت. واستطاع في النهاية التوصل إلى حل المشكلة التي اعترضته، ووصل إلى غرضه، فكانت عملية توافق موفقة .

٢ - فشل مرشح في الانتخابات الدائرة في بلده، ولم يحصل على الأصوات الكافية، لعدم كفايته وأهليته، فتملكه غضب شديد، نتيجة هذا الفشل، فجعل يكيل السباب والشتائم لهذا وذاك ويدعي أنهم السبب في فشله .

إن هذا الشخص، لا يريد الاعتراف بالفشل، لأن الاعتراف بالفشل شديد الوقع على النفس ومؤلم، يجرح كبرياء الإنسان، ويحط من كرامته، ولذلك صار يتهرب من مواجهة الواقع المرّ، والحقيقة المؤلمة، ويُرجعُ الفشل

إلى تأمر الناس عليه، وجهلهم، وعدم معرفتهم .

إن سلوك هذا الشخص يمكن أن يُفسَّر على أنه عملية توافق، ولكنه توافق سيئ، وفي الوقت نفسه، يمكن أن يخفف عنه بعض الألم الذي يعانيه من الفشل، الناشئ عن عدم الكفاية والأهلية، أو من أسباب أخرى .

وكان عليه أن يواجه الحقيقة، وينظر إلى الأمور بواقعية، ويبحث عن الحلول المناسبة .

وكذلك الحال في المفهوم الديني، فقد تدعو بعض الدوافع والرغبات، الإنسان إلى البحث عن التوافق، ويكون هذا التوافق سيئاً من وجهة النظر الدينية، كمن يجد نفسه فقيراً فيدفعه ذلك إلى البحث عن المال وعن وسيلة للاستغناء، فربما وُفِّقَ للحصول على المال بطريقة صحيحة وبوسائل مشروعة، وربما حصل على المال ولكن بطريقة حرام، واستغنى بشكل غير مشروع يضرُّ بالدين والدنيا، فهو توافق سيئ دينياً .

من هنا شدد الإسلام، على كبح جماح النفس، ومنعها من الزلل، وزمَّها عند اختيار التوافق السيئ، ولما كانت الحياة، تتضمن عملية التوافق بشكل مستمر، وجب ملاحظة النفس، ومراقبتها، ومجاهدتها بصفة مستمرة أيضاً، لتبقى زاكية، طاهرة، نقية «قد أفلح من زكَّاهَا» .

الدوافع :

وللإنسان دوافع كثيرة، ورغبات متعددة، وإن أي دافع أو رغبة، يمكن أن يدفع الإنسان باتجاه البحث عن عملية توافق، لإشباع هذا الدافع أو تلك الرغبة .

وللدوافع تأثير كبير في توجيه سلوك الإنسان، فحينما ينبعث الدافع، يشعر الفرد بحالة من التوتر، وحاجة ملحة تدفعه إلى القيام بعمل يشبع هذا الدافع، وتناسب شدة التوتر مع شدة الدافع، وعند إشباع الدافع يزول التوتر، ويؤدي ذلك إلى الشعور بالراحة واللذة .

فالغضب - مثلاً - دافع، يشعر معه الإنسان بحالة غير طبيعية، يشعر

بتوتر نفسي وحالة تدفعه لإشباع هذا الدافع، فيبحث عن الوسيلة التي تناسب هذا الدافع، كالانتقام والضرب . . .

أو يعمل ما يأمر به الشرع، من كبت النفس، ومخالفة الهوى، ومجاهدة النفس، فهو - بالنتيجة - لم يصل إلى التوافق، في إشباع دافعه، ولكنه كسب الأجر والثواب، وأزال التوتر بالوسائل المعنوية.

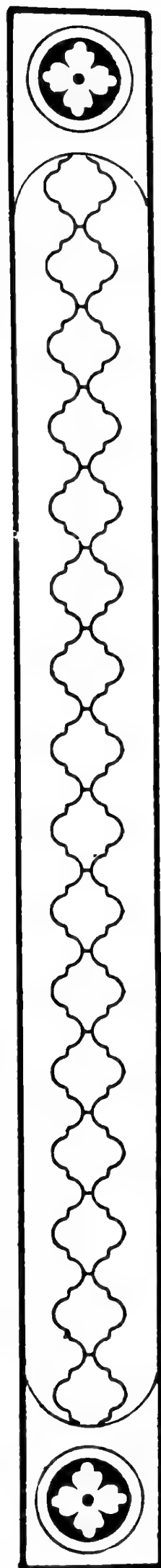
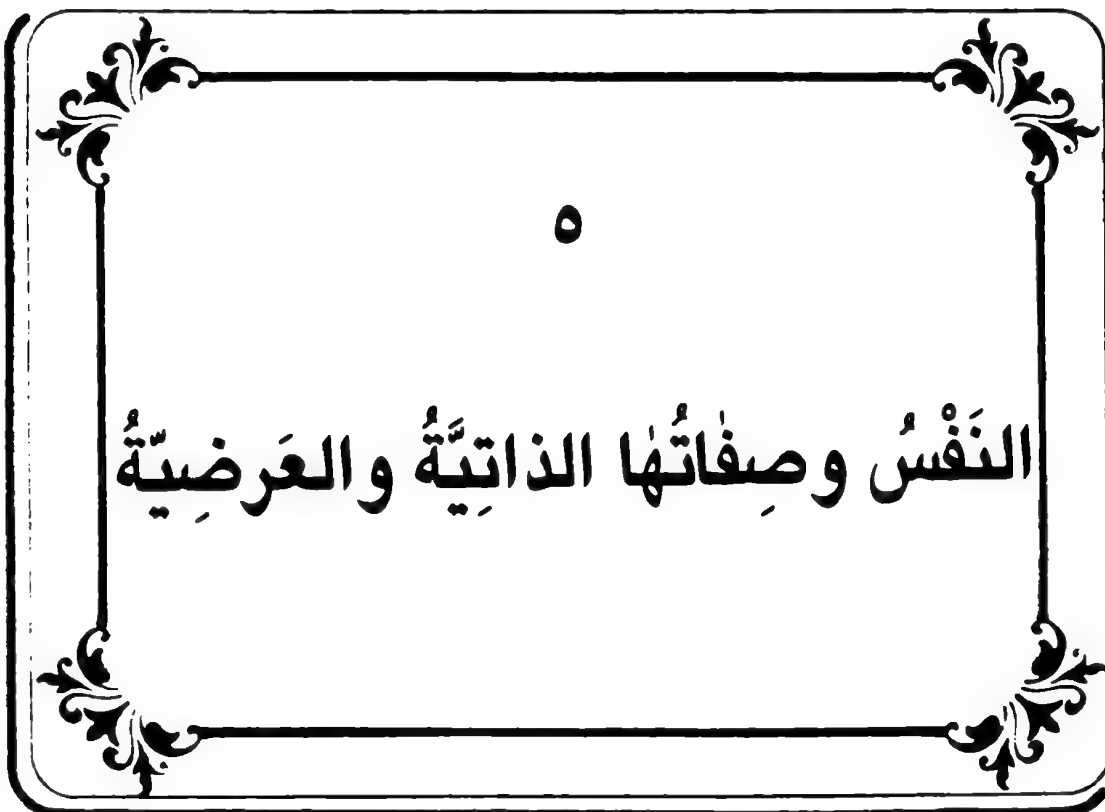
والغضب، وإن كان يُعدُّ حالةً من الحالات الانفعالية، إلا أنه يؤدي أيضاً وظيفة الدافع، لأنه يوجّه سلوك الإنسان إلى غايات معينة .

ومثال آخر : الخوف، فحينما ينبعث انفعال الخوف، يشعر الإنسان بتوتر شديد، يدفعه إلى الهرب من مصدر هذا الخوف، والابتعاد عنه، فيؤدي ذلك إلى إزالة التوتر، وإلى عودة الإنسان إلى حالته الطبيعية .

وهكذا، فكل سلوك، يصدر عن الفرد، إنما هو مدفوع بدوافع معينة، وقد تكون هذه الدوافع معروفة، في بعض الأحيان، أو تكون غير معروفة في أحيان أخرى، أو تكون لاشعورية وتتطلب معرفتها شيئاً من المجهود والتحليل .

وقد قام علماء النفس، بكثير من الدراسات، لكي يتعرفوا على دوافع الإنسان المختلفة، الفطرية منها، والمكتسبة، وأثرها في سلوك الإنسان، وهم يقومون بدراسة كل أنواع السلوك في الإنسان، ويهتمون بها للوصول إلى الغاية المنشودة، إنما الفرق بين مناهج علم النفس الحديث، ومناهج علم النفس الإسلامي، هو أن الإسلام، كدين سماوي، ووحى إلهي، وضع الحلول، والعلاجات العامة الشاملة، عن خبرة إلهية، سماوية، لا يحتاج معها إلى دراسة النفوس، وأنواع السلوك ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١) بينما يحتاج العلم الحديث أن يدرس أنواع السلوك، ويتابع أنواع الدوافع، ليصل إلى الحلول الاحتمالية .

(١) سورة الملك ؛ الآية : ١٤ .



ثمة بحثٌ في علم النفس، حول الصفات والأخلاق، أهي ذاتيةٌ طبيعية، مترسّخة في النفس؟ أم انها عارضة، تتحول إلى ملكات، بتأثير البيئة والتربية، والعوامل الأخرى؟

فقد قالوا في تعريف الخلق : (انه عبارة عن ملكة في النفس) و(الملكة طبيعة نفسية بطيئة الزوال) .

والاختلاف واقع في كون الأخلاق والصفات، أهي قابلة للزوال، والتبدل، والتغير، أم لا؟ وهو اختلاف قديم، تمسك كل من أصحاب الرأي برأيه، وأورد الأدلة التي يدعم بها أقواله، وقد تشعبت الآراء إلى ثلاث شعب :

١ - فمنهم القائل بإمكان التغير في الطباع والسلوك، «كالغزالي في (الاحياء) والمحقق الطوسي في (الأخلاق)»^(١) .

إنما قالوا بالتفصيل بين من يمكن أن يغير من صفاته بسهولة ويسر، وبين من يمكن أن يفعل ذلك، بصعوبة وعسر، والناس تبع لاختيار ومزاولة الأسباب الخارجية للتأثير في سلوكهم وأخلاقهم . .

ويستدل هؤلاء، باتفاق آراء الحكماء، والفلاسفة، وعلماء النفس،

(١) كشكول البهائي : ٦٨٨/٢ .

على فعالية التربية في النفوس، وبخاصة نفوس الأطفال. فالطفل الصغير تنفعل نفسه بالتربية، سلباً وإيجاباً، بسهولة ويسر، بينما يتأخر الكبير مدة حتى تنفعل نفسه .

واستدلوا أيضاً، بقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(١) فلو لم تكن تزكية النفس والتأثير في طباعها، وأخلاقها، ممكناً، لكانت الدعوة الإلهية لتزكيتها باطلة، وحاشا لله أن يقول لغواً، والآية دليل على إمكان التغيير فيها .

ويعضد ذلك قول الرسول ﷺ : «حَسِّنُوا أَخْلَاقَكُمْ»^(٢) .

وقوله ﷺ : «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٣) .

٢ - ومنهم من يقول بعدم إمكان التأثير في النفس، وعدم إمكان تغيير الأخلاق، لأنها ذاتية، متأصلة، مترسخة، وربما ورثها الإنسان عن أبويه، أو ربما نقشت في طبعه، منذ صغر سنه، ونعومة أظفاره (كالنقش في الحجر)، حال النفس معها، كحال النار، التي هي ذاتية الاحراق والحرارة، فلا يمكن سلب الحرارة منها، وكورق الشجر الذي يغلب عليه الاخضرار، فلا يمكن أن نغير من لونه بشكل من الأشكال . . .

يقول بعض الأكابر :

لكل داءٍ دواءٌ يُسْتَطَبُّ به إلا الحماسة أعيت من يداويها

وفي الديوان المنسوب لأmir المؤمنين عليه السلام :

وكلُّ جراحةٍ فله دواءٌ وسوء الخلق ليس له دواءٌ^(٤)

ويحتج أصحاب هذا المذهب، بقول النبي ﷺ : «الناس معادن،

كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام»^(٥) .

(١) سورة الشمس ؛ الآية : ٩ .

(٢) جامع السعادات للنراقي : ٢٤/١ .

(٣) جامع السعادات للنراقي : ٢٤/١ .

(٤) كشكول البهائي : ج ٢/ ٦٨٨ .

(٥) جامع السعادات : ٢٤/١ .

فمن كان في الجاهلية كريماً، أو خيراً، كذلك حاله في الإسلام. ومن كان في الجاهلية، متصفاً بصفات السوء، والأخلاق الدنيئة، كالبخل، وسوء الخلق، وخساسة النفس، وضعفها، يبقى على نفس الأخلاق، لا يغير منه الدين الجديد شيئاً، لأنها أخلاق متأصلة، طبع عليها.

وقد روي عن الرسول ﷺ : «إذا سمعتم أن جبلاً زال عن مكانه، فصدقوه، وإذا سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوه، فإنه سيعود إلى ما جُبل عليه» (١).

(وفي أمالي الصدوق) عن الباقر عليه السلام، قال: أوحى الله عز وجل إلى رسوله ﷺ : إني شكرت لجعفر بن أبي طالب، أربع خصال.

فدعاه النبي ﷺ، فأخبره، فقال: لولا أن الله أخبرك، ما أخبرتك:

ما شربت خمرأ قط، لأنني علمت أن لو شربتها لزال عقلي، وما كذبت قط، لأن الكذب ينقص المروءة، وما زينت قط، لأنني خفت إذا عملت عُمل بي، وما عبدت صنماً قط، لأنني علمت أنه لا يضر ولا ينفع.

قال: فضرب النبي ﷺ، على عاتقه وقال: حق لله أن يجعل لك جناحين تطير بهما مع الملائكة في الجنة (٢).

فهذه صفاته في الجاهلية، وهي صفاته في الإسلام، متأصلة في نفسه، كان يشعر بحاجز نفسي بينه وبين الإتيان بمثل هذه الرذائل، كان خيراً في الجاهلية، قبل أن يأتي الإسلام بمناهجه وتعاليمه، فهذا معدنه، وهذا طبعه على كل حال.

٣ - وهناك مذهب ثالث، يجمع بين الرأيين السابقين، ويفصلُ بشأن الأخلاق والصفات، فيرى أن بعضها متأصل ثابت، ذاتي في نفس الإنسان، وبعضها عارض تعلق بالنفس، بتأثير العوامل التربوية، والوراثية، والبيئية.

(١) جامع السعادات: ٢٤/١.

(٢) شجرة طوبى للمحدث المازندراني.

فأما التي عرضت للنفس، فتغييرها سهل يسير، وأما التي يقال عنها: انها ذاتية فطرية لا تجدي معها محاولات التغيير، إلا بشيء من المعاناة والمشقة، وقول الرسول ﷺ : «سيعود إلى ما جُبلَ عليه» يوحى بهذا، ويفيد إمكان التأثير بالوسائل والأسباب والعوامل الخارجية، من رياضةٍ، أو تأديب، أو غير ذلك . . .

فهي ليست كزوجية الرقم (٤) حيث لا تنفك عن هذا الرقم بحال من الأحوال. بل هي كبرودة الماء، كونها ملازمة له، ولكن يمكن إزالتها بالوسائل والأسباب، فالماء بارد بطبعه وذاته، ولكن يمكن أن نجعله حاراً باضرام النار تحته، ويبقى حاراً دافئاً ببقاء النار، فإذا زالت حرارة النار عنه عاد إلى طبيعته الأولية .

كذلك الصفات الموروثة، أو المتأصلة في النفس، (كالحدة) مثلاً، فإنها تكون من ذات الإنسان، ومن طبعه، يكون المرء حاد المزاج بالوراثة، فإن أباه كذلك كان، أو أمه كانت حادة الطبع، ثم انتقلت إليه، كما تنتقل إليه الصفات الأخرى، كالحق، أو الثروة، أو البخل . . . فلا شك أن للأبوين، وحتى للأجداد، تأثير كبير، في توارث الصفات، والقسمات، كالطول والقصر، والبياض والسُمره

وحال الأخلاق، حال الماء البارد، الذي يمكننا أن نجعل منه حاراً، ولكن بنوع من المعاناة المستمرة والنفس في طباعها وأخلاقها، كذلك أيضاً، نحتاج في إصلاحها نوعاً من الرياضة المستمرة، والمجاهدة المتواصلة، ولهذا عُدَّ جهاد النفس، جهاداً أكبر، لأن جهاد العدو مرة، وجهاد النفس دائماً مستمر، ولأن جهاد العدو محدود بزمان ومكان، بينما جهاد النفس لا يتقيد بزمان ولا مكان، ولأن عدو الحرب ظاهر مكشوف، بينما شيطان النفس مستور لا يراه الإنسان . . .

«إن الجسم في سبيل الحصول على الرشاقة، يحتمل كثيراً من الجهد، ويحتاج إلى كثير من التدريبات، لا يصل إلى الرشاقة بدونها، ولكنه بعد ذلك ينعم بهذه الرشاقة ويحسن بالخفة والانطلاق .

كذلك النفس، تحتاج إلى تدريبات وجهد، وامتناع عن بعض الرغبات، لتصل إلى الرشاقة النفسية، ولكنها بعد ذلك تنعم بهذه الرشاقة، وتحسّ بالخفة والانطلاق»^(١).

وكما أن بعض الوظائف الحيوية (كنمو الأسنان) - مثلاً - يصحبه شيء من الألم، فلو لم يكن في الجسم استعداد لتحمل قدر من الألم، بل استعذابه أحياناً، لما أمكن أن تتمّ هذه الوظائف الحيوية في يسر. كذلك تكوين المثل والأخلاق، يحتاج معها الإنسان إلى قدر من الألم والمعاناة، وفي النفس استعداد لا يقل حجماً عما في الجسم من استعداد لتحمل الألم. وبذلك يصبح تكوّن هذه المثل السامية، والأخلاق الحسنة ميسراً للنفس، حين توجّه إليها.

وهناك أوجه شبه متعددة بين ما يحدث للجسم، وما يحدث للنفس، فالعضلات في جسم الإنسان، تأخذ في التضخم والقوّة، بعامل التدريب المتواصل، والرياضة المستمرة والاستخدام الطويل، وتذبل وتذوي بالإهمال، حتى لتكاد تعجز عن أداء وظيفتها، ولا تستطيع أداء دورها كما ينبغي. كذلك الحالة النفسية، لا بد من رياضتها، وتدريبها لتقوى، وتصلب، فإذا أهملت ذوّت وضعفت، حتى كأنها غير موجودة، من هنا نجد العبد يعجز عن التصرف الحرّ، ليس لأن كيانه النفسي يختلف في أصله عن كيان الحر، بل لأنه لم يستخدم أجهزة التصرف، ولم يُمرّنها على ذلك.

نعم، قد يقال: إن التّغيير في النفس قد يكون نسبياً بالرياضة والمجاهدة والتربية.

قال ارسطاطاليس: (يمكن صيرورة الأشرار أخياراً بالتأديب، إلا أن هذا ليس كلياً، فإنه ربما أثر في بعضهم بالزوال، وفي بعضهم بالتقليل، وربما لم يؤثر أصلاً)^(٢) لضعف السبب، أو عدم اجتياز المراحل الكافية. فالنفوس تختلف باختلاف استجاباتها للعوامل والأسباب، إذ قد لا تؤثر

(١) كتاب (في النفس والمجتمع) لمحمد قطب: ١٢٢.

(٢) جامع السعادات للنراقي: ٢٥/١.

الأسباب في المراحل الأولى، فلا بد - حينئذ - من العبور بالوسائل إلى المراحل التالية، قد ننصح أحداً بالاقلاع عن التدخين، فلا تؤثر فيه النصيحة، لضعف في أسلوب الناصح، فلا تقع نصيحته موقع القبول، ولا تفعل فعلها في نفس المدخن عندها يجب تغيير الأسلوب .

وقد لا تؤثر النصيحة في المرة الأولى، فيلزم حينئذ تكرارها مرات ومرات، وهذا ما يعبر عنه بالتأثير المرحلي .

فالطفل الصغير الذي يتميز بنفس طاهرة شفافة، يستجيب للموعظة والنصيحة، لأول مرة يسمعها، ويدع عن أقوال أبويه، أو معلمه سريعاً، بينما الذي اعتادت نفسه الخلق السيء يصعب عليه الإذعان للنصح للمرة الأولى، فيجب تكرارها، وتكرار استخدام الوسائل لتقويم هذه النفس .

وإننا حين نتحدث عن تغيير النفوس، لا نقصد اماطة الصفات عنها كلياً، بل نقصد تهذيب الأخلاق والصفات، وتقويمها، بشكل معتدل معه النفس . . .

فالماء البارد نسلب منه البرودة ليكون معتدل الحرارة، لا أن تصل به درجة الحرارة إلى حد حارق لا يمكن استعماله .

كذلك النفس، لا نريد لها افراطاً ولا تفريطاً في الجبيلات والطباع .

فالغضب - مثلاً - لا بد منه، ليدافع الإنسان عن نفسه، وليغضب لله، لو اقتضت الحال ولجهد العدو . . .

والشهوة الجنسية، لا بد منها هي الأخرى، للتزواج والتكاثر، والتناسل، فالمطلوب إخضاع كل الصفات، والطباع، والأخلاق، لقانون الشرع، ولأحكام الدين، وتعبئتها لصالح الحياة، وتوجيهها إلى الحد الوسط. فلو كانت النفس كذلك، أي منقادةً لمنهج الدين، بحيث تنطلق من أوامره ونواهيه، وتلتزم بأدابه وأحكامه، لوصفت حينئذ بالصحة والاعتدال .

تغاير النفوس :

إن نفوس بني البشر تختلف أيما اختلاف!! وإن تشابهوا في الاشكال

والصّور، فربما تجد شخصين يعيشان في مجتمع واحد، تحيط بهما أجواء بيئية مماثلة، وربّما تساكنا في بيت واحد، وأظلهما سقف واحد، وقد يكونان أخوين، من أب واحد، وأم واحدة، ولكنهما يختلفان من حيث النفسيّة، وأنماط السلوك أيّما اختلاف! وتتغير أخلاقهما تغيراً يدعو للعجب، هذا حادث المزاج، وذاك هادئ الطبع. وهذا بخيل، وهذا كريم، هذا شريف النفس عالي الهمة، والآخر بخلافه منحط النفس، عديم الهمة! فكيف يحصل هذا؟

إن كان عامل التربية له دخل في تهذيب النفوس، فهذان تلقيا تربية واحدة!

وإن كان عامل الوراثة يؤثر في السلوك والأخلاق، فكلاهما من اسرة واحدة!

فما الذي يجعلهما إذن مختلفين، هذا الاختلاف الكبير؟

لقد سبق البحث عن صفات النفس، وقلنا إنّ عامل التربية، عامل حاسم في انطباع النفس بسلوك معيّن، وأنه يلعب دوراً فعالاً في التخلق بخلق معيّن.

ولا زلنا نميل إلى هذا الرأي، ونؤكد أن التربية لها دخل كبير في أخلاق الناس، وما نلاحظه من اختلاف أخوين في أخلاقهما، وتمايزهما في صفاتهما، وتفاوتهما في الطباع، وما نراه من تغاير شخصين، وإن كانت تحيط بهما ظروف مشابهة، وأجواء مماثلة، فإن ذلك مرده إلى عوامل التربية أيضاً. إذ ربما وجّه الوالدان أحد أولادهما توجيهاً صالحاً صحيحاً في حين لم يفعل ذلك مع غيره من الأبناء، فكان أن تخلق هذا وتآدب دون غيره.

أوربما اختلفت أساليب الوالدين، في المراحل المتأخرة من الحياة الزوجية، عما كانت عليه في بداية حياتهما، ولا شك أن الوالدين يزدادان خبرة، وتجربة، ونضجاً، في تربية الأبناء، كلما مضت عليهما السنون، ودارت الأيام، فيكون الولد الثالث - مثلاً - أوفر حظاً في التربية الصحيحة من الولد الأول..

أو ربما تلقى بعضهم تربيته في فترة، كانت الأسرة في حالة، اختلفت عن الحالة التي تلقى الآخرون من الأبناء تربيتهم في نفس الأسرة. كمن عاش في بيت كانت الأسرة تعاني فيه من الفقر، والعوز، والحاجة، وتركت هذه الحال آثارها الخاصة، في سلوك بعض الأبناء، ثم كتب الله لهم الغنى والإثراء، والحياة المرفهة بشكل أو بآخر، فعاش البعض الآخر من الأبناء في ظل هذه الحياة الجديدة المرفهة، وتطبعوا بآرائها ونتائجها، واختلفت أخلاقهم، باختلاف ظروفهم الحياتية والمعيشية . . .

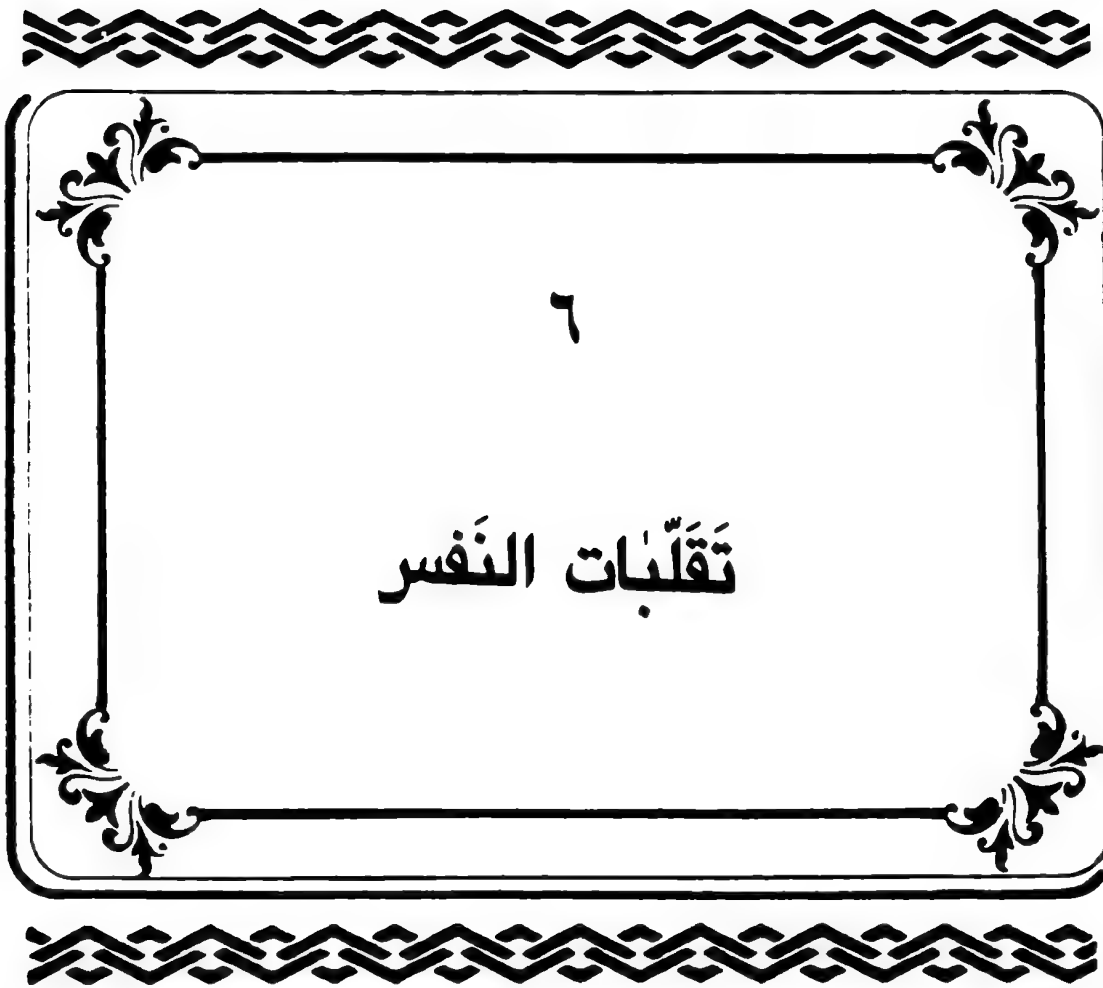
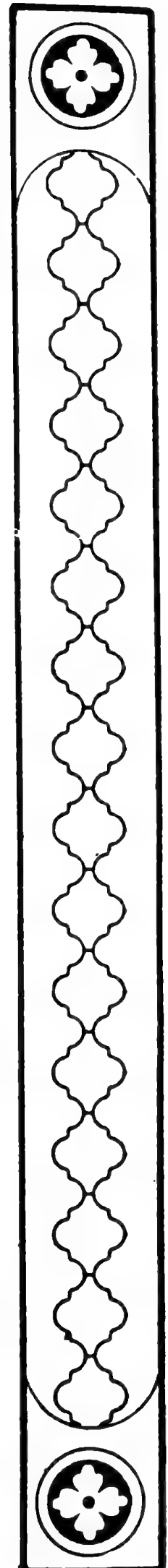
وهكذا . . . ربما تختلف الظروف، أو الأساليب، ولكن يبقى العامل التربوي عاملاً أساساً فعالاً في توجيه سلوك الناس .

يقال إن حاتم الطائي، عظم موته على قومه، وساءهم كثيراً، أن لا يجدوا مثله، يكون فخراً لهم بما عرف به من سخاء وجود عظيمين، فادعى أخوه انه سيبليغ مقام أخيه، ويتحلى بصفاته، ويكون مثله .

فلما أمسى عاد إلى بيته، وأخبر أمه بعزمه، فقالت له أمه: هيهات! لن تبلغ عظمة أخيك، فشتان بينكما، وبين خلقكما، لقد ولد حاتم، فبقي سبعة أيام لا يرتضع، حتى ألقيت أحد ثديي طفلاً من الجيران!!

وكننت أنت - حين ولدت - راضعاً أحدهما، وأخذاً الآخر بيدك، فأني لك أن تكون مثل أخيك^(١) كأنها تريد أن تقول إن السخاء وسائر الصفات، قد تولد مع الانسان، كما أن البخل وغيره كذلك والأولى أن تكون العوامل التربوية فعالة أيضاً، إن لم تكن في حاتم، ففي أخيه .

(١) ربيع الأبرار للزمخشري : ٦٦٨/٣ .



٦

تَقَلِّبَاتُ النَفْسِ

هل هناك ارتباط بين النفس والجسم ؟

انقسم أهل الرأي - في الجواب على هذا السؤال - إلى فرق متعددة، وتشعبت الآراء حوله، ففي الرأي القديم، اعتبرت النفس جوهرًا أسمى، والجسم وعاء تحل فيه النفس، هو وطن للنفس .

وفي المدرسة التجريبية، قالوا: إن الجسم هو الأصل، وهو منطلق كل أنواع النشاط الحيوي، من فكر، وحس، وإدراك، وتذكر، وانفعال، وتصرف. وإن (النفس) انعكاس للنشاط الجسماني لا غير !

وقالوا أيضاً: إن الغدد هي التي تتصرف في كل نشاط من أنشطة الإنسان، وهي محل الغرائز، والميول، والنزعات .

خذ مثلاً: (الأمومة) لا يرون فيها شعوراً وحساً نبيلًا، بل هي - عندهم - غدة، لو أزيلت من موضعها زال الشعور بالأمومة من نفس الأم، ولو صادف أن حُقنت احداهن بخلاصة هذه الغدة، لتمكّن شعور الأمومة من نفسها، وإن لم تكن أمًا في الواقع .

كذلك (الجنس) عرّفوه انه نوع من الغدد، وإن الإحساس به يزول باستئصالها من الجسم . . وجاء العلم الحديث ليؤكد ذلك، ويضيف بعض الشواهد الأخرى . . . فالخوف، والشجاعة، والسخاء، والبخل . . . كلها إفرازات لغدد معينة، ربما تنقص أو تزيد تبعاً لإفرازات هذه الغدد^(١) .

(١) في النفس والمجتمع لمحمد قطب ص ١١٦ .

ولكن، هل صحيح أن كل هذه المشاعر النبيلة، وغير النبيلة، والأحاسيس النفسية، كلها مجرد إفرازات عضوية، وغير عضوية، تفرزها أجهزة الجسم المتعددة؟

وهل صحيح أن النفس ليست إلا انعكاساً للنشاط الجشمانى؟
إنّ الخلاف القائم بين النظريتين، خلاف عظيم، يؤثر كثيراً في تقييم الحياة ككل.

هل ينبغي أن يعامل الإنسان، على أنه نفس، فيكون بحاجة إلى دروس الأخلاق، والتدريب على الفضيلة؟

أم يعامل على أنه مجرد جسم، فيعطى حقن كيميائية، ويقوم في المختبرات المادية؟

أما جواب الدين عن ذلك: فهو أن الإنسان يتألف من العنصرين في آنٍ واحد، يتألف من نفس وجسم، وأن أحدهما يؤثر في الآخر. لا يمكن أن يهتم الإسلام بأحدهما ويدع الآخر... فالنفس لها آفاقها الخاصة، والجسم له مجالاته الخاصة.

وطبيعي، أن على الإنسان أن يعطي كلاً منهما حقه، فلا يستطيع أن يعيش بلا غذاء، وإن نشاطه الجسدي، والفكري، والنفسي، كله متوقف على الغذاء اللازم، الذي يتناوله بين الحين والآخر...

ولكن الفكرة التي يبتدعها، والنشوة التي يحسّها، والأحاسيس التي تغتره، ليست المعادل الرياضي لهذا الغذاء، وإلا لكان الناس كلهم سواسية في مضمار العبقرية، والطاقات الفكرية... فالكل يأكل نفس الطعام، ويتغذى جسمه نفس الفيتامينات، والبروتينات. فلماذا - إذن - هذا ذكي، وهذا غبي؟ ولماذا هذا عبقرى، وهذا جاهل؟ وهذا شجاع وهذا جبان؟...

نعم، يمكن لحقنة من إفرازات داخلية لجسم متعب، أن يحول جسماً نشيطاً إلى تعب منهك. هذا صحيح، فالأجسام تتأثر بإفرازات أجسام مماثلة، ولكن الحقن لا يمكنها - بحال من الأحوال - أن تُنشئ أفكاراً، أو فنوناً، أو

عقائد تُشابه مثيلاتها عند صاحب الافرازات .

لقد صبَّ العلماء جُلَّ اهتمامهم على دراسة تأثير الجسم في النفس، ولم يلاحظوا - أبداً - تأثير النفس في الجسم . . ولكن الاسلام اهتم بهذا الجانب، وأولاه عناية خاصة .

إن العلوم النفسية الدينية - كما قلنا سابقاً - أوسع دائرة من العلوم الحديثة، ففي العلوم النفسية الدينية، بحوث تفرّد بها الدين، في الوقت الذي عجز عن خوضها علم النفس الحديث، خذ مثلاً: التقلبات التي تنشأ في نفس الإنسان، والتبدلات التي تطرأ عليها - وهي من حالات تأثير النفس في الجسم - كما لو كانت النفس في حالة طبيعية وفجأة، تغمرها حالة من الاكتئاب، والحزن، وانقباض النفس، أو عكس ذلك، قد يكون الإنسان مكتئباً حزيناً ولكنه - لسبب أو لغير سبب - تنبسط نفسه، وينشرح صدره .

قد تكون متعباً، متضايقاً، مهموماً، آيساً من الحياة . . . بمعنى أن الافرازات الداخلية من الغدد، والأجهزة الأخرى، سببت لنفسك هذا الإحساس، ووجهتها - بغير إرادتها - هذه الوجهة، ثم تقع عينك على شخص معين، تحبه، وتستأنس إليه، فتتفرج أساريرك وتزول عنك تلك النظرة القاتمة إلى الحياة .

وهذا يعني - في النظريات الحديثة - أن الافرازات الداخلية من الغدد، والأجهزة الأخرى، قد تغيّرت مناسبتها، وأنواعها، فرسمت لنفسك هذا المنحى الطارىء .

فما الذي حدث بالفعل ؟

هل مجرد النظر إلى الشخص المعين، هو الذي حرّك هذه الإفرازات ؟

أم عملية نفسية تركت أثراً مباشراً في النشاط الجسمي ؟

مثال آخر: قد تكون متعباً، منهوك القوى، تعجز عن الحركة والنشاط، وتُحسُّ بحاجة إلى الراحة . ولكن - وبصورة فجائية - يخطر على بالك خاطر . . . إن المصلحة العامة، أو حبُّ فلان من الناس، أو الرغبة في زيادة

الكسب، وغير ذلك من الدواعي . . . تعطيك عزيمة جديدة، فتندفع في العمل، والتحرك، بروح وثابة، وتشعر بالتعب قد زال عنك، وأنت قادر على الاستمرار في العمل، ساعات إضافية أخرى .

فما الذي حدث ؟

ومن أين جاءت الافرازات الجديدة؟ لتحل محل افرازات التعب الذي كنت تشعر به؟

والجواب: إن هذه التحولات، والتقلبات، تؤكد الارتباط الوثيق بين النفس والجسم، وإن هذه التقلبات تعزى إلى الله تعالى، وقد لا يكون للغدد وافرازاتها دخل فيها، ويعجز العلم الحديث عن فهمها ويقف حائراً، لا يرى تفسيراً مادياً لها .

بينما النصوص الدينية، تعزو كل ذلك إلى القوة الغيبية المهيمنة على الكون، وتقرر ان النفوس (بين اصبعي الرحمن) يقلبها كيف يشاء !!

﴿اعلموا أن الله يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾^(١) .

ليست كل العوامل المؤثرة في النفس، حسية مادية، بل ومنها العوامل الغيبية التي تتعلق بالسماء . . فكثيراً ما تجتمع العوامل الحسية المادية، لتفعل فعلاً معيناً في النفس، ولكن الله عز وجل، يقلب الموازين، ويغير المقاييس في النفس، فيحدث خلاف ما كان متوقعاً .

ولتقريب المعنى، أذكر مثلاً قرآنياً، لفهم من خلاله، كيف يكون التحول في النفس الإنسانية .

عندما يكون أحدٌ مطلوباً لسلطان جائر، مستبد، ظالم، بتهمة كبيرة، أو ربما بتهمة عديدة، وقد أمضى مدة في التخفي والفرار، وها هو الآن يعود إليه متحدياً، منازعاً له في ملكه وسلطانه ترى، كيف يكون موقف هذا السلطان؟ ألا ينبغي أن يبادر إلى القضاء على مثل هذا العدو بأسرع ما يمكن، والتخلص منه بأية وسيلة كانت؟ خاصة والمطلوب ضعيف، لا يقوى على

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢٤ .

الدفاع عن نفسه . . .

هذا ما حصل لموسى عليه السلام ، مع فرعون ، فقد كان مطلوباً بقتل أحد جلاوزة الطاغية ، ففر منه إلى (مدين) ثم عاد بعد عشر سنوات ، نبياً رسولاً ، يهدد ملك الطاغوت بالزوال ، مما يجعله في مواجهة ساخنة مع فرعون ، وكان أصلاً ، معرضاً للقتل ، مع من قُتل من أطفال بني إسرائيل من مواليد تلك السنة التي قتل فرعون فيها الأطفال ، واستحيا النساء الإسرائيليات ، على أثر التحذير الذي أطلقه الكهنة ، ممن يولد في بني إسرائيل ، وتكهنوا ان أحدهم سيزيل ملكه ، ويقوّض سلطانه فأسرف فرعون في تقتيلهم ، وهتك نسائهم . . ولم ينج منهم سوى طفل واحد ، أراد الله له النجاة والحياة ، وهو موسى عليه السلام . . .

وها هو عائد إلى مصر ، بعد غيبةٍ دامت سنوات عديدة ، حاملاً رسالة السماء ، مما يعتبره فرعون تحدياً له ولسلطانه ، وخروجاً على حكمه !

كل هذه العوامل تضافرت ، واجتمعت ضد موسى عليه السلام ، وكان يُفترض بفرعون ، أن يسارع إلى القبض عليه ، ويأمر بقتله فوراً ، ودون أي تردد في ذلك . .

وكان يُفترض بنبي الله موسى ، أن يدخل مصر ، على وجل ، وخوف ، وحذر ، مما قد يواجهه من الأهوال ، والمخاوف ، وأن يكون قلقاً من لقاء الطاغية . .

ولكن الله عز وجل ، قلب القلوب ، فربط على قلب موسى ، ومنحه قوة ، وصلابة ، في نفسه ، واستجاب لدعائه ، حيث قال : ﴿رَبِّ اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي . . .﴾ (١) .

فأجابه الله تعالى ، على الفور ﴿قال قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ (٢) فأعطاه قوة في نفسه ومنحه عزيمة راسخة ، دخل بها على فرعون ، دون أن يحسّ بخوف أو قلق . . .

(١) سورة طه ؛ الآيات : ٢٥ - ٢٧ .

(٢) سورة طه ؛ الآية : ٣٦ .

وأثر الله في نفس فرعون أيضاً، بحيث جعله يصبر على لقاء موسى عليه السلام، ويستمع إليه، ويناقشه بل وصار هو الذي يخاف من موسى ويخشاه ..

فلو عُرضت هذه المشاهد، من تحول النفوس، وتقلبها، على العلم الحديث، ماذا يكون جوابه عنها؟ وكيف يفسرها؟ وما هو دور الغدد والإفرازات فيها؟ انه يحير في الجواب .

ولكن الدين يجيب عن ذلك، إن القلوب بيد الله تعالى، يقلبها كيف يشاء .

ورد عن الرسول ﷺ : «إِنَّمَا سَمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ، إِنَّمَا مِثْلُ الْقَلْبِ مِثْلُ رِيْشَةٍ بِالْفَلَاةِ تَعَلَّقَتْ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ، تَقَلَّبُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ» (٢) .

ولنرجع قليلاً إلى الوراء في حياة موسى عليه السلام، فلفرعون موقف عجيب آخر، قبل هذا الموقف، فعلت الإرادة الإلهية في نفسه ما لم يكن في حُساب أحد، وأثرت فيه تأثيراً عظيماً، وَتَقَلَّبَ قَلْبُهُ تَقَلُّباً مَفَاجِئاً... وذلك حين عثر رجاله على الصندوق الذي كان فيه موسى عليه السلام تتقاذفه أمواج البحر، وقبضوا عليه، فلما فتح الصندوق، وجد بداخله (الوليد المجهول) !! لم يشك أبداً، انه من بني إسرائيل، أُلْقِيَ في البحر خوفاً على حياته، من بطشه بأبنائهم، الذين صاروا - في تلك السنة - عرضة للذبح والإبادة، ولَمَّا تَكهن به الكهنة من زوال ملكه على أيديهم وكان ذلك الوليد موسى عليه السلام، حكمت الإرادة الإلهية له بالبقاء والسلامة، وسط تلك الأخطار التي كانت تحف به فُولِدَ، وعاش وسَلِمَ، وألقته أمه في البحر، بوحي من السماء، وجرفته الأمواج إلى ساحل فرعون ...

والمتوقع - في مثل هذا الموقف - أن لا يتردد فرعون في قتل الوليد .. ولكنها العناية الإلهية التي لم تتخل عن موسى لحظة، وتصرف الله العظيم في نفس الطاغية، وإذا به ينقلب من قاسٍ عنيد، إلى أبٍ، رحيمٍ، حان .

(١) ميزان الحكمة : المجلد الثامن : ٢١٢ نقلاً عن كنز العمال .

يقول عز من قائل، عن هذا التحول في نفس فرعون :

﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي، وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾^(١).

انها محبة لم تكن موجودة في قلب فرعون، بل لم تكن متوقعة منه، ولكن ألقاها الله في نفسه واستقرت فجأة في قلبه، صَرَفَ الله فكره عن النظر إلى مستقبل هذا الطفل الذي قد يكون هو الذي يقوض أركان ملكه، وينهي حياته... أليست النبوءات أكدت له أن واحداً من بني إسرائيل، ممن يولد هذا العام، سيحطم حياته وملكه؟ فمن يضمن أن لا يكون هذا الوليد، هو الشخص المقصود؟.. وإن كان لا بدَّ له من تبني ولدٍ ما، فما الداعي أن يتبنى هذا الرضيع الإسرائيلي بالذات؟ كل هذه الأفكار والتصورات، ربما لم تخطر بباله، وتعلق قلبه بفعل الإرادة الإلهية، بهذا الطفل، وأحسَّ بحب عميق يشده إليه... وكان ما كان من أمره وأمر موسى.

ترى ماذا يقول علم النفس الحديث، عن هذا التحول والانقلاب، وكيف يفسر هذه الظواهر الغريبة، أعتقد أن العلوم الأرضية تعجز عن التعليق بشيء في مثل هذه الموارد، ولكن الدين يعتبر كل ذلك من الله عز وجل، ولا أثر للاعتبارات والحقائق المادية في ذلك، فالله - وحده - المؤثر في النفوس، ويعلم خائنة الأعين، ووساوس الصدور، وتقلبات القلوب....

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٢).

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٣).

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(٤).

ونقول في الدعاء المأثور: (يا مقلب القلوب...).

(١) سورة طه ؛ الآية : ٣٩ .

(٢) سورة ق ؛ الآية : ١٦ .

(٣) سورة غافر ؛ الآية : ١٩ .

(٤) سورة المائدة ؛ الآية : ١١٦ .

الحجاجُ يخالف سبائاه :

ونظير ما كان من فرعون، يُنقل عن الحجاج بن يوسف الثقفي، (طاغية التاريخ المعروف) الذي راح مثلاً في الطغيان والجور، وإراقة الدماء... حتى لا تجد كتاباً في التاريخ، إلا وينقل مشاهد من إزهاقه للأرواح، وقتله للأبرياء، على الظنة والشبهة، بل وكان يقتل على الرأي والعقيدة...

قتل سعيد بن جبير، وقتل قنبر مولى علي بن أبي طالب عليه السلام، وقتل، وقتل... .

ومع ذلك، قد يقلّب الله تعالى، قلب هذا الظالم، فيلين - في لحظة من اللحظات - ويرحم، وإليك مثال ذلك :

خرج زيد بن شبيب الشيباني في أيام عبد الملك بن مروان، فظفر به الحجاج، وبأصحابه وجعل يقتل كل مقدور عليه منهم، فلما كان آخر الأمر، قُدّم إليه رجل منهم، له سمّت ورواء وهيأة فلما همّ الحجاج بقتله، سمع ضجةً بالباب، فقال لحاجبه: ما هذه الضجة؟ قال: نسوة بالباب، يسألن الدخول على الأمير. فقال الحجاج: أئذن لهنّ بالدخول، فدخلن عليه، وهنّ ثلاث وعشرون امرأة، كلهنّ أهل بيت هذا الرجل، الذي همّ الحجاج بقتله.

فقال لهنّ الحجاج: ما حاجتكنّ؟ فتقدمت امرأة منهنّ وقالت: أصلح الله الأمير، إن رأيت أن تجود باستماع ما أقول، فقال لها: قولي ما أحببت، فقالت :

أحجاج إما أن تُمنّ بتركه	علينا وإما أن تُقتلنا معاً
أحجاج لو تشهد مقام بناته	وعمّاته يندبهنّ الليل أجمعاً
أحجاج لا تفجع به إن قتله	ثماناً وتسعاً واثنين وأربعاً
فمن رجل دانٍ يقوم مقامه	علينا فمهلاً لا تزدنا تضعضعا

فلان الحجاج لقولها، ووجد رقة عليهن، وعفا عنه وأطلقه^(١)...

أليس عجيباً من الحجاج أن يلين ويعفو...؟ ولكنه الله، مقلب

(١) قصص العرب : ١٤٤/٢ .

القلوب، ومُغيّر الأحوال، والمتصرف في نفوس المخلوقين كيف يشاء، يجعل من الشديد القاسي، ضعيفاً ليناً، ومن اللين الرحيم قاسياً عنيفاً وهكذا... ذلك حين تقتضي مصلحته، وتحكم إرادته سبحانه وتعالى.

ونظير ذلك أيضاً، ما كان من المنصور الدوانيقي، مع الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام. قال عبد الله بن أبي ليلى، كنت بالربذة مع المنصور، وكان قد وجّه إلى أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام، فأتى به، فلما حضر، صاح المنصور: عجلوا به، قتلني الله إن لم أقتله، فأدخل عليه مع عدة جلاوزة، فلما انتهى إلى الباب، رأيتَه تحركت شفتاه ودخل، فلما نظر إليه المنصور قال: مرحباً يا بن رسول الله، فما زال يرفعه، حتى أجلسه على وسادة، ثم خرج الإمام من عنده، ولم يصبه سوء، قال الراوي: فسألته عما قاله عند دخوله على المنصور؟

فقال: إني قلت: «ما شاء الله، ما شاء الله، لا يأتي بالخير إلا الله، ما شاء الله، ما شاء الله، كلُّ نعمةٍ فمن الله، ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(١).

كان لدعاء الإمام - لا شك - تأثير بالغ في تغيير نفسية هذا الظالم، الذي عرف عنه، إراقته للدماء، ومبالغته في قتل العلويين، وعداؤه الخاص للإمام الصادق عليه السلام.

وسبق له أن همَّ بقتل أبي عبد الله الصادق عليه السلام، غير مرة، فكان إذا بعث إليه، ودعاه ليقتله، فإذا نظر إليه هابَهُ، ولم يقتله^(٢).

وكان للإمام عليه السلام، مع المنصور، نهجٌ خاص، في تعريضه للملأ، ومجاوبته بما يكره من الحق ولم يعرُ أهمية لعتوه وتجبره، فيمضي في طريق الحق والهدى، مجاهداً بقلمه، ولسانه. وقد سُئل عليه السلام، أي الجهاد أفضل؟ فقال: (كلمة حق عند إمام ظالم).

إن المؤمن، لو قطع أن القلوب بيد الله سبحانه وتعالى، يقلبها كيف

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة : ١٧٠/٢ .

(٢) المناقب : ٣١٧/٢ .

يشاء، ويتصرف بها كيف يريد، اطمأن إلى ما تأتي به الأقدار، وفوض الأمر إلى الله، في كل حال، ولا بدّ - والحال هذه - ان يحيا حياة طيبة، هانئة، خالية، مما يكدر صفوها، وهدوءها، واستقرارها .

وهو من أنجع وسائل العلاج النفسي، لكل فئات وطبقات الناس، وهو - بالنتيجة - ما يسعى وراءه علماء النفس قديماً وحديثاً .

انشرح الصدر :

والقرآن الكريم، ينوّه بهذا العلاج، في سورة الانشراح، حيث يخاطب النبي الكريم ﷺ ، بقوله تعالى :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(١).

فشرح الصدر: ذهاب همّه، وزوال أسباب القلق، والاضطراب، ومعلوم أن استعمال كلمة (الصدر) في السورة، كناية عن النفس، فالنفس هي التي تنقبض وتنشرح، وقد كنى القرآن عنها بالصدر، ربما لأن الصدر متنفس الإنسان، أو لأنه كان لا بد من الإشارة إلى النفس، بجزء من جسم الإنسان، فكانت الإشارة تارة إلى الصدر، وأخرى إلى القلب، لأنهما موطن النفس.

وقد كانت نفس رسول الله ﷺ ، تضيق، لما كان يحيط به من عوامل الأسى، واجتلاب الهم، وما كان يعيشه من تفكير دائم، عن مستقبل الرسالة، ووضع هذا الدين بين ظهرائي قوم رفضوا الأخلاق والقيم الإسلامية، وعقدوا العزم على محاربة صاحب الرسالة، وهو ضعيف بين أعداء غلاظ أشداء، وهو إلى ذلك خلوّ من المال الكافي، لدعم قضيته، في حين أن أعداءه أغنياء إلى حدّ التخمّة، يملكون وسائل التأثير في الناس بأموالهم وإمكاناتهم، وهو ﷺ ، لئن الطبع، حسن الأخلاق، وهم متعجرفون، قساة لا يتوانون عن إيذاء وقتل من شاؤوا من أصحابه وجماعته . . .

ماذا يصنع مع هذا الواقع المرّ؟

(١) سورة الانشراح .

كيف السبيل لإصلاح هذه القلوب العمياء، والنفوس المريضة؟

من هنا، كانت تعتريه حالات من اليأس منهم، وتتكدّر نفسه الشريفة كلما واجه نوعاً من هذه المعاناة. . . وكانت الآيات تنزل عليه تترى عليه من الله عز وجل، تسليه، وتُرفّه عن نفسه الكريمة، وتجبر خاطره، وتأمّره بالصبر، والثبات، والاستقامة، والمثابرة في العمل، ومواصلة الدرب .

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ . . .﴾^(١) .

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾^(٢) .

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾^(٣) .

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾^(٤) .

ورغم ذلك، كانت نفسه ﷺ، تنقبض أحياناً، حين تتراكم الهموم عليها، فلا يرى في الأفق بصيصاً من أمل، ولكن الله عز وجل، أصلح شأن هذه النفس النبوية الكريمة، فأزاح عنها أثقال الهموم، ووضع عنها أوزار الغموم، وشرح صدر نبيّه المصطفى ﷺ، فطابت نفسه، واطمأنت لرحمة ربّها، ففوض الأمر إلى الله تعالى، وأيقن أن الله ناصرّه وحاميه، ومؤيّده .

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: سأل رجلُ رسول الله ﷺ: أينشرح الصدر يا رسول الله؟ قال: نعم فقال: يا رسول الله، وهل لذلك علامةٌ يعرفُ بها؟ قال: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإعداد للموت، قبل نزول الموت^(٥) .

وبعبارة أخرى، ينشرح الصدر باليأس عما في أيدي الناس، والانقطاع

(١) سورة القلم ؛ الآية : ٤٨ .

(٢) سورة الطور ؛ الآية : ٤٨ .

(٣) سورة هود ؛ الآية : ١١٢ .

(٤) سورة الرعد ؛ الآية : ٣٢ .

(٥) مجمع البيان للطبرسي : ٧٦٩/١ .

إلى الله عز وجل وتذكر الموت، والاعتماد على الله في كل حال... فالمؤمن لو تحلى بهذه الصفات، رضيت نفسه بما قدر الله له، وبالواقع الذي يعيشه، فيطمئن، وترتاح نفسه.

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾^(١).

وتعرض سورة الانشراح، حالتي العسر واليسر اللتين تكتنفان حياة بني البشر، ولا يخلو منها أحد، ما دام يتمتع بالحياة في هذه الدنيا، فالمرء يتنقل بين العسر واليسر أبداً دائماً، لأن ذلك من سنن الكون، ومن قوانين الحياة، وعلى هذا لا ينبغي أن يُحمّل الإنسان نفسه - في حالة العسر - فوق طاقتها، فيقلق للمستقبل، ويأس من اليسر والفرج. بل عليه أن يكون مطمئناً بروح الله سبحانه، وانه تعالى، لا بد أن يعقبَ عسره يسراً، وشدته فرجاً ﴿فإن مع العسر يُسرًا، إن مع العسر يسراً﴾ فيكون بذلك يحيا يسراً بالفعل، أو يكون بانتظار يُسر.

عن ابن عباس، قال: قال الله تعالى، في حديث قدسي:

«خلقتُ عسراً واحداً، وخلقتُ يسرين، فلن يغلبَ عسرُ يسرين»^(٢).

وقال الفراء النحوي: إن العرب تقول: إذا ذكرت نكرة، ثم أعدتها نكرة، صارت اثنتين كقولك: إذا كسبتَ درهماً فأنفق درهماً، فالثاني غير الأول، بخلاف لو ذكرت معرفة وأعدتها معرفة، فالثانية نفس الأولى. وفي الآيتين ذُكرَ العُسْرُ معرفةً، وذكر اليسر نكرة، فكان اليُسْرُ يسرين، والعُسْرُ واحداً.

وروي أنه لما نزلت سورة الانشراح، خرج النبي ﷺ فرحاً مسروراً يقول: (لن يغلبَ عسرُ يسرين)^(٣) وقال شاعر:

إذا بلغ العسر مجهوده	فثق عند ذاك بيسرٍ سريع
ألم ترَ نحسَ الشتاء الفظيع	يتلوه سعد الربيع البديع

(١) سورة الرعد ؛ الآية : ٢٨ .

(٢) مجمع البيان : ٧٦٩/١٠ .

(٣) مجمع البيان : ٧٦٩/١٠ .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ ، انه قال : «لو كان العسرُ في حُجْرٍ لدخل عليه اليسر حتى يُخْرِجَهُ» ثم قرأ : «إن مع العسر يُسراً»^(١) .
وروي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام ؛ «عند تناهي الشدة تكون الفُرجة ، وعند تضايق خلق البلاء يكون الرخاء»^(٢) .

وفي ذلك يقول أبو العتاهية :

هي الأيام والغِيرُ وأمرُ الله يُنْتَظَرُ
أتأس أن ترى فرجاً فأين الله والقَدَرُ

ويقول آخر :

فلا تجزعي إن اظلمَ الدهرُ مرّةً فإن اعتكار الليل يؤذن بالفجر

وقفة مع الآيات :

ولنلق نظرة عاجلة ، إلى آيات الله البيّنات ، التي تتضمن هذا المعنى ، ولنرَ كيف يتصرف الله عز وجل في نفوس بني البشر ، ويغيّرُها من حال إلى حال ، حسب ما تقتضيه حكمته ومصلحته ، سبحانه وتعالى .

ربما تكون النفس مشحونة بالخوف ، لسبب أو لآخر ، فتَهْبِطُ السكينة من عند الله تعالى على هذه النفس ، وتزيل الإرادة الإلهية الخوف من القلب ، وتستقرّ النفس ويطمئن القلب دون أن تجد أي عامل أو سبب ظاهر لذلك ، سوى القوة الغيبية ، والإرادة الربانية . .

وهذا ما حصل لأصحاب رسول الله ﷺ ، في إحدى معاركهم مع المشركين ، فقد دهمهم العدو ، بكامل العدة والعدد ، والمسلمون آنذاك ، قلة ضعيفة ، فغشيتهم سحائب الخوف ، وأحاط بهم الموت ، وضيق عليهم العدو ، وأخذ عليهم مسالك النجاة . . فكان الأجدر بهم ، أن يززعزعهم الرعب ، ويقضي على معنوياتهم ، فتموت نفوسهم ، وينتصر عليهم العدو .

ولكن لم يكن ذلك ، بل ربط الله على قلوبهم ، وأصلح بالهم ، ففي

(١) ربيع الأبرار : ٥٠٥/٣ .

(٢) ربيع الأبرار : ٥٠٥/٣ .

ساعة الحَرَجِ والشَّدة، قويت عزيمتهم، وصلبت إرادتهم، وأزاح الله عن قلوبهم ذلك الخوف القاتل .

يقول تعالى : ﴿وليربطْ على قلوبكم ويثبتْ به الأقدام﴾^(١) .

ويقول : ﴿وما جعلهُ الله إلا بشريً ولتطمئنَّ به قلوبُكم﴾^(٢) .

وتختلف هذه الصورة عكساً مع الكفار، اعداء الله، فيزرع في نفوسهم الخوف، ويقذف فيها الرعب، ويتصرف معهم سلباً، كما تصرف سبحانه وتعالى، مع المؤمنين إيجاباً . .

فهم رغم قوتهم، وتمكنهم من العُدَّة والعدد، امتلكهم خوف شديد، وتمكن من نفوسهم، بحيث كانت الهزيمة من نصيبهم . .

قال تعالى : ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرُّعبَ بما أشركوا بالله . .﴾^(٣) .

وقال أيضاً : ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرُّعبَ فاضربوا فوق الأعناق . .﴾^(٤) .

وقال أيضاً : ﴿وقذف في قلوبهم الرعب . .﴾^(٥) .

وقال سبحانه : ﴿فأتاهمُ الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب﴾^(٦) .

ويتحدث القرآن عن أم موسى، وكيف أن الله مَلَك قلبها، وثبَّتَه، وهَدَّأ من روعها، فقد نأى عنها ولدها مدة من زمن يسير، فقد أَلْفَتْه في البحر، وذهبت به الأمواج بعيداً عن عينها . . ثم علمت أنه في بيت فرعون . . ثم

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ١١ .

(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ١٠ .

(٣) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٥١ .

(٤) سورة الأنفال ؛ الآية : ١٢ .

(٥) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٢٦ .

(٦) سورة الأحزاب ؛ الآية : ١٢ .

جمعتها الإرادة الإلهية برضيعها، فلما وقعت عينها عليه، ورأته قد عاد إليها سالماً معافى، لا بأس عليه، كاد الشوق والحنين إليه يكشفان عن حقيقتها، ويعلم الطاغية انها ليست مرضعة، كما زعموا، بل هي الأم الحقيقية لهذا الرضيع .

هنا ربط الله على قلبها، لكيلا تفضح نفسها، وتكشف أمر وليدها .
يقول القرآن الحكيم : ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) .

فلو تركها وطبيعتها النسوية، وفطرة الأمومة فيها، لكادت تبدي به، فقد كان (فؤادها فارغاً) ولعلموا انها إسرائيلية، دخلت بيت فرعون، بصفة مرضعة، وفي ذلك من التبعات والنتائج السيئة لها ولولدها، ما لا يخفى .

ولكن الله عز وجل تصرف في نفسها، وجعلها هادئة، مستقرة، رابطة الجأش، بحيث لا يظهر عليها سلوك يعرضها ووليدها للخطر .

ولقد كانت بعض النفوس - حين قام الرسول ﷺ بتبليغ الرسالة - لا تَسْتَجِبُ الإيمان بالله، والإقرار بالإسلام، فقد اعتادت دين الآباء، وترعرعت في أحضان الشرك ولم تجد ميلاً إلى الدين الجديد، والرسالة المحمدية، ولا تطيب للإقرار بوحدانية الله تعالى، ونبذ الأوثان . . .

ولكن الله قلب هذه القلوب، وحَبَّبَ إليها الإيمان .

يقول تعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (٢) .
وقد يحدث عكس ذلك، فكثيراً ما يتمتع أحدهم بنفس نقية، وقلب نظيف في أول أمره، ويكون بشكل يرتضيه الدين، ولكنه يتصرف تصرفاً خاطئاً، ويعمل عملاً شائناً ويصر عليه، دون توبة أو استغفار، ويتمادى في غيّه دون ندم، مما تؤول به الحال إلى سوء العاقبة، وسوء المُنْقَلَب .

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ . . .﴾ (٣) .

(١) سورة القصص ؛ الآية : ١٠ .

(٢) سورة الحجرات ؛ الآية : ٧ .

(٣) سورة الصف ؛ الآية : ٥ .

ولذا وجهتنا التعاليم القرآنية، أن نسأل الله سبحانه، أبداً دائماً، أن يجنبنا حالة سوء المنقلب، وسوء المصير، وزيف النفس عن طريق الهدى .
﴿ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب﴾^(١) .

ومن صور تصرف الله عز وجل في نفوس الناس أيضاً، وتوجيه قلوبهم نحو الوجهة الصحيحة، ما يذكره القرآن الكريم، من حال الناس قبل الإسلام، وما كانوا عليه من عداوة وبغضاء، ومنازعات دامت عشرات السنين، حتى إنَّ الرجل منهم، لم يكن يأمن على نفسه أو أهله، أو ماله، من اعتداء الآخرين، وبخاصة (الأوس والخزرج) في يثرب .

كان الخوف الدائم يخيم بظلاله عليهم، فجعل حياتهم تعيسة لا تكاد تُطاق . وكانت الحروب والغارات، قائمة على قدمٍ وساق فيما بينهم، فأنى لهذه النفوس أن تزكو، وهذه القلوب أن تصفو؟ كيف يمكن إحلال المحبة والوئام، محل العداوات المتأصلة في النفوس؟ ولكن الله عز وجل، حقق ذلك، وقلَّب القلوب، وتصرف في النفوس، فزرع تلك الأحقاد من نفوسهم، وأحلَّ محلَّها الاخوة والتوَادُد والألفة !! ولم يُعد للكرهية والبغضاء محلَّ في نفوسهم !!

قال تعالى : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾^(٢) .

ويوجَّه الخطاب للنبي الكريم ﷺ ، إن هذه العداوات كانت متأصلة في نفوس قومك، متعمقة في قلوبهم، بحيث :

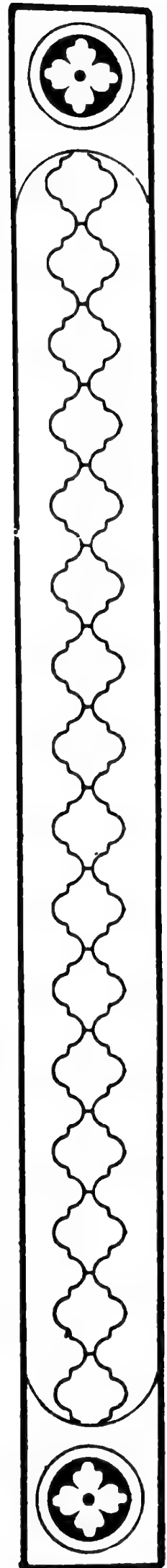
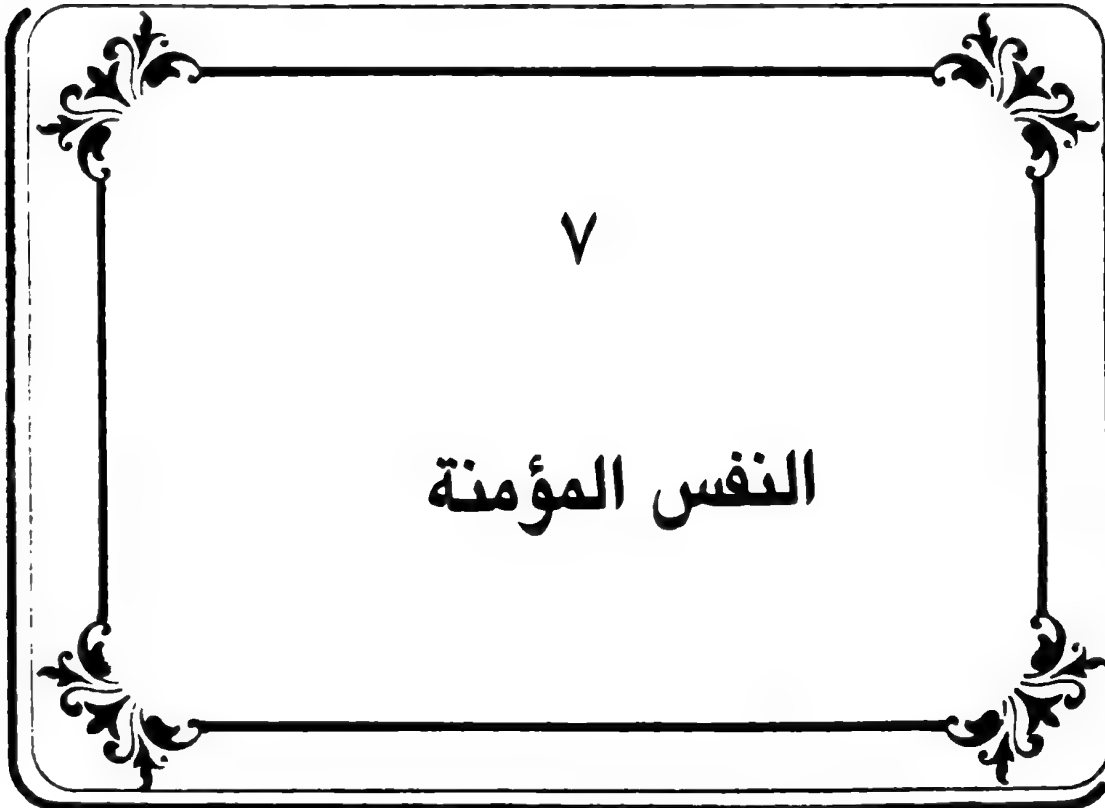
﴿لو أنفقَت ما في الأرض جميعاً ما ألفتَ بين قلوبهم ولكنَّ الله ألفتَ بينهم إنه عزيز حكيم﴾^(٣) .

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ٨ .

(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٠٣ .

(٣) سورة الأنفال ؛ الآية : ٦٣ .

فالله وحده القادر على أن يطبع في النفوس ما يشاء، أو يزيح عنها ما
يشاء... ولو كان الأمر للناس لعجزوا عن ذلك .
فسبحان مقلب القلوب .



مما لا شك فيه، أن أية عقيدة، تترك آثارها في النفس، وتفعل فعلها فيها، بحيث تجعلها منقادة لها، وتترك بصماتٍ بينةً ملحوظةً في سلوك الأفراد والمجتمعات .

فالمسلم المؤمن يستنجس الخمرة، ويتقزز منها، ويتجنبها من منطلق عقيدته الإسلامية التي حرّمت عليه الخمرة، بينما لا يرى المسيحي بأساً في تناولها، ولا تأباها نفسه .

والناس كلهم، يأكلون لحوم الأبقار، وربما يتلذذ البعض ذلك، في حين أن الذي يعتنق الفكرة الهندوسية، لا يأكلها إطلاقاً، ولا يستعمل حتى السكين التي استعملت في تقطيع لحم البقر .

وهكذا تتبع النفوس العقائد، وتنفعل بها، وتنطلق من منطلقاتها . وبناءً على هذا، فإن المسلم المؤمن تقوم حياته على أسسٍ عقائدية، إسلامية . . يتخلق بأخلاقها، ويتأدب بآدابها، ويحاول أن يكون أنسجماً بينه، وبين ما تمليه عليه عقيدته الإسلامية، وينشئ ارتباطاً وثيقاً بينه وبين تعاليم دينه .

فمن الأفكار التي أكّدت عليها العقيدة الإسلامية، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، ففي القرآن الكريم أكثر من ألف آية حول المبدأ! وأكثر من ألف آية حول المعاد! هذا عدا النصوص الإسلامية الأخرى، مما يجعل المؤمن، تختلف نظرتة إلى الحياة عن غيره لأنه سوف ينظر بعيداً . . . ينظر إلى الحياة الآخرة . . . ويحسب لها حساباته النفسية، والسلوكية، بخلاف من لا يؤمن

بالله واليوم الآخر، فإنه يرى هذه الدنيا، هي البداية وهي النهاية، وتقوم حساباته على هذا الأساس، فتطغى عليه نوازع الشر، ويزوب في المادة، وفي الدنيا، لا يهتم إلا بالجانب الذاتي في سلوكه مع الآخرين، وتموت في نفسه القيم والمبادئ، وتضيع لديه الموازين والمعايير الأخلاقية، لا يتحرك إلا إذا كان في تحركه مردود مادي، ليحقق المكتسبات الشخصية، لا يهتم أحد سوى نفسه. فهو لا يؤمن أساساً بالعمل الصالح، والأخلاق الدينية الفاضلة .

ولكن المؤمن، تحيا نفسه في دائرة أوسع بكثير من دائرة الدنيا المحدودة . . .

يسبر أغواراً بعيدة، في عوالم ما بعد الموت، والآخرة . . . انه يرى في عقيدته مجموعة متكاملة من المناهج، والبرامج، والنظم التي تنظم له الحياة الدنيا، وكذلك الآخرة، وتحكم سلوكياته وتحركاته . .

يقول القرآن الكريم :

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١) .

إن هذه الآية القرآنية الشريفة، وغيرها من الآيات الكريمة، ترسم للمؤمن نهجاً حياتياً، وتجعله على هذا النهج، وكيف نفسه وفقه، ويتبع خطوطه ومنحنياته، فهو يرى كل حلال طيباً، تستطيه نفسه، وكل حرام خبيثاً تأباه نفسه، ويرى في العبودية لغير الله، غلاً وقيداً يحاول أن ينفك عنه جهد إمكانه، ويعتقد أن الدين الإلهي الذي يعتنقه، هو النور الذي يستكشف به دروب الحياة الحالكة، ويهتدي به في ظلمات الدنيا . . .

انه يحيا لله، ويعمل لله وللناس . . ويخطط للآخرة أكثر مما يخطط

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٥٧ .

للدنيا، وتنعكس كل معتقداته الدينية على نفسه، وتلقي بظلالها على كل تحركاته في هذه الحياة . . .

إن الصفات التي يعتبرها الإسلام سيئة، كالأنانية، وحب الذات، والتعالي والتكبر، وحب الرفعة، وغير ذلك . . . لا تتوفر في المؤمن، لأنه - ومن منطلق الفكر الديني الذي يحمله - يتنازل عن ذاته، ليتوجه إلى الآخرين . . . ويظهر ذلك بجلاء، في أخلاقه، وصفاته، وأطواره قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، في صفة المؤمن :

«بُشْرُهُ فِي وَجْهِهِ، وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ، أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْرًا، وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْسًا، يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ وَيَشْنَأُ السُّمْعَةَ، طَوِيلُ غَمٍّ، بَعِيدُ هَمٍّ، كَثِيرُ صَمْتٍ، مَشْغُولُ وَقْتٍ، شَكُورٌ صَبُورٌ مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ، ضَنِينٌ بِخُلَّتِهِ^(١) سَهْلُ الْخَلِيقَةِ، لَيْنُ الْعَرِيكَةِ، نَفْسُهُ أَصْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ الْعَبْدِ»^(٢).

يؤكد الإمام عليه السلام، في هذه المقطوعة، على كون المؤمن، يتصرف بوحى من عقيدته ودينه، لا بما تمليه عليه مصالحه وأهوائه، فيجاهد نفسه، ويغالب هواها، ويجعلها مسخرةً منقادةً لأعراف وأخلاق دينه.

يحاول جاهداً، أن يحتفظ بحزنه لنفسه، فلا يؤذي به الآخرين، ويرسم في وجهه بشراً وبشاشةً للناس . .

يمرُّ نفسه على أن يكون له صدرٌ رحب، لاستقبال هموم الناس ومشكلاتهم . . .

ويتذلل للمؤمنين، ولا يحب أن يترفع على أحد منهم، مع قوة في النفس، وبُعدٍ في الهمة . .

يفعل كل ذلك لله، لأنه تعالى أمر بذلك، ولأنه يثاب على ذلك عند الله، وليترك ذكراً حسناً في الناس، كل ذلك تمليه عليه عقيدته الإسلامية، ولولا الإيمان لما كان ثمة داعٍ لِيُحْمَلَ نفسه فوق طاقتها .

(١) خُلَّتُهُ : حاجته، أي لا يذكرها لأحد، ويضنُّ بها على الناس، ويذكرها لله وحده .

(٢) شرح نهج البلاغة للحديدي المجلد : ٥، ٦٢٧ طبع دار الحياة بيروت .

اذكر - هنا - رواية عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، تناسب هذا المقام :

كان ابنه (اسماعيل) أكبر أولاده، وهو ممن جمع الفضيلة والعقل والعبادة، وكان الصادق عليه السلام ، يحبه حباً شديداً، حتى حسب بعض الناس، أن الإمامة فيه بعد أبيه وصادف أن ألم به مرض شغل بال الصادق عليه، واشتدت به العلة، حتى أشرف على الموت فعظم حزنه عليه، وفي أثناء ذلك حضر بعض أصحابه عنده، واجتمعوا في داره، ليطعموا على مائدته فبلغه خبر موت اسماعيل، فلم يظهر عليه شيء، وقال لأصحابه : المائدة، وجعل فيها أفخر الأطعمة، وأطيب الألوان، ودعاهم إلى الأكل، وحثهم عليه، لا يرون للحزن أثراً عليه فلما أتموا طعامهم، علموا بموت اسماعيل، وكانوا يحسبون انه سيجزع، ويبكي، ويتأثر ويتألم لموت ولده العزيز، ولكنهم لم يشاهدوا عليه أثر ذلك، فسألوه عن ذلك، فقال : (وما لي لا أكون كما ترون، وقد جاء خبر أصدق الصادقين : إني ميت وإياكم!)^(١) .

أية قوة، وصلابة، هذه، في نفس هذا الإمام العظيم ؟ بحيث يملك عواطفه ومشاعره، ويغالب حزنه على وفاة ولده العزيز، ويستقبل أضيافه ببشر وبشاشة، ويخفي عنهم ما يكابده من حزن عميق على فراقه !!

إنها تعاليم هذا الدين العظيم، وتجربة الصادق عليه السلام ، تكشف عن مدى جديته في الانقياد لهذه التعاليم، والأخلاق العالية .

إنها النفس المؤمنة التي تكون أصلب من الصلد !!

التقوى :

إن النفس البشرية مستقر للفجور والتقوى، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، غلبت عليه صبغة التقوى في نفسه، وساقته إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات، ومن أعرض عن الدين والإيمان، غمره الفجور، وغرق في الضلال ..

(١) الإمام الصادق للمظفري : ٢٦٩/١ .

﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ (١).

وقد مَكَّنَ الله عز وجل، الإنسان من التصرف في نفسه، ومنحه القدرة الكافية لتحديد وتغيير مسار النفس، وتركه مُخَيَّرًا لا مُسَيَّرًا، يختار بنفسه لنفسه الطبيعة التي يفضلها، إن كانت فجوراً أو تقوى. وبذلك يصرح إمام المتقين، أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول : «إنما هي نفسي، أروضها بالتقوى، لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق» (٢).

أي يحملها ويمرّنها على التقوى، وإن كان ذلك عسيراً بعض الشيء، ولكنه يملك من القدرة أن يُوطِّن فيها التقوى، ويجنبها الفجور والانحلال .

ينبّه الإمام عليه السلام، أنّ النفس المؤمنة، تلك التي تفرض على ذاتها قيوداً خاصة في هذه الدنيا، لتحقيق المكاسب الأخروية، لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر. . لتسعد بالنعيم والراحة عند الله. إن الله تعالى، أرشد بني البشر، إلى أن اختيار الفجور سيؤدي - لا محالة - إلى التهلكة والدمار، وعبر سبحانه وتعالى عن فجور النفس، بالطغيان في بعض الأحيان .

﴿فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيم هي المأوى﴾ (٣).

وإن اختيار التقى سينتهي بالإنسان إلى السعادة والخير لا محالة .

﴿وأما من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنة هي المأوى﴾ (٤).

إن النفس يوم، وغد، ففي يومها على الإنسان أن يسير بها إلى الهدى والنور وينتهي بها إلى الله . .

﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه واللّه بكل شيء عليم﴾ (٥).

(١) سورة الشمس ؛ الآية : ٧ .

(٢) نهج البلاغة : كتابه لعثمان بن حنيف الأنصاري .

(٣) سورة النازعات ؛ الآيات : ٣٧ - ٣٩ .

(٤) سورة النازعات ؛ الآيتان : ٤٠ - ٤١ .

(٥) سورة التغابن ؛ الآية : ١١ .

وفي غدها ، عليه أن يستعدّ ويتزوّد لها، وينظر لمستقبلها . . وهو ما يأمر به القرآن الكريم، وتحثّ عليه شريعة الإسلام .

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾^(١) .

وبهذا الشكل تحصل النفس على الاستقرار والاطمئنان، لأنها تعيش في كنفِ الله وتحيا مع الإيمان والهدى . .

إن الحياة تكون أجمل وأحلى، لو عاشها الإنسان بهدوء البال، واطمئنان خاطر، ويزداد عطاء الإنسان، ويتضاعف عمله، إن كانت نفسه آمنة مستقرة ولا يتم ذلك إلا بالاستناد إلى الله تعالى، والالتزام بمنهجه السامي، والاعتماد عليه في كل الأمور، وفي كل الأحوال .

﴿ألا يذكر الله تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢) .

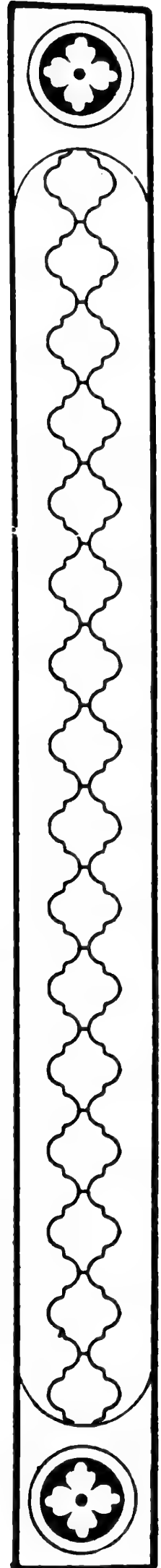
إن نفس المؤمن متصلة بالسما، تسترشد بها، وتستمدّ منها الهدوء والسكينة والقوة والعزيمة، والإصرار على مواصلة العمل الصالح، واسعاد النفس في الدارين .

﴿هو الذي أنزل السكينة على قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً...﴾^(٣) .

(١) سورة الحشر ؛ الآية : ١٩ .

(٢) سورة الرعد ؛ الآية : ٢٨ .

(٣) سورة الفتح ؛ الآية : ٤ .



الإنفعال : حالة تؤثر نفسية في الكائن الحي، تصحبها تغييرات فسيولوجية داخلية، ومظاهر جسمانية، تصدر عن النفس .

وحياة الأفراد مليئة بالانفعالات المختلفة، ويمكن تقسيمها إلى نوعين : سارة وغير سارة، من فرح وسرور، إلى حزن وبكاء، وقد قسّم علماء النفس هذه الحالات إلى معتدلة، وحادة، فأطلقوا على الحالات المعتدلة : (الحالات الوجدانية) وعلى الحالات الحادة : (الحالات الإنفعالية)، ولا يعود هذا التقسيم إلى الاختلاف في نوع الانفعال، بل يعود إلى الاختلاف، في درجته .

فالإحساس باللذة، والراحة، والسرور، يدخل ضمن الحالات الإنفعالية أيضاً، ولا يوجد فاصل بين هذه وتلك، لهذا يطلق علماء النفس على كل هذه الحالات : (الحالات الإنفعالية) .

«وللإنفعالات دور كبير في حياة الناس، ويعتبرها علماء النفس دافعة للسلوك الإنساني انفعالات تنجم عنها أفعال وحركات، فرؤية ثعبان - مثلاً - تدفع الفرد إلى الخوف الشديد، الذي يجعله يقفز، بدرجة لم يكن يستطيعها في الحالات العادية»^(١).

أذكر مثلاً آخر: وقع حريق هائل في منى أيام الحج، عام ١٩٧٥ م،

(١) التحليل والصحة النفسية، إبراهيم العجمي ومحمد زيدان .

أثر انفجار قنينة غاز في خيمة من الخيام هناك، مما أدى إلى إحداث حريق هائل، طال خياماً كثيرة في تلك المنطقة، وأصيب كثيرون في تلك الحادثة المروعة، فكان الناس يفرّون بعيداً عن النيران التي كانت تلتهم كل شيء بسرعة .

رأيت امرأة عجوز كانت لا تقوى على الحركة، وتتنقل على كرسي متحرك قبل الحريق، رأيتهـ حين اشتعلت النيران - تفرّ مهرولة صوب مرتفع هناك، لتبتعد من النار، وكأنها لم تكن تعاني ألماً في أرجلها.

كنت أرى المرضعة تذهل عن رضيعها في تلك اللحظات الرهيبة، أثر الخوف والفرع الناتجين انفعالاً وتأثراً بالحريق . . .

وربما يشير القرآن الكريم إلى هذا الانفعال، لدى الناس، حين يتحدث عن قيام الساعة، وشدة الخوف الذي يصيبهم، فيقول :

﴿... يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَرى النَّاسَ سُكَّارٍ وَمَا هُمْ بِسُكَّارٍ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(١) .

ويقول عن ذهول الناس وشتاتهم :

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ المنفوشِ﴾^(٢) .

فأكثر السلوك ناتج عن انفعالات معينة، والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصى، وهو من تأثيرات النفس على الجسم .

خصائص السلوك الانفعالي :

وثمة خصائص يتميز بها سلوك الفرد حين الانفعال، والتأثر النفسي :

١ - ففي حالة الحب والحنان، يحاول الفرد أن يقترب من موضوع انفعاله، ودوافعه، بينما في حالة الخوف، يحاول الابتعاد عن مصدر هذا

(١) سورة الحج ؛ الآية : ٢ .

(٢) سورة القارعة ؛ الآية : ٥ .

وهو في كلتا الحالتين يعمل على تعبئة قواه للوصول إلى هدفه، لهذا يوصي علماء التربية النفسية، المعلمين، والمشرفين على تربية وتعليم النشء أن يكون تعاملهم مع الطلاب متصفاً باللين، والهدوء، والمحبة، ويتعدوا كل البعد عن الغلظة، والقسوة، والشدة ليميل الطالب إلى معلمه، ويقترب منه . ولو سبب تعامل المربي خوفاً لدى تلميذه، لتنفّر وابتعد التلميذ طبعاً عن مصدر هذا الخوف .

وقد أخذ الله سبحانه وتعالى على نبيه المصطفى أن يكون ليناً، هشاً، بشاً، حكيماً، في تربيته للناس، لأنه المعلم الأكبر، والمربي الأعظم ﷺ :

قال تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١) .

وقال عز من قائل : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (٢) .

وقال : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) .

انه أدب القرآن . . . يعطي أهمية للجانب النفسي في التربية، ويريد من النبي ﷺ أن يغوص في أعماق النفوس، ويمتلك القلوب، باللين والبشاشة، وحسن الخلق .

٢ - يختلف هذا السلوك من شخص لآخر، من حيث القوة والضعف، ففي حال يكون الانفعال شديداً فإنه يسيطر على كل أنواع السلوك الأخرى، وأحياناً يكون ضعيفاً غير ملحوظ .

قد يغضب أحدٌ فيتجاوز حدود المعقول في سلوكه، من ضرب، وسب،

(١) سورة النحل ؛ الآية : ١٢٥ .

(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٥٩ .

(٣) سورة الشعراء ؛ الآية : ٢١٥ .

واعتداء، وقطع للأواصر، وما إلى ذلك من الأعمال الشائنة، الغير محمودة .
وقد يغضب شخص آخر، ولكنه لا يظهر عليه أثر للغضب، لبرود في
طبعه، أو لقدرة على كظم الغيظ. وستحدث عن هذا الموضوع في فصول
قادمة إن شاء الله .

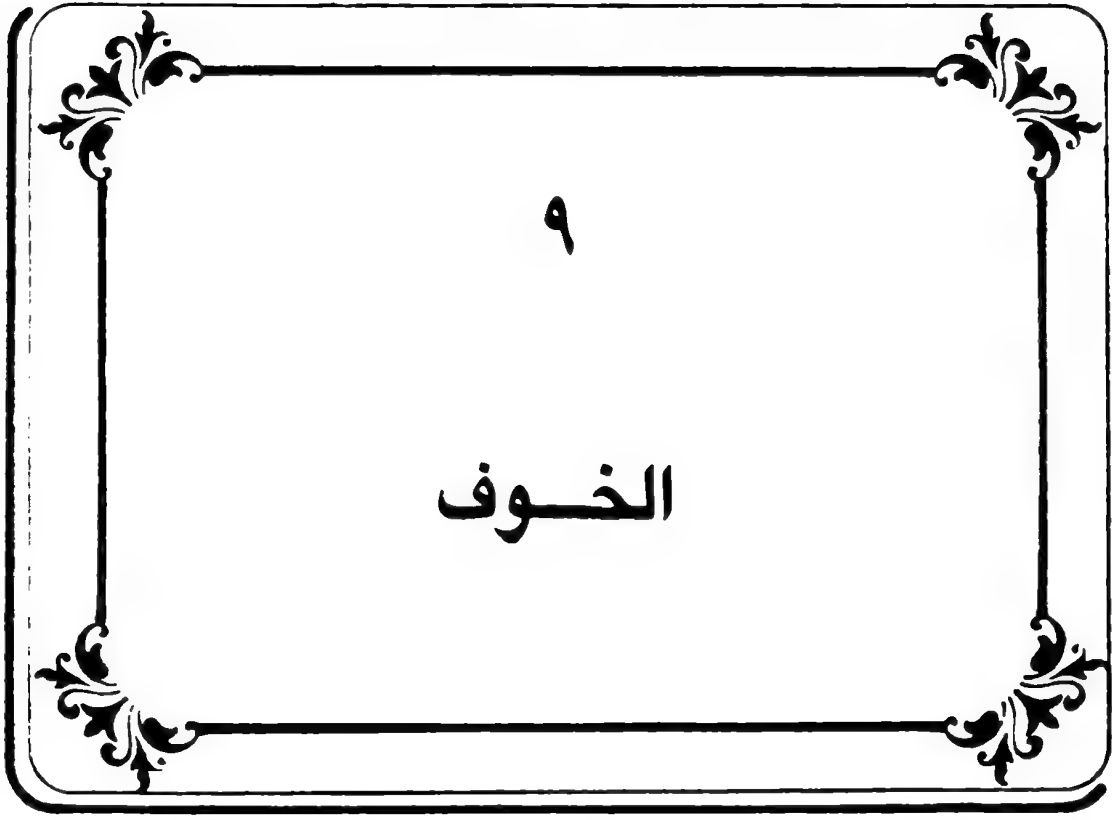
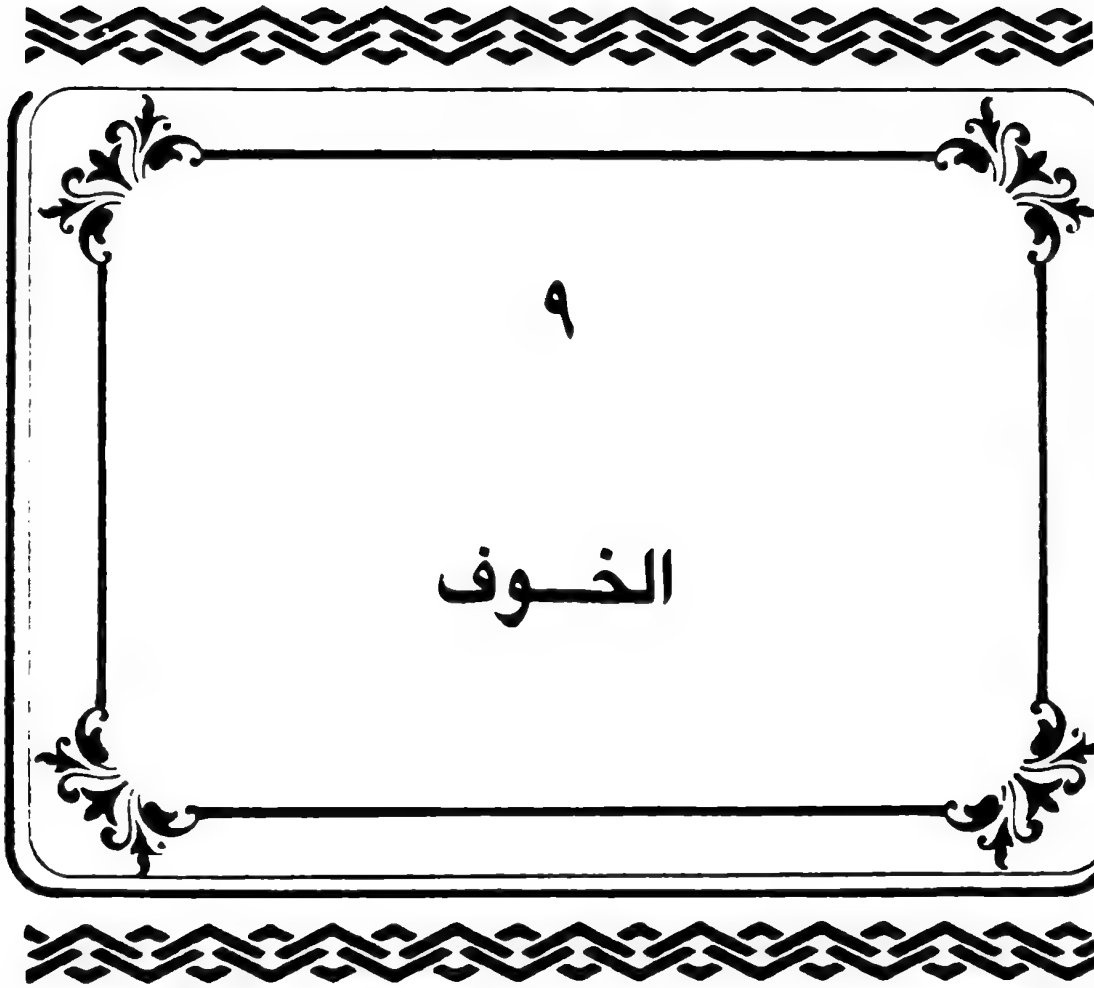
٣ - تأخذ (الاستجابة) في مقابل (المثير) أو ما سميناه بالانفعال، في
التباين، والتنوع، تبعاً للتعليم، والثقافة، والعمر. فالطف قد يفعل لأتفه
الأسباب، وذلك لصغر سنّه، بينما الكبير قد لا يفعل سريعاً لمثير معين .

كذلك الحال للمتعلم وغير المتعلم، والمثقف وغيره، وذلك لتباين
واختلاف الإدراك من شخص لآخر. . قد يقال لبعض السوقة: أنت كذاب،
فلا تثيره هذه الكلمة، ولا يؤذيه هذا الاتهام. . ولكن لو قيلت لرجل من أهل
الفضل والعلم، فإنه يثور، ويستفز للدفاع عن نفسه، ولنفي هذه التهمة
القيحة، وربما غضب كثيراً، لأنه يرى في وصفه بالكذب نوعاً من الاهانة
الشديدة !

٤ - يضيف علماء النفس - أيضاً - التغيرات الفسيولوجية التي تطرأ على
سلوك الناس (الانفعالي) من تغيرات في ضغط الدم، إلى احمرار الوجه في
حالة الخجل، وشحوبة اللون في حال الخوف . . .

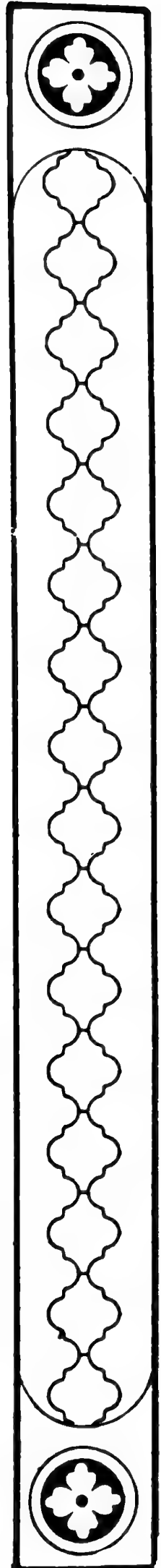
ذكر عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي، في شرحه لنهج البلاغة :
إن عمر بن الخطاب، استدعى امرأة ليسألها عن أمر، وكانت حاملاً، فلشدة
فرعها منه، ألقت ما في بطنها، فأجهضت به جنيناً ميتاً^(١) .

(١) شرح ابن أبي الحديد : ج ١ ضمن شرح الخطبة الشقشقية .



٩

الـخـوف



الخوف : نوع من أنواع الانفعال، ولا يمكن أن تخلو منه نفس، وإذا كان الإنسان يخاف الخطر ويخشاه، فذلك شيء طبيعي في حياته، وفطري ينبع من أعماق ذاته. ولا يمكن اعتبار الخوف عيباً أو نقصاً، في حياة الإنسان، ولا يمكن حذفه كلياً، واقتلاع جذوره نهائياً.

ولكن المطلوب : أن لا يحدث فيه إفراط، وان يوجّه إلى الأخطار الحقيقية، الواقعية التي تهدد الإنسان بالفعل، وليس نحو المخاطر التافهة الصغيرة ..

المطلوب : أن لا يقف الخوف حائلاً وحاجزاً دون السير والتقدم في الحياة، أن لا يتحول إلى مانع يمنع الإنسان من مواصلة التحرك والعمل
وقد تطرّق القرآن الكريم إلى موضوع الخوف، وأنواعه، ودواعيه، وأحوال الخائفين، في أكثر من مائة وثلاثين ١٣٠ آية، من آي الذكر الحكيم .

كما ذكر لفظة الخشية (التي هي بمعنى الخوف أيضاً) في أكثر من أربعين ٤٠ آية .

ولا شك أن القرآن الكريم، يحاول من خلال آياته، تزكية النفوس من الشوائب، وتقويمها، وإصلاحها، والأخذ بيد الإنسان إلى الوجهة الصحيحة الصالحة لذا بحث القرآن هذه القضية (المشكلة) من جوانب عديدة،

وفصل فيها، وتحدث عن جذورها، وأسبابها . . وعن الخوف الموضوعي، والغير الموضوعي، وعن جوانب عديدة ربما تأتي على ذكرها مستقبلاً إن شاء الله .

وفي حالة الخوف، يتسم السلوك الانفعالي، عادة، بالحالات التالية :

١ - تزداد سرعة ضربات القلب، حتى يشعر الخائف - في بعض الأحيان - أن لا قلب له أي يستشعر الموت لشدة ضربات القلب. يحدثنا القرآن عن مثل هذا الخوف، الذي يعاني منه بعض الناس يوم القيامة، فيقول :

﴿وَأَنْذَرُهم يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ﴾^(١) .

ويقول : ﴿مُهْطَعِينَ مَقْنَعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْثَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾^(٢) .

٢ - اتساع حدقة العين في حال الانفعال: وعن ذلك يقول القرآن الكريم، مُذكراً بالخوف الذي اعتري المسلمين يوم الأحزاب، حيث تكالب عليهم العدو، وزحف صوبهم، بالعدّة الوفيرة، والعدد الكثير، وحاصر المسلمين، مما جعلهم يعانون خوفاً عظيماً ما ألفوه من قبل .

﴿إِنْ جَاءَوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾^(٣) .

ويرسم القرآن صورة أخرى عن الخوف، وتأثيره على العين، في قوله تعالى :

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ . . .﴾^(٤) .

(١) سورة غافر ؛ الآية : ١٨ .

(٢) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٤٣ .

(٣) سورة الأحزاب ؛ الآية : ١٠ .

(٤) سورة الأحزاب ؛ الآية : ١٩ .

٣ - يؤثر الاضطراب الانفعالي في سيل اللعاب في الفم، إذ تقل كميته، ويجف الفم والحلق .

٤ - تحدث انقباضات في الجهاز الهضمي، أو قل: عدم انتظام، وسوء هضم بشكل عام، مما قد يؤدي إلى فقدان الماسكة، في بعض الأحيان، وفقدان الشهية .

٥ - وقوف شعر الرأس أحياناً، وفي بعض الأحيان، ابيضاضه سريعاً، بسبب الخوف .

٦ - تغير نظام التنفس، والشعور بضيق الصدر، ذكر الله عز وجل ذلك عن موسى عليه السلام حين كلفه بالنبوة، وحمل أعبائها إلى فرعون، ودعوته إلى الله، والإيمان به .

قال تعالى، عن لسان موسى، وهو يستشعر الخوف من المواجهة الصعبة :

﴿ويضيق صدري ولا ينطق لساني﴾^(١) .

ويذكر دعاءه وسؤاله من الله في نفس الموقف :

﴿قال رب اشرح لي صدري...﴾^(٢) .

ولا يُستبعد أن تكون في الآية إشارة إلى تلثم اللسان في حال الخوف أيضاً، (فربطت بين ضيق الصدر وعقد اللسان)، وهو واقع يعرفه الخطباء أكثر من غيرهم، حيث يمرون بهذه التجربة في أحيان كثيرة، وبخاصة عندما يكون مبتدئاً في هذا الفن، جديداً عليه، فيتعرض لضيق الصدر، وتلثم اللسان كثيراً...

كذلك في الحالات التي يشعر فيها الخطيب أن المستمع أدري منه، وأكثر إحاطة، بما يحاول قوله، أو أن المستمعين من الكثرة بحيث تأخذه هيبة المجلس .

(١) سورة الشعراء ؛ الآية : ١٣ .

(٢) سورة طه ؛ الآية : ٢٥ .

ذكروا أن الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام ، كانت تستمع إلى ولدها الحسن المجتبي عليه الصلاة والسلام، يودد لها أحاديث جده المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهو طفل صغير، وكانت تذكر ذلك لعلّي أمير المؤمنين عليه السلام ، فيتعجب من ذلك، وأحبّ يوماً أن يسمع من ولده، حين يحكي لأمه عليها السلام ، أخبار جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاخفى وراء الباب، وجلس الحسن على عادته ليقصّ على والدته، ما سمع من جده.. ولكنه هذه المرة تلكأ في كلامه، وعجز عن الحديث ولما سألته أمه الزهراء عليها السلام عن سبب ذلك؟ قال: يا أمّاه، كلّ لساني، وقلّ بياني، لعلّ سيداً يرعاني) وعلى رواية: (لا تعجبي يا أمّاه فإن كبيراً يسمعي، فاستمعه قد أوقفني) ^(١).

إن ما تعنيه هذه الواقعة، هو أن قوة شخصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، أثرت في نفسية ولده الحسن عليه السلام ، وهو طفل صغير، فمنعته من الكلام.

إن الخوف البالغ، ينعكس سلباً على سلوك المتكلم، في كثير من الأحيان، في حال الخطبة فيُسَدّ عليه مسالك القول، ويظهر عليه الارتباك، ورُبّما أرتج عليه، ويصاب الخطيب عادة بالتوتر، مصحوباً بتصبّب العرق.

وتختلف هذه الحالة من خطيب لآخر، حسب اختلاف النفسيات، أو الظروف المحيطة بالمتكلم، أو مدى شدة الخوف الذي هجم على قلبه، وربما ينسى الخطيب كل تلك المواضيع التي هيأها للإلقاء ^(٢).

والمظاهر البدنية للخوف كثيرة، منها: خفقان القلب، وسرعة النبض، ومنها: الشعور بالتوتر، والقشعريرة، وعرق راحة اليد، وتصبّب العرق البارد، وفقدان الشهية، والشعور بوخز في الظهر، وجلد الرأس، والشعور بالضعف، والدوار، والغثيان، وربما الطنين في الأذن، والقيء، والإغماء في بعض الحالات.

(١) بحار الأنوار للمجلسي : ٣٣٨/٤٣ .

(٢) راجع البيان والتبيين للجاحظ .

ولعل الكثير من الأفراد لا يدركون هذه المظاهر، لأنهم لم يمرّوا بمثل هذه التجارب، في حين أن البعض الآخر يدركها جيداً، لأنّه جرّبها في فترة من فترات حياته، فالذي حدث وأن تعرّض للخوف الشديد في بعض المواطن، يعرف مدى صحة هذه الحقائق .

إذن فالخوف انفعال، ولكنه قد يقوم بدور الدافع، لأنه يدفع الخائف إلى الهرب من الموقف الذي أدّى إلى استثارة الخوف، كما حصل للمرأة العجوز في منى .

وقد قسّموا الخوف في علم النفس إلى نوعين :

١ - خوف موضوعي .

٢ - خوف غير موضوعي .

فالأول: هو الخوف الواقعي، الذي ينشأ عن مواقف تهدّد الإنسان بأخطار حقيقية، كالخوف من النار - مثلاً - أو الخوف من حيوان مفترس، فمصدر هذا الخوف حقيقي، واقعي، معقول، ولا يسمّى مثل هذا الخوف جُبناً، لأن الإنسان، بفطرته، لا بد أن يعتريه الخوف، لو كان مصدر الخوف موضوعياً يهدد بالخطر فعلاً.

قيل لرجل كان يفرّ مذعوراً، بين يدي ثورٍ هائج، لم تخاف منه؟

فقال: ولم لا أخاف منه؟! انه أكثر مني قوةً، وأقل مني عقلاً!

إنه خوف طبيعي، فطري يمليه الخطر الحقيقي، وهو من الاندفاعات، والميول الرئيسية في نفس الإنسان .

ولا يمكن أن يغفل القرآن عن هذه المشكلة في حياة بني البشر، ويتجاوزها دون أن يضع لها منهجاً قوياً، ويبين ملامح، وأبعاد هذه القضية، وقد سبق أن قلنا إن الكتاب العزيز، تطرّق إلى هذا الموضوع في عشرات الآيات، وفصّل في جوانب كثيرة من الخوف وذكر لنا - فيما ذكر - بعض المواطن التي أثارت الخوف في نفس بعض أولياء الله الصالحين من الأنبياء

وغيرهم .

فهذا نبي الله موسى على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام، ذلك الذي بعثه الله نبياً وأعدّة لمواجهة الطاغية فرعون، وزوّده بالمعاجز والآيات، ولكنه - رغم ذلك - حين رأى ما فعله السحرة، من تحويل الحبال والعصي إلى ثعابين هائلة، اعتراه خوف عظيم، دفعه للفرار والإدبار!

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾^(١) .

﴿وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدَبِّرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ...﴾^(٢) .

وخاف أيضاً حين أمره الله تعالى أن يأتي فرعون، ويدعوه إلى الله، وينهاه عن الشرك والكفر واعتذر بأنه قتل من الفراعنة قتيلاً، وهو الآن يخاف أن يأخذوه بالقتيل .

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^(٣) .

﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^(٤) .

ولكن كل ذلك الخوف كان طبيعياً، موضوعياً، معقولاً، نابعاً من فطرة بشرية سليمة ولا عيب على موسى عليه السلام، ولقد سلم الله عليه، وأشاد به، ورفع من شأنه، لاستحقاقه، وكفاءته في حمل أعباء الرسالة .

وهذه أمّة، تلك المؤمنة الصالحة، التي اختارها الله عز وجل لتكون أمّاً لنبيّ من أعظم أنبياء الله، داخلها خوف عظيم على وليدها (موسى) من بطش فرعون، وفتكه .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ، فَأَلْقِيهِ فِي

(١) سورة طه ؛ الآية : ٦٧ .

(٢) سورة القصص ؛ الآية : ٣١ .

(٣) سورة الشعراء ؛ الآية : ١٤ .

(٤) سورة القصص ؛ الآية : ٣٣ .

الْيَمُّ ﴿١﴾ .

وحق لها أن تخاف، فأبي والدتي لا تخاف على رضيعها، في مثل هذه الظروف القاسية ؟ ولو لم تكن خائفة، لقلنا عنها إنها خالية من العاطفة !

والثاني: الخوف الغير واقعي، وهو الخوف من أشياء لا تهدد الإنسان بأخطار حقيقية، كالخوف من الظلام أو الخوف من الحيوانات الأليفة، كالقطط مثلاً، وتسمى هذه المخاوف: (مخاوف طفيلية).

وفي بعض الحالات تكون هذه المخاوف الطفيلية رموزاً لمخاوف موضوعية، حقيقية، شعر بها الفرد في فترة سابقة من حياته، وخاصة أثناء الطفولة. وربما شكّل الخوف (مرضاً نفسياً) يحتاج معه الفرد المريض إلى العلاج، وهو الخوف الذي يحول دون التكيف الشخصي أو الاجتماعي الناجح للفرد، ويقف حائلاً دون ممارسته للحياة الطبيعية .

وفي مثل هذه الحالة يحتاج الإنسان إلى أن يعالج نفسه، ليتخلص من هذا الخوف العارض، يحتاج إلى أن يُحسَّ بوجود حائل أو مانع دون مصدر هذا الخوف، وإلا صار عائقاً في طريقه في الحياة، وسيطر عليه كالكابوس الثقيل الذي يجثم على نفسه. يعرقل مسيرة نشاطه وتقدمه، ويمنع طاقاته، ومواهبه من النمو والعطاء.

العلاج :

وليس أفضل للمؤمن من أن يجعل الله عز وجل، حائلاً بينه وبين مخاوفه، فالاعتماد على الله يجعله يشعر بالراحة التامة، والاطمئنان الكامل، ويحس أن هناك قوةً فوق كل القوى، تمنع عنه، وتحميه، وتدفع عنه الأخطار . . .

وربما تشير الآيات الكريمة من سورة (طه) إلى هذا العلاج النفسي

(١) سورة القصص ؛ الآية : ٧ .

للخوف، حين يذكر لنا الباري سبحانه وتعالى، الحوار الذي دار بين موسى وأخيه من جهة وبين رب العزة من جهة أخرى... وذلك حين حمله الله الرسالة، وابتعثه إلى فرعون وقومه، فاستشعر موسى الخوف - كما سبق - من الطاغية وأزلامه، وحق له أن يخاف، ولكن لا يحق له أن يدع هذا الخوف، يتمكن منه بحيث يعيقه عن أداء رسالته، ويقعده عن الالتزام بواجباته .

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى، قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾^(١).

أوحى الله تعالى إليه وإلى أخيه: أن لا داعي للخوف، فأنا معكما أحول بينه وبينكما، ولا أدعه أن يفرط عليكم، أو أن يطفئ... .

هنا تبددت مخاوفهما، وارتاحت نفسيهما، واطمأنت، ووثقا كل الوثوق أن ثمة قوة تقف حائلاً دون مصدر خوفهما، فلا بأس عليهما - إذن - من فرعون .

إن عظمة الأبطال، ليس في كونهم لا يخافون، بل في كونهم يتجاوزون حاجز الخوف. ليس عيباً أن يخاف الإنسان، ولكن العيب أن يوقفه الخوف في أثناء الطريق، ويهيمن على مشاعره وأحاسيسه، ويقيده عن الحركة !

المشكلة أن البعض يتكيف مع أمراض النفس، فلا يحاول معالجتها، وإصلاحها، والخوف المفرط نوع من أنواع المرض النفسي، ولا بد للإنسان من أن يقاومه ويعالجه، ليحيى حياة سعيدة.

في مسيرة العلاج، نحتاج أولاً إلى الاعتماد الكلي على الله تعالى، والإيمان به سبحانه، كما فعل الأنبياء والرسل جميعاً، وكما صنع نبينا الكريم ﷺ، في مواطن كثيرة من حياة الرسالة.. .

ونحتاج إلى شيء من الإرادة والتصميم في معالجة الارتخاء والخوف والجبن، وكذلك إلى شيء من الشجاعة، وقوة النفس، لاقتحام المخاوف

(١) سورة طه ؛ الآيتان : ٤٥ - ٤٦ .

الخوف لدى الأطفال :

يكتسب الطفل الكثير من مخاوفه، نتيجة بعض المشاهد السابقة التي مرَّ بها، فثمة كثير من الأطفال، يخافون من الظلام، لأن أمهاتهم أخفّتهم منه وهم صغار أو كان الليل عندهم ملازماً لبعض الأوهام الموحشة، وقد يبقى هذا الخوف ملازماً لهم إلى كِبَرِهِم.

وبعض الأطفال، يخافون من الحيوانات الأليفة، (وقد أجرى أحد العلماء النفسانيين تجربة بيّنت كيف يمكن للطفل أن يتعلم الخوف . .

قرب هذا العالم النفسي، فأراً أبيض إلى طفل صغير، فلم يخف منه أول الأمر، ولكنه - في المرة الثانية - حين قَرَّب الفأر إلى الطفل، أحدث في نفس الوقت، صوتاً شديداً مفاجئاً، بأن قرع قطعة معدنية بقطعة أخرى، أو بشيء آخر، فخاف الطفل من هذا الصوت المفاجيء الشديد، وبتكرار التصاحب بين الصوت الشديد الذي يُخيف الطفل، وبين مشاهدته للفأر، ابتدأ الخوف يتسرّب إلى نفس الطفل، وصار يخاف منه تماماً، كما يخاف من أي خطرٍ حقيقي، ولم يكن يخاف منه قبل ذلك^(١) .

وبهذا الشكل يكون بعض الأطفال، قد استقر الخوف في نفوسهم، وتعلّموا الانفعالات الكثيرة. ولذا ينبغي على الوالدين خاصة، وعلى الأهل عامة، مراعاة الجانب النفسي في الطفل، وأن لا يحاولوا إخافته من الأوهام، ومن لا شيء، عليهم أن يعلموه الاستناد إلى الحقيقة والواقع دائماً، حتى لا ينمو ضعيف النفس، مهزوز الشخصية، كما هو حاصل لكثير من الناس .

هناك الكثير من الأطفال ينظرون إلى المعلم نظرة الخائف، يثير انفعالهم، وينعكس ذلك سلباً على دراستهم وتعلمهم، والسبب في ذلك، أن هذا الطالب، واجه غلظة وقسوة من معلمه في يوم من الأيام، حين كان صغيراً، ابتدأ حياته الدراسية مصحوباً بالخوف وظلّ هذا الخوف ملازم له

(١) التحليل والصحة النفسية : ٣١ .

حتى أيام الكبر . .

أذكر مرةً ذهبت بإحد أولادي إلى المدرسة في اليوم الأول من السنة الدراسية، وفي السنة الأولى، الابتدائية، ولم يكن - حينها - بلغ السابعة من عمره، تركته في المدرسة وعدت إلى عملي، على أن يعود إلى البيت في باص المدرسة ظهراً، ولما عدتُ إلى البيت ظهر ذلك اليوم، وجدته عائداً من المدرسة باكياً، فاعتقدت أنه تضايق في المدرسة من أقرانه، أو بسبب عدم تعودِه على نظام المدرسة، كما هو شأن الأطفال في الأيام الأولى، أو شيء من هذا القبيل . . .

ولكنني اكتشفت سبباً آخر، غير الذي كنت أعتقدُه، اكتشفت أن المعلم قد ضربه بعضاً، ضربة شديدة، تركت أثراً في رقبته !

ذهبت به في اليوم التالي إلى المدرسة، وعرضت أثر الضربة على المعلم، ومن حسن الحظ أو من سوء الحظ، كان الأثر باقياً إلى اليوم الثاني . . وسألته عن سبب هذه القسوة مع طفل صغير، وفي أول يوم من دراسته، وما هو الذنب الكبير الذي اقترفه بحيث استحق هذه العقوبة !؟

أجابني : أنه - وفي أثناء الفصل - سأله أن يذهب إلى الحمام !

تملكني منه غضب شديد . ولكنني كظمت غيظي . . وقلت له : إن هذه الضربة قد تسبب له خوفاً دائماً في نفسه من الدراسة والمدرسة، ربما يظل الخوف ملازماً له طوال حياته الدراسية، وقد يستقر في أعماق نفسه، فيعيقه عن التعلم والدراسة، فمن المسؤول عن ذلك سواك؟ هل يصح من المعلم - وبخاصة معلم المراحل الابتدائية - أن يكون قاسياً بهذا الشكل مع هؤلاء الصغار؟ هل يدرك هذا الاستاذ، وغيره من الأساتذة، هذه المسؤولية العظيمة، تجاه هذه البراعم؟

كان الأجدر به أن يعامل الأطفال، معاملة الأبوة الحانية، المتسمة بالعطف، والمحبة، والحنان .

إن القرآن الكريم يأمر الأنبياء عليهم السلام، أن يتَّسم أسلوبهم في الدعوة إلى الله، باللين وخفض الجناح، وقول المعروف، والابتعاد كلياً عن الغلظة،

والشدة والحال أن الذين يدعونهم كبار عقلاء .

إن حمل الآخرين على الالتزام بالنظم والمقررات - وإن كانوا كباراً في أعمارهم - يقتضي الكثير من مراعاة الأحاسيس، والمشاعر، وتجنب القسوة في ذلك، فكيف لو أردنا حمل الطفل على نظام معين، وأسلوب خاص جديد في المدرسة، لم يألفه من ذي قبل في بيته ؟

إن المخاوف الطفلية أكبر أثراً من مخاوف الكبار، فلا ينبغي السماح لمثل هذه المخاوف، أن تستقرّ في نفوس الأطفال .

إنك تلاحظ الأطفال في أحواض السباحة، أو على سواحل الأنهار والبحار، تجد انفعالاتهم تختلف من طفل لآخر، تجاه الدخول في الماء، والسباحة فيه أول مرة . . فبعضهم يخاف من دخول حوض الماء، أو البحر خوفاً شديداً، وبعضهم يخاف بنسبة أقل، وبعضهم لا يخاف إطلاقاً، والسبب في ذلك عائد إلى الخبرات السابقة التي يحملونها عن الماء، فمن كانت أمه تعامله في حال الاستحمام بشدة وقسوة، وكان يتسرب الصابون إلى عينيه، مما يجعله يحسّ بالحرقة والألم، وكانت تصب الماء على رأسه بحيث كان يشعر بالاختناق من شدة تدفق الماء على رأسه ووجهه

هذا النوع من الأطفال، يبقى خائفاً من الماء، خذراً منه، ويستمر معه خوفه، ربّما حتى سنّ متأخرة .

أما الذي كانت أمّه تحاول إسعاده حال الاستحمام، وكانت تجعله يستأنس بالماء، وتقوم بغسل جسمه دون أي إزعاج أو ضجر، فهو - استناداً لتلك الخبرة السابقة - لا يخاف دخول حوض السباحة، أو البحر، ولا يستوحش من ذلك .

وهكذا نجد أن الخوف لدى الأطفال يكون منشؤه - عادة - الوالدين، والأهل، وعلى هذا النحو يتعلم الطفل كثيراً من مخاوفه، وانفعالاته الأخرى، وقد يتعلم الطفل التعبير عن انفعال الخوف بطرق مختلفة، فهو تارة يبكي، وأخرى يصيح ويصرخ وربما يمتنع عن الطعام، وقد يتعلم التلفظ بكلمات نابية

وعلاج كل ذلك، هو الثقيف الصحيح، والتربية السليمة، والاهتمام الكثير بهذا الجانب الأخلاقي في حياة الطفل، مما يجعلهم سعداء، ذوي سلوك سويّ، وأخلاق جيدة، ونضمن لهم المستقبل الزاهر .

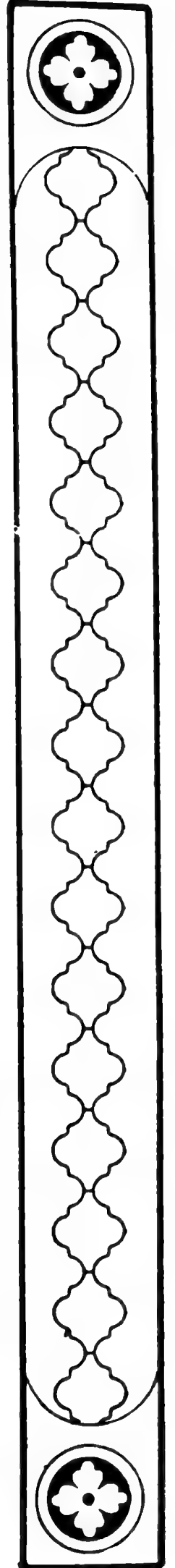
ربما يقال : علينا أن نعدّل الانفعالات لدى الأطفال بأسلوبين :

أولهما : تعديل الانفعال من ناحية المثير، فيمكن أن يشكل بعض الموضوعات مثيراً للانفعال أساساً، فالصوت العالي - مثلاً - لا يثير الخوف في حدّ ذاته، في نفس الطفل، فيمكن أن يتعلم الطفل - بالتجربة - الصوت العالي الغير مقترن بالخطر، وعلى هذا، يتدرب على سماع الأصوات العالية، والتصرف بهدوء .

مثال آخر : إن المعلم بطبيعته، إنسان عادي، لا يثير الخوف في نفس الطفل، ولكن لو ضرب الطفل، وصار مصدر تهديد له، فإنه يصبح مثيراً للخوف، وذلك لأن الضرب يثير الخوف، وبذلك يقترن المعلم - في خبر التلميذ - بالضرب، فيكون مثيراً للخوف .

وثانيهما : أن نعدّل الانفعالات عن طريق التعلّم والثقافة، وإفهام الواقع والحقيقة للأطفال، بالاسلوب التربوي، والتعليمي، فالطفل ربما ثارَ وغضبَ، وضربَ من يمنعه عن لعبته، ولكن - وتحت تأثير التعليم - يتمرن على أساليب أخرى للتعبير عن غضبه، وعلى هذا يتعدل الانفعال حسب الطرق الثقيفية المعهودة، والتربوية التي يدعو إليها الإسلام، والتي تُذكر في مجال تربية الأولاد، وأصولها، وآدابها في الكتب الاختصاصية .

وبالجملة : قد يكتسب الطفل بعض مخاوفه الغير واقعية، منذ أيام الصبا والطفولة، وربما استمرت هذه المخاوف، واقتترنت بحياته حتى سنين متأخرة، وصارت تهدد حياته، وتقف عائقاً في طريق ممارسته الطبيعية للحياة، دون أن ينتبه الأهل والوالدان، أنهم السبب الرئيسي في ذلك .



١٠

الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

وبمناسبة الحديث عن الخوف، وأنواعه، نأتي على ذكر (الخوف من الله تعالى) لنحدد مفهومه ومعناه، وكيف يكون هذا الخوف؟ ولماذا؟ وهل أن الله عز وجل يثير الخوف في النفس، بحيث يكون المؤمن بالله خائفاً منه؟ ولماذا يكون هذا الخوف من نصيب المؤمن، دون غيره من الناس؟ ..

كل ذلك اسئلة تراود الأذهان، ونحن بصدد الإجابة عنها.

أسلفنا: إن الانفعالات تشكل دوافع في حياة الإنسان، وبما أن الخوف نوع من أنواع الانفعال، فهو يشكل دافعاً يدفع باتجاه البعد، عن مصدر هذا الخوف، واجتنابه، وهو بعينه ما يريده الشرع من الناس، يريد منهم الاجتناب، والبعد عن الممنوعات، والمحرمات التي حرمها الله .

ثمة في التعاليم السماوية ممنوعات، يعبر عنها بالآثام، أو الذنوب، أو الخطايا. . وغير ذلك من التعابير المختلفة التي ترمز إلى النواهي، والمحرمات الشرعية، وقد ورد ما ورد من النهي عنها في الدين عن حكمة سماوية، وروعي في النهي مصلحة أبناء البشر، وأريد لهم الخير من ذلك، ونهي الدين عنها، كنهى الطبيب الجسماني، عن ما ينتج عنه الضرر للمريض، وإن كان طيب الطعم، حلو المذاق، ولكنه يضر بصحة المريض، ويعيق شفاؤه .

وبما أن النفس مجبولة على المخالفة، وعلى اتباع الهوى، والانصراف

إلى الممنوع، وردت تحذيرات الباري عزَّ وجلَّ، من العقاب في الآخرة.. وربما في الدنيا، وحدد للناس بعض صور العذاب، ورسمها بأسلوب تعبيرى مثير، بحيث تجعل النفس في خوف ووجل من هذا العقاب الأليم.

﴿كَلِمًا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ..﴾^(١).

﴿يُصَبُّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾^(٢).

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا مِنْ حَمِيمٍ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ﴾^(٣).

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾^(٤).

إن هذه الآيات، وأمثالها، من آيات العذاب، ترهب النفس، وتملأ القلب رعباً ووحشةً، وتدع العاصي في خوف عظيم، من هذه النتيجة المهولة.

إذن فهذهنا الخوف الواقعي.. من عقاب الله الشديد، وانتقامه العظيم..

إن أية قوة في الكون، مهما اشتدت وعظمت، لا يمكن أن تساوي شيئاً أمام قوة الله تعالى..

وكل الأخطار التي يخشاها الإنسان، ويحذرهما في الدنيا لا تعادل ذرةً من أخطار الآخرة وأهوالها..

ولكن - رغم ذلك - فالخوف في الحقيقة ليس من الله عزَّ وجلَّ، وإن كانت النصوص القرآنية، تدعو للخوف من الله تعالى :

﴿وَأَيَّاهِ فَارْهَبُونَ﴾^(٥).

(١) سورة النساء ؛ الآية : ٥٦ .

(٢) سورة الحج ؛ الآية : ١٩ .

(٣) سورة الحاقة ؛ الآية : ٣٦ .

(٤) سورة الغاشية ؛ الآية : ٦ .

(٥) سورة البقرة ؛ الآية : ٤٠ .

﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾^(١) .

﴿إنما ذلكم الشيطان يُخَوِّفُ أوليائه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾^(٢) .

ولكننا نعلم - بالقطع واليقين - أن الخوف المراد في الآيات، هو الخوف من العقاب المحتوم، الذي يسببه الإنسان المذنب لنفسه، بنفسه، كالخوف الذي يعتري المريض الممنوع من طعام معين، فهو يخشى سوء العاقبة، ولا يخشى الطبيب نفسه وإن كان الطبيب هو الذي أخافه ..

كذلك الخوف من الله عز وجل، إنه في الواقع، خوف من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة التي تنتظر الجناة والعصاة، أما المؤمنون الطائعون، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾^(٣) .

﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة...﴾^(٤) .

﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾^(٥) .

ومن خصائص هذا الخوف، أنه يبعد الإنسان من مصدره، ويجنبه مواطن الزلل ومسالك الخطر ..

إن الخوف من الله تعالى، لا يعني إزعاج النفس، وإيلامها، واشغالها بالقلق، بل هو عبارة عن منهج وسلوك، يُقَوِّم حياة الإنسان ..

إنه يعني الالتزام بحدود الله، وقوانينه، والفرار من المعاصي والذنوب، وتجنب الإعتداء على الآخرين وتجاوز حدودهم؟

إن الخوف من الله تعالى، يعني الامتناع عن الظلم، واستعباد الناس،

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٤٤ .

(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٧٥ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٣٨ .

(٤) سورة الأنبياء ؛ الآية : ١٠٣ .

(٥) سورة البقرة ؛ الآية : ٦٢ .

والحيث بهم .

إنه يعني - فيما يعني - الإقبال على العمل الصالح ، والمبادرة إلى الخير ، وإسعاد الحياة في الدنيا والآخرة ، إنه يعني : الالتزام بالمبادئ ، واحتضان القيم ، والعمل على بثها في المجتمع ، ونشرها بين الناس . .

أما الله عز وجل ، فليس من صفاته (الإخافة) بل على العكس من ذلك تماماً ، من صفاته (الرحمة) فهو الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، وهو أرحم الراحمين ، وهو الغفور الودود .

نعم ، يهدد تارة بالعذاب ، ويلوِّح أخرى بالثواب .

﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾^(١) .

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) .

والمطلوب : أن تستقر النفس في مكان وسط ، بين الخوف والرجاء .

يقول شاعر :

تَعَادِلُ الْخَوْفُ فِيهِمْ وَالرَّجَاءُ فَلَمْ يُفْرِطْ بِهِمْ طَمَعٌ يَوْمًا وَلَا وَجَلٌ

نقرأ في القرآن الكريم ، وفي النصوص الشرعية الأخرى ، آيات ودلالات النعمة والعذاب ونقرأ أيضاً آيات ونصوص الرحمة والمغفرة ، ولكن هذه أكثر بكثير ، من تلك ، فالمساحة التي زرعتها الله رحمة ومغفرة أكبر بكثير ، من تلك التي نثر فيها معاني الخوف ، وآيات العذاب .

إن ما نسمعه ، ونقرؤه من مشاهد الهول ، وصور العذاب ، في النصوص الدينية ، تشكّل موضوع انفعال في سلوك الفرد ، يؤدي إلى الخوف ، وهو ما يعبر عنه بـ (التقوى) .

إن الإنسان بطبعه ميال إلى الذنوب ، وتأمره نفسه بالسوء ، وتحثه على

(١) سورة الحجر ؛ الآيتان : ٤٩ - ٥٠ .

(٢) سورة المائدة ؛ الآية : ٩٨ .

الأخطاء، والانحراف والزيغ، وإن الله سبحانه، الحكيم في أفعاله، خلق جنة، وبشر بها الطائعين وخلق ناراً، وحذر منها العاصين، وجعل الإنسان يعيش بين الخوف والرجاء . .

ولولا خوفه من العقاب، وحذره من الألم، لمالت به نفسه إلى السوء والحرام دائماً ولكنه بالتقوى يُحذّر من زيغ نفسه وانحرافها، ويميل إلى حيث الأمن والسلامة، ويتجنب مواطن الخوف والبلاء .

ولقد حثّ الشرع على التقوى كثيراً، وأمر بها، ودعا إليها. واعتبر المتقين أكرم الناس على الله «إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» ^(١) وهي من صفات أهل الفضيلة وذوي النفوس الكبيرة والشرفاء والصلحاء من الناس.

إن مجموعة المشاهد المهيولة، من عذاب القبر، وأهوال الساعة، وعذاب النار، تشكل العامل المثير للخوف، والخوف، استجابة طبيعية لهذا المثير، ينتج عن هذه الاستجابة الالتزام الدقيق بأحكام الدين، واتباع النهج القويم، وكلما كانت الاستجابة أكبر وأعظم، كانت حالة التقوى في النفس أعمق وأصلب، وكان الالتزام بحدود الله أدق. ومهما ازداد المؤمن، علماً ومعرفة بالله تعالى، ازداد خشية منه .

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ^(٢) .

القسوة وليدة الأمن :

إن أسلوب الترغيب والترهيب الذي يتخذه الله عز وجلّ مع عباده، لهو أسلوب حكيم عظيم، يترك أثراً عميقاً في حياة الناس، فالله سبحانه، اتخذ هذه الطريقة في تنظيم حياة بني البشر، رغبهم وأطمعهم في الثواب من جهة، وخوفهم وأرهبهم من العقاب من جهة أخرى، ليتوطد الدين، ويتعمق في القلوب .

رغم أن هناك، من بين أولياء الله، من يعبد الله عبادة الأحرار،

(١) سورة الحجرات ؛ الآية : ١٣ .

(٢) سورة فاطر ؛ الآية : ٢٨ .

كعلي بن أبي طالب عليه السلام ، حيث يقول : (إلهي ، ما عبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنتك ولكن رأيتك أهلاً للعبادة فعبدتك) ، ولكن مثل هذا نادر قليل ، بل ويكاد يكون عديم الوجود ، بينما عامة الناس ، لا تستقيم حياتهم إلا بالزواج والأوامر ، وبالبشارة والندارة ، وبالوعد والوعيد .

ولو ترك الناس على حالهم دون ترغيب وترهيب ، لتغلبت عليهم نزعة الشر والفساد ، ولأعرضوا عن الله والدين ، وعن النهج القويم ، والصراف المستقيم !

إن الإنسان حين يأمن العقوبة بيطر ، ويطغى ، وتستيقظ في نفسه نوازع الشر والسوء ، ويفعل ما يشاء ، وما يحلو له ..

فما الذي يمنعه من ارتكاب المآثم ، وانتهاك الحرمات؟

إن الخوف من الله عز وجل ، هو الحائل الوحيد ، والسد المنيع الذي يحول بينه وبين الفجور والزيغ والفسوق ، فإذا زال هذا الخوف ، فليس هناك ما يردعه من الغي والفساد والظلم ..

وبناء على ذلك يبقى حراً طليقاً من قيود الدين والتزاماته ، فهو لا يتورع عن حرام ولا يتوانى عن معصية ، ولا يرى لزماً على نفسه أن يأتي بعمل صالح ..

يدع الصالحات ، ويعمل بالقبائح والمحرمات ، ويتبع هوى نفسه ، وتأخذ منه الدنيا كل مأخذ وربما آل به الأمر إلى الانسلاخ من الإنسانية ، ومفاهيمها ومعانيها . فكان أقرب إلى الوحش الكاسر منه إلى الإنسان السوي العاقل .

ومآل كل المفساد إلى القسوة ، فهي وليدة الذنوب ، والذنوب كلها تصدر من الأمن من عقوبة الله عز وجل .. وبالنتيجة : يضرب العبد بقسوة القلب ، والعنف والشدة ، وتنعدم من نفسه الشفقة والرحمة ..

والقرآن الكريم ، يؤكد هذا المعنى ، من خلال الآيات الكريمة ، إذ يعتبر القسوة نتيجة حتمية لسوء الفعال ، وقبائح الأعمال ، واقتراف المنكرات والمفاسد ..

يتحدث عن بني إسرائيل، حين ذهب عنهم الخوف، وأمن روعهم، فتمادوا في غيهم، وأعرضوا عن الله، وتولوا مدبرين عن أمر الله، وقتلوا أنبياءهم، وعبدوا العجل.. . وفعلوا ما فعلوا، بعد ذلك كله، يقول عنهم : ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة.. .﴾^(١).

ويقول عنهم وعن غيرهم من المعرضين، حين أمنوا عقوبة الله : ﴿فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم﴾^(٢).

وحين يزول خوف الله من النفوس، وتنتقض العهود والأيمان، ويستحقون اللعنة من الله تعالى، تُثمر هذه الانحرافات والانتهاكات، قسوة في القلوب :

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾^(٣).

وإذا حلت القسوة في القلب، فهناك المصيبة الكبرى، والسقوط في السحيق.. .

﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾^(٤).

إن القاسم المشترك بين كل الطغاة، والفجرة، والظالمين، والمتمردين على الله والزناة، والقتلة، وأهل الجور، وأرباب الفسوق.. . هو انعدام خوف الله من نفوسهم فلا يمكن أن نتصور أحداً، يخشى الله تعالى، ويتقيه، ثم يتجاوز حدوده في المآثم الكبيرة، والظلم، وقتل الأبرياء، واقتراف الفواحش، واجتراح المعاصي.. .

وإن من أبرز سماتهم القسوة، والعنف، والغلظة، والشدة.

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٧٤ .

(٢) سورة الحديد ؛ الآية : ١٦ .

(٣) سورة المائدة ؛ الآية : ١٣ .

(٤) سورة الزمر ؛ الآية : ٢٢ .

كما أن من أبرز صفات المؤمنين، الرحمة، واللين، والاشفاق على الناس .

عن النبي ﷺ : «المؤمنون هَيِّنُونَ ، لَيِّنُونَ ، كالجمال الأنف، إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ» (١) .

ونقل عن بعض الأولياء قوله : ما ضُربَ عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب (٢) !

إن عمر بن سعد، حين أقدم على الجريمة التاريخية الكبرى، قتل أبي عبد الله الحسين وأهله وأصحابه الميامين ﷺ ، في واقعة الطف، إنما فعل ذلك، من منطلق كونه مُردِّداً في جدية ما يقال، عن عذاب الله، وعقابه يوم القيامة، ونسبت إليه هذه الأشعار :

يقولون أن الله خالق جنةٍ	ونار وتعذيبٍ وغلٍ يدينِ
فإن صدقوا فيما يقولون إنني	أتوب إلى الرَّحْمَنِ من ستين
وإن كذبوا فزنا برِّي عظيمةٍ	وملكٍ عقيمٍ دائم الحجلين

وجاء في كتاب (تاريخ الدولة العلية العثمانية) :

إن السلطان (بايزيد خان) رابع السلاطين العثمانيين، كان له أخ أصغر منه سناً بقليل، يدعى يعقوب خان، خاف السلطان منه على مستقبل ملكه، وكان يريد أن تكون ولاية العهد إلى ولده، لا إلى أخيه، فأقدم على قتله شراً قتله (٣) .

وإن السلطان محمد ابن السلطان بايزيد، اقتدى بأبيه، فقتل أخوته، عيسى وسليمان وموسى، مستعيناً في قتلهم بمساعدة ومعونة ملك الروم، وذلك خوفاً على ملكه وسلطانه منهم (٤) .

والسلطان مراد الثاني، قتل عمه (مصطفى) شقاً، بعد حرب قامت

(١) - (٢) ربيع الأبرار : ١٣/٢ .

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك المحامي : ص ١٣٧ .

(٤) المصدر السابق : ١٤٨ .

بينهما، وقتل أخاً له يدعى مصطفى أيضاً^(١).

والسلطان محمد الفاتح، استهل حكمه بقتل أخ له رضيع اسمه أحمد، خوفاً من أن ينازع - إذا كبر - أولاده في الملك بعد وفاته^(٢)!! .

والسلطان سليم الأول، تاسع سلاطين بني عثمان، دس السُّمَّ لوالده، بايزيد الثاني وقتله، لأنه كان يستعجل اعتلاء عرش السلطنة، فكان له ما أراد، بعد الإقدام على قتل أبيه! ثم بدأ سلطانه بقتل خمسة من أولاد أخوته، ثم قتل أخاه أحمد، في معركة دارت بينهما، ولايجاد سبب للحرب مع إيران، حاصر قرية يقطنها أربعون ألف إنسان مسلم بريء، وكانت القرية، متاخمة للحدود بين تركيا وإيران، حاصروهم بطريقة سرية ثم أمر جنده بالهجوم عليهم، غدرأ وغيلة، وقتلهم عن بكرة أبيهم، ولم يبق منهم لا عامر دار، ولا نافخ نار، ولا طالب نار .

وفي أثناء هجومه على مصر قتل خمسين ألفاً من أهالي البلد في الشوارع والطرقات، لا لذنوب اقترفوه، بل ارعاباً لممالك حكام مصر فحسب، وكان ميالاً لسفك الدماء، فقد قتل سبعة من وزرائه لأسباب واهية، وكان كل وزير مهدداً بالقتل لأقل هفوة تصدر منه، حتى صار الناس يدعون على من يتمنون موته: بأن يصبح وزيراً للسلطان سليم^(٣).

والسلطان سليمان القانوني، استدعى ولداً له كان يقاتل في الجبهات، حامياً ثغور أركان السلطنة، فلما دخل عليه، هجم عليه بعض الحجاب، وقتلوه خنقاً بحبل شدوه شداً محكماً على رقبته حتى مات استجابة لرغبة إحدى زوجاته المعروفة باسم (روكسلان).

ثم بعث إلى مدينة بورصة، من قتل ابنه الرضيع (حفيدة) وتركت هذه القضية أثراً عميقاً في نفوس الناس، حتى قال بعض الشعراء في ذلك :

يادهرو ويحك ما أبقيت لي جلداً وأنت والد سوء تقتل الولدا

(١) المصدر السابق : ١٥٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٦١ .

(٣) المصدر السابق : ١٨٨ .

وكان للسلطان ابن آخر اسمه (جهانگیر) قتل نفسه أمام عين أبيه، حزناً على قتل أخيه ولم يكتفِ السلطان بذلك، بل أقدم على قتل ابنه الآخر (بايزيد) وقتل معه خمسة من أولاده، أربعة منهم قتلوا بالسيف، وهم: (أورخان ومحمود وعبد الله وعثمان) والخامس كان رضيعاً، فخنقوه!! ودفنوا جميعاً إلى جوار أبيهم في مقبرة الملوك، في مدينة بورصة^(١).

والسلطان مراد الثالث (الثاني عشر من سلاطين الدولة العثمانية) استهل حكمه بقتل أخوته، وكانوا خمسة، ليأمن على الملك من المنازعة^(٢)!

أما السلطان رقم ١٣ المدعو محمد خان الثالث، فقد تولى بعد أبيه مراد الثالث، وكان ابن جارية إيطالية الأصل، وكان له (تسعة عشر أخاً) فأمر بخنقهم جميعاً قبل دفن أبيه!! ودفنوا جميعاً، مع أبيه - تجاه مسجد اياصوفيا باستامبول^(٣).

والسلطان عثمان خان الثاني، وهو السادس عشر من سلاطين بني عثمان، أمر بقتل أخيه محمد تبعاً للعادة المتبعة، والسنة الجارية، في سلاطين بني عثمان، فقتل في العاصمة استامبول ودفن هناك^(٤).

ولم تكن هذه القسوة بدعاً من خلفاء وسلاطين العثمانيين، فقد سبقهم لمثلها ولأشد منها خلفاء بني أمية، وبني العباس، فقد اقترفت أيديهم أبشع صور العنف والقسوة مع الناس، وأراقوا من دماء الأبرياء، وازهقوا من أرواح الناس، وقتلوا من ذرية رسول الله ﷺ، ما لا يحصى عدداً، وما يندى له جبين التاريخ، وتقشعر منه الجلود وما نحتاج في سرده إلى مجلدات ومجلدات.

وليس العجب من قتلهم الناس حرصاً على الملك، وحفاظاً على السلطة، فهذا شيء اعتاده الناس منهم، وألفه التاريخ فيهم، إنما العجب من اعتدائهم، وقتلهم أقرب الأقربين إليهم، وعدم تورعهم من ازهاق أرواح أهليهم، وذرياتهم، وذلك لأتفه الأسباب، وأوهى الدواعي.

(١) المصدر السابق : ص ٢٤٨ .

(٢ - ٤) المصدر السابق .

فقد ذكروا عن الخليفة العباسي (محمد بن المعتضد) الملقب بالقاهر بالله، أنه حين بوع له بالخلافة ببغداد، قبض على ابن أخيه المكتفي، وطالبه بمال، فلم يقدر عليه، وعجز عن تسديده، فأمر به فأقيم في بيت، وسد عليه منافذ الهواء بالأجر والجص، حتى مات جوعاً وعطشاً وغماً^(١)!! .

وقبض على (السيدة) أم أخيه المقتدر، وطالبها بمال أيضاً، فلم تقدر عليه، فتهددها، وضربها بيده، وعذبها بنفسه أنواع العذاب، وعلقها منكوسة، حتى كان يجري بولها على وجهها، وهي تستغيث وتتوسل إليه، وتقول: أَلَسْتُ أُمُّكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ وَخَلَصْتُكَ مِنْ ابْنِي حِينَ أَرَادَ قَتْلَكَ؟ وَأَنْتَ تَعَاقِبُنِي بِهَذِهِ الْعَقُوبَةِ؟ وَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي مَالٌ! أَلَا تَخَافُ اللَّهَ؟ أَلَا تَخْشَى اللَّهَ؟ ثُمَّ إِنَّهَا مَاتَتْ عَقِبَ ذَلِكَ^(٢) .

هناك مقولة كثيرة التداول على ألسنة الناس، وهي: إذا لم تستح فافعل ما شئت، ولكن الصحيح هو: إذا لم تخف الله فافعل ما شئت، لأن الخوف من الله عز وجل، هو الرادع الوحيد، والمانع الأكيد، الذي يحول دون ارتكاب مثل هذه الآثام، فإذا انعدم أو زال، لم يبق ثمة ما يمنع من ارتكاب أبشع القبائح، واقتراف أسوأ الموبقات .

التقوى :

من هنا كان رسول الله ﷺ ، وكذلك عترته الطاهرون، ومن قبلهم الأنبياء جميعاً . ومن بعدهم، الأولياء الصالحون، كانوا - عمر الدهر - يحرضون على التقوى، والخشية من الله، ويؤكدون عليها، وكانوا أكثر الناس اتصافاً والتزاماً بها . وهذه سيرتهم، وأخلاقهم، وأقوالهم، كلها شاهدة على صدق وقوة التزامهم بتقوى الله سبحانه .

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام :

«وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر،

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميري : ١٢٩/١ .

(٢) حياة الحيوان الكبرى للدميري : ١٢٩/١ .

وَتَثُبَّتْ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلُوقِ» (١) .

يقول عليه السلام : إن تقللي واقتصاري من المطعم والملبس على الجشِبِ والخَشِنِ، رياضةً لنفسِي، لأن ذلك إنما أعمله خوفاً من الله عز وجل، أن أنغمس في الدنيا، فالرياضة بذلك هي رياضة - في الحقيقة - بالتقوى، لا بنفس التعلل والتكشف، لتأتي نفسي آمنة يوم الفزع الأكبر، وتثبَّت في مداحض الزلق .

وكان رسول الله ﷺ إذا قال: (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) يتغير وجهه، ويصفر لونه، فيُعرف ذلك في وجهه من خيفة الله (٢) .

وكان علي عليه السلام يعتق العبيد من كد يمينه، ويغرس النخل في أرضه، ويتصدق به على الفقراء، ويقول: إنما فعلت ذلك ليصرف الله عن وجهي النار (٣) .

وكان إبراهيم الخليل عليه السلام، يُسمع منه في صلاته أزيز كأزيز المرجل من خوف الله تعالى في صدره (٤) .

ولما اتخذ الله تعالى، إبراهيم عليه السلام خليلاً، ألقي في قلبه الوجع، حتى إن خفقان قلبه لُسمع، كما يُسمع خفقان الطير في الهواء (٥) .

وروي عن مسروق بن الأجدع الهمداني: إن المخافة قبل الرجاء، فإن الله تعالى خلق جنة وناراً، فلن تخلصوا إلى الجنة حتى تمرؤا بالنار (٦) .

وعن فضيل بن عياض الزاهد: إذا قيل لك: أتخاف الله تعالى؟ فاسكت، فإنك إن قلت لا، جئت بأمر عظيم، وإذا قلت نعم، فالخائف لا يكون على ما أنت عليه (٧) .

وكان علي بن الحسين، زين العابدين عليه السلام، يتغير وجهه في صلاته من خوف الله تعالى (٨) .

(١) شرح نهج البلاغة للحديدي : ٨٢٤/٤ .

(٢) - (٤) إرشاد القلوب للديلمى : ١٠٥/١ .

(٥) - (٧) ربيع الأبرار للزمخشري : ٤٠١/٣ .

(٨) إرشاد القلوب للديلمى : ١٠٥/١ .

وقال لقمان لابنه: يا بني، خف الله خوفاً لو أتيت به بعمل الثقلين خفت أن يعذبك، وارجه رجاء لو أتيت به بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر لك^(١).

وقال علي بن الحسين عليه السلام: يا بن آدم: إنك لا تزال بخير، ما كان لك واعظ من نفسك، وما كان الخوف شعارك، والحزن دثارك، يا بن آدم: إنك ميت محاسب، فأعدّ الجواب^(٢).

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا موسى، خفني في سرائرك، أحفظك في عوراتك^(٣).

وقال رجل للصادق عليه السلام: يا بن رسول الله، أوصني. فقال عليه السلام: إتق الله حيث كنت لا تستوحش^(٤).

والخشية ثمرة العلم بالله عز وجل، فلا خشية لمن لا علم له به سبحانه، والخشية سراج النفس، به تستنير في ظلمتها، وتهدي في غياهبها.

قال الله تعالى، في الحديث القدسي: «وعزّتي وجلالي، لا أجمع لعبدي بين خوفين وأمنين إذا خافني في الدنيا، آمنت به في الآخرة، وإذا أمني في الدنيا، أخفّته في الآخرة»^(٥).

فالخوف من الله عز وجل، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى المعرفة بالله، ومدى قوة الإيمان وضعفه. فمهما كان المرء أكثر معرفة، وأقوى إيماناً، كان أكثر خوفاً وخشية وتقوى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أخوفكم من الله»^(٦).

والنفس البشرية لا تستقيم إلا بالخوف والرجاء من الله تعالى، وبدون ذلك تظل متخبطة في مسالك الحياة الوعرة، تائهة في ظلمات اليأس والقنوط.

الرجاء بالله :

والخوف من الله عز وجل، لا يعني الهرب منه، بل الهرب إليه، لأننا

(١)-(٥) إرشاد القلوب للديلمى : ١٠٥/١ .

(٦) جامع السعادات للنراقي : ٢١٨/١ .

نفر من غضب الله وعقابه، إلى رحمته وثوابه، نتقي معاصيه لنجلب مرضيه .

إن من طبيعة النفس البشرية، أن تفر من مصدر الخوف والألم، إلى حيث الأمن والسلامة، فالتخوف من العذاب، هو - في الحقيقة - دعوة إلى الرحمة والرفقة، مثلنا مثل الطفل الذي يخاف إغصاب والديه، ويتجنب ذلك، ليستقر في أحضان حبهما وعطفهما، فهو يخاف منهما ولكنه في نفس الوقت، يرجوهما ولا يرجو غيرهما .

روي أن النبي ﷺ كان في بعض مغازيه، فبينما هم يسيرون، إذ أخذ بعضهم فرخ طير، فأقبل أحد أبويه، حتى سقط على يد الذي أخذ فرخه ..

فقال ﷺ : ضعهن عنك، فوضعهن، وأبت أمهن إلا لزومهن !!

فقال النبي ﷺ لأصحابه : «تعجبون لرحمة أم الفراخ على فراخها؟ قالوا: نعم يا رسول الله .

قال ﷺ : فوالذي بعثني بالحق نبياً، لله أرحم بعباده من أم هؤلاء الأفراخ بفراخها^(١) !

إن رسول الله ﷺ ، يريد أن يكرس معنى الرجاء في أذهان أمته، فيرجون الله بحجم ما يخافونه فلا يكونون في خوف دائم، بل يتخلل ذلك نور الأمل والرجاء .

يقول المرحوم آية الله السيد عبد الله شبر، في كتابه الأخلاق : (واعلم أن الرجاء محمود إلى حد، فإن تجاوز إلى الأمن فهو خسران، قال تعالى : «فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون»^(٢) وكذا الخوف، محمود إلى حد، فإن جاوز إلى القنوط فهو ضلال، قال تعالى : ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾^(٣) أو إلى اليأس فهو كفر، قال تعالى : ﴿انه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾^(٤) .

(١) حياة الحيوان للدميري : ١٥٠/٢ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٩٩ .

(٣) سورة الحجر ؛ الآية : ٥٦ .

(٤) سورة يوسف ؛ الآية : ٨٧ .

وعن الصادق عليه السلام ، قال : كان أبي يقول : (انه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران : نور خيفة ونور رجاء ، لو وُزِنَ هذا لم يزد على هذا ، ولو وُزِنَ هذا لم يزد على هذا) (١) .

انه عليه السلام ، يعبر عن الخوف بالنور ، وعن الرجاء أيضاً بالنور ، لأنهما متصلان بالله تعالى وما كان متصلاً بالله لا يكون إلا نوراً ، ولأنهما من أهم عوامل هداية البشر ، وإصلاح ذاته . . . ان الخوف من غير الله لو اعتري النفس أورثها تعتيماً وظلمة ، ولكنه لو كان من الله عز وجل استنارت النفس به ، وأخذت بالحيلة والحذر ، يضاف إلى ذلك نور الرجاء فتحى النفس سعيدة راضية هانئة .

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أيضاً ، قال :

«إذا أراد أحدكم أن لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه . فليقطع رجاءه من الناس ، وليصله به فإذا علم ذلك منه ، لم يسأله شيئاً إلا أعطاه» (٢) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه : «إن استطعتم أن يشتد خوفكم من الله ، ويحسن ظنكم به ، فاجمعوا بينهما ، فإنما يكون حسن ظن العبد بربه على قدر خوفه منه ، وإن أحسن الناس ظناً بالله ، أشدهم خوفاً منه . . . » (٣) .

إن المؤمن يسمو إلى الله عز وجل بجناحين ، هما : الخوف والرجاء ، فإذا استويا بلغ مراتب الإيمان العالية ، والقرب من الله عز وجل ، وإذا انفرد أحدهما دون الآخر ، فقد انكسر أحد الجناحين واضطربت النفس ، ومالت ذات اليمين ، وذات الشمال . .

عليه أن يُطعم قلبه من الرجاء بحجم ما يستقر فيه من الخوف ، ويعاين من عفو الله ورحمته وكرمه عند لقائه ، بمقدار ما يتوقع من عذابه ونقمته .

يقول القرآن الكريم : ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَن عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (٤) .

(١) الأخلاق للسيد عبد الله شبر : ٢٨٩ .

(٢) (٣) إرشاد القلوب للديلمى : ١٠٩/١ .

(٤) سورة الحجر ؛ الآية : ٤٩ .

روي أن سبب نزول هذه الآية الكريمة : إن رسول الله ﷺ ، مرَّ يقوم يضحكون فقال : أتضحكون؟ فلو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً! فنزل جبرائيل بهذه الآية^(١) .

إن النصوص الواردة في إبراز مفهوم الرجاء بالله عز وجل، وتأكيده لهي أكثر بكثير من تلك التي وردت في الخوف والتحذير، ففي القرآن الكريم - مثلاً - أعطى الله عز وجل مساحة أكبر وأوسع للرحمة والأمل مما أعطى للخوف والخشية!! روي عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ ، يقول:

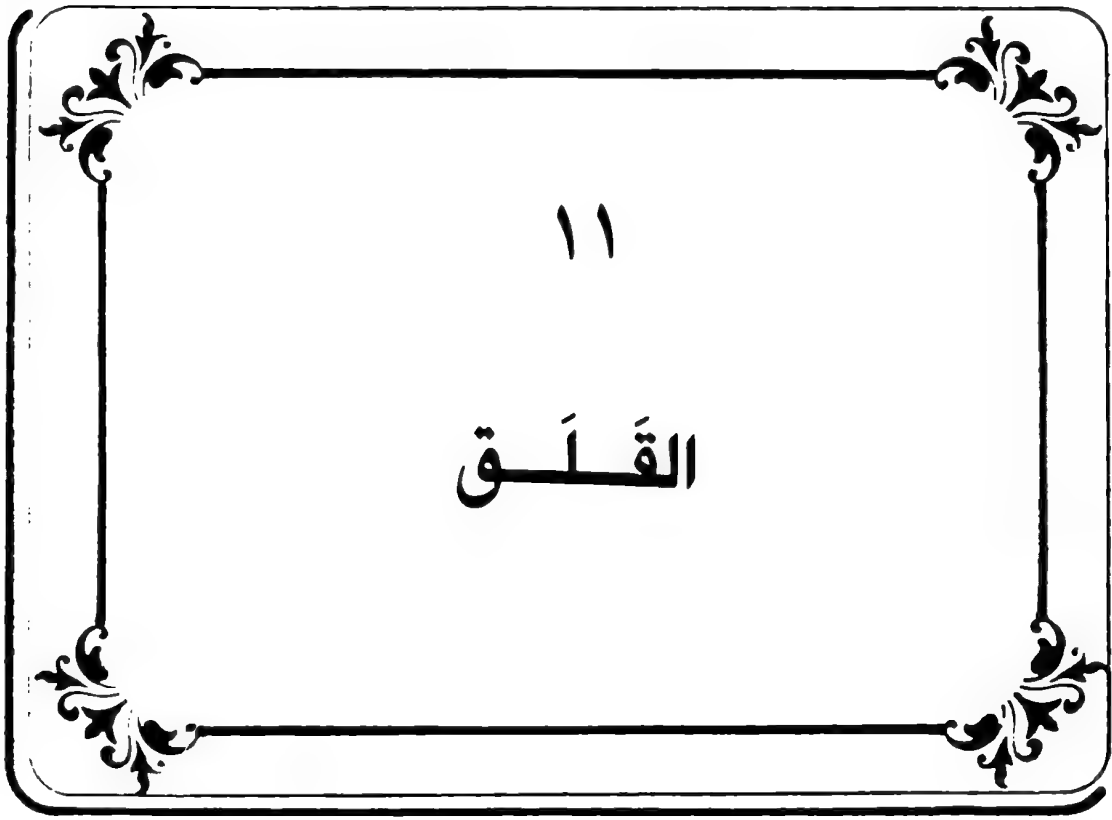
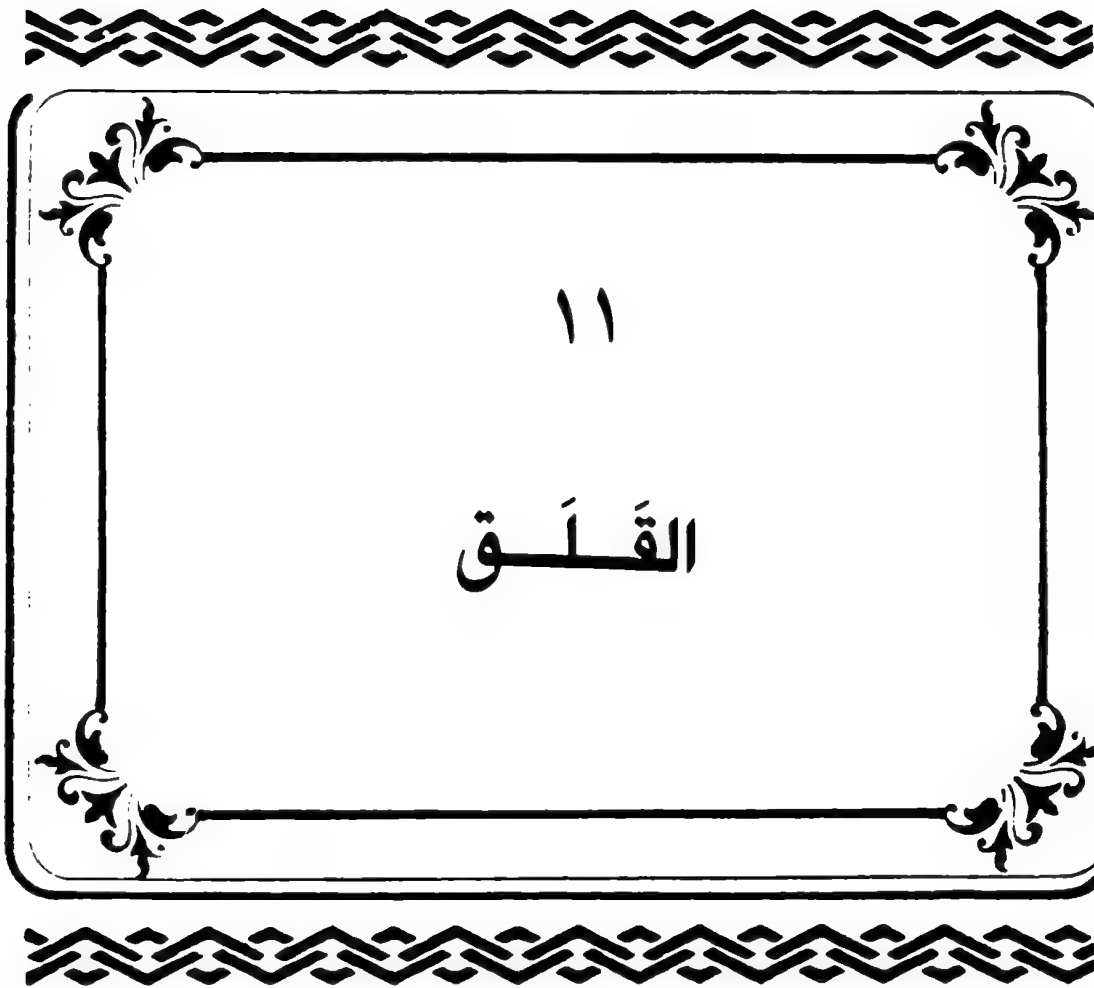
«إن الله ليعجب من يأس العبد من رحمته، وقنوطه من عفوه، مع عظيم سعة رحمته»^(٢) .

وروي أن علي بن الحسين عليه السلام ، مرَّ برجل يضحك، وقد خولط في عقله. فقال : ما بأله؟ فقالوا : هذا لحقه من قتل نفس، فقال عليه السلام : «والله لقنوطه من رحمة الله أشد عليه من قتله»^(٣)!!

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : «الثقة بالله، وحسن الظن به، حصن لا يتحصن به إلا كل مؤمن، والتوكل عليه نجاة من كل سوء، وحرز من كل عدو»^(٤) .

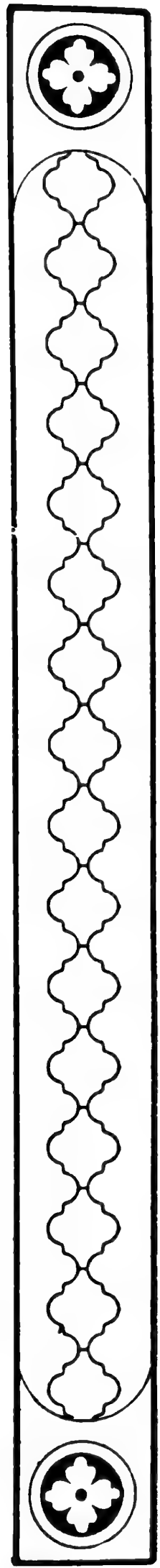
وقال الصادق عليه السلام : «والله ما اعطي المؤمن خير الدنيا والآخرة، إلا بحسن الظن بالله، ورجائه له، وحسن خلقه والكف عن أعراض الناس، فإن الله لا يعذب عبداً بعد التوبة والاستغفار، إلا بسوء ظنه وتقصيره في رجائه وسوء خلقه...»^(٥) .

(١)-(٥) إرشاد القلوب للدليمي : ١٠٩/١ .



١١

الْقَلَق



أتى قومٌ أبا جعفر (محمد بن علي الباقر) عليه السلام ، لزيارته والاستفادة من علمه وفضله ، فوافقوا له صبيّاً مريضاً ، ولاحظوا على الإمام عليه السلام اهتماماً وغماً ، وخوفاً بالغاً على ولده المريض ، وكان لا يقرُّ له قرار ، قلقاً على ابنه المريض فقال القوم في أنفسهم : هذه حاله وولده مريض ، فكيف لو مات؟ إنّا لتخوف أن نرى فيه ما نكره لو مات ولده .

فما لبثوا أن سمعوا الصباح على الولد ، فعلموا أنه مات ، وإذا بالإمام خرج عليهم طلق الوجه منبسط الأسارير ، في غير الحال التي كان عليها .

فقالوا : جُعِلنا فداك ، لقد كنا نخاف - مما رأينا عليك من القلق - أن لو وقع الموت ، نرى منك ما يغمُّنا ، ولكنك الآن هاديء البال ، مطمئن الخاطر ، فكيف ذاك؟ فقال عليه السلام : «إنّا قومٌ نحب أن نُعافى فيمن نحب ، فإذا جاء أمر الله سلمنا فيما نحب»^(١) .

إن الإمام عليه السلام ، كان يُعاني من قلقٍ طبيعي معقول ، وهو يرى ولده على تلك الحالة من المرض الشديد والاحتضار ، إذ إن المسؤولية تقع - في مثل هذه الحالة - على عاتق الوالدين والأهل . . . يفترض بهم أن يحاولوا جهد إمكانهم ، دفعَ الخطر عنه ، واستجلاب الشفاء له . . . وهكذا كان الباقر عليه السلام ، اعتراه قلق على ولده ، وخوف على حياته التي يتحمل

(١) بحار الأنوار للمجلسي : ٨٦/١١ .

مسؤوليتها، وصادف ان شاهده القوم على هذه الهيئة، فظنوا أن ذلك من ضعف في شخصية الإمام والعباد بالله، وفكروا فيما قد يحدث له لو مات الولد... ولكن الإمام عليه السلام، خرج عليهم، وقد زال عنه القلق، وأخبرهم بموت الولد، وعلته سكينه وراحة بال، وبين لهم: إن كلاً من الحالتين (قبل وبعد موت الصبي) كانتا على الشكل المطلوب، والطريقة الصحيحة، عقلاً وشرعاً.

(إنّا قوم نحب أن نُعافى فيمن نحب) انه يحب ولده، ويخاف عليه، ويتحمل مسؤولية سلامته. ومن الطبيعي جداً أن يكون قلقاً على حياته، أشد القلق، وهو قلق معقول، قد يعتري كثيراً من الناس في مثل هذه الموارد.

(فإذا جاء أمر الله سلمنا فيما نحب) فلو حلّ القدر، وحكم القضاء، فلا معنى - حينئذٍ - للقلق والاضطراب، بل الواجب الاذعان لحكم الله، والقبول بقضائه وقدره والتسليم لأمره الواقع.

إن القلق جزء لا ينفك من حياة الإنسان، وهو من الآفات المضنية المؤلمة، ويسبب الكثير من العناء للجسم والنفس معاً، يشيب منه الصغير ويهرم منه الكبير، ويوهن الأعصاب، ويسلب النوم والراحة، وربما صار سبباً في بتر عمر الإنسان لإحداثه الكثير من الخلل والعطب...

إن القلق خطر فتاك، قادر على إحداث أمراض كثيرة في الجسم كارتفاع ضغط الدم والقرحة المعوية، وانسداد شرايين القلب - أجازنا الله من كل ذلك - مما يجعل الحياة مرة المذاق، عسيرة الاستمرار.

وقد يسبب القلق أيضاً أمراضاً نفسية، وهي أشدّ خطورة من الأمراض الجسدية كالجنون، والشوزفرينيا، وغير ذلك...

والقلق مرض قديم، لازم الإنسان في جميع مراحل تاريخه، فابتلي الإنسان به، وبكثير من آلامه ومنغصاته، منذ أول التاريخ، فأهلك من الناس من أهلك.

ولكنني أعتقد، أن القلق في عصرنا هذا، أكثر انتشاراً، وأعظم فتكاً مما كان عليه فيما مضى من زمان، وذلك لما اتصف به أهل هذا الزمان، من

كثرة الآمال والتمنيات وتبعاً لذلك ازدادت حالات الخيبة والاحباط، واتجه الزمان بنا إلى حيث الانهيار في الأخلاق والضعف في الإيمان، وشاع التحلل والفساد، مما تسبب في تفاقم هذا المرض، وازدياد عدد المصابين به، وتضاعفت - نتيجة لذلك - أسباب تعاسة الناس وشقوتهم .

مصادر القلق :

ينشأ القلق - عادة - من مصدرين أساسيين في حياة الناس، هما:
العجز والجهل، العجز عن مواجهة مصاعب الحياة، والجهل بالأحداث المستقبلية، فالإنسان عاجز في هذه الدنيا لأسباب عديدة. عاجز لأنه يحيا في اطار هذا الكون المحكوم بنظامٍ قسري، ولا يملك الإنسان التصرف فيه كيف يشاء، ولا يمكنه تغيير شيء من سننه وأحكامه التي تجري عليه من غير إرادة، ولا يقدر أن يقدم أو يؤخر شيئاً من قوانينه الثابتة، ويجبرها لمصلحته .
وعاجز أيضاً أمام هجوم المكارِه والمنغصات عليه، واستهداف الدهر له بالأحداث والملمات .

واما جهله، فناجم عن كونه يواجه مستقبلاً غامضاً. لا يعرف ما سوف يقع له غداً، أو سيتعرض له في المستقبل لكي يتهيأ له، ويتوقاه، ويستعد لدفع الأخطار عن نفسه، أو لتخفيفها على أقل تقدير. ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً...﴾^(١).

إن الكون محكوم بقضاء الله وأمره، وكل شيء فيه منفعل بالقوانين الكونية الحكيمة، ومُجبر على حركة معينة ومحدودة، رسمها الله جلّ جلاله، ونظام الحياة ربما حكم لصالح الإنسان، فجاء موافقاً لرغباته ومصالحه، كالغيث الذي ينزل، فينتفع به المزارع في أرضه وزرعه. وربما جاء مخالفاً لأمانيه ومشتهياته، فقد يسبب له الخسارة والضرر، وقد يصيبه بالبؤس والضرر، كما لو تجاوز المطرُ الحدَّ المطلوب، فتسبب في أحداث السيول والفيضانات المدمّرة، التي تكتسح المزروعات والمراتع، وتقتلع الأشجار، وتقضي على الثمار ...

(١) سورة لقمان ؛ الآية : ٣٤ .

والإنسان في كل حال محكوم بحكم الطبيعة، خاضع لقانون السماء، شاء أم أبى، فلا هو قادر على تحويل مجرى القضاء بعيداً عن نفسه، ولا هو قادر أن يحصّن نفسه ضدها ويبعدها عن مرمى سهام الحوادث .

إن العلماء وأهل الخبرة، حاولوا جاهدين، التصرف في الطبيعة لصالح الإنسان، وبذلوا مجهوداً كبيراً لدرء الأخطار عنه، وقد تمكنوا بالفعل - بفضل التقدم العلمي والحضاري - تجنيب الإنسان كثيراً من المخاطر التي تهدد حياته، وتحصينه من كثير من الظواهر الطبيعية، والكوارث والأمراض، فنبهوه إلى مواطن الخطر، وحذّروه من الزلازل المحتملة، وساعدوه عن طريق معرفة الأنواء الجوية، في تحديد فترات النفع والضرر في تقلبات الجو، وسخّروا له طاقات جساماً للوقاية من الأمراض، ودفع أخطارها، وطرق معالجتها . . .

ولكن هل استطاع الإنسان أن يؤمن نفسه ضد الأخطار والأحداث، وما تأتي به الأيام؟ الجواب : كلا، إن كل هذه الانتصارات العلمية، تُعدّ ضئيلة بالنسبة لما يخبىء القدر للإنسان من مآسٍ، ومعانيات، وحوادث، لا زال الإنسان يقف حائراً أمامها، عاجزاً لا يقوى على درئها ودفعها .

كم رأينا مريضاً يعجز الأطباء عن علاجه، بل وحتى من تشخيص مرضه !!

إن حضارة القرن العشرين، بما تحوي من انتصارات علمية، واكتشافات جمّة، لا تقف عاجزة عن حل مشاكل البشرية فحسب، بل هي أسهمت - في بعض الأحيان - في مضاعفة آلامه ومشاكله .

إن الإنسان الذي لم يكن يعرف التطور التقني الحديث، كان بمنأى عن كثير من ابتلاءات المدنية الحاضرة. قد يعتقد البعض أن الاقتدار المالي، وتوفير الأسباب والوسائل، وتهيئة الإمكانيات والقدرات، تشكل حاجزاً دون توجه الأخطار إلى الإنسان، وهذا هو عين الخطأ، وهو قصر في النظر، لأن الدلائل والشواهد كلها تؤكد خلاف ذلك .

فالواقع الذي يعيشه الناس، والتجارب التاريخية، أضف إلى ذلك

النصوص الشرعيّة . . . كل ذلك يخالف هذا التصور السقيم . فكم نقرأ ونسمع ونرى من اناس داهمتهم الأحداث والنوائب، وألّمت بهم الأخطار رغم استعدادهم لها أتمّ الاستعداد، ورغم كل الإمكانيات والأسباب التي كانت موفرة لهم، ومسخرة لخدمتهم وتحسينهم .

ذَكَرَ عن غَسَّان بن عَبَّاد، أحد الولاة في العهد العباسي، وكان عاملاً على خراسان والسند، وعمل في ولاية الرقة، أنه مرض أيام ولايته على الرقة، فما كان ينجح معه دواء، وتحير معه الأطباء في علاجه، حتى قال له بعضهم: إن مرضه سببه الهواء، ولا بدّ من استنشام هواء نقي كهواء بغداد .

فبعث إلى بغداد فملأوا له جراباً من هوائها، وحملوا له تلك الجراب إلى الرقة، فكان يفتح كل يوم في وجهه جراباً حتى برىء وعوفي من مرضه^(١) .

انه كان على درجة من الاقتدار، بحيث يستطيع أن يوفر لنفسه ما يشاء، وكيف يشاء كان والياً، غنياً، مسموع الكلمة، نافذ القول، قادراً حتى على جلب الهواء من بغداد إلى الرقة! وهو عمل يعجز عنه كثير من الناس .

ولكن رغم ذلك، داهمه المرض، وأحاط به الموت، وغلبته الأقدار، ولم يستطع شيئاً في مواجهة الأجل .

وهكذا يشكّل العجز السبب الأول لديمومة الخوف والقلق واستمرارهما في حياة الناس .

اما السبب الآخر :

فهو الخوف من المجهول، وعدم معرفته شيئاً عن المستقبل، فهو يسلك طريقه في ظلمات لا يدرك مداها، ويسير باتجاه لا يعرف منتهاه، انه يخاف ويقلق من الغد المجهول، وغوامض أحداثه، ومبهمات مجاهله . . .

﴿ولو كنْتُمْ أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ من الخير وما مَسْنِي السوء . . .﴾^(٢) .

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار : ١٥٥/١ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٨٨ .

إن الله سبحانه خص نفسه بالغيب وأخباره، والإنسان يجهل المستقبل تماماً لأن المستقبل من الغيب، والاستثناء من هذه القاعدة قليل .

لقد كان الإنسان، ولا زال، حتى يومنا هذا، يعتبر الكشف عن المستور، ومعرفة غوامض الغد المجهول، من أكبر أمانيه وغاياته، لذا ظهرت بعض العلوم والفنون التي يسعى الإنسان من ورائها إلى كشف الغيب، وتبيان المجهول، كالسحر، والرمل، وقراءة الطالع، وقراءة الكف، وما شاكل من الطرائق التي توسل بها الإنسان في هذا الصدد ولم تزده هذه الوسائل إلا معاناة ونصباً . . ولم يصل إلى مبتغاه، ولم يستطع أن يقرأ المستقبل . .

لقد كانت هذه التثبثات سائدة منذ القديم، ولدى كثير من الناس، وفي أغلب الحضارات القديمة، ففي أيام الفراعنة - مثلاً - كانوا يعملون تعاويذ لطرد الأرواح الشريرة، التي يهيجها السحرة على من شاؤوا، يطلبون صراحة من الآلهة التدخل لطرد هذه الأرواح .

جاء في بعضها : «السلام عليك يا حورس . . . أيها الموجود في بلاد المئات، يا حادّ القرنين، يا بالغ الهدف، إني قصدتك لأمدح جمالك، ألا فلتقض على الشيطان الذي يتلبس جسدي»^(١) .

ولا زالت هذه الممارسات سائدة حتى في أكثر دول العالم تقدماً وحضارة، ولكن بفارق بسيط مع ما كان عليه الناس سابقاً، وهو «ان ضرب الرمل قد تبدل إلى اسلوب حديث، والتفاؤل بحبات الحمص قد تخلّى عن مركزه لقراءة الفنجان، أو ورق اللعب، كما أن قراء البخت اليوم لم يعودوا من الجوالين كالسابق، بل أصبحت لهم مكاتب ومؤسسات، يستقبلون فيها المراجعين، (حتى من كبار الشخصيات السياسية والاجتماعية) بعد تحديد المواعيد معهم بالمراسلة، أو بالتلفون، ويتقاضون من هؤلاء الحائرين، أموالاً طائلة» .

«لقد حمل هؤلاء المشعوذون الناس على الاصغاء إلى ضروب الخيال في عصر الفضاء بأمل أن يطلعوا على ما يخبئه لهم الغد من الخير أو الشر،

(١) العلاج النفسي الحديث : ٢٨ .

ولكنه أملٌ لا يتحقق أبداً، وسيبقى المستقبل ملفوفاً بأستار المجهول الغامض! وذلك لأن حكمة الله تعالى هي التي شاءت أن يبقى الإنسان جاهلاً بمستقبله فلا يعلم ما يكون في غده وما تنتظره من أحداث»^(١).

يقول القرآن الكريم : ﴿وما تدري نفس ماذا تكسبُ غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾^(٢).

قد يظن البعض أنه لو عَلِمَ لَعَمِلَ، ولو درى لتهيا واستعدّ . . .

ولكن الواقع ان من صالحه أن لا يعلم شيئاً عن مستقبله، وأن يجهل ما يلاقي في غده، لكي يتوكل على الله، ويدع الأمور إليه، ويحيا بالأمل، فيبقى سراج الأمل وهاجاً في نفسه، يبعثه على التحرك الدؤوب والعمل المتواصل، ويستمر في إدارة عجلة الحياة، ويواصل نشاطه الحياتي بالأمل الكبير . . .

ماذا يستفيد لو علم بما يَكُنُّه له المقدور؟ إن كان خيراً أقعده عن العمل، وإن كان شراً أفقده الأمل ! لو علم المرء أنه سينال مالاً عظيماً، أو رتبة عالية، خلال الشهرين القادمين، ترى هل يسعى بعد معرفته بهذا الخبر كما كان يسعى قبل ذلك؟ هل يعمل بجهد وتواصل لتسيير دفة الحياة كما كان يفعل ذلك سابقاً؟ . . .

ولو علم المرء أنه سيصاب قريباً بداء عضال يستحيل التوقي منه، ولا يمكن علاجه وسيقعده هذا المرض، وينتهي به إلى الموت . . . لاعتبر نفسه ميتاً منذ يومه ولفقد الأمل، فيهيمن عليه من الهم والغم ما لا يعلمه إلا الله، وتنتابه الكآبة، ويقنط من الحياة .

إذن، خير له أن لا يعلم شيئاً عن مستقبله، ويجهل ما تأتي به الأيام، ليحيا في ظل الأمل بالله فرحاً منشراحاً، ويلتزم بواجباته ووظائفه باخلاص، ويمضي أيامه الباقية بنشاط وتفاؤل .

(١) محمد تقي الفلسفي، الأخلاق : ١٤١/٢ .

(٢) سورة لقمان ؛ الآية : ٣٤ .

السحر :

ومن الوسائل التي يلتمس بها الإنسان أن يكشف أغوار المجهول : السحر، وهو فن قديم أيضاً، كان على عهد الفراعنة، بل ربما قبل ذلك، والقرآن يحكي لنا عن السحر والسحرة من خلال قصة موسى عليه السلام، وما كان بينه وبينهم، وكيف أن قوة السماء غلبت قواهم فأبطلت سحرهم، وردت كيدهم . . .

مما يدل على أن السحر شيء واقع، وليس وهماً وخيالاً كما يحلو للبعض أن يصفه. وقد استمر الناس في تداول السحر حتى على عهد رسول الله ﷺ، بل وحاول بعضهم أن يسحر النبي، ولكن الله عز وجل، عصم نبيه، وأخبره بكيد الساحر ودفع عنه المكروه^(١).

ولا زلنا نسمع في زماننا هذا كثيراً عن السحر والمسحورين، وعمن يمارسون مثل هذه الأعمال المنافية للشرع والأخلاق، فقد حكم الإسلام بعدم شرعية ممارسة السحر وأمثاله من الأعمال التي تسيء إلى الآخرين، والتي لا طائل من ورائها، سوى هدر الأوقات والأموال وزيادة النصب والعناء.

إن الدين الحنيف، لا يريد للمسلمين أن يقعوا في حبائل الجهل والخرافات، وإن لا يستسلموا لدسائس النصابين والمشعوذين، وقد ورد عن النبي ﷺ وعن أئمة المسلمين النهي عن تصديق مزاعم الكهنة والسحرة، وكشافي الطالع، والناظرين في النجوم، إلا ما أريد به الخير والنفع للمسلمين.

روى ابن ديزيل، قال: لما عزم علي عليه السلام، على الخروج من الكوفة إلى محاربة الخوارج كان في أصحابه منجم، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تسر في هذه الساعة، وسر على ثلاث ساعات مضين من النهار، فإنك إن سرت في هذه الساعة، أصابك وأصحابك أذى وضرر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت، وأصبت ما طلبت.

(١) راجع كتب التفسير في تفسير سورة الفلق، وما فعله ليبد بن أعصم من السحر ومحاولته إيذاء النبي ﷺ.

فقال ﷺ : أتدري ما في بطن فرسي هذه؟ أذكر أم انثى؟

قال : إن حسبتُ علمت .

فقال ﷺ : من صدّقك بهذا فقد كذب القرآن قال تعالى : ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام...﴾ (١) .

ثم قال ﷺ : إن محمداً ﷺ ما كان يدّعي علم ما ادّعت علمه، أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي يصيب النفع من سار فيها؟ وتصرف عن الساعة التي يحقق السوء بمن سار فيها؟! فمن صدّقك بهذا فقد استغنى عن الاستعانة بالله جلّ ذكره، في صرف المكروه عنه وينبغي للموقن بأمرك أن يوليكَ الحمد دون الله جلّ جلاله، لأنك بزعمك هديته إلى الساعة التي النفع لمن سار فيها، وصرفته عن الساعة التي يحقق السوء بمن سار فيها، فمن آمن بك في هذا، لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ضدّاً ونداً، اللهم لا طير إلا طيرك، ولا ضرر إلا ضررك، ولا إله غيرك .

ثم قال ﷺ : نخالف ونسير في الساعة التي نهيتنا عنها .

ثم أقبل على الناس فقال :

أيها الناس، إياكم وتعلّم النجوم، إلا ما يهتدي به في ظلمات البر والبحر، إنما المنجم كالكاهن، والكاهن كالكاfer، والكاfer في النار. أما والله لئن بلغني أنك تعمل بالنجوم لأخلدك السجن أبداً ما بقيت، ولأحرمنك العطاء ما كان لي من سلطان .

ثم سار في الساعة التي نهاه عنها المنجم، فظفر بأهل النهروان، وظهر عليهم، ثم قال : لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها المنجم، لقال الناس : سار في الساعة التي أمر بها المنجم فظفر وظهر، أما انه ما كان لمحمد ﷺ منجم، ولا لنا من بعده، حتى فتح الله علينا بلاد كسرى وقیصر .

(١) سورة لقمان ؛ الآية : ٣٤ .

أيها الناس : توكّلوا على الله ، وثقوا به فانه يكفي ممن سواه^(١) .

وعن الهيثم بن واقد ، قال : قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام : إن عندنا في الجزيرة رجلاً ربما أخبر من يأتيه يسأله عن الشيء يسرق ، أو شبه ذلك ، أفنسأله ؟

فقال عليه السلام : (قال رسول الله ﷺ « من مشى إلى ساحر أو كاهن أو كذاب يصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل الله من كتاب »)^(٢) .

بناءً على ما سبق ، يجب على المؤمن أن يتجنب هذه الأعمال التي لا تزيده إلا قلقاً واضطراباً ولا تعود عليه بنفع أبداً ، ويبقى الإنسان عاجزاً في مواجهة سنن الخلق ، وقوانين الكون ، جاهلاً بما قد يأتي به القدر ، وتصنعه الأيام ، وخير له أن يفوض الأمر إلى الله ، ويتوكّل عليه كما أمر بذلك النبي الكريم ﷺ ، والأئمة الهداة عليهم أفضل الصلاة والسلام .

هي المقادير تجري في أعنتها فاصبر فليس لها صبر على حال
يوماً ترش خسيس الحال ترفعه إلى السّمك ويوماً تخفض العالي

على المرء أن يكيف نفسه حسب إرادة الله ، ونظام الخلق ، ويتقبل التطورات والتقلبات الكونية بصدر رحب ، دون استنكار أو جزع ، أو اعتراض على الحكمة الربانية ، وان لا يتوقع من الكون أن يطابق أهواءه ومشتبهاته ، وبذلك يتهيأ له أن ينعم بحياة آمنة مطمئنة من غير قلق ولا خوف .

إن الإنسان بدافع حبه لذاته ، وميوله الغريزيّة ، يتمنى أن تتحرك جميع ظواهر العالم وحوادثه بما يعود عليه بالمنفعة والفائدة ، وان لا يواجه في حياته خيبة أمل أو اخفاقاً ، وان لا تقترب الآلام والمحن من حياته ، ولكن هيهات ذلك ، إلا بالخروج من أرض الله ، والانفصال عن نظام الكون وقوانينه وأحكامه .

إذن ، عليه ان يُقرّ بواقع هذه الحياة المليئة بالمكاره ، والمحفوفة

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، المجلد الأول : ٤٦١ ، طبع بيروت مكتبة دار الحياة .

(٢) سفينة البحار للشيخ عباس القمي : ٥٠٠/٢ .

بالأخطار، وبذلك يكون مستعداً لمواجهتها بمعنوية وإرادة قويتين، وروح عالية، عليه أن يتدرّع بالصبر، ويتحصن بالجلد، لئلا يقع ضحية للقلق والاضطراب .

القلق الواقعي والموهوم :

سبق وأن قلنا في حديثنا عن الخوف، إنَّ خوفاً موضوعياً وخوفاً؟ غير موضوعي، والنوع الأول: هو الخوف الواقعي الذي ينشأ من مصدر واقعي معقول، والنوع الثاني: هو الخوف من أشياء لا يخاف منها عادة، كالخوف من الحيوان الأليف، أو من ظلمة الليل أو ما شابه ذلك . . .

كذلك الحال بالنسبة للقلق، فهناك قلق معقول، وآخر لا معنى له، غير واقعي؛ فالأول يُعدُّ بمثابة الألم الذي يحس به المريض، وهو دليل على سلامة الأعصاب، كذلك القلق الواقعي، دليل على سلامة النفس، واتزانها، وفهم الواقع، وإدراك المستقبل، فالاحساس بالخطر القادم يحمل الإنسان على الاستعداد له، ومواجهته بشكل أفضل، ويدعو للبحث عن حلول مناسبة له . . .

في مثل هذه الحالة تحصل عملية التوافق بين ما يحس به المرء من قلق، وبين ما يجب عليه فعله لدفع القلق ودرء الخطر .

عندما يجد الشخص نفسه في مواجهة خطر معين، أو حادثة مقلقة، ينتابه القلق والخوف ويستعد للدفاع، ويكرس اهتمامه لتفادي هذا الخطر، فإذا نجح في جهوده ومساعيه، عاوده الهدوء وزال عنه القلق، وأظهر الفرح والابتهاج كرد فعل لانتصاره ونجاحه .

أما لو لم تنجح مساعيه، ولم تفلح جهوده، وحصل ما كان يخشاه، عند ذلك يختلف ردّ الفعل على الخيبة من شخص لآخر، تبعاً لاختلاف النفسيات، وأنماط التفكير وتفاوت الطباع والأخلاق .

روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله : «في تصارييف الأحوال تعرف جواهر الرجال» . هذا عن القلق المعقول، أما النوع الآخر، وهو القلق الموهوم، فانه ينشأ عادة من تخيلات وأوهام، ويحصل غالباً عند المتشائمين،

والناظرين إلى الحياة نظرةً سوداء قاتمة، وهو دليل على عطب الجهاز الفكري، وعدم اتزان النفس، وقد يسبب الكثير من التعاسة والشقاء والعذاب والألم، ويقصر العمر . . .

فالذي يغلب على تفكيره توقع الخطر، يشعر بالاحباط دائماً، والكسل عن الحركة والعمل، ويغرق في التخيلات والأوهام، وتتضاعف عليه مصاعب الحياة، وربما أدى ذلك إلى فقدان الصحة وعدم القدرة على ادراك حقائق الحياة . . . وغير ذلك من المشاكل .

في حين أن القلق المعقول، يفعل خلاف ما يفعله القلق الموهوم، ومثال ذلك ما أسلفنا من قصة الإمام الباقر عليه السلام مع ولده المريض .

وطبيعي أن المرء لا يسعى بنفسه نحو القلق والاضطراب النفسي، ولا يستسلم لقائد الأوهام والخيالات بمحض إرادته، إنما القلق هو الذي يهجم على حياة الإنسان فيقضم مضجعه، ويستحوذ عليه، ويسلبه الراحة وهدوء البال، ويجره إلى مهاوي الشقاء والعذاب .

مراحل العلاج :

هل يا ترى يستطيع الإنسان - بشكل أو بآخر - أن ينجو من هذه المحنة ؟

هل يستطيع أن يتغلب على هذا المرض الفتاك ؟

هل بإمكانه أن يكبح جماح التخيلات العنيدة، والأوهام الغير معقولة ؟

إن علماء النفس، والمحللون النفسيون يجيبون بنعم، انهم بحثوا هذا الموضوع كثيراً، وحلّلوا القلق من الناحية النفسية، ووضعوا حول ذلك حلولاً كثيرة، وألفوا كتباً عديدة^(١) ورسموا مناهج لمكافحته وعلاجه، ولكنهم من الناحية العملية لا يؤكدون الفعالية المطلقة لهذه العلاجات، ففي حالات القلق الحادة، لا تعود برامجهم بفائدة تذكر، لأنها ليست قادرة على اخماد

(١) راجع كتاب (العلاج النفسي الحديث قوة للإنسان) للدكتور عبد الستار إبراهيم، طبع الكويت .

اللهيب الداخلي الذي يسببه الاضطراب فيمن استسلم للقلق صاغراً.. .
وبقيت المشكلة دون حل حتى الآن .

وعلى هذا يظل علم النفس الحديث عاجزاً عن المعالجة الأساسية
للقلق النفسي، والاضطراب الفكري الموهومين .

لكننا بالرجوع إلى التعاليم السماوية التي سبقت علم النفس بقرون،
نجد أن قادة الإسلام وأئمة المسلمين، اهتموا كثيراً بهذا الجانب في حياة
الناس المؤمنين، وقدموا للأمة طرائق شتى لمكافحة القلق والاضطراب في
النفس، مستندين إلى قوة الإيمان المؤثرة في نفوس الناس تأثيراً بالغاً، وبدأوا
- في سلسلة من التعاليم الأخلاقية والروحية - بوضع أساس الوقاية من هذا
المرض الخطير، ثم الأعداد لمعالجته بعد ذلك .

إن المنهج الإسلامي لم يترك ثغرة في حياة المسلمين إلا سدّها، مهما
كانت تلك الثغرة محدودة وصغيرة.. . فكيف بقضية حياتية، حساسة، مثل
المشكلة التي نحن بصددّها .

إن الرسول ﷺ، والأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم الصّلاة
والسّلام، أولوا اهتماماً كبيراً قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، بتنظيم حياة
الناس، وتهذبة النفوس والخواطر، مستندين في ذلك إلى تعاليم الإسلام في
النفس، وتحليل الحالات الروحية. وضعوا برامج عديدة للإنسان، كي يحيا
قوياً ذا إرادة صلبة، يستطيع بها مواجهة المشاكل الحياتية، ومجالدة
الصعاب .

رسموا للناس مناهج نفسية تحفظهم من الإنهيار والسقوط، حتى في
أحرج الظروف وأحلك الساعات، وأصعب الحالات، وتميزوا عن غيرهم من
المرشدين والمصلحين، بأن تعاليمهم لم تكن مجرد نظريات، أوطروحات
فكرية فحسب.. . بل كانت حياتهم صلوات الله عليهم مشحونة بالعبر،
والدروس العملية، فلا يأمرّون بشيء حتى يكونوا أول المؤتمرين ولا ينهون
حتى يكونوا أول المنتهين .

إذا أمروا بالصبر فهم أصبر الصابرين، ولو حثوا على مجالدة الصعاب،

ومجاهدة النفس، كانوا أكثر الناس عملاً بهذه الوصايا، وأشدّ الناس التزاماً بها، فهم النموذج الأوفى، والأكمل لكل أمر ونهي صادر عنهم .

إننا نقرأ في طيات حوادث فاجعة الطف، التي أَلَمَّت بالحسين عليه السلام ، وأهل بيته الكرام، في كربلاء، نقرأ عن السيدة زينب عليها السلام ، عقيلة بني هاشم، صورة سامية عن التجلد والصبر، في مواجهة نكبات الدهر العنيفة، مما يدل على أنها كانت تحمل نفساً عظيمة ، وقلباً قوياً، تأثرت بأخلاق جدها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأبيها أمير المؤمنين عليه السلام ، وأمها فاطمة الصديقة عليها السلام ، وأخويها الحسن والحسين عليهما السلام مما جعلها تواجه أعنف الفجائع في أهلها وقومها بجلد وثبات، فجعت بأخيها الحسين عليه السلام وأخوتها جميعاً، وأولادها، وخيرة شباب آل الرسول، في يوم واحد، رأتهم مقتلين مجزرين مضمخين بدمائهم الطاهرة ..

ثم أخذت أسيرةً مع بُنياتها، ونسائها، بأقصى طريقة، وبوحشية بالغة، إلى ابن زياد في الكوفة ثم إلى يزيد بالشام .

ناهيك عما صاحب هذه الأحداث، من منع الماء عنهم، والتضييق عليهم، وإخافتهم وإرعابهم، وتحشيد الجموع الغفيرة لقتلهم وإبادتهم ..

كل ذلك كان مدعاة لأن تنهار هذه السيدة العظيمة، وتفقد صوابها من صدمة المصاب، وعظم الرزية بل إن بعض تلك الأسباب كانت كافية لانهار عظيم في نفس زينب، إن الناس تنهار نفوسهم، وتصعق قلوبهم لمثل واحدة من هذه الفجائع التي تتابعت على آل الرسول في واقعة الطف! ولا يستطيعون التجلد لها، ويعجزون عن مواجهتها. ولكننا رأينا (أم هاشم) زينب بنت علي عليها السلام ، ضربت أروع الأمثال في التصبر والتجلد، ولم تستسلم لسلطان الخوف والقلق، بل كانت قوية العزم، صلبة الإرادة صبورة على المصاب الجلل، وتحملت مسؤولية رعاية شؤون العائلة المنكوبة والأطفال اليتامى على خير وجه، حتى اللحظة الأخيرة، وعُدَّت بذلك شريكة الحسين عليه السلام ، في ثورته المباركة، وكان دورها متمماً لرسالة أبي عبد الله .

وقفت عند مصرع أخيها، ووضعت يديها تحت جسده المبضع ورفعت

طرفها نحو السماء قائلة : اللَّهُمَّ تقبل منا هذا القربان !! .

وشاهدها ابن أخيها زين العابدين عليه السلام ، مساء يوم العاشر من محرم ، وهي منشغلة بصلاة الليل ، لم تصرفها عنها كل تلك الأهوال ، لا تفتأ عن ذكر الله ، وعن الصلاة !! .

وأذهلت الناس بخطبتها في الكوفة ، وزلزلت عرش بني أمية . . .

وأخرست يزيد بن معاوية ، حين تكلمت في مجلسه في الشام . . .

إن المؤمن الملتزم بنهج الإسلام ، والعامل بتعاليمه ، لا شك يحيا بقلب مطمئن ، وضمير هادئ لا يصاب بالخوف والهلع ، عند وقوع الحوادث الجسام ، ولا تستولي عليه الأوهام والتخيلات في مواجهة المنغصات ، وبالتالي لا يقلق إلا في الموارد الطبيعية التي تدعو للقلق واقعاً وفعلاً .

فالعلاج في الإسلام ، أن يستمد الثبات والاستقرار من إيمانه بالله تعالى ، ويعود نفسه التصبر والتجلد ، ويدفع أخطار القلق بالاعتماد على القوة الغيبية ، ويدع الأمور تجري في أعنتها ، متوكلاً على الله ، معتمداً عليه ، بل ويفترض بالمؤمن أن يأخذ بالوقاية قبل أن يضطر للعلاج ، فالوقاية خير من العلاج ، كما قيل .

١ - الوقاية : ولمكافحة القلق الموهوم على المرء أن يتخذ أولاً سبل الوقاية ، فالمطلوب من المؤمن أن يكون عارفاً بطبيعة هذه الحياة وتقلباتها ، وأن ينظر إلى حالها نظرة واقعية ، ولا يغيب عن باله تحولاتها المفاجئة ، والغير منتظرة ، وأن يكون على علم بأن ما تأتي به الأقدار ، يكون - عادة - غير محسوب له .

يقول أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام ، في وصية لولده الحسن عليه السلام :

«أي بني : أخي قلبك بالموعة . . .

وبصره فجائع الدنيا ، وحذره صولة الدهر ، وفحش تقلب الليالي

والأيام . . .»^(١) .

(١) نهج البلاغة ص ٥٢٦ خطبة رقم ٢٦٩ طبعة الأعلمي .

فالمفروض أن يكون المؤمن على استعداد لتلقي أهوال الحياة، وتقلباتها الفاحشة، بحيث لا يفاجأ بها، ولا يقلق منها، ولا يؤخذ بتطورات أحداثها، وتحولات الليالي والأيام .

بهذه النظرة الواقعية تنهياً النفوس، لتقبل تغيرات عالم الطبيعة، وتكون قوية في المقاومة، ومعدة لمواجهة المصائب والحوادث الأليمة، قبل وقوعها :

إن منهج الأئمة الطاهرين عليهم السلام، يعلمنا أن الحياة محفوفة بالمخاطر، وأننا نعيش في عالم متغير متحول، وأن أياً من أحوال هذه الدنيا، لا يدوم على وضع واحد، لذلك علينا أن نواجه الحوادث والمشاكل، بصلافة وعزم، وأن نتذوق المرات متدرعين بالصبر والجلد .

في خطبة لأمر المؤمنين عليهم السلام، يقول : «دارٌ بالبلاء محفوفة، وبالفقر معروفة، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم نزالها، أحوالها مختلفة، وتاراتها متصرفة، العيش فيها مذموم، والأمان فيها معدوم، وإنما أهلها فيها أغراضٌ مُستهدفةٌ، ترميهم بسهامها، وتفنيهم بحمامها»^(١) .

وقال عليه السلام : «لا يأمن أحد من صروف الدهر، ولا يسلم من نوائب الأيام»^(٢) .

ليست هذه نظرة تشاؤمية للحياة، بل هي نظرة واقعية، تجعل الإنسان لا يفقد زمام نفسه في مواجهة أحداث الحياة، ولا ينهار أو يستسلم، ولا يهيمن عليه الجزع، ولا يفقد شخصيته وهذه هي المرحلة الأولى من مراحل مكافحة القلق والاضطراب، والتي عبرنا عنها بمرحلة الوقاية قبل وقوع الخطر .

عن الإمام الصادق عليه السلام : «ثلاثة أشياء لا ينبغي للمؤمن العاقل أن

(١) النص ٢٢١ شرح النهج لابن أبي الحديد: ٧٣٧/٣ ، طبع بيروت مكتبة دار الحياة . .

(٢) فهرست الغرر: ١٤٨ .

ينساهن على كل حال، فناء الدنيا، وتصرف الأحوال، والآفات التي لا أمان لها»^(١).

يقول الأستاذ الشيخ محمد تقي الفلسفي في مجال شرحه لهذا الحديث :

«لتصور أن المصابيح التي تشتعل بالزيت، تسع كمياتٍ مختلفةً من الوقود، فكلُّ منها يشتعل وينير على قدر ما فيه من الوقود، فقد يستمر احدها مشتعلاً ليومين فقط، والآخر ليوم واحد فقط، والثالث لبضع ساعات لا غير، بناء على ذلك، يمكن تصور انطفاء هذه المصابيح على ثلاثة وجوه :

- الوجه الأول : هو نفاد الوقود، وانطفاء المصباح انطفاءً طبيعياً، باعتبار أن كمية الوقود في المصابيح محدودة، فإن أعمار اشتعالها محدودة هي الأخرى، فهي تشتعل وتنير لوقت موقوت، ومدة معينة، وعندما ينفد وقودها، تموت موتاً طبيعياً .

إن انطفاء المصباح بسبب نفاد وقوده يعتبر بمثابة فناء نوره، وموت المصباح موتاً طبيعياً .

- الوجه الثاني : هو حدوث مانع أو تغير يحول دون اشتعال المصباح، ففي هذه الصورة لا يكون انطفاء السراج، وفناء نوره ناجماً عن نفاد مادة الاشتعال وانتهاء العمر الطبيعي بل يرجع إلى انتفاء الظروف الطبيعية المناسبة لاشتعاله فينطفئ، فإذا نقلنا المصباح من فضاء مفتوح مناسب، إلى آخر مغلق، بحيث لا يصله المقدار الكافي من الأوكسجين لاشتعاله، عندها تأخذ شعلته بالتضاؤل تدريجياً، ويخفت نوره شيئاً فشيئاً، وبعد فترة من المقاومة ينطفئ ويموت قبل أن يصل إلى موعد موته الطبيعي .

- الوجه الثالث : هو حدوث الحدث الطارئ، دون سابق إنذار، فقد يكون المصباح في ظروف مناسبة للاشتعال، وفيه من الوقود ما يكفي لبعض الوقت، وهو موضوع في مكان مناسب يشتعل ويشع بضوئه الساطع على ما حوله، على أحسن ما يكون . . ولكن تهب فجأة ريحٌ قويّة، وفي لحظة

(١) بحار الأنوار للمجلسي : ١٨٣/١٧ .

تنطفئ الشعلة، ويتلاشى النور على حين غرة .

كل كائنات العالم من جمادات، وأحياء، أشبه بمصابيح خلقها الله، القدير بمشيئته وهي تتمتع بإشعاع الوجود، إلا أن قابليتها على البقاء، ودوام الحياة مختلفة، فبعضها يعمر طويلاً، وبعضها قصير العمر، ولكنها جميعاً لها أعمار محدودة مؤقتة، وهي في النهاية، قد تموت موتاً طبيعياً، وقد تموت لأسباب وتحولات تدريجية أو ربما بحوادث تصادفية فجائية .

والإمام علي عليه السلام، يشير في بعض خطبه إلى هذه الوجوه الثلاثة، قائلاً بما معناه: إن هذه الدنيا التي نعيش فيها، لا هي أزليّة، ولا هي أبدية، فقد كان لها بداية، وستكون لها نهاية، فالشمس الساطعة، والقمر المنير، والكرة الأرضية، وغيرها من الأجرام، والأفلاك والكواكب . . . كلها تحيا في ظروف محدّدة، قد تطول وقد تقصر، ظهرت في زمن معين، وستفنى في زمن محدد آخر، كذلك الإنسان بما أنه جزء من كائنات هذا العالم، لا تختلف حاله عن حال غيره من الكائنات، وقتي وفانٍ وإن هو لم يصادف في حياته واقعة مهلكة، وحادثه طارئة، فسوف يموت في النهاية حتف أنفه، عندما تنفذ قواه الحياتية»^(١) .

والموضوع الأهم الذي يركز عليه الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، في حديثه السابق هو (فناء الدنيا) وزوالها، وإن كل شيء فيها محدود مؤقت، وسيأتي اليوم الذي ينتهي فيه كل شيء ويذول، ولا تكون ثمة حياة .

﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَإِنْ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٢) .

كذلك حياة الإنسان، لا بد أن تكون لها نهاية، ويعتورها الفناء والزوال، لأن الإنسان جزء من هذا العالم الفاني .

والموضوع الثاني الذي ينص عليه الإمام الصادق عليه السلام، والذي لا ينبغي أن يغيب عن ذاكرة المرء، هو تقلب الأحوال، وتغيّرها، وعدم استقرارها، والإنسان في حدّ ذاته متقلب الحال، متغيّر الطبيعة، من صغر إلى

(١) كتاب الأخلاق للفلسفي : ١٥١/٢ .

(٢) سورة الرّحمن ؛ الآيتان : ٢٦ - ٢٧ .

كبير، ومن شباب إلى شيخوخة، ومن قوة إلى ضعف، وهكذا... (تصرف الأحوال).

والظروف المحيطة به متقلبة، والأجواء التي يعيشها متقلبة أيضاً، والكون كله من حوله متقلب ولا بد أن يضع المؤمن في احتماله، أن الأحوال لا تدوم على وتيرة واحدة، ويكون على أهبة الاستعداد لأي تغيير طاريء.

وثمة موضوع ثالث، يؤكد عليه الإمام عليه السلام، وهو الغيب الذي نجهله تماماً، والأقدار التي لا نعرف عنها شيئاً، وحوادث الأيام التي تبغتنا، وتأخذنا على غرة (الآفات التي لا أمان لها).

فهما كان الإنسان محصناً ضد الأخطار، مؤمناً من الحوادث، لا بد وأن تهجم عليه الآفات، وترميه بسهامها، وتصيبه بويلاتها، فقلماً تجد من يموت موتاً طبيعياً، وتنتهي حياته بانتهاء المدة الطبيعية.

إن غالبية الناس اليوم، تنتهي حياتهم بسبب الأمراض المختلفة، وبخاصة أمراض المدنية المعاصرة، أو الحوادث الغير مرتقبة، فينتهون نهاية غير طبيعية، فلا أمان إذن من الآفات والأقدار.

تقلبات الدهر:

وعن تقلبات الدهر، وتحولات الأيام، يعرض علينا التاريخ صوراً كثيرة، وقصصاً وأخباراً عن الماضين، ممن كانوا في خفض العيش، ورخاء الحياة، فأدبرت عنهم الدنيا، وأنزلتهم إلى الحضيض، وقسى عليهم الدهر. أو على العكس من ذلك، ممن كانوا في عسر وشدة، فتبدل العسرُ يسراً، وتحولت الشدة رخاءً وأراشتهم الأيام فصاروا إلى سعة العيش، وهناء الحياة...

أذكر على سبيل المثال: (الوزير المهلب) الحسن بن محمد، ذكروا عنه: أنه كان قبل وزارته فقيراً، أصابته فاقة حتى ساءت حاله، وصار في ضائقة شديدة، حتى انه - في يوم من الأيام - لم يجد ما يطعم أهله، وتنكر له

أصدقائه لفقره، وسُدَّتْ دونه الأبواب، حتى يئس من الحياة، وتمنّى الموت، وصار ينظر إلى الحياة نظرةً يائسةً متشائمةً، وبلغ به الأمر يوماً أن هام على وجهه، هارباً من همومه وأحزانه، لا يلوي على شيء، وبينما هو سائر على غير هدى، وجد نفسه خارج البلد، يتمشى في مزرعة من المزارع، وتفتقت قريحته عن شعر :

الأموتُ يُباع فأشتريه	فهذا العيش ما لا خير فيه
الأموت لذيذ الطعم يأتي	يخلصني من العيش الكريه
إذا أبصرتُ قبراً من بعيدٍ	وددت لو أنني مما يليه
الآرحم المهيمنُ نفسَ حُرٍّ	تصدّق بالوفاة على أخيه

إن هذه الأبيات تكشف عن مدى القلق والاضطراب اللذين كان يعاني منهما المهلبى، والحالة اليائسة التي كان يعيشها لما أصابه من إدمار الدنيا، وجنوح الخير عنه وما حلَّ به من فقر وبؤس ولكن يختلف الدهر، ويتبدل العسرُ يسراً، ويرقُّ الزمان لفاقة المهلبى، وينيله ما يرتجي، فيصير وزيراً لمعز الدولة بن بويه، فيصبح راغد العيش، بحيث إذا أراد أكلَ شيءٍ مما يُتناول بالملعة كالأرز واللبن وأمثالهما، وقف إلى جانبه الأيمن غلام معه ثلاثين ملعة زجاجاً مجروداً - وكان يستعمله كثيراً - فيأخذ منه ملعة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة، ثم يدفعها إلى غلام آخر قائم إلى الجانب الأيسر، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى، حتى ينال الكفاية لثلا يعيد الملعة إلى فمه دفعةً أخرى^(١).

وكانت موائده معدّة دائماً، يجلس عليها معه كثير من أهل العلم والأدب والفضل، منهم (أبو الفرج الأصفهاني) صاحب الأغاني .

ويذكر أن الوزير حين كان يردد أبياته تلك، في أيام بؤسه، وهو هائم على وجهه بين المزارع، سمعه أعرابي، فاستحسن الأشعار وحفظها، واستودعها ذاكرته حتى تبدلت أحوال المهلبى، وصار وزيراً، أتاه يوماً ووقف على بابه، يطلب الإذن بالدخول عليه، فمنعه الحجاب والحراس، فكتب

(١) مقدمة مقاتل الطالبين ص هـ .

بيتين على قصاصة، وبعثها إليه مع أحدهم، ودخل الخادم على الوزير وسلّمه القصاصة، ولما فضها الوزير قرأ فيها :

أَلْأَقْلُ لِلْوَزِيرِ فَدَتُهُ نَفْسِي مَقَالَةٌ مَذْكُورٌ مَا قَدْنَسِيهِ
أَتَذْكُرُ إِذْ تَقُولُ بِضَيْقِ عَيْشٍ (أَلَا مَوْتَ يَبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ)

وتعجب الوزير... فمن أين يعرف هذا الرجل شعراً قرأه بينه وبين نفسه ؟

وأمر بإدخاله عليه، وسأله عن ذلك، فأخبره أنه كان يومذاك يمشي وراء الوزير يسمعه ويراه والوزير منشغل عنه بنفسه، فسمع أشعاره فحفظها، واليوم حين علم أنه صار وزيراً، وأقبلت إليه الأيام، جاءه مسترفداً وطالباً أن ينيله شيئاً .

فكساه وأعطاه سبعمائة درهم .

هذا عن تبدل العسر يسراً، وأما عن خلاف ذلك، فيروى عن محمد بن عبد الرحمن الهاشمي أنه زار أمّه في عيد أضحى، ليسلم عليها، ويبارك لها العيد، فرأى عندها امرأة رثة الثياب، منكسرة النفس، تظهر عليها الكآبة والذلة، تجلس إلى أمه وتحادثها .

ف قالت له أمه : أتعرف هذه المرأة ؟

قال : لا .

قالت : هذه عَبَادَةُ، أم جعفر البرمكي، (ذلك الوزير الذي طار صيته، وصيت قومه والذي دانت له الدنيا، وملك زمامها) .

يقول محمد بن عبد الرحمن : فاقتربت منها وحادثتها، وأنا في عجب من أمرها، أهذه أم جعفر!! ؟

ثم قلت لها : هل لك يا أم جعفر، أن تذكر لي لنا بعد خواترك، من عجائب الزمان وغرائب الأيام ؟ .

قالت : نعم، أعلم يا بُني أني مرّ علي يوم مثل هذا اليوم (عيد أضحى) وأربعمائة جارية في بيتي يخدمنني، وكنت مع ذلك عاتبةً على ولدي

جعفر، وأقول إنه لم يؤدّ حقي في عدد الجواري اللاتي جعلهن في خدمتي!! .

ذلك يوم، وهذا يوم، يمرُّ علي هذا العيد، وأنا في أشدّ حال، أبحث عن جلدِي شاة لأفترش واحداً وألتحف بآخر.

فَرَقَ لها محمد وأعطاهما خمسمائة درهم، فكادت تموت فرحاً بهذه الدراهم^(١) .

ونظير هذه الحكاية، ما يروى عن (مُزَنَة زوجة مروان بن محمد) آخر الخلفاء الأمويين فقد ذكر أن الخيزران^(٢) أم الهادي والرشيد، كانت في دارها، وعندها امهات أولاد الخلفاء وغيرهن من نساء بني العباس، فبينما هي كذلك، إذ دخلت عليها جارية من جواريها فقالت: أعزّ الله السيدة! بالباب امرأة ذاتُ حُسن وجمال، في أطمارٍ رَثَّةٍ، وليس وراء ما هي عليه من سوء الحال غاية، تأبى أن تخبرَ باسمها، وهي تروم الدخول. فقالت الخيزران للجارية: أدخلها، فإنه لا بد من فائدةٍ أو ثواب .

فدخلت امرأة ذات بهاء وجمال، وفي أطمار رَثَّةٍ، فوقفت بجانب عضادة الباب ثم سلمت متضائلة، وتكلمت فأوضحت عن بيان ولسان .

قالت لها الخيزران : من أنت ؟

قالت : أنا مُزَنَة زوج مروان بن محمد، وقد أصارني الدهر إلى ما ترين، ووالله ما الأطمار الرثة التي عليّ إلاّ عارية، وإنكم لما غلبتمونا على هذا الأمر، وصار لكم دوننا، لم نأمن مخالطة العامة - على ما نحن فيه من الضرر - على بادرة إلينا تزيل موضع الشرف، فقصدناكم لنكون في حجابكم على أية حال كان، حتّى تأتي دعوة من له الدعوة .

فاغرورقت عينا الخيزران بالدموع، ولكن زينب بنت سليمان بن علي التي كانت حاضرة في المجلس، التفتت إلى مزنة، وقالت في غضب:

(١) وقائع الأيام للشيخ عباس القمي : ١٧٣ .

(٢) هي زوجة المهدي العباسي، ولما ولي الخلافة استبدت بالأمور دونه .

لاخفف الله عنك يا مزنة ! أتذكرين وقد دخلت إليك وأنت على هذا البساط بعينه، فكلّمتك في جثة (إبراهيم الإمام) فانتهرتني، وأمرت بإخراجي، وقلت: ما للنساء والدخول على الرجال في آرائهم ووالله لقد كان مروان زوجك، أدعى للحق منك! لقد حلف - حين دخلت عليه - إنه ما قتله - وهو كاذب - وخيرني بين أن يدفنه، أو يدفع إليّ جثته، وعرض عليّ مالاً فلم أقبله .

فقلت مزنة : والله ما أداني إلى هذه الحال التي ترينها إلا تلك الفعّال التي كانت مني ! وكأنك استحسنتها ، فحرضت الخيزران على مثلها، إنما كان يجب عليك أن تحضّيها على فعل الخير، وترك المقابلة بالشر، لتحرّز بذلك نعيمها، وتصون دينها .

ثم قالت: يا بنت عمّ، كيف رأيت صنيع الله بنا في العقوق؟ أفأحببت التآسي بنا؟! ثم ولت باكية، وخرجت منكسرة القلب .

وتداركت الخيزران الموقف، فأشارت إلى جارية من جواريتها، فلحققتها وعدلت بها إلى بعض حجر القصر، وأمرت بتغيير حالها والإحسان إليها .

ولما دخل المهدي عليها - وقد انصرفت زينب - قصّت الخيزران عليه قصة مزنة، وما أمرت به من تغيير حالها، فدعا بالجارية التي ردّتها، وسألها إن كانت سمعت من مزنة شيئاً حين ردّتها إلى المقصورة؟ قالت: نعم، لحقتها وهي تبكي في خروجها، وتقرأ :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(١) .

ثم قال للخيزران : والله لو لم تفعلني بها ما فعلت، ما كلمتك أبداً، ثم أكرمها وأحسن وفادتها، وقال لها: والله لولا أنني لا أحب أن أجعل لقوم أنت منهم في أمرنا شيئاً لتزوجتك، ولكن لا شيء أصون لك من حجابي، كوني

(١) سورة النحل ؛ الآية : ١١٢ .

في القصر مع أخواتك إلى أن يأتيك أمرٌ من له الأمر فيما حكم به على الخلق. وذكر أنها عاشت حتى أيام هارون (١).

إن هذه الوقائع ونظائرها، مما لا تحصى عدداً، من قضايا التاريخ، وأحداث الزمان، تؤكد أن الحياة لا تدوم على وتيرة واحدة، وأنها دائمة التغير والتبدل، والمطلوب من الوعي اللبيب أن يكون على استعداد، وعلم، وإحاطة بتقلبات الأيام، وبذلك يقي نفسه من تسرب القلق إليها، ويكون بمنأى عن الاضطرابات النفسية التي يعاني منها كثير من الناس.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام «كيف تبقى على حالتك، والدهر في إحالتك» (٢).

ونعود لحديث الإمام الصادق عليه السلام، فالتأمل فيه، وفي الركائز الثلاث التي وضعها لمعرفة حال الدنيا، يرشدنا إلى الطريق الأمثل للوقاية من القلق ومكافحته.

إن هذه الرواية وأمثالها، من روايات قادة الإسلام وعظمائه، وأقوالهم الحكمية الأخلاقية تخلق عند الإنسان الوعي، والمؤمن الرشيد، نظرة واقعية للحياة، ومناعة دون الاغترار بها والركون إليها، والاعتماد عليها، فلا ينسى - في كل أحواله - أن الدنيا فانية، وأن حالاتها متغيرة ولا ثبات لها على صفة واحدة، وإن هناك كوارث قد تأتي على حين غرة. فيكون متهيئاً دائماً لمواجهة كل حالة طارئة، عارفاً أن التغير والتبدل والانقلاب من طبيعة هذا الكون وأنه لا شيء في هذه الدنيا باقٍ على حاله، من غير أن تصيبه رياح التغير والتبدل...

عندما يكون سليماً معافى، لا يفوته أن من ورائه مرض وسقم، وإذا كان في بحبوة شبابه وقوته، لا يغيب عن باله أن من وراء ذلك شيخوخة وضعف، وفي حال الغنى، لا يغفل عن الفقر والحاجة...

وبهذا الشكل لا يقع في أسر الدنيا، ولا تقيده أحابيلها، ولا يسمح لها

(١) قصص العرب : ١٦٥/٤ .

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي : ٥٥٤ .

أن تملك عليه قلبه، وتهيمن على نفسه ومشاعره .

لا ننكر أن الإنسان بطبعه محبٌ للعالم وما يتعلق بها، ومن الطبيعي أن يحب الأشياء والأشخاص . . ولكن النصيحة أن لا يفرط في حبه، إلى درجة الانفعال والذوبان .

انه يحب الزوج، والولد، والمُلك، والأهل، والاقتدار، والجاه . . وغير ذلك من أمور الدنيا ولكنه لا يصير عبداً لها، لا تملكه بحبه المفرط لها. فلو فقد شيئاً من ذلك، لو فقد مالاً، أو عزيزاً، يملك زمام نفسه وعواطفه، ولا ينسى عقله ودينه .

انه يفكر في عواقب الأمور، ولا ينسى صروف الدهر، ولا يفقد توازنه النفسي، وتعادله الروحي لا ينسى الحقيقة والواقع، ولا يتعد عن الحق والفضيلة في كل حالاته، في السراء والضراء في الشدة والرخاء، سواء أقبلت إليه الدنيا، ودارت عجلتها متوافقة مع مصالحه ومشتياته، أو أدبرت عنه، وغدرت به، وأسأت إليه .

ولا تتحطم شخصيته تحت ضغط القلق والاضطراب، وبهذا جاء الوحي المنزل في الكتاب الكريم في قوله تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾^(١) .

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «من أحبَّ البقاءَ فليُعدَّ للمصائبِ قلباً صبوراً»^(٢) .

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من لا يُعدُّ الصبر في النوائب يعجز»^(٣) .

إن هذا المنحى في التفكير يجعل الإنسان مستعداً لمواجهة الحوادث المرة، ويرفع من معنوياته، ويمنحه إرادة، وقوة وشدة وصلابة .

(١) سورة الحديد ؛ الآية : ٢٣ .

(٢) البحار للمجلسي : ١٣٧/١٧ .

(٣) الكافي للكليني : ٩٣/٢ .

على العكس من ذلك من لا يأخذ لنوائب الدهر أهبتة، ولا يستعد لها نفسياً، ولا يخطر بباله تقلُّبُ الدهر، ويريد من الدنيا أن تكون مسخرة لمصالحه وأهوائه دائماً، فإن مثل هذا الإنسان لا بد وأن يصطدم يوماً بجدار الواقع والحقيقة، ويكتشف حقيقة الدنيا، في الوقت الذي لا ينفعه ذلك، فيُصاب في عمق نفسه بالعطب والخور، ويُبْتَلَى بالخوف والقلق، واضطراب النفس، لأنه كان غافلاً عن حقيقة الدهر، معرضاً عن ما قد تأتي به الأقدار .

العلاج :

أما عن العلاج من هذا البلاء العنيد، فلا بد من الاستعانة بقوة الإيمان، وبالتحليلات النفسية، لتقوية الإرادة، وخلق القدرة في النفس على ضبطها، وَرَمِّها وترويضها على حُسْنِ التحمل، وبذلك يتمُّ له اقتلاع جذور القلق والخوف والاضطراب من أعماق النفس .

إن من أهم أسباب القلق في حياة الإنسان، هو الأسف على ما مضى، والحذر من المستقبل، فالنفس تتحول إلى ميدان تجول وتصول فيه دواعي الأسف على ما فات، والخشية مما قد يأتي ويبقى الفكر مرهوناً بالأمس وخائفاً من الغد، وبذلك يمتنع على المرء فهم الواقع، وإدراك حقائق الحياة الحاضرة، فينكص عن أداء التزاماته، وواجباته الفعلية، ويتخلف عن ركب الحياة، وتذهب سنوات عمره الثمينة حَسَرَاتٍ وآهاتٍ، من ناتجٍ أو ثمر .

يقول أبو عبد الله الصادق عليه السلام :

«الأيام ثلاثة، فيوم مضى لا يُدرَك، ويومُ الناس فيه، فينبغي أن يغتنموه، وغدٌ، إنما في أيديهم أملُه»^(١) .

ويقول علي عليه السلام ، في وصية له لولديه الحسن والحسين عليهما السلام :

«ولا تأسفاً لشيءٍ منها زُويَ عنكما...»^(٢) .

وعنه عليه السلام أيضاً : «الاشتغال بالماضي يضيِّع الوقت»^(٣) .

(١) تحف العقول : ٣٢٤ .

(٢) نهج البلاغة .

(٣) فهرست الغرر : ٣١٦ .

إن سعادة الإنسان تكمن في معرفته باستثمار لحظات العمر، ودقائق الحياة، بغض النظر عن الماضي وعن المستقبل، إلا في حدود التدبير والاستعداد للمستقبل، أو الاستفادة من الماضي، والاعتبار به، كما أسلفنا عن ذلك، أما أن يصرف عمره في التأسف على الماضي، والخشية من المستقبل بحيث يسبب له ذلك الموت الحاضر، فهذا شيء منهى عنه بشدة.

على العاقل أن يستفيد من رصيد عمره، ويكون ابن وقته، ولا يمزج يومه بالغصة والمرارة، ويسبب في خلق القلق والتعاسة لنفسه.

إن الماضي انتهى، وينبغي إسدال الستار عليه، فلا يعود الأسف عليه بشيء، إلا مضيعة الوقت، وهو كما يقول الصادق عليه السلام: «يوم مضى لا يدرك».

وأما المستقبل فمَنوط بالحاضر الذي يعيشه المرء، ويمكن تعليق الأمل عليه، لا الخوف منه (وغد إنما في أيديهم أمله) فلو حاول استثمار الحاضر استثماراً جيداً، أَمَّنَ لنفسه مستقبلاً جيداً أيضاً، مع عدم التغافل عن المقدرات الربانية، والمصالح الإلهية، وما قد يأتي به المستقبل مما لم يكن في الحسبان.

إن مسؤولية الإنسان عن حاضره، وعن الزمان الذي يعيشه، فعليه أن يغلق أبواب الماضي والمستقبل، ويعمل بجِدٍّ لإعمار وإصلاح اللحظات التي يعيشها بالفعل.

عن الصادق عليه السلام: «اعمل لكل يوم بما فيه ترشُد».

لنفترض أن قائداً عسكرياً يقود آلاف الجنود، يستعد الآن لتحريك قطعات الجيش لأداء مهمة عسكرية بالغة الأهمية، وقد سبق له أن فشل في مهمة سابقة، ومُنِيَ بالهزيمة وتعرضت حياة الكثير من جنوده للهلاك، وهو الآن يريد إعادة الكرة، فما هو المطلوب الآن - عقلاً وشرعاً - من هذا القائد؟

هل يصح أن يعشعش اليأس في نفسه من الماضي المر؟

هل يظل يجتر الأسف على الأمس الحزين؟

أو هل يصح منه، أن يمنع القلق والخوف من المستقبل عن أداء الواجب الفعلي؟ .

هل من المعقول أن يعيقه القلق على ما قد يحدث له في غده المجهول؟ أم عليه الإقدام والجهاد والمثابرة في مهمته الحاضرة؟ .

إن المنطق السليم، والعقل الحصيف، ومقتضيات الشرع الإلهي... هذه كلها تدعوه إلى مراعاة الزمن الحاضر، وتحثه على مواصلة العمل لإنجاح المهمة الفعلية، والوصول إلى الغاية المنشودة، وقيادة الجيش إلى النصر المؤزر .

إن التدبر في الماضي، والإتعاظ منه، والأخذ بالحزم من خلاله شيء جيد، فقد قيل (لا يُلدغ المرء من جُحرٍ مرتين) ولكن التحسّر الدائم عليه، والأسف المقلق منه، وصرف العمر الثمين عبثاً في التفكير الغير مجدي لما حصل بالأمس... هذا كله من قُصر النظر وضعف التمييز .

كذلك الخوف من المستقبل والعيش في الأوهام، والتخيلات المستقبلية، والقلق من احتمال الكوارث، والتوجس من الغد، وتوقع الشر فيه، مما يعيقه عن أداء المهام، والالتزام بالواجبات والتكاليف، وتحمل المسؤوليات، ويُحيل يومه عذاباً ومرارة، ويُلحق حاضره الذي كان ينبغي أن يكون مشرقاً بماضيه المحزن، وغده المخيف، فيتصل الحوف بالخوف، والقلق بالقلق، وتتحول الحياة إلى جحيم وعذاب .

قيل إن بعض الأعراب، خُطبت إليه ابنته، فقال وهو ينظر إلى مستقبل مجهول أمره إلى الله، ويعيش عبثاً في قلق حاضر :

أحبُّ بُنَيَّتِي وددت أني	دفنتُ بنيتي في قاعٍ لَحْدِ
وما بي أن تهون عليّ لكن	مخافة أن تذوق الدّل بعدي
فإن زوجها رجلاً فقيراً	أراها عندهُ والهمُّ عندي
وإن زوجها رجلاً غنياً	فيلطم خدّها ويسبُّ جدي
سألت الله يأخذها قريباً	ولو كانت أحبُّ الناس عندي ^(١)

(١) المستطرف : ٢٣/٢ .

إن قليلاً من الخوف والحذر، لا بدّ منهما في حياتنا، وإلاّ لكان الإنسان متهوراً، معرضاً عن النظر للعواقب والنتائج، ولكن دون أن يصبح هذا الخوف عاملاً لإيجاد القلق الدائم، وسبباً لإعاقة مسير الحياة .

فدع عنك الماضي والمستقبل، وفكر في يومك الحاضر، وتخلص من الأوهام، واتجه نحو تنفيذ الأهداف النبيلة، والغايات الشريفة، ودع عنك النظرة التشاؤمية، وتخلّ عن التردد .

قد يقول قائل : إنني معرض عن الماضي، ولا أفكر في المستقبل، ومع ذلك يتنابني القلق، ويقض مضجعي الخوف، لأنني أعيش محنة بالفعل، إنني في مشكلة قائمة لأنني مهدد بذهاب مالي . . أو خائف على تجارتي المعرضة للخطر، أو خائف على مريضه من الهلاك، أو خائف من سلطان جائر . . وهكذا ربما تتعدد عوامل الخوف الواقعي، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام : (الخائف لا يعيش له) .

وقد سبق الحديث عن مثل هذا الخوف المعقول، والقلق الطبيعي في حياة الناس، ونؤكد أنه شيء طبيعي . . بل لا بدّ منه لتستقيم الحياة، ولا يمكن أن تخلو حياة أحد من مثل هذه المخاوف . . ولكن لا ينبغي أن يتجاوز الحد المعقول .

يجب على المرء أن يتعرف على أسباب إثارة هذا القلق، وعلة التوتر والاضطراب، وهل الأسباب والعوامل وجيهة ومقبولة، أم أنها وهمية لا معنى لها، وزائدة عن الحدّ ؟ قد يكون - بقلقه الزائد، وتخيلاته وأوهامه، وتصورات الباطلة - قد زاد الطين بلة، وأوقع نفسه في محذورات ومشاكل كان في غنى عنها . .

عن الإمام علي عليه السلام : «إذا رهبت شيئاً فقع فيه، فإن شدة توقّيه أعظم مما تخاف منه» (١) .

ولنضرب مثلاً على ذلك :

(١) نهج البلاغة الحكمة : ١٦٦ .

دُعي أحدهم ليلقي خطبة في حشد كبير من الناس، فيهم من أهل العلم والأدب والفضل، والمثقفين، فَتَهَيَّبَ من ذلك، وداخله قلق بالغ، فهو وإن كان فاضلاً أديباً، إلا أنه لم يجرب نفسه في الخطابة من قبل، وهذه ستكون المرة الأولى التي يجرب حظه فيها في مثل هذا الجمع الغفير والحشد الكبير من الناس. لذا كان شديد التهيب والقلق من هذا الموقف الحرج وظل دائم التفكير في هذه المشكلة... كيف يواجه الناس؟ ماذا يصنع لو نسي ما أعدَّ قوله؟

وكيف يكون مصيره لو تلعثم أو أرتج عليه؟

بات ليلته بأشد قلق، وتمنى لو تنزل به نازلةٌ تعيقه عن الحضور، ويعتذر بها عن إلقاء الخطبة، ويعفى منها. قضى ليلته مشغول البال في هذا الأمر، وأصبح مشغول البال أيضاً، وبقي أياماً على هذا الحال، يزداد ارتباكاً وقلقاً كلما اقترب الموعد.

ولكنه فكر في نفسه في الآخر، وأخذ يحلل الباعث على هذا الخوف، والسبب وراء هذا القلق أو كل الخطباء تعتر بهم مثل هذه الحالة؟ وهل يستحق هذا الموقف كل هذا الارتباك والقلق؟ ما الذي يهابه في الواقع؟ إنه يخاف أن لا يكون موفقاً في إلقاء خطبته، فليكن كذلك، وماذا لو لم يوفق؟ هل تنطبق السماء على الأرض؟ كلا طبعاً، كل ما هنالك أن بعض الحاضرين قد يسخر منه... وماذا بعد ذلك؟ وهل الفشل إلا مرحلة أولى للوصول إلى النجاح؟

توسّل بالحكمة، والتفكير السليم، وبهذه النظرة الواقعية، اجتاز مرحلة الخوف، وترك القلق وراء ظهره، وهجم على الخوف، وأوقع نفسه فيما كان يهابه ويخشاه، فتضاءلت الرهبة في نفسه، وأخلى قلبه من الاضطراب الموهوم... ونجح بالفعل في إلقاء خطابه، ووجد نفسه يتحدث بطلاقة ويسر، دون عناء أو وجل، ولم يحدث له ما كان يتوقعه، من الخوف والإحباط... وكان من أمره أنه صار بعد ذلك خطيباً بارعاً. روي عن أمير المؤمنين عليه السلام : «إذا خفت صعوبة أمر، فاصعب له يذل لك»^(١).

(١) غرر الحكم : ٣١٩ .

إن التعرف على بواعث القلق يجعلنا نتعرف على طرق المعالجة بشكل أفضل، والبواعث متعددة وكثيرة.. ولم يدع أئمة الهدى عليهم الصلاة والسلام، داءً من غير دواء، ولا معضلة من غير حل.. لم يتركوا ثغرة في حياة المؤمن إلا سدّوها بمناهجهم القيّمة ومبادئهم النبيلة.. فذكروا لنا أن من أهم الأسباب التي تمنح الراحة والإطمئنان، ويتغلب بها الإنسان على قلقه واضطرابه، هو الرضوخ للأمر الواقع الذي لا مناص منه والرضا بما قسم الله عز وجل، وترك الجزع.

ذكر عن إبراهيم الخليل على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام، حين وُضع في المنجنيق، ليرمى في نار نمروذ، أنه لم يظهر جزعاً، ولم يعتره قلق وخوف، بل تدرع بالصبر والثبات، واستسلم لقدره الجاري عليه، شاء أم أبى، وهو في كل حال بعين الله.. وماذا يفيد الجزع والتضجر في مثل هذه الحالة؟ خير له أن يستعد للقاء الله بالجلد والصبر فكان أن أوحى الله تعالى إلى النار: ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾^(١).

إن النوازل التي ليس بيد المرء ردّها ودفعها، ولا يملك حلّها، لا ينفع معها إلا أن يكيّف نفسه لها، وينسجم معها..

لو كان يملك دفعها والخلاص منها، أو كان في مقدوره التخفيف من وطأتها فعل، وإلا صبر لها، وتحملها، واحتسبها عند الله.

عن الصادق عليه السلام: «إياك والجزع، فإنه يقطع الأمل، ويضعف العمل، ويورث الهم، واعلم أن المخرج في أمرين: فما كانت له حيلة فلاحتيال، وما لم تكن له حيلة فالإصطبار»^(٢).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا نزل بك مكروه فانظر: فإن كان لك حيلة فلا تعجز وإن لم تكن فيه حيلة فلا تجزع»^(٣).

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «إذا كان القدر لا يُرد،

(١) سورة الأنبياء؛ الآية: ٦٩.

(٢) محمد تقي الفلسفي، الأخلاق.

(٣) شرح النهج للحديدي: ٣١٠/١.

فلاحتراس باطل»^(١) .

وعنه عليه السلام أيضاً : «إنكم إذا رضيتم بالقضاء طاب عيشكم، وفزتم بالغناء»^(٢) .

وعن علي بن الحسين عليه السلام : «الرضا بمكروه القضاء، أرفع درجات اليقين»^(٣) .

كل هذه النصوص، تمنح النفس البشرية قوة وصلابة، لمواجهة الصعاب والأهوال والمشاكل، ولا تشجع بأي شكل من الأشكال على الاستكانة والكسل، كما يحلو للبعض أن يصفها بهذه الصفة .

إنها تدعو لاختراق الحواجز، وتجاوز الصعاب فيما لو كان بمقدور المرء ذلك . . . ولكن الإنسان كثيراً ما يعجز تمام العجز عن أداء أي نوع من أنواع المقاومة للشدائد والمحن والنوازل، عندها يجب عليه أن يتدبر بالصبر والتحمل، ويفوض الأمر إلى الله تعالى بدل أن يعتريه الخوف ويعيش القلق ويملأه اليأس .

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «عليك بالصبر والاحتمال، فمن لزمهما هانت عليه المحن»^(٤) .

وعنه عليه السلام : «المصيبة واحدة، وإن جزعت صارت اثنتين»^(٥) .

وعن صفوان الجمال، قال : كنا عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، فجاء رجل فشكا إليه مصيبة أصيب بها، فقال له : «أما إنك إن تصبر تؤجر، وإن لم تصبر يمضي عليك قدر الله الذي قُدِّرَ وأنت مأزور»^(٦) .

وعن علي عليه السلام ، قال : قال رسول الله ﷺ : «... ومن صبر

(١) - (٢) محمد تقي الفلسفي، الأخلاق .

(٣) حياة الأئمة للدخيل .

(٤) فهرست الغرر : ١٩٣ .

(٥) فهرست الغرر : ٤٣ .

(٦) جامع الأخبار للسبزواري : ٣١٦ .

على المصيبة أعطاه الله تعالى سبعمئة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة، ما بين منتهى العرش إلى الثرى مرتين» (١).

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «إنك إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور» (٢).

وعن رسول الله ﷺ : في الحديث القدسي : «إذا وجهتُ إلى عبدٍ من عبيدي مصيبة في بدنه، أو ماله، أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحيت منه أن أنصب له ميزاناً، أو أنشر له ديواناً» (٣).

لنفترض أن شخصاً كان له ولد عزيز، أثير على نفسه، يحبه حباً بالغاً، ويسعد به فاخطفه الموت، ماذا يصنع؟ هل يواصل البكاء والجزع ليله ونهاره؟ ويندب حظّه العاثر؟ ويعترض على الله عزّ وجلّ، ويزداد مصيبةً إلى مصيبته، ومحنةً إلى محنته؟ أم افضل له أن يتحمل ذلك، ويصبر صبراً جميلاً، وابتسم للحياة، وينظر إلى المستقبل، ويرضى بما قدر الله له، ويحتسبه عند الله؟.

طبعي أن الحالة الثانية، هي التي تنفعه لدينه ودنياه، وهي التي يأمر بها الشرع، وهي الطريقة التي واجه بها رسول الله ﷺ ، مثل هذه المصيبة، وذلك حينما فقد ولده إبراهيم .

مرض إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من مارية القبطية، ولما يبلغ عامين من عمره، فجزعت عليه أمّه، وقامت تسهر حول فراشه، وتمرّضه، ونفسها تذوب عليه في لهفة وقلق... ولكن الحياة أخذت تنطفئ فيه رويداً رويداً... فجاء رسول الله ﷺ ، معتمداً على يد بعض أصحابه، لشدة ألمه، فحمل الصغير من حجر أمه، وهو يجود بنفسه، ووضعه في حجره، محزون القلب، ضائع الحيلة، لا يملك إلا أن يقول في أسى وتسليم :

«إنا يا إبراهيم لا نُغني عنك من الله شيئاً» .

ثم ذرفت عيناه وهو يرى ولده الوحيد يعالج سكرات الموت، ويسمع

(١) (٣) جامع الأخبار للسبزواري : ٣١٦ .

حشرجة احتضاره مختلطةً بعويل الأم الثكلى، وانحنى على جثمان عزيزه الفقيد، فقبله والدمع يفيض من عينيه، ثم تمالك نفسه، فقال :

«يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزننا عليك حزناً هو أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يُسخطُ الرب»^(١).

وبنفس الطريقة واجه الإمام الصادق عليه السلام، محتته في موت ولده إسماعيل، وكان أكبر أولاده . . .

الجزع لا يغيّر شيئاً من الواقع المرّ، غير أنه يزيد القلق، ويعطب النفس، ويعرقل حركة الحياة، وقد قيل: (الجزع عند البلاء تمام المحنة) ولكن الصبر، والاستسلام لقضاء الله وحكمه يخفف المحنة، ويدفع القلق، ويسكن النفس، ويمنح الإنسان اطمئناناً وأمناً.

وربما اكتشف الصابر فيما بعد أن المصيبة التي نزلت به، كانت في صالحه، ولم تكن سوءً وشرّاً كما تصوّرها، فكثيراً ما يحدث أن تجري الأحداث بخلاف أمانى النفس ومشتياتها في ظاهر الأمر، ويغيب عن علم المرء أنها في الحقيقة توافق أغراضه ومصالحه، فهو غافل عن ذلك تماماً، يقول القرآن الكريم:

﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم...﴾^(٢).

ويقول تعالى: ﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً...﴾^(٣).

كانت أم سليم من النساء المؤمنات الصالحات، على عهد الرسول الكريم صلوات الله عليه وآله وسلم، وكذلك كان زوجها أبو طلحة من المؤمنين الأخيار الأوفياء، ويُعدُّ من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم.

(١) الاستيعاب : ٥٦/١ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢١٦ .

(٣) سورة النساء ؛ الآية : ١٩ .

أنجب الزوجان ولداً ففرحوا به، وكان قرة عين لهما، ولكن أصيب - وهو صغير - بمرض ألزمه الفراش، وانهمكت الأم في العناية به وتمريضه، وكان الوالد عند عودته من العمل، يعود ابنه المريض، ثم ينصرف متحسراً حزيناً إلى حجرته ليخلد للراحة من عناء يومه، وفي يوم من الأيام، أصابت المنية بسهامها هذا الصبي، أثناء غياب الوالد، وفارق الحياة، فبكت عليه أمه قليلاً، وحزنت عليه، ثم تذكرت ما وعد الله الصابرين من الأجر الجزيل، والشواب الجميل.. فكفكت دموعها، وغطت جسد ابنها، وغالبت المرأة المؤمنة الصالحة حزنها وجزعها.. وكان يهمها كثيراً أن لا تُفاجيء أباه بموت الولد، رافة ورفقاً به، ولكيلا يتأذى بموت ابنه. وصممت فيما بينها وبين نفسها أن تخفي عنه موت الصبي، فلما أمسى المساء، وعاد الرجل إلى بيته، توجه على عادته لعيادة ولده، فمنعته أم سليم، قائلة: إنه نائم، دعه ينام في سكون وهدوء، واستشعر الوالد من أسلوب حديثها، أن المرض قد خفف من وطأته على الصبي، فاطمأن قلبه بعض الشيء، خاصة حين لاحظ الهدوء، والإطمئنان على زوجته..

وباتا تلك الليلة دون أن يشعر أبو طلحة بشيء، فلما أصبحت أرادت الزوجة إخباره بموت الولد، ولكن بأسلوب عقلاني ذكي.

قالت: لو أودع الجيران عندك شيئاً معيناً، لفترة محدودة ثم أرادوا استرجاع وديعتهم، هل كنت تنزعج لذلك؟ .
قال: لا .

قالت: وهل كنت تبكي عليه؟ .

قال: لا .

فقالت: فقد أودع الله عندنا ولداً، وعاش معنا مدةً، ولكنه استعاده أمس، وأخذه منا، لقد توفي الولد، فاصبر على قضاء الله واستسلم لأمره، وجهّز ابنك!

إن أسلوب هذه المرأة المؤمنة، في إخبار زوجها بموت الولد، جعله يستسلم لأمر الله بالفعل، ويصبر على المصيبة .

هذأت من خاطره، ومنحته استقراراً نفسياً .

وحمل أبو طلحة، هذا الخبر إلى الرسول ﷺ ، فاستحسن طريقته في إبلاغ الخبر لزوجها، بل وتعجب من أسلوبها، ثم دعا لهما، وقال: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لهما في ليلتهما) واستجاب الله لدعاء نبيه ﷺ ، فحملت أم سليم من ليلتها، ثم وضعت ولداً أسمته (عبد الله) عاش كريماً مؤمناً، وقضى شهيداً، صار في عداد أصحاب علي عليه السلام ، واستشهد معه^(١) .

طبيعي أن يحب الوالدان ولدهما، وفلذة كبدهما، وأن يشفقا عليه، ويحرصا على راحته وسلامته . . . إنه الحب الإلهي الذي أودعه قلب الوالدين تجاه الأبناء، وموت الولد يصدع القلب، ويوهن النفس، ويفجر العين، وهو من المحن العظيمة التي لا يطيقها الناس وكثيراً ما نشاهد أحد الأبوين أو كليهما . . . ينهاران لفقد ولدهما، ويصابان بالذهول والشرود لأيام وأشهر، ولكن الحالة اختلفت مع أبي طلحة وزوجته أم سليم، إنهما تغلبا على الحزن وغالبا المصيبة، بالصبر والتجلد، والإستعانة بقوة الإيمان، والتفويض إلى الله، وتسليم الأمر إليه، والإستسلام لقضائه وإرادته .

تميزت أم سليم عن سائر الأمهات بالعقلانية، والنفس الكبيرة، والأخلاق العالية . . . وتميز أبو طلحة عن سائر الآباء، بالتصبر والتجلد، وحسن التحمل . .

ومُجمل القول :

في هذه الحياة صور كثيرة، ومشاهد تتكرر في حياة كل فرد من أبناء البشر من الصدمات التي تهزّ كيان الآدمي، وتحطم نفسيته، أكثر مما تحطم جسده، وهذا هو الأخطر كفقدان عزيز، أو سطوة ظالم، أو بطش جبار، أو خسارة مالية، أو فشل في عمل معين . . . هذه عوائق الحياة . . ولا مهرب منها، وهي تواجهنا يومياً . . . ولكن ذلك لا يعني نهاية العالم فلا ينبغي الركون لليأس والحزن، والرضوخ للقلق، لأن الحياة ماضية، والأيس منها ميت بين أحياء، ومن جلس يندب حظه واستسلم لسلطان القلق تخلف عن ركب

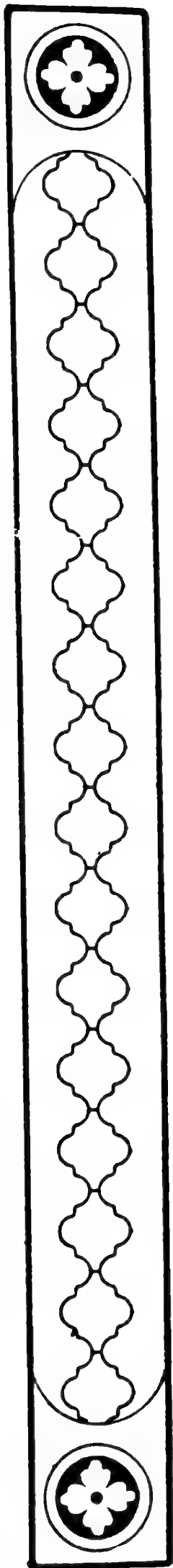
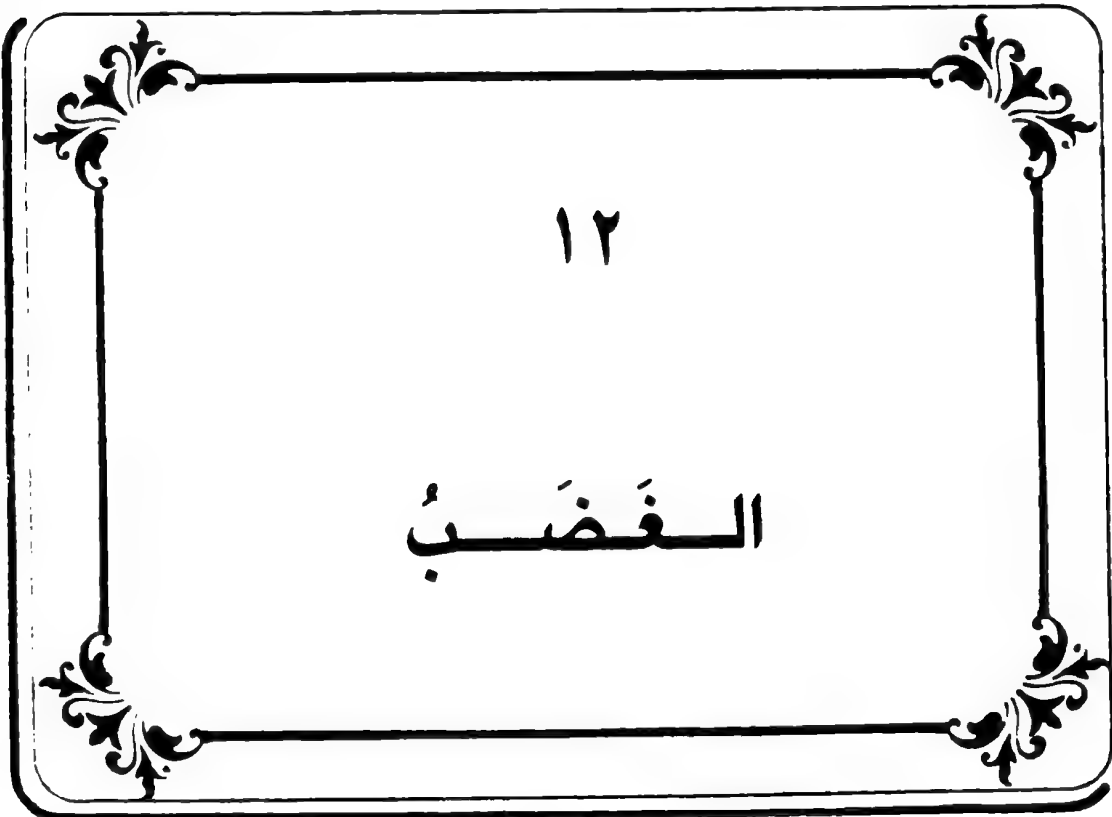
(١) مضمون الخبر عن (الكنى والألقاب) للشيخ عباس القمي : ١٠٨/١ .

الحياة، وفاته الفرص، الفرصة تلو الفرصة، وبذلك يدمر نفسه، ولا يصل إلى نتيجة، ليكن المرء ابن وقته . . . ووليد ساعته، فالذي مضى أصبح مجرد ذكرى، لن يعود ثانية، والمستقبل غائب عنا لا يعلم خبره إلا الله تعالى، فلندع أمره إليه . . . ولنسِرْ مع ركب الحياة معتمدين على الله والإيمان . . . لنطلق وراء الأمل بالله، وبذلك نحقق الكثير مما نطمح إليه بعزم وإصرار . . . والذي يؤمن بشيء، ويعمل بحماس في سبيله، لا بد وأن يحقق إرادته، ويصل إلى مبتغاه .

وعندما تراودنا فكرة الإستسلام واليأس، أو عندما يساورنا القلق علينا أن نتحصن بالاتكال على الله عز وجل، ونؤمن بأنفسنا، فإن في أعماق النفس قوة هائلة، نستطيع بها التكيف مع كل حال، ونتغلب بها على الأحزان والمشاكل .

لا تقلق من الحياة . . . ولا تندب حظك . . . فتصبح سجين نفسك . . .
تغلب على مصاعب الدهر، بالاعتماد على الإيمان بالله جل اسمه،
والله كفيل أن يعين من استعان به، وينصر من استنصره .
﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(١).

(١) سورة الزمر؛ الآية : ٣٦ .



إنَّ علم النفس يغور في أعماق بني البشر، ويتدخل في كل شأن من شؤونهم، ولا نستطيع أن نحدد، ولا مجالاً واحداً، في حياة الناس، لا يستوعبه علم النفس فهو يغطي جميع أوجه النشاط البشري، والممارسات الحياتية ..

والغضب، نوع من أنواع النشاط النفسي، ولون من ألوان الانفعال لدى الإنسان وغريزة من الغرائز التي أودعها الله في طبيعة البشر، وهو (استجابة) في قبالة (مثير). فأنت حينما يُساء إليك، لا بدّ وأن تكون لك ردّة فعل، فالإساءة مثير مهما كان شكلها والرد عليها استجابة مهما كان نوعه ..

ويمكن تصور الإستجابة على ثلاث صور :

١ - إساءة بإساءة، وهو الشكل السائد في الطبيعة البشرية، الذي يتصف به أكثر الناس، وعليه عامّتهم .

٢ - سكوت على إساءة، وهو كظم الغيظ، ومحاربة الطبع والهوى، والتغلب على النفس .

٣ - إحسان على إساءة، وهو خلق عظيم، لا يتحلّى به إلاّ ذوو النفوس الكبيرة، وأصحاب الهمم العالية، والطباع الشريفة ..

والغضب : حالة نفسية، وحين تدخل ضمن عملية (الاستجابة والمثير) تختلف هذه الاستجابة من شخص لآخر، ويتفاوت سلوكه عن آخر، ونفسية

عن أخرى ولكن يبقى الغضب (حالة استنفار للنفس) ربما تؤدي إلى ردود فعل لا تحمد عقباها من هنا، شبه أمير المؤمنين علي عليه السلام، الحدة والغضب بالجنون، فقال:

«الحدة ضرب من الجنون، لأن صاحبها يندم، فإن لم يندم فجنونه مستحكم»^(١).

وعن الرسول صلى الله عليه وسلم: «الغضب يفسد الإيمان، كما يفسد الخل العسل»^(٢).

وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «الغضب مفتاح كل شر»^(٣).

وقيل: من أطاع الغضب، أضاع الأدب...

كل ذلك لأن النفس تتحول عن طورها الطبيعي إلى الهيجان والانفعال، ومن ركودها إلى الغليان والثورة، والتوتر الشديد، وحب التخريب، وشهوة الانتقام والهدم، والإعراض عن الوقار والرزانة، إلى سيكولوجية الإعتداء والضرب، وإطلاق التهديدات، وما إلى ذلك من الردود العقابية.. فهي حالة جنونية!!.

ولكن هذه الثورة النفسية سرعان ما يخمد لهيها، وينطفئ ناراها، ويلحق الإنسان بعد ذلك ندم على ما بدر منه في تلك الحالة، وهو من فضل الله على الناس، أن جعلهم بهذه الصورة، بحيث لا تدوم الآثار النفسية للغضب معهم طويلاً.

ولو لم يكن المرء كذلك، أي لو لم يكن يندم على السلوك الانفعالي في حال الغضب، لكان مجنوناً بالفعل، يحتاج إلى ممارسة العلاج النفسي للتخلص من هذا المرض، كما صرح بذلك الإمام عليه السلام.

ولنستمع إلى تعريف آخر للغضب - للشيخ الجليل العلامة النراقي - لا

(١) - (٢) جامع السعادات للنراقي : ٢٨٨/١ .

(٣) ربيع الأبرار للزمخشري : ٣١/٢ .

يخلو من فائدة :

يقول: «الغضب كيفية نفسانية، موجبة لحركة الروح من الداخل إلى الخارج للغلبة ومبدؤه شهوة الانتقام، وهو من جانب الإفراط، وإذا اشتد يوجب حركة عنيفة، يمتلىء لأجلها الدماغ، والأعصاب، من الدخان المظلم، فيستر نور العقل، ويضعف فعله، ولذا لا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة، بل تزيده الموعظة غلظة وشدة» .

«قال بعض علماء الأخلاق - والكلام للنراقي - الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة، ولكنها لا تطلع على الأفئدة، وإنها لمستكنة في طي الفؤاد، استكنان الجمر تحت الرماد وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين، أو حمية الجاهلية والكبر الدفين، من قلوب الجبارين التي لها عرق إلى الشيطان الرجيم، حيث قال: (خلقتني من نار وخلقته من طين) فمن شأن الطين السكون والوقار، ومن شأن النار التلطي والاستعار»^(١) .

يذكر الشيخ في هذه المقطوعة، بعد تعريفه للغضب: إن فيه الإفراط والتفريط وفيه الاعتدال والحد الوسط، وهو حق . . . إذ إنه غريزة أودعها الله فينا، ولم تودع اعتباطاً، بل لغرض معين، وحكمة بالغة، ولا بد منه في حياة الإنسان . .

فربما كان الغضب في محله مناسباً، كالغضب لأجل الله، وذلك الذي ينطلق من حمية الدين، ومن قلوب المؤمنين، وربما لم يكن في محله، فهو إفراط في حالة الانفعال الشديد، ناتج عن إلقاءات الشيطان الرجيم وإيحاءاته . . .

بعبارة أخرى: إن هذه الحركة النفسية، ربما تتسم بالإفراط، أو بالتفريط أو بالاعتدال، فالإفراط فيها، أن تخرج من إطار العقل والعرف والشرع، ومن طاعة الله عز وجل . . . فتعمي الفكر والبصيرة . . . وتجتر إلى المهالك والمساويء، فتكون استجابة عنيفة، مبالغ فيها، خارجة عن الحد المطلوب . . وفي هذه الحالة يحتاج المرء إلى كظم الغيظ، واجهاد النفس

(١) جامع السعادات : ٢٨٥/١ .

في سبيل عدم الإستجابة والانفعال بالغضب ، وستحدث عن ذلك إن شاء الله .

والتفريط فيها : أن تتسم الاستجابة بالبرود واللامبالاة، وعدم الرد، في حال يقتضي منه الرد، ويتحتم عليه شرعاً وعقلاً أن يستجيب للمثير، ويغضب .

والاعتدال فيها : هو الحدّ الوسط المعقول، أن يغضب في موطن الغضب، كما لو كان غضبه لله، أو بسبب ظلم ظالم واعتداء معتدٍ غاشم . . أو غضب من سوء تصرف . .

والمقياس في ذلك كله، هو العقل والشرع، فيكون تابِعاً لهما، ولا ينقاد للمشاعر والعواطف .

وعن الاعتدال في الغضب، قيل : من استَغْضِبَ ولم يغضب فهو حمار، ووصف الله سبحانه خيار الصحابة بالحمية والشدة على الكافرين، فقال عزّ من قائل : ﴿أَشَدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ...﴾^(١) .

وخاطب نبيه ﷺ ، بقوله : ﴿وَاعْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾^(٢) .

ومن الغضب الصحيح : غضب أبي ذر الغفاري، رضوان الله عليه، على الأوضاع السائدة آنذاك، حيث وجد بعض ولادة الأمر، اتخذوا مال الله دُولاً، وعباد الله خُولاً . . فاستنكر تلك التصرفات الغير مرضية في المفهوم الإسلامي منهم، وبلغ به الاستنكار إلى الغضب مما أدّى به إلى إبعاده عن مدينة الرسول، فخرج منها حزيناً على فراقها، وإليها للعودة إليها، في الوقت الذي منع الخليفة الناس، حتى من الخروج لتوديعه، واضطر الناس للامثال للأوامر الصارمة . . ولم يخرج أحد لتوديع الصحابي الجليل، باستثناء الإمام عليّ عليه السلام وأولاده، ولما حانت ساعة الرحيل نظر أبو ذر إلى هذه الوجوه النيرة الكريمة، فهاجت عبرته، وبكى لفراقهم، وفراق جوار رسول

(١) سورة الفتح ؛ الآية : ٢٩ .

(٢) سورة التوبة ؛ الآية : ٧٣ .

الله ﷻ ، وفراق المدينة وأهلها، ومن صَحِبَهُمْ وَأَلْفَهُمْ . . فقال له علي عليه السلام :

«يا أبا ذر: إنك غضبت لله، فَارْجُ من غضبتَ له، إن القومَ خافوك على دنياهم وخِفَتَهُمْ على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب بما خِفَتَهُمْ عليه، فما أَحَوَّجَهُمْ إلى ما منعْتَهُمْ، وما أَغْنَاكَ عما منعوك، ولو أن السَّمَوَات والأرض كانتا على عبد رتقاً، ثم اتقى الله، لجعل له منهما مخرجاً، ولا يُؤْنِسُنَّكَ إِلَّا الحق، ولا يُوحِشُنَّكَ إِلَّا الباطل، فلو قبلت دنياهم لأحبوك، ولو قرضت منها لأمنوك» (١).

إن الإمام عليه السلام يبرر له غضبه، ويعتبره في محله، لأنه كان لله، وما كان لله فهو حقٌ وصحيحٌ، ولا يمكن أن يكون إفراطاً، ولا يوصف أنه خارج عن الإطار المعقول .

ويشير القرآن الكريم إلى هذا النوع من الغضب، في سورة النمل، حيث يحكي عن سليمان النبي، على نبينا وآله وعليه الصَّلَاة والسَّلَام، حين تفقد الطير فوق رأسه، فلم يجد الهددَ في محله، فاعتبر ذلك عصياناً وتمرداً على أمر الله تعالى من هذا الطائر، بتركه التظليل على رأسه، وغضب لذلك .

﴿وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهددَ أم كان من الغائبين، لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطانٍ مبين﴾ (٢) .

إن هذا التهديد الذي أطلقه سليمان للهدد، ينمُّ عن غضبٍ شديد . . ولم يكن هذا الغضب اعتباطاً، ولم يكن لأجل نفسه، بل لما اعتبره سليمان، خروجاً من الطائر على أمر الله تعالى، ومخالفة له عزَّ وجلَّ . . حتى إذا انكشفت له الحقيقة، وظهر له الواقع، زال غضبه، وانتهت المشكلة .

إن الوالد قد يغضب على أولاده لسوء تصرفهم، والرجل يغضب من

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، طبع دار مكتبة الحياة، بيروت، المجلد:

٩٠/٣، النص: ١٣٠ .

(٢) سورة النمل ؛ الآيتان : ٢٠ - ٢١ .

أهله لمخالفتهم وعصيانهم لأوامر الله تعالى، وأي فرد من الناس قد يغضب لانتهاك حرمة من حرمت الله، أو بسبب ظلم ظالم.. أو جور حاكم.. كل ذلك لله، ولا بد منه، وليس هذا النوع من الغضب المنهي عنه، بل هو من النوع الذي يحبّه الدين، ويدعو إليه الشرع.

أما لو كان الغضب ينطلق من منطلق الكبر والتعالي، أو كان بسبب عصبية جاهلية أو لمصلحة شخصية، كغضب السلطان على بعض الرعية المظلومة، أو كغضب الزوج على الزوجة لتهاونها في أداء بعض الأعمال المنزلية، أو كغضب الرجل العالم الفاضل العاقل على جهلة الناس بسبب سلوك غير مؤدب، أو تصرف غير لائق... هذه الصور وأمثالها يحث الشرع على مواجهتها بالصبر وكظم الغيظ، وإخماد ثورة النفس، ووضع السدود أمام سورة الغضب، بالطرق الإسلامية النفسية المذكورة في تعاليم الشرع الحنيف.

روي أن رجلاً كلّم عروة بن محمد السعدي بكلام فغضب غضباً شديداً.. فقام وتوضّأ ثم جاء فقال: حدّثني أبي عن جدي - وكانت له صحبة مع رسول الله ﷺ - قال رسول الله ﷺ: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضّأ»^(١).

هذه طريقة لإسكات الغضب، وثمة طريقة أخرى:

عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: «إن هذا الغضب جمرة من الشيطان، توقد في قلب ابن آدم، وإن أحدكم إذا غضب احمرّت عيناه، وانتفخت أوداجه، ودخل الشيطان فيه، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض (أي يجلس) فإن رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك»^(٢).

وعن معاذ بن جبل: استبّ رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما غضباً شديداً، حتّى خيّل إليّ أن أنفه يتمرّع من شدة غضبه.

(١) ربيع الأبرار للزمخشري : ٣٠/٢ .

(٢) جامع السعادات للنراقي : ٢٨٨ .

فقال ﷺ : إني لأعلم كلمة لو قالها، لذهب عنه ما يجد من غضب!
فقلت: ما هي يا رسول الله؟

فقال: «اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم» (١).

وقال بعضهم: أطفئوا الغضب بذكر جهنم.

إن المرء حين يعتريه الغضب، يكون في حالة خاصة، حالة هيجان النفس وجنونها وإرادة العقاب، ويلزمه أن يغير طور النفس في هذه الحالة بحركة معينة، أو قول معين ليخرج من هذه الثورة التي هو فيها، فلو قام بعمل مما ذكر في الأحاديث والروايات لتغيرت هذه النفسية، ولأخذ بكظم الغيظ، ولزالت هذه الفورة.

وصف الله تعالى المؤمنين بكظم الغيظ في قوله تعالى:

﴿الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ (٢).

وأصل الكظم: شدّ رأس القربة على ملئها، تقول: كظمت القربة إذا ملأتها ثم شددت رأسها، وفلان كظيم، ومكظوم، إذا كان ممتلئاً غضباً ولم ينتقم لنفسه، والكظامة: القناة التي تجري تحت الأرض، سميت بذلك لامتلائها تحت الأرض، ويُقال: أخذ بكظمه، أي مجرى نفسه، لأنه موضع الإمتلاء بالنفس.

يصف الباري عز وجل المؤمنين بصفات كثيرة. منها كظم الغيظ، أي: المتجرعين للغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، فلا ينتقمون ممن يضرهم أو يؤذيهم، بل يصبرون على ذلك بتضييق الخناق على سورة الغضب.

ويذكر لهم في هذه الآية صفة أخرى، لا تبتعد كثيراً عن موضوع حديثنا، وهي: العفو عن الناس ﴿والعافين عن الناس﴾ أي الصافحين عن الناس، المتجاوزين عما يجوز العفو والتجاوز عنه، مما لا يؤدي إلى الإحلال

(١) ربيع الأبرار : ٣٥/٢ .

(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٣٤ .

بحق الله تعالى .

ومضى القول أن كظم الغيظ، أو ردّ الغضب، والسكوت عليه، إن كان لله تعالى وفي موقعه ومحله، فهو من الأعمال الصالحة التي جاءت الأخبار فيه، منها ما رواه أبو أمامة عن رسول الله ﷺ : «من كظم غيظه وهو قادر على إنقاذه ملأه الله يوم القيامة رضا» (١) .

وفي خبر آخر: «ملأه الله يوم القيامة أمناً وإيماناً» (٢) .

وقال أيضاً: «كاظم الغيظ كضارب السيف في سبيل الله في وجه عدوه، وملأ الله قلبه رضا» (٣) .

وقال ﷺ : «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» (٤) .

ووردت أخبار عن العافين عن الناس فقال عنهم الرسول ﷺ :

«... إن هؤلاء من أمتي قليل إلا من عصم الله...» (٥) .

وقال ﷺ أيضاً: «ما عفا رجل عن مظلمة قط إلا زاده الله بها عزاً» (٦) .

عن المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن قبلكم يغضب، فيشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف، فأعطى كل صحيفة رجلاً، وقال للأول: إذا اشتد غضبي فقم إليّ بهذه الصحيفة وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فأعطنيها، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فناوليها. وكان في الصحيفة الأولى: أقصر، ما أنت وهذا الغضب؟ لست بإله إنما أنت بشر!! أوشك أن يأكل بعضك بعضاً. فسكن بعض غضبه .

وكان في الصحيفة الثانية: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء، فسكن بعض غضبه. وفي الثالثة: خذ الناس بحق الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذاك (٧) .

(١) - (٦) مجمع البيان للطبرسي، المجلد الأول : ٨٤٨ .

(٧) ربيع الأبرار : ٣٤/٢ .

وأذنب غلام لامرأة من قريش، فأخذت السوط ومضت نحوه، حتى إذا قاربته رمت بالسوط وقالت: ما تركت التقوى أحداً يشفي غيظه^(١)!!

وروي عن رسول الله ﷺ، أنه مرَّ بأناس يتجاذون^(٢) مِهْرَاساً، فقال ﷺ: «أتحسبون أن الشدة في حمل الحجارة؟ إنما الشدة في أن يمتلئ أحدكم غيظاً ثم يغلبه»^(٣).

وعن معاذ بن أنس، عنه عليه السلام: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة، حتى يُخيَّره في أي الحُور شاء»^(٤).

ويقول علي عليه السلام: «متى أشفي غيظي إذا غضبت؟ أحين أعجز عن الانتقام، فيقال لي: ألا صبرت، أم حين أقدر عليه، فيقال لي: لو عفوت»^(٥).

وروي عن لقمان الحكيم أنه قال: ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: من إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قَدِرَ لم يتناول ما ليس له^(٦).

وعن عيسى عليه السلام: «يباعدك من غضب الله أن لا تغضب»^(٧).

وقال رجل لرسول الله ﷺ: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله، قال: فما يباعدني من غضب الله؟ قال: أن لا تغضب^(٨).

ومن شعر أبي العتاهية:

ولم أرَ في الأعداء حين اختَبَرْتَهُمْ
عدواً لعقل المرء أعدى من الغضب

(١) ربيع الأبرار: ٣٤/٢.

(٢) يتجاذون: يتجاذبون والتجاذي إشالة الحجر.

(٣) - (٤) ربيع الأبرار: ٣٥/٢.

(٥) شرح النهج لابن أبي الحديد: ٣٣١/٤.

(٦) - (٧) ربيع الأبرار: ٢٤/٢.

(٨) ربيع الأبرار: ٢٨/٢.

وعن علي عليه السلام : «تجرع الغيظ فإني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة، ولا ألد مغبة» .

وروي : «ما من جرعة أحمد عقباناً من جرعة غيظ تكظمها» ^(١) .

وقال رجلٌ لآخر: لو قلتَ واحدة لسمعتَ عشرًا! فأجابه: لو قلتَ عشرًا لما سمعتَ واحدة!!

ولقيَ شاميَّ الإمامَ الباقر محمد بن علي عليه السلام ، وسبّه، فلم يلتفت إليه الباقر، فقال الشامي: إياك أعني، قال: وعنك أعرض ^(٢) .

وعن أبي سعيد الخدري (رض) يرفعه: «ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات، منهم بطيء الغضب سريع الفيء. ومنهم سريع الغضب سريع الفيء، ومنهم سريع الغضب بطيء الفيء، ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء، وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء» ^(٣) .

وقيل لابن مبارك: أجمل لنا حسنَ الخلق في كلمة، قال: ترك الغضب ^(٤) .

كل هذا التحذير من الغضب، لأن نتائجه وثماره مجموعة من الأعمال السيئة، والخلال القبيحة التي لا تحمد عقباها، كالحقد والحسد، وإضرار السوء. وإفشاء أسرار الآخرين، وتوجيه السباب والشتائم، والتلفظ بالأقوال الفاحشة، والكلام البذيء . . .

ولا يصحُ القول (إن الغضب حالة نفسية متأصلة في نفوس بعض الناس، لأنهم ربّما توارثوها من آبائهم وأهلبيهم، ولا يمكن معالجة هذا المرض) .

أجل، لا يصح هذا القول، إذ لو لم يكن بالمقدور معالجة هذه الحالة المرضية، لما وردت كل هذه النصوص من الأخبار والروايات، والآيات

(١) ربيع الأبرار : ٢٨/٢ .

(٢) ربيع الأبرار : ١٩/٢ .

(٣) - (٤) ربيع الأبرار : ٣١/٢ .

القرآنية ، في الحث على إخماد الغضب وكظم الغيظ، والتصبر في مواقف الحدة، وعدم إظهارها .

إن الله سبحانه وتعالى، وهب الإنسان قدرةً يستطيع بها أن يمتلك زمام نفسه فيوقفها عند حدّها، ويَزُمّها عن كثير من الانفعالات النفسيّة، ومنها الغضب، ويروضها على تقوى الله، كما مرّ في كلام سيدنا أمير المؤمنين عليه الصّلاة وعليه السّلام .

والشواهد على ذلك كثيرة، وبخاصة في قادة الإسلام وعظماء البشر، أئمة الهدى من آل بيت رسول الله ﷺ ، نقتبس مجموعة منها، للتدليل على قدرة الإنسان، وتمكنه من ضبط النفس .

روى المبرّد، وابن عائشة: إن شامياً رأى الحسن بن علي عليه السلام ، راكباً، فجعل يلعنه والحسن لا يردّ، فلما فرغ أقبل الحسن إليه يتسم في وجهه وقال: أيها الشيخ، أظنك غريباً، ولعلك شبّهت، فلو استعبتنا أعتبنك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت محتاجاً أغنيّاك، وإن كنت طريداً آويناك وإن كانت لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا، وكنت ضعيفاً إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأن لنا موضعاً رحباً، وجاهاً عريضاً، ومالاً كبيراً .

فلما سمع الرجل كلامه بكى، ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه . . الله أعلم حيث يجعل رسالته . . كنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ، والآن أنت أحبُّ خلقِ الله إليّ، وَحَوْلَ رحله، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبتهم^(١) .

إن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ، لم يكتفِ بتجنب الغضب فحسب - في هذه القضية - بل زاد على ذلك بأن مارس عملية الإصلاح والتربية لهذا الرجل الذي غرّر به، وأزاح عن بصره غشاوة الجهل والتبعية . . ثم أكرمه وأحسن وفادته، حتى تحول من مبغض عنيد إلى محبٍّ وصديق، نادمٍ على

(١) الحسن بن علي للدخيل : ٢٤ .

ما كان منه للإمام عليه السلام ، وعلى الضغينة التي يحملها في صدره على آل رسول الله عليه وآله وسلم ، بفعل الدعاية السيئة المغرضة التي كان يبثها أعداؤهم آنذاك .

ومثل هذا الردّ المتسم بالأخلاق العالية، وليونة الطبع، ومجانبة الحدة في مقابل تلك الخشونة والجفوة والصلافة، هو بحق موقف عظيم، ويمثل قدرة فائقة على تملك زمام النفس والتحكم فيها، والتغلب على الشيطان . .
إنه إحسان على إساءة، ودرجة عالية في درجات التنازل عن الذات والتنكر لها . . .

يُقال، إن راهباً سأل الشيطان الرجيم : أخبرني أي أخلاق بني آدم أعونُ لك عليهم؟ قال : (الحِدة) إن الرجل إذا غضب قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة^(١) .

وقال الصادق عليه السلام : «إن الرجلَ لَيَغْضَبُ، فما يرضى أبداً حتى يدخل النار»^(٢) .

وقال أيضاً : «الغضب ممحقةٌ لقلب الحكيم»^(٣) .

وقال عليه السلام أيضاً : من لم يملك غضبه لم يملك نفسه»^(٤) .

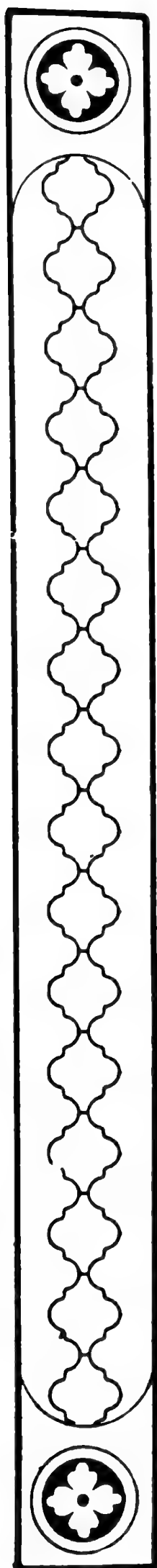
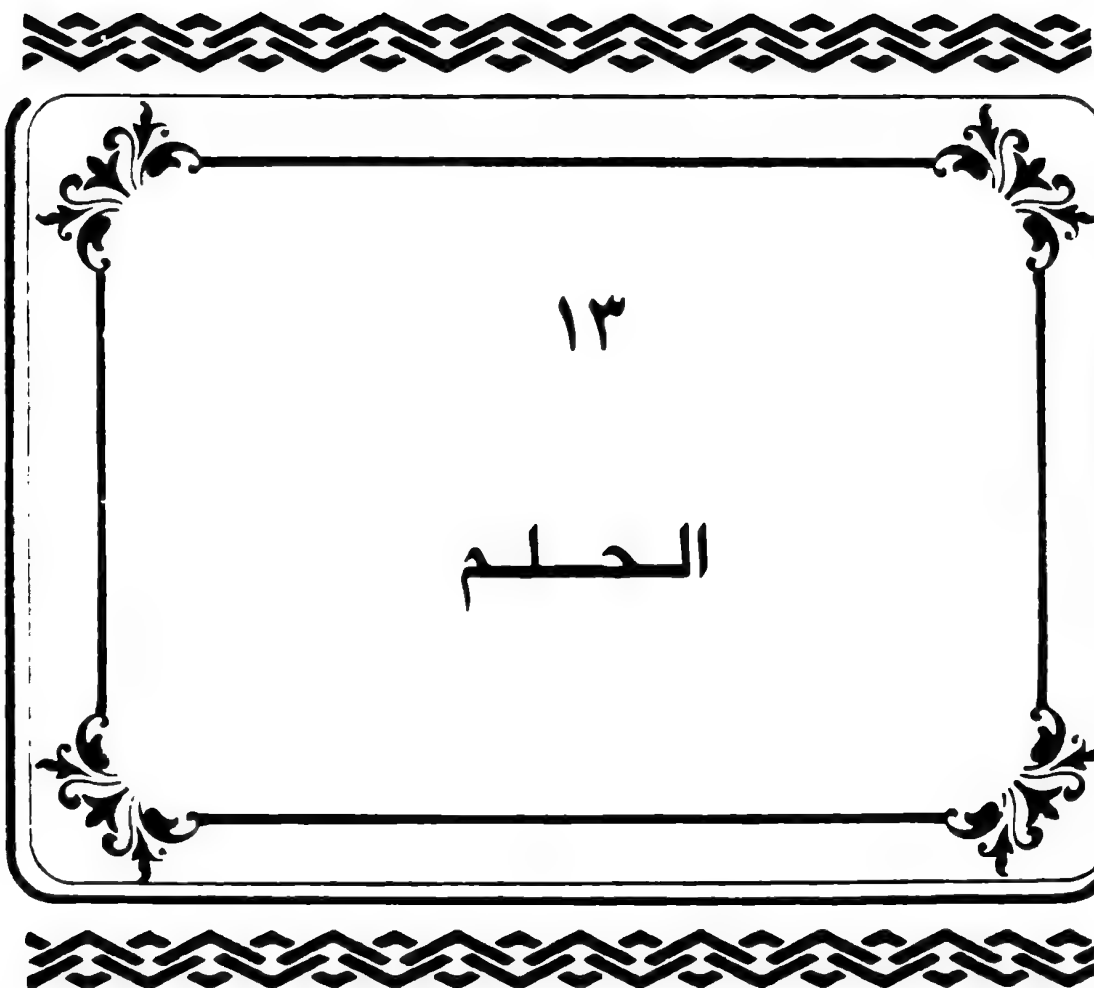
ذكر جُلّ أرباب المقاتل : إن الحسين عليه السلام ، حين التقى بالحُرّ بن يزيد الرياحي، قبل وصوله إلى كربلاء، جَعَجَعَ الحُرُّ به وبيناتِهِ، وقطع عليه الطريق، ومنعه من التوجه إلى أيّ مكان، وكان مع الحر، من عسكر ابن زياد ما يقرب من ألف مقاتل، وكان الهدف أساساً من إرساله منع الحسين من ورود الكوفة، ومحاصرته وتسليمه إلى ابن زياد، وكان ذلك فقد قطع الطريق على الحسين، وحاول تسييره إلى ابن زياد . . ودارت بينهما محاورات، انتهت بأن يلتزم الحسين عليه السلام طريقاً لا يُعيده إلى المدينة، ولا يوجهه إلى الكوفة، فسار حتى وصل إلى كربلاء .

(١) ربيع الأبرار : ٣٤ .

(٢) - (٤) (جامع السعادات للتراقي : ٢٨٨ - ٢٨٩ .

والموقف البارز - هنا - أن الحسين عليه السلام ، رغم ما ناله من الحرّ من أذى وظلم ، ولكنه حين وجده وأصحابه عطاشاً ، وفي أمس الحاجة إلى الماء ، فقد أضربهم العطش حتى أنهكهم جميعاً ، وقد انقطعوا في تلك الفلاة المقفرة . . التفت عليه السلام إلى أهله وأصحابه وقال لهم : اسقوا القوم ورشفوا الخيل ترشيفاً !!

أمر بسقيهم وسقي خيولهم ، وإرواء ظمئهم . . وقابل تلك الإساءة بإحسان جميل يسترعي انتباه الأجيال ويبقى التاريخ ذاكراً له ذلك عبر العصور والأزمان .



يمثل الحلم قمة الإستواء لدى الشخصية، ولا يتوفر إلا عند القلة القليلة من الناس، ممن تدعم نفوسهم قوة هائلة من الإيمان .

روي عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، أنه كان عنده أضياف، مُدَّت لهم الموائد، واستعجل غلام له بشواء كان في التنور، فأقبل الخادم مسرعاً، فسقط السفود من يده على رأس ولدٍ صغير لعلي بن الحسين - تحت الدرجة - فأصاب رأسه فقتله .

فقال علي بن الحسين عليه السلام للغلام - وقد تحير واضطرب - : أنت حُرّ لوجه الله تعالى، فإنك لم تتعمّده، وأخذ في جهاز ابنه ودفنه^(١) .

ويذكر له التاريخ أيضاً، أنه سلام الله عليه، لما أخرج بنو أمية من المدينة إلى الشام في واقعة الحرّة، آوى إليه ثقل مروان بن الحكم، وامراته عائشة بنت عثمان بن عفان وغضّ النظر عما كان قد فعله مروان بأهل البيت، وما عرف عنه من بغضه وعداوته لهم .

وقد كان مروان - لما طرد أهل المدينة عامل يزيد وبني أمية منها - كلّم عبد الله بن عمر أن يُغيّب أهله عنده، فأبى ابن عمر أن يفعل، وخاف على نفسه من غضبة الناس ورجا مروان غيره فلم يجد من يتحمل عائلته . . . فكلّم

(١) الإمام علي بن الحسين للدخيل نقلاً عن مطالب السؤول وكشف الغمة : ٢٣ .

علي بن الحسين عليه السلام ، وقال: يا أبا الحسين، إن لي رَجِماً، وحرمي تكون حرملك .

قال عليه السلام : أفعل، فبعث بحرمة إلى علي بن الحسين، وخرج الإمام بحرمة وحرم مروان حتى وضعهم في حائط له في ينبع بالبغيفة^(١) . .

وهذا الموقف - كما ترى - نهاية في كرم الأخلاق، والتحلم على العدو، ومجازاة على إساءات سابقة كثيرة، بإحسان .

إن الحلم حالة نفسية، على نقيض الغضب، وهو التمكن من الوقوف في وجه ثورة النفس بصلابة، وهو من أشرف الكمالات النفسية بعد العلم، وهو مستوى رفيع من الأخلاق لا يرقى إليه إلا أصحاب النفوس الكبيرة، والشخصيات العالية، ممن جاهدوا في تربية النفس ورياضتها، وحملها على الأخلاق الفاضلة الحميدة .

قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، لغلّامه: لِمَ أرسلت الشاة على علف الفرس؟ قال: أردت أن أغيظك!! قال: لأجمعن مع الغيظ أجراً.. أنت حُرٌّ لوجه الله تعالى^(٢) .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بينما كان يمشي، وامرأة تمشي بين يديه، قال لها بعض أصحابه: الطريق لرسول الله، فقالت: الطريق معترض، إن شاء أخذ يميناً وإن شاء أخذ شمالاً .

فقال عليه الصلاة وعليه السلام: دعوها فإنها جبّارة^(٣) .

كان بالإمكان إزاحتها عن طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفتح المجال لعبور سيد الكائنات ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم - وهو صاحب الأخلاق السامية الرفيعة، والمبعوث ليتمم مكارم الأخلاق - لم يشأ أن يأخذ حقه عنوة وقسوة... خاصة مع امرأة.. لم يغضب من قولها، بل حَلَمَ عنها، وقال: دعوها .

(١) الإمام علي بن الحسين للدخيل نقلاً عن مطالب السؤول وكشف الغمة : ٢٣ .

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ٣٧/٢ .

(٣) المصدر السابق : ١٣/٢ .

وهكذا يجب أن يكون المسلم المؤمن، يتجنب مواطن الجِدَّة والقسوة والشدة مع الناس .

قال عليه السلام : «المؤمنون هَيِّنُونَ لِينُونَ كالجمل الأنف، إن قيد انقاد، وإن أُنِيخَ على صخرة استناخ»^(١) .

والناس في الحلم صِنْفَان، فمنهم الحليم ذاتاً، يتصف بالحلم بالطبع الأولي، كالأحنف بن قيس الذي راح مثلاً في الحلم، روي عنه أنه جاء إلى باب بعض الأمراء، فجلس ينتظر الإذن، فمرت به امرأة سقاءة (وهي التي تحترف نقل الماء إلى المنازل). فقالت: يا شيخ عليك بقربتي حتى أعود، فصرف همّه في حفظ قربتها، فخرج الأذن عليه بالإذن فقال إن معي وديعة، ولم يزل قاعداً حتى جاءت السقاءة^(٢) .

وشتمه رجل فقال: إن كنت كاذباً فغفر الله لك، وإن كنت صادقاً فغفر الله لي^(٣) .

وكان يقول: وجدت الحلم أنصر لي من الرجال .

إنه كان حليماً بطبعه، لا يحتاج إلى كثير من عناء ليتصف بهذه الصفة، كما هو الحال في كثير من الناس، يكون الخلق الحسن من طبعه، كذلك كان الأحنف بن قيس، يدركه الحلم عند غضبه .

وثمة آخرون، ليس الحلم من طباعهم الذاتية، ولا تتحلى بها نفوسهم، بل - على العكس من ذلك - تطفئ عليهم حالة النفور والغضب، وتستفزهم المثيرات بسرعة، فينبغي - حينئذٍ - على مثل هؤلاء، اصطناع الحلم، والتحلّم، والمواظبة على ذلك، حتى يعود التحلّم ملكةً لديهم، وعادة عندهم، بحيث لا يهيج الغضب أصلاً ليكونوا بحاجة إلى كظمه .

قال رسول الله ﷺ : «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلّم»^(٤) .

(١) المصدر السابق : ١٣/٢ .

(٢)-(٣) المصدر السابق : ٢٣/٢ .

(٤) جامع السعادات للنراقي : ٢٩٦/١ .

وقال الصادق عليه السلام : «إذا لم تكن حليماً فتحلم»^(١) .

ويقول العلامة النراقي في ضمن حديثه عن الحلم «فمن لم يكن حليماً بالطبع، لا بدّ له من السعي في كظم الغيظ عند هيجانه حتى تحصل له صفة الحلم، وقد مدح الله سبحانه كاظمي الغيظ في محكم كتابه، وتواترت الأخبار على عظم أجره» .

ومما لا شك فيه أن الإنسان يلاقي جزاء أعماله مرتين، مرة بشكل أثرٍ وضعي، ونتيجة حتمية للأعمال في الدنيا، وهو الجزاء التكويني للأعمال . . .

ومرة بصورة ثواب وعقاب، وأثر جعلي تشريعي في الآخرة . . . والنصوص الواردة لتأكيد هذا المعنى، أكثر من أن تحصي منها قوله تعالى : ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾^(٢) .

فالإعراض عن الله تعالى، وعن ذكره، ينتج عنه أضرار، ويترتب عليه عقابان: عقاب في الدنيا وهو حياة الضنك والشدة، وعقاب آخر عند الله يوم القيامة . . .

ومنها قوله تعالى : ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾^(٣) .

فالعمل الصالح الذي يرضيه الباري عز وجل، ينتج عنه ثوابان، ثواب في الدنيا، وهو العيش الكريم والحياة الطيبة . . . وثواب في الآخرة بأحسن مما عمل في الدنيا .

والحلم . . . وهو خلق كريم، وعمل صالح، والتحلم، وهو عمل شاق فيه مجالدة النفس والسيطرة عليها . . . لا تنحصر نتائجه على ثواب الآخرة،

(١) جامع السعادات للنراقي : ٢٩٦/١ .

(٢) سورة طه ؛ الآية : ١٢٤ .

(٣) سورة النحل ؛ الآية : ٩٧ .

والجزاء الحسن عند الله تعالى بل، لا بدّ له من أثر محسوس في هذه الحياة،
وقبل يوم القيامة ..

في الدنيا: يحبه الناس وتتجاوب معه المشاعر والعواطف، فالناس
بطبيعتها تميل إلى ذوي الأخلاق الحسنة والطباع الحلوة، فيكون مرغوباً فيه،
وينال رضاهم، وينتصرون له، ويحیی عزيزاً كريماً ..

وفي الآخرة: يجازيه الله عز وجل على تحلّمه وتحملِهِ بأحسن مما عمل
في الدنيا، ويعطيه الجزاء الأوفى... ويبلغ به درجة الصائم القائم .

قال عليه السلام : «إن الرجل ليُدرّك بالحلم درجة الصائم القائم»^(١) .

وقال عليه السلام أيضاً : «إن الله يحب الحيّ الحليم، ويبغض الفاحش
البذيء»^(٢) .

وفي الحديث النبوي الشريف : «إذا جُمِعَ الخلائق يوم القيامة، نادى
مناد: أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس - وهم يسير - فينطلقون إلى الجنة سِراعاً،
فتلقاهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سِراعاً إلى الجنة؟ فيقولون: نحن أهل
الفضل! فيقولون: فما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظَلِمنا صبرنا، وإذا أسيء
إلينا عفونا، وإذا جُهل علينا حَلِمنا. فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر
العاملين»^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام : (إذا وقع بين رجلين منازعة، نزل ملكان للسفيه
منهما وقالاه: قلتَ وقلتَ، وأنتَ أهل لما قلتَ، وستجزى بما قلتَ
ويقولان للحليم منهما: صبرتَ وحلّمتَ، سيغفر الله لك إن أتممت ذلك،
فإذا ردّ الحليم ارتفع الملكان)^(٤) .

أما عن النتائج الفعلية الدنيويّة :

فقد قال رسول الله عليه السلام : «ما أعزَّ اللهُ بجهلٍ قط، ولا أذلُّ بحلمٍ
قط»^(٥) .

(١) - (٢) جامع السعادات للتراقي : ٢٩٦/١ .

(٣) - (٥) جامع السعادات : ٢٩٦/١ .

وقال الصادق عليه السلام : «كفى بالحلم ناصراً»^(١) .

وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام : «أول غرض الحليم من حلمه، أن الناس أنصار له على الجاهل»^(٢) .

وروي عن الأحنف بن قيس قوله : وجدت الحلم أنصر لي من الرجال^(٣) .

ولعل المرء يكون معذوراً في بعض الأحيان، إذا ما انسلخ من التحلم، فقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «ثلاثة يُعذرون بسوء الخلق، المريض والصائم والمسافر»^(٤) .

فهم يعيشون نفسية استثنائية، بسبب وطأة المرض، أو عناء الصوم، أو مشقة السفر، أما غيرهم فالمطلوب منه مجاهدة النفس، وترويضها على الصبر والأناة والحلم. وقد قيل : (ما تقلد امرؤ قلادة أحسن من الحلم).

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو ويقول : «اللَّهُمَّ اغْنِنِي بِالْعِلْمِ وَزِينَةِ الْحِلْمِ»^(٥) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام : (يا علي هل أدلك على خير أخلاق الأولين والآخرين؟) .

قال : نعم يا رسول الله .

قال : «تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتحلم عمن جهل عليك»^(٦) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصي الله، وحلم يكفُّ به السفیه، وعيش به في الناس»^(٧) .

(١) جامع السعادات : ٢٩٦/١ .

(٢) - (٣) ربيع الأبرار : ٢١/٢ .

(٤) المصدر السابق : ١٣/٢ .

(٥) - (٧) جامع السعادات : ٢٩٦/١ - ٢٩٧ .

قال شاعر :

وإذا الجهول طمت به غلواؤه فاجعل له الحلم الرصين لجاما

وبعث الإمام الصادق عليه السلام ، غلاماً له في حاجة فأبطأ عليه ، فخرج في أثره فوجده نائماً فجلس عند رأسه يروّحه حتى انتبه ، فقال له : يا فلان ، والله ما ذلك لك ، تنام الليل والنهار؟ لك الليل ولنا منك النهار^(١) .

معاوية والحلم :

وكثيراً ما يجري بأقلام المؤرخين وصف معاوية بن أبي سفيان بالحلم وطول الأناة ، واعتبار ذلك نوعاً من الأخلاق الرفيعة التي كان يتحلّى بها الرجل . . ويستشهدون له على ذلك بقصص وشواهد تاريخية لتعضيد ادعائهم ، ولإضفاء هالة من العظمة عليه كونه رئيساً وحاكماً يغالب نفسه في الغضب ، ويتحلم ، ويتجنب الحدة . . بيد أن الناظر في سلوك معاوية بإمعان ، لا يجده حليماً كما يوصف ، بل على العكس من ذلك يجده يتصف بالغضب ، وحب الانتقام ، لغير ضرورة عاجلة ولا مصلحة آجلة ، كما حصل مع (حجر بن عدي) وأصحابه رضوان الله عليهم ، قتلهم وأبادهم وحملت رؤوسهم إليه ودفنت أجسادهم منفصلة عن الرؤوس حيث مرقدهم الآن في (مرج عذراء) .

ودهش الناس لهذه المقتلة الجذراف ، واهتز لها العالم الإسلامي هزة عنيفة أورثته مبغضةً لبني أمية كُمنّت وطالت حتى انفجرت أخيراً وأدت إلى انهيار دولتهم ، خصوصاً بعد تعاضم آثامهم بقتل الحسين عليه السلام ، وارتكابهم فجائع كثيرة أخرى .

إن الذي كان يتصف به معاوية لم يكن حليماً . . بل كان نوعاً من بطء الغضب ، وبطء الغضب كثيراً ما يكون شيئاً سلبياً يدل على امتناع الغضب طبعاً ، أو قلة الاستعداد له في الخلقة ، وهي لا ترادف الحلم أبداً .

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه (معاوية) حين يأتي على

(١) جامع السعادات : ٢٩٦/١ - ٢٩٧ .

ذكر صفة الحلم فيه :

«فليس معنى الشجاعة - مثلاً - تجرد الطبع من الشعور بالخوف، لأن الإنسان الذي يقدم على الخطر وهو لا يشعر به يندفع اندفاع الجماد ولا فضل له في اندفاع لا يكلفه الغلبة على خوف يساوره في ضميره . . .»

* * *

«وليس معنى الكرم تجرد الطبع من الشعور بقيمة المال أو قيمة المنحة المبذولة، لأن من يتصرف في شيء لا قيمة له عنده كمن يتصرف في التراب والهواء وما إليهما من مبذول العطاء .

وليس معنى العفة تجرد الطبع من الشعور بالشهوات، لأن من لا يشتهي لا يطلب ولا يقاوم الإغراء ولا تحسب له عفة .

وليس معنى الحلم تجرد الطبع من الشعور بالغضب، لأن التجرد من هذا الشعور قد يأتي من بلادة في الطبع وركود في حركة النفس ومقابلة العوامل الطبيعية بما يناسبها من الانفعال .

وإنما الحلم أن يغضب الإنسان وأن يحكم غضبه بإرادته إشاراً لأمر يفوق الغضب في قيم الأخلاق . .

فمن الحلم أن يأنف الإنسان من الاستسلام للغضب، لأنه يرتفع بكرامته أن تصيبها إساءة المسيء .

ومن الحلم أن يصفح الإنسان عن الإساءة إشاراً للخير وعطفاً على المسيء كما يعطف الأب الرحيم على الولد الجاهل بما يصنع في حق أبيه .

ومن الحلم أن يقمع الإنسان غضبه لأنه يملك زمام نفسه ويوازن بين العواقب فيختار أسلمها للناس عامة، وإن لم يكن أسلمها في ذات شأنه وشؤون ذويه . . .»

«ولا بد من التفرقة هنا بين الحلم إشاراً للنفع الإنساني أو النفع القومي، وبين الحلم إشاراً للسلامة وعملاً بطبيعة «الأنانية» وحب الذات .

فليس من الحلم أن يُضرب الضعيف فلا يردُّ الضربة بمثلها لأنه يعلم

أنه سيتلقى أضعافها ممن هو أقدر منه وأقوى على إيدائه، وإنما يُقال عن هذا إنه جبن أو رضى من المعتدى عليه بأهون الشرين .

ولا يكون الحلم أبداً عجزاً عن مجاراة الغضب أو امتناعاً للشعور به، لأن الفضيلة لا تقوم على عجز أو امتناع، ولكنها تقوم على إرادة تملك الاختيار بين الخطتين . . . » .



«وجملة القول في هذه الصفة إن الحليم هو الذي يملك الغضب ولا يملكه الغضب، وكلما اشتد الغضب واشتدت القدرة عليه كان ذلك أبين عن الحلم وأدل عليه، وكلما ارتفع السبب الذي من أجله يتغلب الحليم على غضبه كان ذلك أرفع لقدرة وأرجح لوزنه في ميزان الفضيلة، فمن يحسم الغضب حرصاً على منافع الناس أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب حرصاً على منفعه العاجلة أو الآجلة، ومن يحسم الغضب لأنه يشمل الناس بحبه وعطفه أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب لأنه يحب نفسه ويقدم حبها على كل حب لغيره» .

«ومن كلام حكماء العرب وبلغائهم نستشف^(١) فطنتهم لحقيقة هذه الفضيلة، فهي فضيلة المرید المختار المالك لزام الأمرين كما قال ابن خليفة مولى قيس بن ثعلبة يمدح قوماً من آل شيبان :

عليهم وقار الحلم حتى كأنما	وليدهم من أجل هيئته كهل
إن استجهلوا لم يعزب ^(٢) الحلم عنهم	وإن آثروا أن يجهلوا عظم الجهل
أو كما قال النابغة الجعدي :	

ولا خير في حلم إذا لم يكن له	بوادر تحمي صفوه أن يكدر
ولا خير في جهل إذا لم يكن له	حليم متى ما أورد الأمر أصدرا

ومن كلام الأحنف بن قيس - أحد مشاهيرهم بالحلم - «رب غيظ قد

(١) نستشف : استشف الشيء : نظر منه إلى ما وراءه . واستشف الكتاب : تأمل ما فيه .

(٢) يعزب : عزب الشيء : بعد وغاب .

تجرعته مخافة ما هو أشد منه» . . .

وكان من حلمه أنه يصفح عن المسيء وإن ظن به الذل ويقول: «ما أحب أن لي بنصيب من الذل حمر النعم» . . . فلما قيل له: كيف وأنت أعز العرب؟.. قال: «إن الناس يرون الحلم ذلاً» . . .

وهو القائل: «لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان» ..

وسأله: ما الحلم؟.. فقال: «قول إن لم يكن فعل، وصمت، إن ضر قول» ..

«وروى العقد الفريد أن هشام بن عبد الملك سأل خالد بن صفوان: بم بلغ فيكم الأحنف ما بلغ؟.. فقال: إن شئت أخبرتك بخلة، وإن شئت بختين، وإن شئت بثلاث . . .

قال: فما الخلة؟

قال: كان أقوى الناس على نفسه .

ثم قال عن الخلتين إنه كان موقى الشر ملقى الخير، وعن الثلاث إنه كان لا يجهل ولا يبغى ولا يبخل» .

«وأستاذ الأحنف في الحلم قيس بن عاصم المنقري كان مشهوراً بالإقدام كشهرة بالحلم والإغضاء عن الذنب كبيره وصغيره، وبلغ من حلمه أنه صفح عن ابن أخيه الذي قتل ابنه، وقد أوثقه من ود أن يبطش به لساعته فما زاد على أن قال له مؤنباً: «بئس ما فعلت. نقصت عددك وختت عشيرتك وأسقطت مروءتك وأشمت عدوك وأسأت قومك» . . . وأنت الذي كنا نرجو لعظائم الأمور» ثم واسى زوجته أم القليل وأجزل لها الدية من ماله، وحسم بذلك شراً مستطيراً في القبيلة لا يجعله عنده أخطر من شر الثكل إلا الحلم الراجح والقلب الكبير والنظر البعيد» .



«ويمر بنا مثل من الأمثلة الصالحة لتقويم الروايات ورواتها بصدد الأخبار التي نقلها صاحب العقد الفريد عن الحلم والحلماء، ومنهم الأحنف

ومعاوية . .

فابن عبد ربه ينقل لنا أن الأحنف سئل : من أحلم . . أنت أم معاوية؟ فقال : تالله ما رأيت أجهل منكم . إن معاوية يقدر فيحلم وأنا أحلم ولا أقدر، فكيف أقاس عليه أو أدانيه؟ .

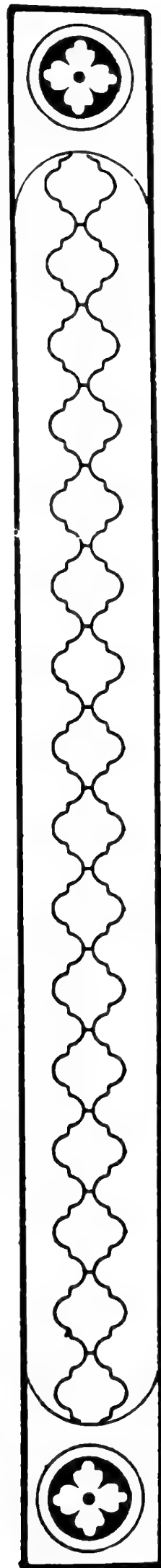
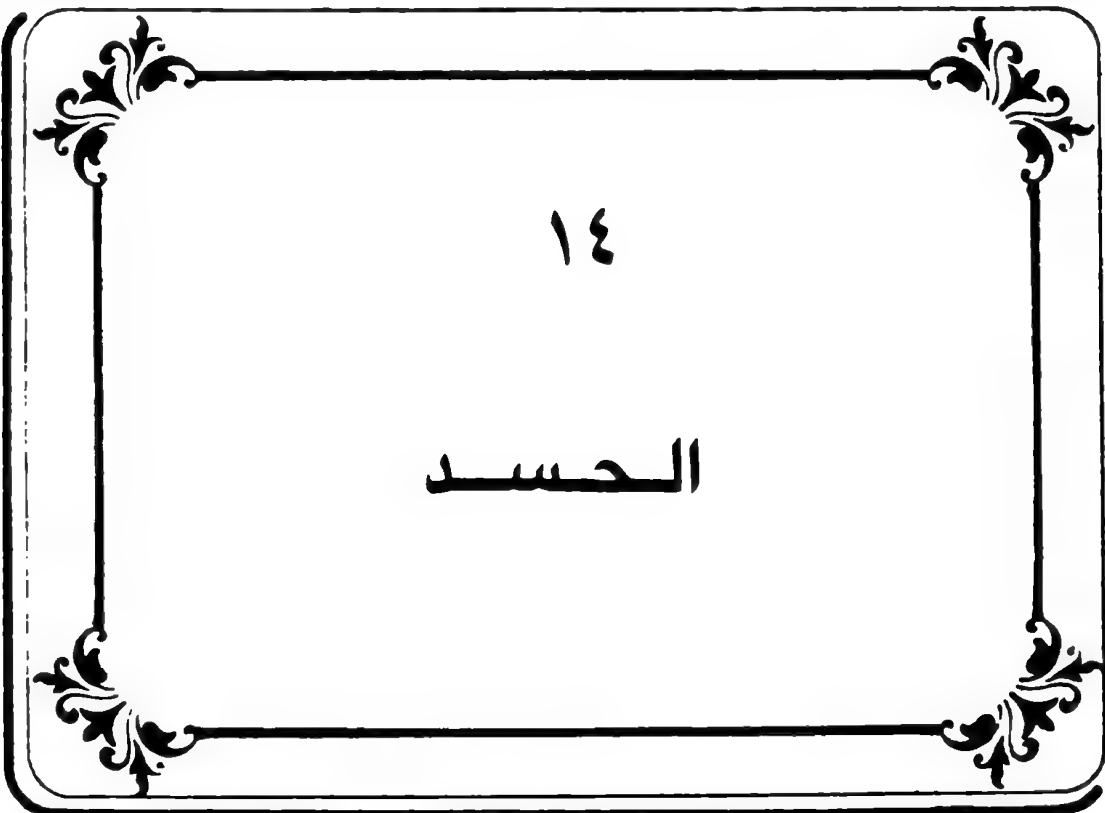
فإذا سمع السامع المتعجل هذا فحري أن يتقرر لديه رجحان معاوية في الحلم بشهادة الرجل الذي يضرب به المثل في حلمه، وأي شهادة عسى أن تكون أصدق من هذه الشهادة . . . !

وما هي إلا معاودة لحظة في السؤال والجواب حتى يتقرر على خلاف ما تقدم أن السؤال كان لا يحتمل جواباً غير ذلك الجواب، لو أنه سؤال ما كان ينبغي أن يتوجه للأحنف ويترقب سائله أن يقول له : بل أنا أحلم من معاوية! . . وقد كان الأحنف خاصة يرى من عرف الحلم أن يستصغره وأن يقول عن نفسه كما نقل صاحب العقد قبل ذلك بسطر واحد : لست حليماً ولكنني أتحالم . . . » .

« . . . ونعود إلى تاريخ معاوية فيما قاله، وفيما سكت عنه منذ نشأته الأولى فلا نجد فيه أثراً واحداً لطبيعة الغضب التي تمتحن بها فضيلة الحلم»^(١) .

من هنا نعرف أن الذين يصفون معاوية بالحلم لا يخلون من حالتين، إما أنهم من المتفيعين في دولة بني أمية، أو أنهم ناقلون عنهم من غير دراية ولا إحاطة .

(١) عباس محمود العقاد : كتاب (معاوية) ص ٦٨ ، منشورات المكتبة العصرية صيدا - بيروت .



الحسد هو الرغبة في امتلاك ما يمتلكه الغير، أو الحظوة بامتيازات تماثل ما يتمتع به الآخرون، ويكون دائماً مقروناً بِتَمَنِّي زوال النعمة من المحسود .

والحاسد - عادةً - يشعر بالتنافس مع شخص آخر، وقد يؤدي هذا التنافس (الغير شريف) إلى تأجج نيران الحقد والعداوة والغضب، أو الشعور بالتعاسة، وضيق النفس، وربما اجتمعت هذه خلال جميعاً في نفس الحسود، وانتهت به إلى البغي والاعتداء .

والحسد يقع - غالباً - بين المشتركين في عمل واحد، أو هدف واحد، أو مهمة واحدة، كالحسد بين تاجرين، أو صانعين، أو بائعين . . فهؤلاء ربما تحاسدوا لاشتراكهم في التنافس في عمل واحد .

وكالحسد بين طالبين، أو عالمين، أو حتى مصلحين . . فهؤلاء أيضاً، ربّما دبّ الحسد في نفوسهم، لأنهم شركاء في التنافس في تحقيق هدف واحد .

والحسد من طبيعة النفوس، سواء كان أصحاب النفوس صغاراً أو كباراً، رجالاً أو نساءً فهو يسري في مسارب النفس منذ نعومة الأظفار حتى سن الشيخوخة . . ويدبّ في نفوس الرجال كما يدبّ في نفوس النساء . . ولا يسلم منه إلا من عصم الله .

وقد سرى الحسد حتى بين زوجات الرسول ﷺ «فقد شهد بيت النبي ﷺ (عائشة بنت أبي بكر) في عزة صباها، ونضرة شبابها، تشعلها الغيرة من تلك الضرة التي سبقتها إلى قلب محمد ﷺ ، واستأثرت به وحدها، حتى يومها الأخير. ثم ظلت بعد موتها حيث كانت من قبله» .

«أقبلت (هالة) أخت خديجة لزيارة المدينة، وسمع رسول الله ﷺ صوتها في فناء بيته، وكان يشبه صوت العزيزة الراحلة، فهتف القلب : (اللَّهُمَّ هَالَةَ) (١) فما ملكت عائشة نفسها أن قالت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر أبدلك الله خيراً منها (٢)؟! .

فتغير وجه النبي ﷺ وزجر عائشة غاضباً :

«والله ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء» (٣).

فأمسكت عائشة وهي تقول في نفسها: (والله لا أذكرها أبداً . . .) وكانت قبل ذلك لا تكف عن الكلام فيها!!! .

قالت له يوماً، وقد ألفته لا ينقطع عن ذكرها: (كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة)! .

فردَّ عليها ﷺ : «... إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد...» .

ورأته ﷺ إذا ذبح الشاة يقول : أرسلوا إلى أصدقاء خديجة، فحدثته في ذلك مرة فقال : إني لأحب حبيبها (٤) .

(١) نساء النبي : بنت الشاطيء : ٥١ طبع بيروت .

(٢) صحيح مسلم، باب فضائل عائشة : ح ٢٤٣٧ .

(٣) (٤) السمط الثمين ٢٦ ، والاستيعاب : ١٨٢٤/٤ .

وفي رواية بصحيح مسلم، إنه عليه السلام قال : «إني رُزقت حُبَّها»^(١) وطالما سُمعت عائشة تقول: (ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة، وما تزوجني رسول الله عليه السلام إلا بعدما ماتت)^(٢) أو تقول: «ما غرتُ من امرأة لرسول الله عليه السلام، ما غرتُ من خديجة، لما كنت اسمع من ذكره لها، وما تزوجني إلا بعد موتها بثلاث سنين» وفي رواية «لكثرة ذكره إياها، وما رأيتها قط»^(٣).

ويمتلك الحسد مشاعر الصغار كثيراً، وتظهر عليهم الغيرة للتنافس في امتلاك الأشياء أو كسب حب الوالدين، أو ما شاكل ذلك، من المشاهد المألوفة التي لا يخلو منها بيت ..

وربما أدى ذلك إلى ارتكاب بعضهم لجرائم فظيعة.. كالقتل الغير المتعمد، أو الاعتداء العنيف على الأطفال الآخرين، بسبب هذه المنافسة الشرسة.. ففي مرة حدث أن صبياً دفع أخته الصغيرة من فوق سطح المنزل، فسقطت من ذلك الارتفاع وارتطم رأسها بالأرض وماتت !! .

ومرة أخرى ضرب طفل، لا يتجاوز الثالثة من العمر صبياً من عمره - بدافع الحسد - بآلة حديدية على عينه ففقأها !! .

يقول علماء النفس: إن الحسد يولد مع الطفل غريزياً، وربما استمر معه حتى سنّ الكبر، ولكن يبقى الفارق بين نفس وأخرى، وبين إنسان وآخر، متمثلاً في إظهار الحسد أو إخفائه وكبته .

قد تجد من يمتلك نفسه في مواطن الحسد، فلا تظهر عليه آثاره، إنما يبطن ذلك فحسب، يحجزه من إظهاره ديناً وتقوى.. أو أخلاق، في الوقت الذي لا يقوى غيره على إخفاء مشاعر الحسد التي تؤرقه.. فتظهر على فلتات لسانه، وقسمات وجهه، وحركاته الغير طبيعية. من هنا كان العقاب عند الله تعالى على الحسد مبتئياً على ما يُظهر المرء من آثار الحسد، وما يحققه من إيذاء الآخرين، وليس على النوايا، وما يبطن في نفسه ويخفي

(١) (٢) صحيح مسلم باب فضائلها ح : ٢٤٣٥، والإصابة : ٦٢/٨ .

(٣) صحيح مسلم ح : ٢٤٣٥، والإستيعاب : ١٨٢٣/٤ .

في صدره .

وتنبهاً على هذا الواقع، يقول رسول الله ﷺ :

«إذا ظننتم فلا تحققوا، وإذا تطيرتم فامضوا، وإذا حسدتم فلا تبغوا»^(١) .

فالحسد مرض نفسي يتلى به أكثر الناس، ولا يخلو منه إلا قليل، فمن كلام بعضهم : (ما خلا جَسَدٌ من حَسَدٍ) وعلى المرء أن يحاول جاهداً لمعالجة وإزالة أعراض هذا المرض .

وثمة فرق بين الحسد والغبطة، فالغبطة تمنى توفر ما عند الآخرين من امتيازات ونعم إلهية، كالغنى والعافية والممتلكات وما شاكل ذلك، دون إرادة زوال ذلك من أصحابها بينما نزعة الحسد تدعو وتتمنى زوال النعمة والامتيازات من المحسود، وانتقالها إلى الحاسد ويغيب الحاسد مما يراه من خير في غيره، ويودّ لو زال عنه ذلك، وصار إليه، مشفوعاً دائماً بشحنة كبيرة من الحقد والعداء والقسوة .

في الحسد (نقارن أنفسنا بالغير، ونودّ أن نكون كمن هم أحسن حالاً منا . . . وقد يكون هذا مستحيلاً، لافتقارنا للجوانب والأسباب التي هيأت الغير للنجاح، كالجمال، والشباب، أو سهولة التفاعل مع الناس، أو المواهب التي يتمتع بها المحسود، ولا يتمتع بها الحاسد . . .)^(٢) فيحاول الحسود الحطّ من مؤهلات المحسود، وإيذائه بشكل أو بآخر، وهذا - في مفهوم الإسلام - دليل الضعة والشعور بالنقص .

وليس هناك فرق كبير بين الحسد والعين، فغالباً ما يكون صاحب العين حسوداً، ولكن ليس كل حسود يصيب بعينه .

وقد كانت العلماء، ولا زالت، تبحث عن مفهوم (العين) ومعنى الإصابة بها، وكيف تكون الإصابة فقد خاض الجاحظ هذا الموضوع . . . كما

(١) ربيع الأبرار : ٤٣٧/٣ .

(٢) التحليل والصحة النفسية : ٣٥ .

بحث فيه السيد الرضي رضوان الله عليه^(١) وغيرهما . .

ولا زالت الجامعات الحديثة تواصل البحث والنظر في مسألة العين وإصابتها، وإيجاد السبل لدرء هذا الخطر ومنع الإصابة بالعين . . والملفت للنظر أن بعضهم اكتشف أن هذه (الخرزة الزرقاء) التي يستعملها الكثير من الناس، ويعلقونها على صدورهم، وملابس أطفالهم، اكتشف أن بها - بالفعل - قابلية الصدّ (للإشعاعات) التي تطلقها بعض العيون فتصيب المحسود !! ويبقى أن نعرف هل العين هي التي تطلق شيئاً، أم النفس تفعل ذلك؟ أم كلاهما معاً؟؟ .

ومهما كان من أمر العين، فإن القرآن الكريم تطرّق إلى موضوع العين والحسد في موارد عديدة منها قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾^(٢) فقد ورد في تفسير الآية، كما يذكر ذلك الطبرسي في مجمع البيان، إنها نزلت في حق النبي ﷺ وآل البيت الأطهار عليهم الصّلاة والسّلام، والمراد بالفضل في الآية: النبوة للنبي ﷺ، والإمامة في العترة الطاهرة .

... عن أبي الصباح الكناني، قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: (يا أبا الصباح، نحن قوم فرض الله طاعتنا، لنا الانفال، ولنا صفو المال، ونحن الراسخون في العلم، ونحن المحسودون الذين قال في كتابه: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ، الآية)^(٣) .

ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحَكْمَ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٤) .

فالآية على لسان يعقوب عليه السلام يخاطب أولاده حين بعثهم للبحث

(١) مجمع البيان (في تفسير سورة يوسف) .

(٢) سورة النساء ؛ الآية : ٥٤ .

(٣) مجمع البيان، تفسير الآية المجلد : ٣ - ٤ ، ص ٩٥ .

(٤) سورة يوسف ؛ الآية : ٦٧ .

عن ولده يوسف عليه السلام وكانوا مجموعة من الشباب الأشداء، الذين تنضح وجوههم نضارةً وشباباً، ذوو جمال وهيأة وكمال، وهم أخوة، أولاد رجل واحد.. فخاف عليهم يعقوبُ عيونَ الحاسدين^(١).

وقيل خاف عليهم الحسد من الناس، وأن يبلغ الملك قوتهم وبطشهم، فيحبسهم أو يقتلهم خوفاً على ملكه^(٢).

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن العين حقٌ، والعين تستنزل الحائق»^(٣) والحائق المكان المرتفع من الجبل وغيره، ذروة الجبل، وقمة المرتفع، فجعل العين كأنها تحط ذروة الجبل.

وورد في الخبر أيضاً، أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام من الحسد والعين وما شاكل، فكان يقول : «أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»^(٤) وروي أن إبراهيم الخليل عليه السلام، عوَّذ ابنه (من العين)، وأن موسى عليه السلام، عوَّذ ابنه هارون بعوذة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ^(٥).

وروي أن بني جعفر بن أبي طالب الطيار عليهم السلام ، كانوا غلماناً بيضاً، فخافت عليهم أمهم أسماء بنت عميس من العين، فقالت : يا رسول الله : (إن العين إليهم سريعة، أفأسترقى لهم من العين؟) .
قال صلى الله عليه وآله وسلم : نعم .

وروي أن جبرئيل عليه السلام ، رقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلمه الرقية، وهي :

(بسم الله أرقيك، من عين كل حاسدٍ الله يشفيك)^(٦) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه قال : «لو كان يُسَبَقُ القدرُ لسبقته العين»^(٧) .

وفي تفسير سورة الفلق، ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ما يؤكد مفهوم

(١) (٥) مجمع البيان تفسير سورة يوسف .

(٦) (٧) مجمع البيان المجلد : ٥ - ٦ ، ص ٣٨٠ .

الحسد والعين، فقد ذكر جلُّ المفسرين رواياتٍ وأخباراً متضمنةً بأن العين حق، والحسد حق، وأن على المرء أن يتعوذ بالله من ذلك، ويستعين به تعالى لدفع ضرهما . .

في تفسير الآية الشريفة من سورة الفلق ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ : إن الحاسد يحمله الحسد على الإيقاع بالمحسود، وإيذائه، فأمر الله عز وجل بالتعوذ من شره، والاعتصام والامتناع بالله سبحانه .

وقيل : إنه أراد من شر نفس الحاسد، ومن شر عينه، فإنه ربما أصاب بهما فعاب وضرَّ وقد جاء في الحديث «إن العين حق»^(١) .

وروى أنس، أن النبي ﷺ قال : «من رأى شيئاً يعجبه، فقال : الله، الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، لم يضر شيئاً»^(٢) .

وروي أن النبي ﷺ كان كثيراً ما يعوذ الحسن والحسين ﷺ بهاتين السورتين (الفلق والناس)^(٣) .

وقال بعضهم : إن الله سبحانه جمع الشرور في هذه السورة (الفلق) وختمها بالحسد، ليعلم أنه أحسن الطبائع . . نعوذ بالله منه .

وقال ﷺ : «استعينوا على أموركم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»^(٤) .

وعن النبي ﷺ أيضاً : «إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»^(٥) .

ولا شك أن القدرة على مقاومة آثار الحسد في النفس، دليل الصحة والسلامة في النفس والجسد، وأن المقاوم، هو المستفيد الأول من تملك نفسه، كما وأن الذي يطلق العنان لهذا المرض الخبيث في البغي وإيذاء

(١) - (٢) مجمع البيان : سورة الفلق .

(٣) مجمع البيان : سورة الفلق .

(٤) ربيع الأبرار : ٥٠ / ٣ .

(٥) المصدر السابق : ٥٢ .

الآخرين . . هو المتضرر الأول أيضاً!! ويدعم ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام :
«صحة الجسد من قلة الحسد»^(١) .

وعن ابن مسعود يرفعه : «ألا لا تعادوا نعم الله» قيل : ومن يعادي نعم الله؟ قال : «الذين يحسدون الناس»^(٢) .

وكان يُقال : إياك والحسد، فإنه يتبين فيك، ولا يتبين في محسودك .

وعن أعرابي : (ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد) وينسب هذا القول إلى سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام أيضاً إلا أن الزمخشري في ربيع الأبرار نسبته إلى أعرابي .

ومن طريف ما يذكر عن العين : إن عيونا سمع صوت بول من وراء حائط، فقال : إنك كثير الشخب، قالوا : هو ابنك ! قال : وانقطاع ظهراه! فقيل : لا بأس به، قال : لا يبول - والله - بعدها أبداً. فما بال حتى مات !! .

وقيل إن عيونا كان يقول : إذا وجدت الشيء يعجبني، وجدت حرارة تخرج من عيني !!

ويروى عن الأصمعي : إن عيونا مر بحوض من صخر صلد، فقال : تالله ما رأيت كالיום مثل هذا الحوض، فانصدع فلقطين !!

وتذاكر قوم من ظرفاء البصرة الحسد، فقال رجل منهم : إن الناس ربما حسدوا على الصلب : فأنكروا ذلك، ثم جاءهم بعد أيام فقال : إن الخليفة قد أمر بصلب (الأحنف بن قيس ومالك بن مسمع وقيس بن الهيثم) وذكر معهم (حمدان الحجام)، فقالوا : هذا الخبيث يُصلب مع هؤلاء ! ؟ يعني الحجام .

فقال : ألم أقل إن الناس يحسدون على الصلب^(٣) .

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد : ٥٣٥/٥ .

(٢) ربيع الأبرار : ٥٣/٣ .

(٣) شرح النهج للحديدي : ٢٥٦/١ .

يقول شاعر :

يا طالب العيش في أمن وفي دعة رعداً بلا قتر صفواً بلا رنق
خلص فؤادك من غل ومن حسد فالغل في القلب مثل الغل في العنق

وفي نوابغ الكلم : الحسد حسك من تعلق به هلك .

وقال شاعر آخر :

كاذ الأعادي فلا والله ما تركوا قولاً وفعلًا وتلقيناً وتهجيناً
ولم نزد نحن في سر وفي علن على مقالتنا (يا ربنا اكفيناً)
فكان ذلك ردُّ الله حاسدنا بغيظه لم ينل تقديره فينا

وقال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عرفِ العود
لولا محاذرة العواقب لم تزل للحاسدِ النعمى على المحسود

في مسيرة الحياة وتجاربها، مشاهد كثيرة من الحسد الظالم، وربما يواجهها الإنسان ويلاحظها كل يوم تقريباً . .

فمثلاً: يتميز بعض الناس على الآخرين بالنشاط والحيوية، لخدمة الدين والمجتمع . . فيبذل مجهودات أكبر، وطاقات أعظم في المجال الديني أو الاجتماعي . . فيشتهر بين الناس وتميل إليه القلوب، ويحبه الآخرون . . لمواهبه الكثيرة ونشاطاته وحيويته في المجالات الإنسانية . . .

ويدب الحسد في نفوس حسّاده، كانه كابوس يقض مضاجعهم، وشيئاً فشيئاً، يتحول الحسد إلى نقمة وبغضاء، فينبري لإيذاء المحسود، فيقسو عليه، ولا يدع فرصة تمر دون أن يصيبه بشواظ من ناره . . ويعيق مسيرته . . ويقف في طريقه . . أو ربما تبدأ المنافسة الغير الشريفة . . والنشاط السلبي المحموم، والتحريك العنيف ضد المحسود . . كالذي نراه في حياتنا كثيراً . . ونشاهده يتكرر في كل زمان ومكان .

ولو كان هناك حاجز من تقوى أو دين، لغالب المرء حسده، ونازع

نفسه وهواه ولم يعرض نفسه والآخرين للمشاكل .

وهذه الحقيقة يؤكدّها الشاعر بقوله :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالكل أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها - حسداً وبغياً - إنه لذميم

فكم من إنسان نزيه، توفرت لديه أسباب التوفيق والتفوق، واجتمعت عنده كثير من المواهب والامتيازات، مما جعلته متقدماً على أقرانه، متفوقاً عليهم . . ثم صار هدفاً لسهام الحساد، فنالوا منه بكل وسيلة، وحولوا حسناته سيئات، وتظاهروا لإيذائه والبغي عليه، ووضعوا الحواجز والمعوقات في سبيله . .

إنها النفس الشريرة التي تدفع الحاسد إلى قبيح الفعل، وبذيء القول، والهدم والتخريب وكل عمل شائق .

ولا تستقر نفس الحاسد، ولا تطمئن أبداً، بل تبقى مضطربة بنار الحقد والعداوة حتى تموت .

قيل لأرسطو : ما بال الحسود أشدّ غماً من المكروب؟ .

قال : لأنه يأخذ نصيبه من غموم الدنيا، ويُضاف إلى ذلك غمُّه بسرور الناس^(١) .

ومن الكلام المروي عن حكيم الإسلام، سيد الأوصياء عليّ أمير المؤمنين عليه السلام :

«لِلَّهِ دَرُّ الحسد، ما أعدَّله! بدأ بصاحبه فقتله»^(٢) .

وفي الكتب القديمة : يقول الله عزّ وجلّ (الحاسد عدو نعمتي، مُتَسَخِّطٌ لِفِعْلي غير راضٍ بِقِسْمتي)^(٣) .

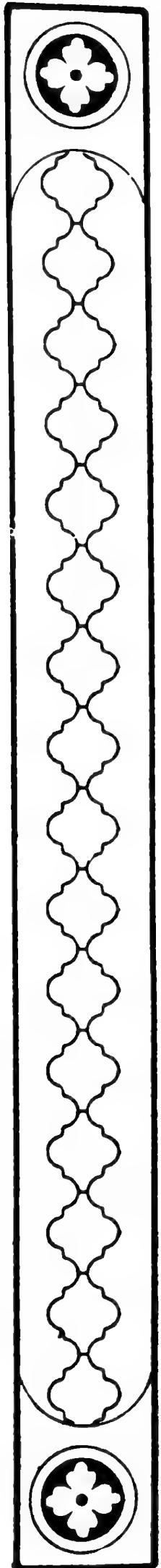
وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً قد بلغ مائة وعشرين سنة، فقلت له : ما أطول عمرك! فقال : تركت الحسد فبقيت^(٤) .

(١) - (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المجلد الأول طبع بيروت دار مكتبة الحياة ص ٢٥٥ .



١٥

الوسواس



يقول علماء الأخلاق : تردُّ على القلب خواطر كثيرة، وأفكار عديدة، بعضها مذمومٌ سيِّئٌ، وبعضها محمودٌ حسنٌ، فإن كانت الخواطر التي تعرض للنفس محمودة طيبة فهي (إلهام) من الله عزَّ وجلَّ، وإن كانت مذمومة سيئة فهي (الوساوس) .

قد يطرأ في خاطر الإنسان، وفي نفسه : أن يصل رحمه، أو أن ينفق من ماله لوجه الله تعالى . . أو أن يحسن إلى أصحابه وجيرانه . . أو أن يدفع أذىً عن الناس . . هذا كله من الإلهام الإلهي الوارد على القلب من الله عزَّ وجلَّ، لأن الله تعالى، خير، ويدعو إلى الخير، ويأمر بالخير، وهو الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، ولا يدعو إلى الشر، ولا يرضى به، بل ينهى عنه .

وقد يخطر في بال المرء، أن يظلم أو يجور، أو يمرَّ في خاطره أن يستولي على مال حرام . . أو يسرق أو يزني، أو يدعو هواه إلى ارتكاب الآثام والمنكرات . . هذه هي الوساسوس، والتي يلقي بها الشيطان في روع الإنسان .

ومثل النفس في ورود الخواطر عليها، مثل شاشة التلفزيون، ترسم عليها صورٌ شتى ومشاهد مختلفة، منها الأشكال الجميلة الحسنة، ومنها الصور المقززة القبيحة .

ومثل حوض ماء، تصب فيه مياه مختلفة، من الجداول الآسنة، ومن الأنهار العذبة، من الينابيع الحلوة، ومن المجاري النتنة . .

مثلها مثل المرآة المنصوبة في زاوية البيت، فكلما اجتاز من أمامها أحد، انعكست صورته في تلك المرآة. . . قد يجتاز أمامها الخير الطيب. . . وقد يجتاز السيء الشرير، قد يمرّ بها جميل الصورة، حسن الهيئة. . . وقد يمرّ عليها قبيح الشكل سيء المنظر. . .

كذلك النفس، تتوارد عليها الأفكار والخواطر، منها ما يتصل بالله سبحانه وتعالى ومنها ما يتصل بالشیطان الرجيم .

فلنقل: إن الإنسان يتألف من عنصرين أساسيين: عنصر علوي سماوي، وعنصر مادي أرضي فالله عزّ وجلّ، حين خلق الإنسان، خلقه وكونه من عنصرين: من تراب، وهو الدنيء الأرضي المادي، ثم وهب له ونفخ فيه العنصر الآخر، وهو الروح السماوي .

﴿فلما سوّيته﴾ من تراب ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ لما تكاملت الصورة الجسمانية الماديّة، نفخ فيه من روحه تعالى، من روح السماء، نزلت عليه الروح من علو. . .

فآدم خليط من عنصر سماوي وعنصر أرضي، تراب نفخ فيه روح السماء. . . وإذا كان كذلك، لا بد أن يكون لكل من العنصرين تأثيراته على النفس البشرية، وسلوكياته وأخلاقه. . .

من هنا كانت الخواطر على نوعين بعضها شريفة عالية تنبعث من روح السماء وبعضها خسيصة دنيئة، تنم عن نفسية شيطانية. . . فهي رحمانية وشيطانية لأن الرحمن نور، والشیطان نار .

وفي كل حال لا يغيب عن علم الله عزّ وجلّ، ما يدور في خلد الإنسان، وما يجول في نفسه. . .

يقول تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسّوسُ به نفسه ونحن أقربُ إليه من حبل الوريد﴾^(١) .

(١) سورة ق؛ الآية: ١٦ .

ويقول عز من قائل : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(١) .

ويقول تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلُنُ﴾^(٢) .

ويقول سبحانه : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ...﴾^(٣) .

ولما كان ما يردُّ على النفس رحمانياً وشيطانياً، فلا ريب أن كل نفس قابلة للتأثر بكل منهما على التساوي، إنما يترجح أحدهما على الآخر، بمتابعة الهوى، أو ملازمة الورع والتقوى .

وحين نسب الوسوسة إلى الشيطان، فإنما نستند في ذلك إلى القرآن الكريم، حيث يقول عز من قائل في سورة الناس : ﴿... مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وقد عبّر سبحانه وتعالى في هذه السورة عن النفوس بالصدور فالشيطان يفعل فعله في نفوس الناس، بإلقاء الشر إليهم، ونفخ السوء في صدورهم . . أو التشكيك والترديد في أعمالهم الدينية الصالحة . .

ذكر المفسرون، أن سبب نزول هذه السورة، والتي قبلها، وهي سورة الفلق: إن (لبيد بن أعصم) اليهودي، سَوَّلَ له نفسه إيذاء الرسول ﷺ ، وكان ساحراً، فدسَّ ما عمله من سحرٍ في بئرٍ لبني زريق، وأراد بذلك أن يَسْحَرَ النبي ﷺ ويؤذيه، ولكن الله تعالى عصم نبيه ﷺ .

فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان، فقعده أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجله، فأخبراه بذلك . . وأن السحرَ المعمول في مكان كذا وكذا، فانتبه رسول الله ﷺ ، وبعث علياً عليه السلام، والزبير بن العوام، وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء تلك البئر، ثم رفعوا صخرةً، واستخرجوا (الجف) فإذا فيه مشاطة الرأس، وأسنان مشط، وإذا فيه معقد في إحدى عشرة عقدة، مغروزة بالإبر . . فنزلت السورتان (الفلق والناس) فجعل ﷺ كلما يقرأ آية، انحلت عقدة، ووجد رسول الله ﷺ خفةً فقام، فكأنما انشط من عقال وجعل

(١) سورة غافر ؛ الآية : ١٩ .

(٢) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٣٨ .

(٣) سورة الإسراء ؛ الآية : ٢٥ .

جبرائيل يقول : «بسم الله أرقبك، من شر كل شيء يؤذيك، من حاسد وعين الله تعالى يشفيك . .»^(١).

وينفي صاحب تفسير (مجمع البيان) أن تكون هذه الرواية صحيحة، ويقول :

«وهذا لا يجوز، لأن من وُصِفَ بأنه مسحور، فكأنه قد خبل عقله، وقد أبى الله سبحانه ذلك في قوله تعالى : ﴿وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾^(٢) ولكن يمكن أن يكون اليهودي، أو بناته - على ما روي - اجتهدوا في ذلك، فلم يقدروا عليه وأطلع الله نبيه ﷺ على ما فعلوه من التمويه حتى استُخرج، وكان ذلك دلالة على صدقه، وكيف يجوز أن يكون المرض من فعلهم؟! ولو قدروا على ذلك لقتلوه ﷺ ، وقتلوا كثيراً من المؤمنين، مع شدة عداوتهم له»^(٣).

وبغض النظر عن صحة الخبر، أو عدم صحته، فإننا نعتقد أن الشيطان هو الذي يوسوس بالسوء في نفوس بعض الناس . . ونتيجة لذلك لا بد من آثار سيئة لهذه الوسوسة الخبيثة . . ولعل السحر، والطيرة، والظن السيء من ثمار هذه الوسوسة .

وربما وقعت الوسوسة في العقيدة، فيشك المرء في دينه ومعتقده، ويلقي إليه الشيطان بالظنون، فيجعله في حيرة من أمره، وأمر دينه وعقيدته، فيزعزع إيمانه . . وينتابه نوع من التردد . . قد يحيد به عن جادة الهدى والطريق المستقيم إن لم تدركه رحمة الله . . وإن لم يسعفه أحد بنور الهداية والإصلاح .

إن الشيطان الرجيم يوسوس في صدور كثير من الناس، ليضعف في نفوسهم الإيمان بالله تعالى . . وقد صرح بذلك القرآن الكريم، على شكل محاورة مع النفس، دارت بين إبراهيم الخليل عليه السلام، وبين نفسه التي

(١) مجمع البيان : ٨٦٥/١٠ .

(٢) سورة الفرقان ؛ الآية : ٨ .

(٣) مجمع البيان : ٨٦٥/١٠ .

افترضها شاكّة في الله تعالى!! وأقول: (افترضها) لأنه ﷻ ، حاشاه أن يكون شاكاً في ربه سبحانه بالفعل ، وهو النبي المرسل الخليل ، والمعلم المرشد . .
وقد أورد المفسرون أقوالاً عديدة ، وتوجيهات كثيرة ، لأسلوب محاوره إبراهيم مع نفسه وكلها تشترك في نفس الشك والتردد عن إبراهيم الخليل على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام . إنما كان ﷻ في هذه المحاوره يعكس الصور المختلفة للشرك بالله عز وجل ، في زمانه . .

قال تعالى :

﴿ فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي . فلما أفل قال لا أحبّ الأفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهْدني ربي لأكوننّ من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغاً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قومي إني بريء مما تشركون . . ﴾^(١) .

ومما يدل على أن إبراهيم الخليل ﷻ ، لم يقل كل ذلك عن شك وتردد في إيمانه وعقيدته ، أن هذه الآيات مسبوقة بالآية التي تؤكد يقينه وثباته :

﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾^(٢) .

إنه لم يقل ما قال من منطلق الشك الواقعي ، بل كان عالماً موقناً ، قال ذلك على سبيل الاستنكار على حال قومه ، والتنبيه لهم على أن الربّ المعبود ، لا يجوز أن يكون بصفة الكواكب . . ولا أن يكون بهذه الصفة الدالة على الحدوث . . فكأنه ﷻ تقمّص شخصية المترددين والشاكّين بالله عز وجل ، وعبر عمّا يجيش في صدورهم من وساوس وأفكار شيطانية . .

﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾^(٣) .

(١) سورة الأنعام ؛ الآيات : ٧٦ - ٧٨ .

(٢) سورة الأنعام ؛ الآية : ٧٥ .

(٣) سورة إبراهيم ؛ الآية : ١٠ .

وربما وقعت الوسوسة في العبادات، كالصلاة، والحج، والطهارة.. وغيرها، فهناك الكثير ممن يوسوس له الشيطان، فيشك في أعماله العبادية، أهى صحيحة أم لا؟ هل أداها كما ينبغي أم بقيت ناقصة؟ هل برئت ذمته في أداء الفرائض، أم ماذا؟... ولعل الكثير منا ألف هذه المشاهد، ممن يكرر وضوءه، ويكرر عبارات الصلاة، ويشك فيها، ويعيد أعماله.. وأخيراً لا ترتاح نفسه، ولا تطمئن.. بل تظل شاكة في تحقيق الواجبات والفرائض يغسل وجهه ويديه للوضوء عشرات المرات. ورغم ذلك تبقى في دخيلة نفسه بقايا شك، هل فعل أم لا؟ هل كان عمله صحيحاً أم لا؟.

لا شك أن هذه الوسوسة من إلقاء الشياطين، ليتعذب المؤمن من خلال عباداته، وفرائضه التي فرضها الله عز وجل، في الوقت الذي يسرها الله له، فيتدخل الشيطان، ليجعل من العبادة عملاً صعباً عسيراً معقداً.

حضر رجل عند بعض الفقهاء فقال: إني كلما أنغمس في النهر، غمستين أو ثلاثاً، لا أتيقن أنه غمرني الماء، ولا أنني قد طهرت. فكيف أصنع؟ فقال له الفقيه: لا تصل!!

فقال السائل: كيف أترك الصلاة؟

قال: لأن النبي ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يتبّه، وعن المجنون حتى يفيق». ومن ينغمس في النهر مرة، ومرتين، وثلاثاً، ويظن أنه ما اغتسل فهو مجنون^(١).

العلاج:

وربما سأل سائل: ما علاج هذه الوسواس، وكيف السبيل للتخلص منها، لئلا تعترى النفس، وتستحكم فيها؟

والجواب: هو الاستعانة بالله، واستمداد العزم منه سبحانه، فإنه تعالى ربط بين هيمنة الشيطان على النفس، وبين الإعراض عنه سبحانه، وكذلك

(١) الأذكياء لابن الجوزي : ٦٩ .

رَبطَ بَيْنَ الْهَدْيِ وَالْبَصِيرَةِ وَالثَّبَاتِ مِنْ جِهَةٍ وَبَيْنَ ذِكْرِهِ تَعَالَى مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى . .

فالإعراض عن الله، يفتح الطريق للشياطين لغزو النفوس، وإلقاء الخواطر السيئة فيها، والابتعاد عن ساحة الله عز وجل يلزمه الاقتراب من أوكار الشياطين، والتأثر بفعلهم .

قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(١) .

إن النفس البشرية، ساحة مفتوحة لطرود مختلف الأفكار، الصالحة منها والسيئة، فإن مالت النفس إلى السوء كانت الأفكار سيئة، وإن مالت إلى الصلاح والخير كانت صالحة خيرة فمن استعان بالله، وتوكل عليه، واتقاه، أوصد أبواب النفس دون الشياطين .

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢) .

ولا يمكن أن نغفل عن عامل مهم آخر، يدع أبواب النفس مفتوحة لاستقبال الوسوس والأفكار السيئة، ويتيح الفرصة لإلقاءات الشياطين، وهو (الفراغ) وبخاصة لدى الشباب .

يقول شاعر :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

وقال عليه السلام : «إن الله ليغض الشباب الفراغ» لأنه حين يتعطل عن العمل، يتسلل الشيطان إلى نفسه، ويعشعش فيها، ويفعل فعله بها، بخلاف من يكون منشغلاً بعمل معين، فالنفس تشغل هي الأخرى مع الأعضاء والجوارح، وتوصد أبوابها دون تسرب الشكوك والوسوس إليها . .

ولا بد من التنويه، أن مجرد التفكير السيء، أو التفكير بالسوء، وطرود

(١) سورة الزخرف ؛ الآية : ٣٥ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٢٠١ .

ذلك على الذهن، ومجرد الشك، لا يعتبر ذنباً في حد ذاته، ولا يعتبر خطأ يعاقب عليه الإنسان، لأن ذلك باقٍ في حدود النية والفكر، والله عز وجل لا يحاسب على النوايا السيئة ما لم تُترجم إلى أعمال خارجية، ومجرد الفكر لا يمكن منعه من الذهن، فذلك خارج عن نطاق إرادة الإنسان واختياره، فقد يحصل رغم عدم ميله ورغبته . . إنما يؤاخذ الإنسان على أعماله وما تأتي به الجوارح . . يعاقب فيما لو حول الوسائوس إلى حركات خارجية، فالذي يُقدم على عمل معين تسبقه النية والقصد أولاً، وربما سبقت الوسائوس والشكوك السيئة . . فالعقاب لا يكون على ما راود الفكر والضمير، إنما يكون على ما بدر منه من فعل .

فامرأة العزيز - مثلاً - وسوست لها نفسها أن تراود يوسف عن نفسه، أولاً، ثم قامت بذلك فعلاً، وراودته عن نفسه (وغلقت الأبواب وقالت هيت لك) فهي قد تعاقبت وتُحاسب على فعلها لا على وسوسة نفسها، فلو لم تكن أقدمت بالفعل على مراودة يوسف عن نفسه، لم يكن عليها بأس، وكذلك الحال بالنسبة لسائر الناس، لا يؤاخذهم الله عز وجل على ما يدور في نفوسهم، ويختلج في صدورهم، إنما يؤاخذهم، حين تخرج النية السيئة من منطقة الفكر إلى ساحة العمل .

روي في الكافي، أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله، هلكت!!

فقال له النبي ﷺ : «هل أتاك الخبيث، فقال لك : من خلقك؟ فقلت : الله تعالى، فقال لك : الله من خلقه؟» .

فقال الرجل : إي والذي بعثك بالحق، كان كذا .

فقال رسول الله ﷺ : «ذلك والله محض الإيمان»^(١) .

ومثله ما روي : إن رجلاً أتى الرسول ﷺ ، فقال : يا رسول الله، نافقت!!

(١) معراج السعادة : ١٥٩/١ .

فقال له النبي ﷺ : «والله ما نافقت، ولو نافقت ما أتيتني تعلمني! ما الذي رابك؟ أظن أن العدو الحاضر (يعني الشيطان) أتاك فقال لك: من خلقتك؟ فقلت: الله تعالى خلقتني، فقال لك: من خلق الله؟» .

فقال الرجل: إي والذي بعثك بالحق لكان كذا .

فقال ﷺ : «إن الشيطان أتاكم من قبل الأعمال فلم يقو عليكم، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم، فإذا كان كذلك فليذكر أحدكم الله وحده»^(١) .

إن الرسول ﷺ ، في الوقت الذي يخلص الرجل من عذاب الضمير، ويؤكد له أن لا بأس عليه من هذه الوسوس، يأمره أن لا يغفل عن ذكر الله تعالى، في مثل هذه الحالات، فذكر الله يريح النفس، ويطمئن القلب، ويطرده عنه شرور الشيطان .

وروي أيضاً: إن رجلاً كتب إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام، يشكو إليه (لَمَمًا) يخطر على باله، فأجابه الإمام، وكان من بعض كلامه: «إن الله إن شاء ثبتك فلا تجعل لإبليس عليك طريقاً، وقد شكى قوم إلى النبي ﷺ ، لما يعرض لهم، لأن تهوي بهم الريح، أو يقطعوا، أحب إليهم من أن يتكلموا به، فقال رسول الله ﷺ : أتجدون ذلك؟ قالوا: نعم، قال: والذي نفسي بيده، إن ذلك لصريح الإيمان، فإذا وجدتموه فقولوا: آمنا بالله ورسوله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢) .

وسئل الصادق عليه السلام، عن الوسوسة، وإن كثرت؟

فقال عليه السلام: (لا شيء فيها، تقول لا إله إلا الله)^(٣) .

وعن جميل بن دراج، قال: قلت للصادق عليه السلام، إنه يقع في قلبي أمر عظيم فقال: قل: لا إله إلا الله. قال جميل: فكلما وقع في قلبي قلت: لا إله إلا الله، فيذهب عني^(٤) .

ومما يدل على عدم المؤاخذه على ما تكنه النفس من وسوس، طالما

(١) - (٤) معراج السعادة : ١٥٩/١ .

بقي ذلك مكنوناً، ما روي أنه لما نزل قوله تعالى :

﴿إِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾^(٢) جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا: كُلفنا ما لا نطيق! إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه، ثم يحاسب على ذلك؟! .

فقال رسول الله ﷺ : «لعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل: سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا» فقالوا: سمعنا وأطعنا، فأنزل الله الفرج بعد سنة، بقوله تعالى :

﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١) وفي تفسير القرطبي (المجلد الأخير) ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل تجاوز عن أمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به» .

وروي عن أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، في قوله سبحانه :

﴿إِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ إن هذه الآية، عُرِضَتْ على الأنبياء والأمم السابقة، فأبوا أن يقبلوها من ثقلها، وقبلها رسول الله ﷺ وعرضها على أمتيه فقبلوها، فلما رأى الله عز وجل منهم القبول، على أنهم لا يطيقونها، قال: أما إذا قُبِلَت الآية على تشديدها، وعظم ما فيها، وقد عرضتها على الأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها، وقبلتها أمتك، فحق علي أن أرفعها عن أمتك، وقال عز من قائل :

﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٢) .

وورد في الحديث الشريف : «رفع عن أمتي تسع خصال: الخطأ، والنسيان، وما لا يعلمونه، وما لا يطيقونه، وما اضطروا إليه، وما استكروها عليه، والطيرة، والوسوسة في التفكير في الخلق، والحسد، ما لم يظهر بلسان أو يد»^(٣) .

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨٤ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨٦ ، معراج السعادة : ١٦٠/١ .

(٣) معراج السعادة : ١٦٠/١ .

وروي أن الصادق عليه السلام ، سُئل عن الرجل يجيء منه شيء على حد الغضب، يؤاخذه الله تعالى؟

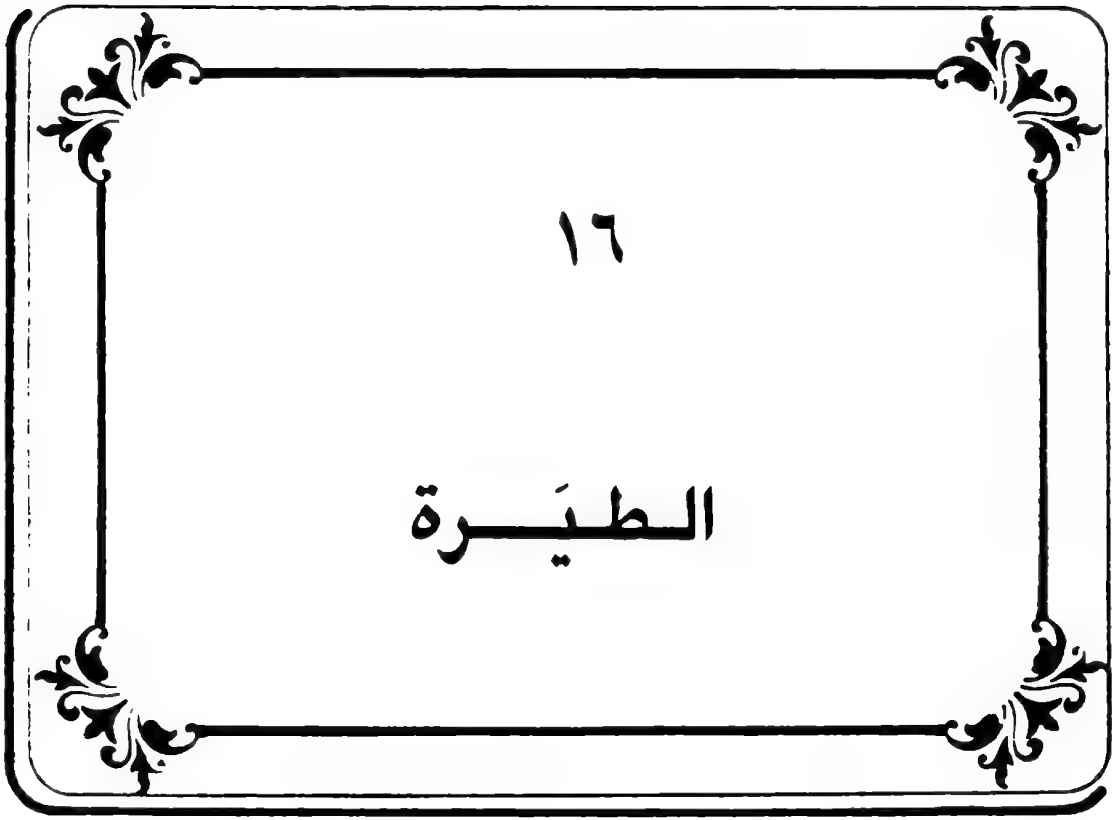
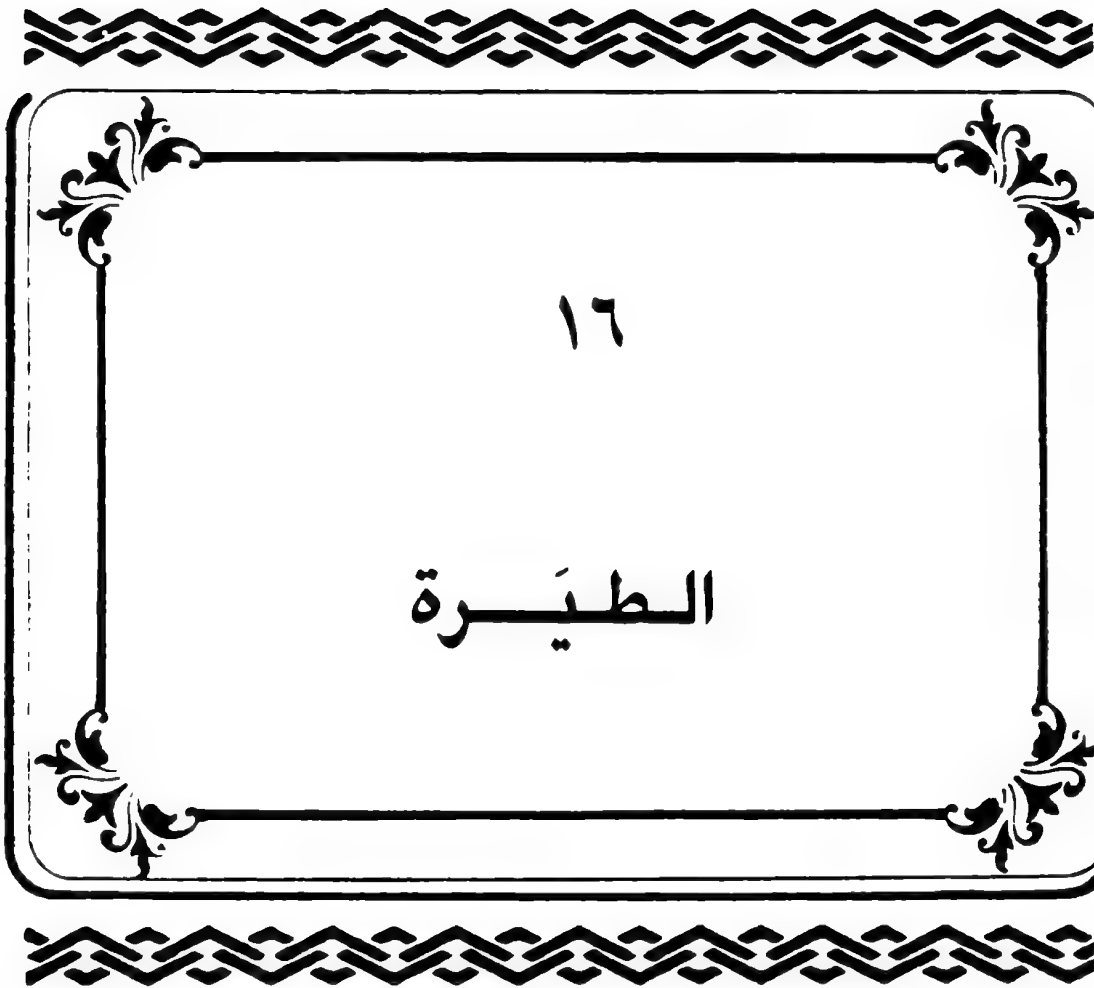
فقال عليه السلام : (إن الله تعالى أكرم من أن يستغلق على عبده) (١) .

إذن لا مؤاخذه على مجرد ما يطرأ على النفس من وساوس وأفكار خاطئة، فالله عز وجل أجل وأكرم، من أن يعاقب على ما هو خارج عن سلطان المرء وإرادته . . .

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ (٢) .

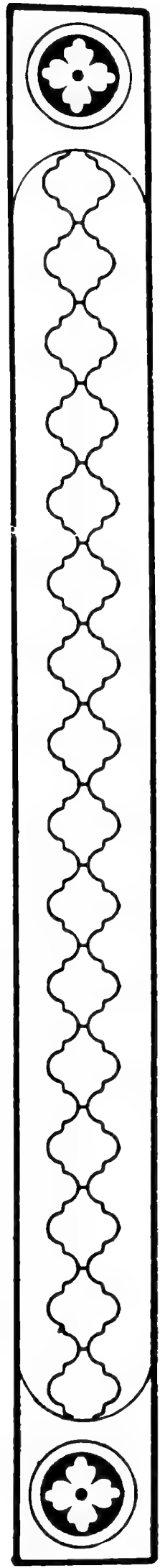
(١) معراج السعادة : ١٦٠/١ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨٦ .



١٦

الطَيِّرة



وما دمنّا في حديث النفس ووساوسها، وما يلقي الشيطان في روع الإنسان من أفكار سيئة، وخواطر غير محمودة فالجدير بنا أن نذكر الطيرة أيضاً، لأنها من شعب الوسواس .

وربما عُبر عنها بالتشاؤم، وقد اشتق اسم الطيرة من الطير، لسرعة لحوق البلاء - على اعتقاد المتشائمين - كما يسرع الطير في الطيران .

وهي بخلاف الفأل الذي يكون - عادة - فيما يُسرّ، بينما الطير - غالباً - فيما يسوء الخاطر وقد ورد في الحديث الشريف : «الطيرة شرك»^(١) أي الاعتقاد أنها تضرّ وتنفع في شيء إذ ربما تشاءم أحدٌ من خير ! أو من صاحب خير ! أو من حامل خير ! ..

ربما اعتقد ما ينافي الدين ..

إن النفس مجبولة على طلب اللذة، واجتناب الألم، كما يقول علماء النفس، مجبولة على جلب المنفعة، ودفع الضرر، وهو حق مشروع للأدمي، ولكن لا يحق له أن يعتبر المنفعة ضرراً، والضرر منفعة .. لا يحق له أن يتصور الألم لذة، واللذة ألماً، وهو الإشكال الذي يقع فيه كثير من الناس بسبب (الطيرة) والتشاؤم .

(١) حياة الحيوان للدميري : ٦٦٤/١ .

كانت الأقوام السالفة، يبعث الله فيهم الأنبياء، يدعونهم إلى الوحدة والهدى، فيرون في دعوتهم شؤماً عليهم، وعلى منافعهم، كانوا يستقلون وجودهم بين ظهرائهم. . ويفضلون التحرر من هذه الأوامر والنواهي السماوية!! في الوقت الذي كان الخير يتمثل بوجود الأنبياء ورسالاتهم كما يتمثل الشر والفساد في رفضهم ورفض مناهجهم .

يقول القرآن الكريم عن بني إسرائيل، في سياق ذكر ما ركبه من سيئات الأعمال، وقبائح الأفعال: ﴿... وان تصبهم سيئة يَطِروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾^(١).

تشاءموا بموسى عليه السلام، والمؤمنين الذين كانوا معه، وقالوا له: ما رأينا شراً ولا أصابنا بلاء حتى رأيناك، فيجيبهم: ألا إنما طائرهم عند الله، أي أن الشؤم الذي يلحقهم، هو الذي وعدوا به من العقاب عند الله، يفعل بهم في الآخرة، لا ما ينالهم في الدنيا وإن الله تعالى هو الذي يأتي بطائر البركة وطائر الشؤم، من الخير والشر، والنفع والضرر، فلو عقلوا لطلبوا الخير والسلامة من الله سبحانه^(٢).

وكذلك قالت هود قوم صالح عليه السلام لنيبها: ﴿قالوا اطيرنا بك وبمن معك﴾^(٣) أي تشاءمنا بك وبمن على دينك، وذلك أنهم قحط المطر عنهم وجاعوا، فقالوا: أصابنا هذا الشر من شؤمك وشؤم أصحابك، فأجابهم صالح بمثل جواب موسى عليه السلام لقومه: ﴿قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تُفْتَنُونَ﴾^(٤) أي الشؤم أتاكم من عند الله بكفركم^(٥).

يذكر في ترجمة المرحوم العلامة المحدث الشيخ عباس القمي، رضوان الله عليه، صاحب كتاب (مفاتيح الجنان) أنه استقل مرة سيارة من مدينة قم، متوجهاً إلى طهران وكانت الباصات العامة آنذاك، بدائية خشبية،

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٣١ .

(٢) مجمع البيان، المجلد الثاني : ٧١٩ .

(٣) - (٤) سورة النمل ؛ الآية : ٤٧ .

(٥) مجمع البيان، المجلد الثاني : ٤٧ .

والطرق غير معبّدة، مما كان يسبب العطل والخراب المتواصل فيها، علماً أن الشيخ التحق بالرفيق الأعلى حوالي سنة ١٩٤٠ م ١٣٥٩ هـ .

وفي كل مرة كانت تتعطل فيها السيارة، كان قائدها ومعاونيه، ينزلون منها لإصلاحها وكان المسافرون ينزلون أيضاً للاستراحة، وبانتظار إصلاح الباص، وكان الشيخ ينزل معهم، وينفرد جانباً يشتغل بالأدعية والأذكار، وترديد الأوراد والصلوات ليسهل الله أمرهم، ويوصلهم بسلام .

ويبدو أن قائد السيارة كان قد تشاءم من الشيخ وأوراده، وكبره وجوده في سيارته، مما حدا به، أنه حين أصلح العطل في سيارته في المرة الأخيرة، وركب المسافرون ليواصل السفر إلى طهران، دفع بالشيخ من سلم السيارة، ومنعه من الركوب وضحك منه المسافرون، وتركوه وحيداً في الصحراء، وتحركت السيارة بسرعة، ووقف الشيخ يتابعها بنظراته الحزينة، وهي تقطع البداء وتبتعد عنه، حتى غابت في عمق الصحراء .

وظل الشيخ بمفرده في تلك البرية، متحيراً لا يعرف مصيره، وفضلاً أن يشتغل بالصلاة والدعاء والإستعانة بالله عزّ وجلّ . . وبعد برهة وجيزة وقفت عنده سيارة خاصة جديدة، يستقلها أحد التجار المعروفين من أصدقاء المحدث رحمه الله، وكان الرجل لمّح الشيخ في هذا المكان المقفر، فاستغرب تواجده بمفرده في الصحراء، وتوقف ليسأله عن سبب ذلك . . فأخبره الشيخ بما كان من أمر السائق والمسافرين الذين كان برفقتهم في الباص وأنهم تشاءموا منه، وأنزلوه هنا . .

أبدى الرجل أسفه، ورحب به، وأردفه معه في سيارته وواصل سفره إلى طهران . .

وقبل الوصول إلى طهران بقليل، لفت انتباههما منظرٌ فجيع . . شاهد الباص الذي طرد منه الشيخ مصطدماً بقطار، وقد هلك ركابه جميعاً بمن فيهم السائق ومعاونيه!! ﴿أَلَا إِنَّ طَائِرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ .

كان الناس قبل الإسلام، يتطيرون بالسوانح والبوارح، فينفرون الظباء والطيور، فإذا أخذت ذات اليمين تبركوا به، ومضوا في أسفارهم وحوائجهم،

وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن ذلك^(١) ظناً منهم أن ذلك ينفعهم، وإنما ذلك ناتج عن حالة التردد التي تعترى النفس، فتعميها عن رؤية الواقع والحقيقة، وتصرفها عن المعقول إلى غير المعقول، وذلك من أمراض النفس . .

التطير نوع من الإيحاء النفسي الذي قد تترتب عليه آثار سيئة، وربما اضررت من يعتقد بها فعلاً، وسببت له الخوف والقلق والحيرة . .

وقد ورد في الشرع الحنيف استحباب أن يقول المرء عند رؤية ما يتطير به، أو سماعه : (اللَّهُمَّ لا طيرَ إلا طيرك، ولا خيرَ إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يُذهب السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)^(٢) .

وعن رسول الله ﷺ : قال : «من رجعت الطيرة عن حاجته فقد أشرك» قالوا: وما كفارة ذلك يا رسول الله؟ قال ﷺ : «أن يقول أحدكم: لا طير إلا طيرك . . . ثم يمضي لحاجته»^(٣)

وذكر القرطبي في تفسيره: إن العرب كانت تتيمن بالسانح، وهو الذي يأتي من ناحية اليمين، وتتشاءم بالبارح وهو الذي يأتي من ناحية الشمال . . وكانوا يتطيرون بصوت الغراب، ويتأولونه (البن) وكانوا يستدلون بمجاولات الطيور بعضها بعضاً على أمور . . وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك . . .

ويطير الأعاجم إذا رأوا صبيّاً يُذهَبُ به إلى المعلم بالغداة، ويتيمنون برؤية صبي يرجع من عند المعلم إلى بيته . . ويتشاءمون برؤية السقاء على ظهره قربة مملوءة مشدودة، ويتيمنون برؤية القربة فارغة مفتوحة . . ويتشاءمون بالحمال المثلث بالحمل، والدابة الموقرة . . ويتيمنون بالحمال الذي وضع حملة . . وبالدابة يحطّ عنها ثقلها . .

(١) حياة الحيوان للدميري : ٦٦٤/١ .

(٢) - (٣) حياة الحيوان للدميري : ٦٦٤/١ .

فجاء الإسلام بالنهي عن التطير والتشاؤم بما يسمع من صوت طائر، ما كان، وعلى أي حال كان.. فقال عليه السلام «أقروا الطير على مكانتها (مكانتها) على بيضها» (١) وذلك أن كثيراً من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى الطير في وكرها، فنفرها فإن أخذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هو السانح عندهم، وإن أخذت ذات الشمال رجع، وهذا هو البارح عندهم، فنهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا بقوله السابق (٢).

ربما لا يسلم الواحد منا، من هذه الهفوات النفسية، فإذا كان كذلك، ليس عليه إلا أن يتوكل على الله، ويطلب الخير منه، ويرجو الله القدير أن يختار له ثم يحقق حاجته مستعيناً بالعزیز المهيمن..

سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك، ف قيل له: لا يسلم أحدنا من الطيرة، والحسد، والظن، فماذا نصنع؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق» (٣).

وفي كشكول البهائي: عن كتاب أنيس العقلاء: «لا شيء أضرّ بالرأي، ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة، فمن اعتقد أن حوار بقرة، أو نعب غراب، يردّان قضاء، ويدفعان مقدوراً فقد جهل.

واعلم أنه قلما يخلو من الطيرة أحد، لا سيما من عارضته المقادير في إرادته وصدّه القضاء في طلبته، فهو يرجو واليأس عليه أغلب، ويأمل والخوف إليه أقرب وإذا عاقه القضاء، أو خانته الرجاء، جعل الطيرة عذر خيبته.. وغفل عن قدرة الله ومشيبته.. فهو إذا تطير من بعد، أحجم عن الإقدام، ويش من الظفر، وظن أن القياس فيه مطرد، وأن العبرة فيه مستمرة.. ثم يصير ذلك له عادة، فلا ينجح له سعي، ولا يتم له قصد.

(١) مكذا في الحديث وأهل العربية يقولون: وكُنّاها.

(٢) تفسير القرطبي، المجلد الرابع: ٢٧٠١.

(٣) حياة الحيوان للدميري: ٦٦٤/١.

أما من ساعدته المقادير، ووافقه القضاء، فهو قليل الطيرة لإقدامه، ثقة بإقباله، وتعويلاً على سعادته، فلا يصدّه خوف، ولا يكفه خور، ولا يؤوب إلا ظافراً... لأن الغنم بالإقدام والخيبة مع الإحجام، فصارت الطيرة من سمات الإدبار، وأطراحها من أمارات الإقبال، فينبغي لمن مني بها وبلي، أن يصرف عن نفسه وساوس النوكى، ودواعي الخيبة، وذرائع الحرمان، ولا يجعل للشيطان سلطاناً على نقض عزائمه، ومعارضة خالقه، ويعلم أن قضاء الله تعالى غالب، وأن رزق العبد له طالب، فليمض في عزائمه، واثقاً بالله إن أعطي، وراضياً به إن مُنِعَ وليقل إن عارضته في الطيرة ريب، أو خامره فيها وهم، ما روي عن رسول الله ﷺ (من تطير فليقل: اللهم لا يأتي بالخير إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله) (١).

وقد ورد في الحديث الشريف «لا طيرة، وخيرها الفأل» قيل يا رسول الله: ما الفأل؟ قال ﷺ: «الكلمة الصالحة، يسمعا أحدكم» وفي رواية قال ﷺ: «يعجبني الفأل، وأحب الفأل الصالح» (٢).

«وكان ﷺ، يعجبه أن يسمع (يا راشد، يا نجيح) وإنما كان يعجبه الفأل لأنه تشرح به النفس، وتستبشر بقضاء الحاجة، وبلوغ الأمل، فيحسن الظن بالله وقد قال تعالى «أنا عند ظن عبدي بي» وكان عليه الصلاة والسلام، يكره الطيرة، لأنها من أعمال أهل الشرك، ولأنها تجلب ظن السوء بالله عز وجل».

«قال الخطابي: الفرق بين الفأل والطيرة: إن الفأل إنما هو من طريق حسن الظن بالله والطيرة إنما هي من طريق الاتكال على شيء سواه. وقال الأصمعي: سألت ابن عون عن الفأل، فقال: هو أن يكون مريضاً فيسمع يا سالم، أو يكون باغياً (٣) فيسمع يا واجد» (٤).

(١) كشكول البهائي: ٥٤١/٣.

(٢) حياة الحيوان: ١٥٨/٢.

(٣) الباغي: الذي يطلب الشيء الضال.

(٤) تفسير القرطبي، المجلد الثالث: ٢٠٥٦.

إن المرء يدرك أن الشارع الكريم يريد من الناس، أن يكونوا متفائلين في حياتهم وينبذوا التشاؤم، والنظرة السوداء، وابتسموا للحياة . .

إنك لو تشاءمت مرّة، لتشاءمت مرتين، وثلاث، أو وستعتاد نفسك التطيّر من هذا الشيء وذاك، وسيستمر ذلك حتى يأتي اليوم الذي لا ترى فيه من الحياة إلا الصُور القاتمة، فتعيش حينئذ في دوامة من التردّد والشكوك والظنون السيئة بسبب ما عوّدت نفسك عليه من التشاؤم من كل شيء، ومن كل أحد .

طيرة ابن الرومي :

قال عليّ بن إبراهيم: كنتُ بداري جالساً؛ فإذا حجارة سقطت بالقرب مني، فبادرتُ هارباً؛ وأمرتُ الغلام بالصعود إلى السطح، والنظر إلى كل ناحية، من أين تأتينا الحجارة؟ فرجع إليّ وقال لي: امرأة من دار ابن الرومي^(١) الشاعر! قد تشوّفت^(٢)، وقالت: اتقوا الله فينا، واسقونا جرّة من ماء! وإلا هلكنا، فقد مات من عندنا عطشاً! .

فتقدّمتُ إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة: أن تصعدَ إليها وتخطبها، ففعلتُ وبادرتُ بالجرّة، وأتبعْتُها شيئاً من الطعام، ثم عادتُ إليّ فقالت: ذكرتُ المرأة أن الباب عليها مُقفَلٌ منذ ثلاثة أيام بسبب تطير ابن الرومي؛ وذلك أنه يلبس ثيابه كلّ يوم ويتعوّذ؛ ثم يصير إلى الباب، والمفتاح معه؛ فيضعُ عينه على ثقب في خشب الباب، فتقعُ على جارٍ له كان نازلاً بإزائه؛ وكان أحدب يقعدُ كلّ يوم على بابه؛ فإذا نظر إليه رجع، وخلع ثيابه، وقال: لا يفتح أحدُ الباب!

فعجبتُ لحديثها، وبعثتُ بخادمٍ لي كان يعرفه، فأمرته أن يجلسَ بإزائه - وكانت العينُ تميلُ إليه - وتقدّمتُ إلى بعض أعواني أن يدعو الجارَ الأحدب. فلما حضر عندي أرسلتُ وراء غلامي، لينهضَ إلى ابن الرومي،

(١) هو أبو الحسن علي بن العباس الرومي، الشاعر، وُلد ببغداد وعاش فيها متأثراً بالأدب المعاصرة بالثقافة العربية، ومات سنة ٢٨٣ هـ .

(٢) تشوّفت: تطاولت ونظرت .

ويستدعيه، فإني لجالس، ومعني الأحذب؛ إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسي؛
ومعه برذعة الموسوس، صاحب المعتضد؛ ودخل ابن الرومي؛ فلما تخطى
عتبة باب الصحن عثر؛ فانقطع شسع^(١) نعله، فدخل مذعوراً! وكان إذا فاجأه
الناظر رأى منه منظراً يدل على تغير حاله .

فدخل، وهو لا يرى جاره المتطير منه؛ فقلت له: يا أبا الحسن،
أ يكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم، ونظرك إلى وجهه
الجميل؟ فقال: قد لحقني ما رأيت من العثرة، لأنني فكرت أن به عاهة! وهي
قطع أنثيئه^(٢)! قال برذعة: وشيخنا يتطير؟ قلت: نعم ويفرط! قال: ومن هو؟
قلت: علي بن العباس^(٣). قال: الشاعر؟ قلت: نعم! فأقبل عليه وأنشده:

ولما رأيت الدهر يؤذن صرْفه	بتفريق ما بيني وبين الحبائب ^(٤)
رجعت إلى نفسي فوطئتْها على	ركوب جميل الصبر عند النوائب!
ومن صحب الدنيا علي جور حُكمها	فأيامه محفوفة بالمصائب
فخذ خلسة من كل يوم تعيشه	وكن حذراً من كمنات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر واطرح	تطير جارا أو تفاول صاحب!

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظر إليه! ولم أدر أنه قد شغل قلبه بحفظ ما
أنشده، ثم نهض أبو حذيفة وبرذعة معه .

فحلف ابن الرومي لا يتطير أبداً من هذا ولا من غيره، وعجب من جودة
الشعر ومعناه؛ وحسن مآتاه، فقلت له: لئتنا كتبناه! قال: أكتبه فقد حفظته
وأملأه علي^(٥)!

ويقال أيضاً: إن بعض ملوك الفرس خرج يوماً يتصيد، فرأى في طريقه

(١) الشسع: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الإصبعين ويدخل طرفه في الثقب
الذي في صدر النعل المشدود في الزمام.

(٢) يعني أنه محبوب .

(٣) هو اسم ابن الرومي .

(٤) الحبائب: مفردة حبيبة .

(٥) قصص العرب: ١١٦/١ .

أعوراً فتشاءم منه، فأمر بضربه وحبسه، وذهب لصيده وكان يوماً موفقاً، صاد فيه صيداً كثيراً فلما عاد أمر بإطلاق الأعور المسكين، فقال: أياذن لي الملك في الكلام؟ قال: تكلم، قال: لقيتني فضربتني وحبستني.. ولقيتك فاصطدت، ورجعت سالماً.. فأينا أشأم على صاحبه؟

فضحك الملك وأمر له بجائزة^(١).

روي عن عائشة، أنها قيل لها: إن أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: الشؤم في ثلاث: المرأة والدار والفرس!

فقلت: لم يحفظ أبو هريرة، لأنه دخل على رسول الله ﷺ، وهو يقول: «قاتل الله اليهود، يقولون: الشؤم في ثلاث: المرأة والدار والفرس». فسمع آخر الحديث، ولم يسمع أوله^(٢)!!

هكذا.. يمكن أن يصل التشاؤم بالإنسان مرحلة، يتشاءم فيها حتى من زوجته وأهله، ومن داره التي يسكنها، والوسيلة التي يستقلها.. بل قد تصل به الحال إلى التشاؤم حتى من الدين وأهله، ومن القرآن وآياته، ويركب الشيطان ظهره ولا يدعه حتى الهلاك..

حكى الماوردي في كتاب (أدب الدين والدنيا) وغيره أيضاً: إن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، تفأل يوماً في المصحف الشريف، فخرج قوله تعالى:

﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾^(٣) فتطير من هذه الآية، وثارثائرة نفسه الخبيثة، مما دعاه إلى تمزيق القرآن الكريم، برمح كان عنده، وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد	فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر	فقل يارب مزقني الوليد

(١) كشكول البهائي : ٦٨١/٣ .

(٢) حياة الحيوان للدميري : ٦٦٤/١ .

(٣) سورة إبراهيم ؛ الآية : ١٥ .

فلم يلبث إلا أياماً قليلة حتى هلك، ولقي جزاء عمله هذا، وسائر أعماله القبيحة التي سجلها له التاريخ.. فقتل شرّاً قتلة، ورفّع رأسه على قصره، ثم على أعلى سور في البلد!!.

هذه الطيرة، وهذه عواقبها وآثرها السيئة، وخير للمؤمن أن يجنب نفسه هذه المشاكل، ويتعوذ بالله منها، ويمنع تسرب مثل هذه الأوهام إلى نفسه، بالاعتماد على الله عزّ وجلّ، ومواصلة ذكره، والإسعانة به عزّ شأنه..

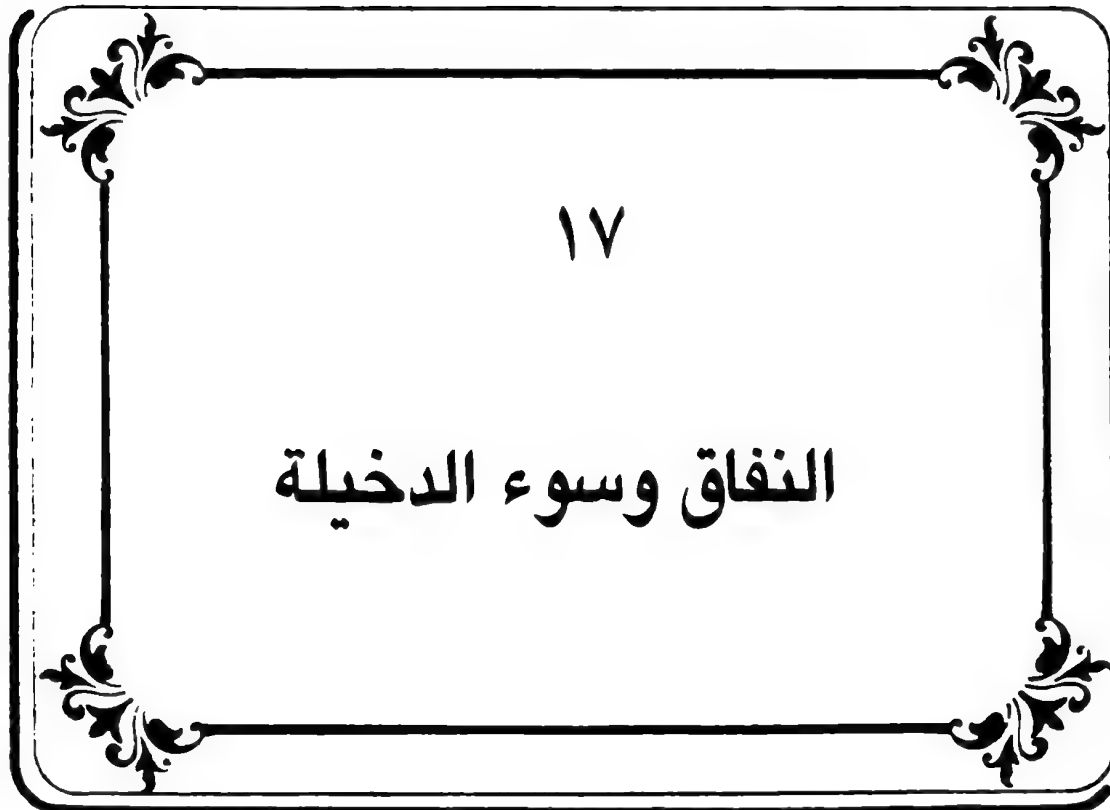
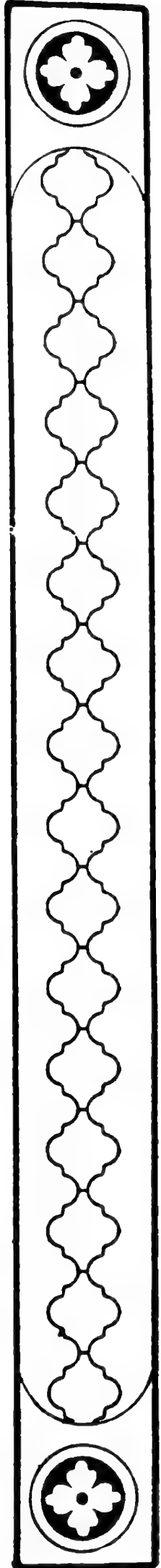
وقد كان - حتى في العرب قبل الإسلام - من لا يتطير ولا يتشاءم من شيء ويعتقد أن الخير والشر كله بيد الله.. ولا يرى التطير شيئاً.. وكانوا يمدحون من يكذب به، قال المُرَقَش :

ولقد غدوتُ وكنت لا أغدوا على واقٍ وحاتم^(١)
فإذا الأشائم كالأيامن والأيامن كالأشائم

قال عكرمة : كنت عند ابن عباس، فمرّ طائر يصيح، فقال رجل من القوم : خير، خير، فقال ابن عباس : ما عند هذا لا خير ولا شر^(٢).

أي : الخير والشر، والحياة والموت، وكل شيء، وكل أمر، بيد الله تعالى، ولا يصح أن يعول المرء على صياح طائر، ونباح كلب، وخوار بقرة وما شاكل...

(١) (٢) الواق : الصرد وهو طائر ابقع ضخّم الرأس يكون في الشجر نصفه أبيض ونصفه أسود. وحاتم : الغراب الأسود، راجع تفسير القرطبي : ٢٧٠١/٤.



إن الله عزّ وجلّ خلق الإنسان بفطرة سليمة، ودخيلة نزيهة طاهرة، لا غلّ فيها ولا التواء، ولا تلوّن.

يقول تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾^(١).

ويقول عزّ من قائل: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾^(٢).

فالنفس زكية نقية في ابتداء أمرها، كالمرآة الصافية أول أمرها، وكالماء الذي ينبع من الأرض، يخرج عذباً نقياً خالياً من كل شائبة ودرن.

كذلك النفس البشرية، فطرها الله عزّ وجلّ، مصونة عن كل ما يشينها ويفسدها.

ولكنه الإنسان . . يأبى أن تبقى نفسه سليمة بريئة . . فيلوّثها بمرور الزمن، بما ينافي طهارتها وبراءتها، ويملأها سوءاً ومرضاً، ويشحنها خطيئةً وقبحاً . . فيقال عنها - حينئذ - إنها مريضة .

وأمرضها مختلفة وكثيرة، ونحن - هنا - بصد النفاق وسوء الدخيلة، وهما من أخطر الأمراض النفسية .

فالنفاق ظاهرة مَرَضِيَّةٌ في النفس، تتوافر في الشخص - غالباً - في

(١) سورة التين ؛ الآية : ٤ .

(٢) سورة الروم ؛ الآية : ٣٠ .

المراحل الراشدة من العمر، ونادراً ما تتواجد في النفس في مراحل (الطفولة المبكرة أو الطفولة المتأخرة) أو حتى في مرحلة (المراهقة) .

وهذا بعينه دليل قوي على أن هذه السمة النفسية، تنتقل إلى الشخص عن طريق البيئة والمحيط، وربما بتأثير التربية السيئة، وليست فطرية في ذوات بني البشر (كالحسد والغضب) .

والنفاق - عادة - يقود إلى أنواع أخرى من السلوك السيئ والخصال الهوجاء وقد عرض سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عليه السلام، هذه الأخلاق السيئة، في وصف دقيق للنفاق، ضمّنه عشرين نمطاً من السلوك السيئ، تقوم بأكملها على أسس نفسية مريضة، يتقدمها جميعاً، ويرأسها النفاق .

قال عليه السلام :

« . . . النفاق على أربع دعائم، على الهوى، والهوينا، والحفيظة، والطمع .

فالهوى على أربع شعب، على: البغي، والعدوان، والشهوة، والطغيان .

والهويناء على أربع شعب، على: الغيرة، والأمل، والهيبة، والمماطلة .

والحفيظة على أربع شعب، على: الكبر، والفخر، والحمية، والعصية .

والطمع على أربع شعب، على: الفرح، والمرح، واللجاجة، والمكاثرة»^(١) .

والمنافق، أو سيئ الدخيلة، يكون في ظاهره، حسناً، لطيفاً، خيراً، صالحاً، محباً للآخرين، ولكنه في الحقيقة وواقع حاله، خلاف ذلك، يتظاهر بالسلوك الحسن بين الناس ولكنه إذا خلا بنفسه، رفع القناع عن وجهه، وظهر على حقيقته .

(١) كتاب : دراسات في علم النفس الإسلامي ص : ١٦٢ نقلاً عن (تحف العقول) ص : ١١٢ .

إن الإسلام يطلق اسم (المرض) على النفاق، حين يرصد القرآن الكريم بعض سمات المنافقين في قوله تعالى : ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾ * ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * ﴿١﴾ .

أجل . . إنه مرض، ولكنه ليس في الجسم، بل في النفس، إنه شذوذ نفسي، لأنه موقف فكري مناهض لرسالة السماء . . إن هذه الحالة سمة نفسية ناجمة عن أصول مرضية، لا بد من معالجتها واستصلاحها .

والنفاق في مفهوم اتباع النهج السماوي، يختلف كثيراً عنه في مفهوم اتباع النهج الأرضي . . ولكنه في كل صُورِهِ رذيلة منفرة، ويمثل عجزاً عن المواجهة . . وضعفاً في الخلق .

صورة النفاق لدى الدينيين، عبارة عن : رفض الاعتقاد بوجود الله وتعاليمه، إلا أنه رفض باطني غير صريح - فلو كان صريحاً لكان كفراً - تملي المصلحة الذاتية على صاحبه أن يُظهر خلافه، وهو - كما ترى - يمثل أسلوباً مَرَضِيّاً في التعامل مع قيم السماء .

يصفهم محمد قطب، في كتابه (في النفس والمجتمع) بقوله :

«قوم لا يؤمنون بالفضيلة، لأنهم يعجزون عن تكاليفها، أو لأن طباعهم الهابطة لا تأتلف معها، ولكنهم في ذات الوقت، ضعاف الشخصية، لا يقدرّون على المواجهة، فيتظاهرون بالفضيلة، ليرضوا المجتمع، بينما يمارسون رذائلهم في الخفاء» .

ولكن أتباع الفلسفة الأرضية، يرون في الالتزام بالفضيلة، في حد ذاته، نفاقاً، وليس على الشخص - لو أراد الخروج من حالة النفاق - إلا أن يتحرر من الفضيلة كلها، ويعلن نفسه صراحة أنه شهواني، وأن لا يغالب

(١) سورة البقرة؛ الآيات (٧ - ١٠) .

النفس، بل يدعها على هواها، لتصنع ما تشاء. يقولون: إن الإنسان ليس فاضلاً بطبيعته، وإن المثل الأخلاقية، هي في الواقع مُثل نظرية، لا يمكن تطبيقها في الخارج.. إذن لا ضرورة للنفاق، ولكن صرحاء، ولتكشاف برذائلنا.

«يقول (فرويد): إن الفضيلة كلها كذب وخداع، وإن الإنسان في حقيقته ما هو إلا طاقة جنسية غالبة قاهرة، مندفعة كالحيوان، وإن إقامة الحواجز في طريقها، من خلق أو دين، أو عرف أو تقاليد، لا ينظفها ولا يهذبها، وإنما هي - فقط - تكبتها، أي تمنعها من الظهور إلى السطح، ولكنها باقية على حالها في اللاشعور، تحرك الإنسان دون أن يدري أو يحس، فضلاً عن العقد النفسية، والاضطرابات العصبية التي تصاحب هذا الكبت، ولا تترك الإنسان في راحة»^(١).

إن فرويد - في الحقيقة - ينظر إلى مجتمعه، ويتحدث من منطلق الواقع الذي كان يعيش فيه هو، قد يكون على حق فيما أطلق من مقولات، ولكن ينطبق ذلك كله على المجتمعات المادية التي بعدت كل البعد عن القيم والأخلاق، وذابت ذوباناً كاملاً في الماديات، أما في المجتمع الإسلامي المذهب فللقيم مكانتها وآثارها وللأخلاق دورها وتأثيراتها... وأسكت أنا الآن عن خزعات فرويد، لأن الكثير من علمائنا وفلاسفتنا ردوا عليه وأجابوه أجوبة شافية كافية، لا يقتضي المقام تكرارها.

ولكن هذه الدعوة الفرويدية فعلت فعلها الخبيث المقصود في (أوروبا) والبلاد الغربية.

«وانفلتت أوروبا من تزمّت المسيحية إلى إباحية فرويد... انفلتت كالحيوان الهارب من القفص يأكل كل شيء في طريقه، ويحطم كل شيء في طريقه. ليشعر أنه طليق.

وفي ظل هذه «الهيجة» المنطلقة بلا تعقل ظهرت آراء و«فلسفات»

(١) (في النفس والمجتمع) لمحمد قطب . .

ومعتقدات جديدة، تسير في نفس الخط الذي رسمه فرويد، تقول إن ما يسمى بالفضيلة ليس إلّا وهماً أو خرافة نادت بها الأديان، واتبعها الناس تحت سلطان الدين والخرافة. اتبعوها نفاقاً فقط، ولكنهم لم يؤمنوا بها قط ولم ينفذوها قط، فينبغي إذن أن «نتحرر» من هذه الخرافة، وأن نتبع «النور» الذي أتى به علم النفس، فنعرف نفوسنا على حقيقتها، ونتكاشف بها على طبيعتها، لا يمنعنا من ذلك حرج زائف ولا تزميت كاذب، ولنقل لأنفسنا صراحة إننا شهوانيون، وإن الشهوة هي حقيقتنا العميقة المتأصلة. . ثم لنكن شهوانيين على المكشوف بدل الخداع والنفاق واللف والالتواء. . .»^(١).

«وتمادى هؤلاء إلى حد المغالطة المكشوفة والاستدلال الباطل الذي لا يخضع لمنطق ولا يثبت لبرهان» .

«قالوا إن الإنسان حين يكون وحده آمناً من رقابة الناس أو مفاجأتهم له، يتخلى عن فضائله المزعومة، ويتصرف على طبيعته. فهو لا يتحرج أن يأتي بأي عمل من الأعمال التي تنافي مفهوم الفضيلة عند ذلك الشخص ذاته. ولكنه في اللحظة التي يحس فيها وجود أحد يسرع فيداري طبيعته. . . يلبس ويتحشم ويتأدب ويتخذ سلوكاً جديداً كله مفتعل. . . من أجل الآخرين!» .

«وقالوا إن التزمت والتستر وإقامة سدود سميكة من الدين والأخلاق والتقاليد لم يمنع من وجود إباحيين متحللين إلى أقذر حد يختفون داخل مسوح الفضيلة ويصنعون كل شيء في السر، ولم يمنع من وجود نساء متهتكات إلى أقصى حدود الفجور وهن داخل الأسوار ووراء الحجاب» .

«وكلتا القولتين حق يراد به باطل» .

«فصحيح ولا شك أن الإنسان وهو وحده يتخفف من كثير من القيود التي يلتزمها وهو موجود مع الناس. ولكن لماذا نسمي ذلك نفاقاً، ولماذا نقول إنه شيء مفتعل، ليس في طبيعة الإنسان؟» .

«فلنأخذ مثلاً من الواقع، لا نتحرج من ذكره، لأنه واضح الدلالة على

(١) (في النفس والمجتمع) لمحمد قطب .

زيف هذا الإستدلال» .

«إن كل حي يخرج فضلاته عن طريق التبرز. والتبرز عملية قذرة في حد ذاتها لأنها تتصل بالأقذار التي يلفظها الجسم إبقاء على الحياة. ولكن الأمر الواقع الذي يلمسه كل إنسان بالتجربة أنه لا يتأفف من قذارة نفسه، ولا يشعر بالنفور من عملية التبرز التي يأتيها كل يوم. بل الأمر على العكس، فإنه من عجائب الخلقة ومعجزاتها الطريفة أن كل العمليات البيولوجية مصحوبة باللذة، تشجيعاً للكائن الحي على القيام بها؛ حفظاً لذاته أو حفظاً لنوعه؛ ولولا هذه اللذة لتكاسل الكائن الحي عن أدائها، وربما أصيب بالضرر أو قضي عليه بالفناء» .

«فالذي يحدث إذن أن كل مخلوق يحس بلذة في إخراج فضلات نفسه، بينما يحس بالتقزز والنفور من رؤية فضلات غيره، لأنه يرى قذارة ولا لذة!» .

«أفإن قام كل إنسان بإخراج فضلاته بعيداً عن أعين الناس ليمنع ما يحسون به من النفور والتقزز، أيقال عنه إنه منافق؟ ويُقال إنه يصنع من أجل الناس ما لا يصنع من أجل نفسه؟ وإنه لو كان وحده آمناً من رقابة الناس أو مفاجأتهم له لما قام بهذا الإجراء؟»^(١) .

أي منطق هذا؟

نعم إنه يصنع ذلك من أجل الناس. ولكن لماذا حدث ذلك؟ أليس لأن الناس قد وجدوا أنهم لو صنعوا أمام بعضهم بعضاً ما يصنعونه في خلوتهم فستكون النتيجة أن يتقزز الناس جميعاً وينفروا جميعاً؟ أليسوا قد اتفقوا حينئذ أو تواضعوا على أن يداروا سوائهم عن الآخرين ليمنع كل إنسان عن نفسه هو في النهاية ما يثير تقززه واشمئزازه؟ أليست المصلحة المشتركة إذن هي التي منعت كل إنسان أن يعمل في صحبة الناس ما يعمل في خلوته. المصلحة التي هي في النهاية مصلحة كل فرد بمفرده؟ .

أيقال إن هذا نفاق؟! .

(١) (في النفس والمجتمع) لمحمد قطب .

إن النفاق في مفهوم الإسلام، بل في مفهوم الديانات والمبادئ السماوية جميعاً، معناه التلون، والظهور (المقصود) بمظهر الخير، والإخفاء (المقصود) للشر.

وليس عسيراً أن يتعرف المرء على هذا المفهوم، من خلال المواجهات اليومية المتكررة لأمثال هؤلاء الناس، وهم كثير !
يقول الشاعر :

ويريك من طرف اللسان حلاوة ويروغ عنك كما يروغ الثعلب
ذكر الزمخشري في الجزء الأول من كتابه (ربيع الأبرار) قضية طريفة تاريخية، تناسب ما نحن بصدد من الحديث عن النفاق الاجتماعي .

قال : وفد بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، على عمر بن عبد العزيز، ببلدة يُقال لها خناصره، ودخل مسجدها، والتزم سارية من سواري المسجد، يُصلي عندها، ويكثر من القيام والقعود والركوع والسجود .

فقال عمر بن عبد العزيز للعلاء بن المغيرة: إن يكن سرُّ هذا الرجل كعلايته، فهو رجل أهل العراقين غير مدافع!! .

فقال العلاء : أنا آتيك بخبره .

ثم أتى بلالاً وقال له مختبراً : قد عَرَفْتُ مكاني من أمير المؤمنين، فإن أشرتُ بك على ولاية العراق، ما تجعل لي؟

قال : أجعل لك عمالتي سنة كاملة، وهي عشرون ألف ألف!

قال العلاء : فاكتب لي بذلك .

فكتب له، ثم عرض العلاء كتابه على عمر بن عبد العزيز، فلما رآه عمر، كتب إلى والي الكوفة : «أما بعد فإن بلالاً غرَّنا بالله، فكدنا نغترّ، ثم سبكناه فوجدناه خبثاً كله . . فلا تستعن على شيء من عملك بأحد من آل أبي موسى»! .

وكتب إلى عدي بن أرطاة - وكان قد ولّاه على البصرة سنة ٩٩ هجرية
ثم اكتشف زيغته وسوء دخليته - كتب له : (غررتني منك مجالستك القراء،
وعمامتك (...)) فلما بلوناك، وجدناك على خلاف ما أملناك... قاتلكم الله،
أما تمشون بين القبور) .

إن خطورة النفاق تكمن أكثر في أن بعضهم يتستر بالدين، ويلبس
مسوح المؤمنين وهو في الحقيقة ذئب كاسر .

قال عبد الملك بن مبارك :

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره	وقد فتحت لك الحانوت بالدين
بين الأساطين حانوتٌ بلا غلق	تبتاع بالدين أموال المساكين
صيرت دينك (شاهيناً) تصيد به	وليس يفلح أصحاب الشياهين

وقد تضمّن القرآن الكريم نماذج من هؤلاء، فذكرهم بسلوكياتهم،
وسماتهم، ولم يذكرهم بالأسماء، ليتعرف عليهم المؤمنون، من خلال
الصفات والسمات التي ربما تتكرر على مدى الأعصار والدهور، في
أشخاص آخرين... وآخرين... فيكون المؤمنون منهم على حذر .

فمنهم : (الأخنس بن شريق) المنافق، الذي كان يظهر الإخلاص
والتودد للنبي ﷺ والرغبة في دينه، ولكنه في حقيقة حاله، كان يبطن
خلاف ذلك .

قال عنه تعالى :

﴿ومن الناس من يُعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في
قلبه وهو ألدُّ الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك
الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾^(١) .

تحدث الآيات عن الرجل الفاسد، الضال، المنافق، الذي يحاول
خداع النبي ﷺ بكلماته العذبة المعسولة، وأسلوبه الشيق، والابتسامة

(١) سورة البقرة ؛ الآيتان : ٢٠٤ - ٢٠٥ .

العريضة التي ترسم على وجهه حال تحدثه، مما يجعلك ترتاح إليه،
وتحبه . .

ولكن كيف لنا أن نتعرف على ضمائر هؤلاء، وحقائقهم، كيف لنا أن
نعرف ما في قلوبهم، وأمثال هؤلاء كثيرون، يصوبون سهامهم نحو الأبرياء
من الناس والبسطاء، وقد لا ينتبه الناس إلى حقائقهم، بسبب الأقنعة الزائفة
التي على وجوههم، وظهورهم أمام الناس بمظهر المؤمن المقدس المتدين،
الذي لا يريد إلا وجه الله . .

ولكن الله تعالى، لهم بالمرصاد، ولا بد وأن يكشف حالهم وزيفهم
في يوم ما . كما فعل مع المنافقين الذين كانوا يعاصرون النبي ﷺ .

ولنبداً قصة (الأخنس) من بدايتها، ومن أول لقاء بينه وبين
الرسول ﷺ ، فقد كان اسمه الأصلي (أبي بن شريق) سمي بالأخنس،
لأنه خرج يوم بدر ببني زهرة - وكان حليفهم - لقتال النبي ﷺ ، فلما
وصلت الأخبار بعودة أبي سفيان وإبله وأمواله سالمة إلى مكة، عاد الأخنس
ببني زهرة، ولم يقاتل، فلقبه بعض المشركين يلومه على رجوعه، ويقول :
خنس الأخنس، متهماً إياه بالجبن والخوف من النبي ﷺ وأصحابه (١) . .

وقد كانت للأخنس، مواقف تدل على نفاقه، وشدة خصومته للإسلام
والمسلمين جميعاً، بينما تظهر على وجهه بشاشة توشي لهم بأنه مسلم، فقد
كان صديقاً لأبي سفيان قبل إسلامه، فكان يجتمع ليلاً معه ومع أبي جهل،
وقد كانوا جميعاً كفاراً يتسامرون في شؤونهم، وذات ليلة اجتمع الثلاثة،
وراحوا يسمعون القرآن سراً . ثم التفت الأخنس إلى أبي سفيان قائلاً :

- ما تقول في هذا يا أبا سفيان ؟ .

قال أبو سفيان : أعرف أنه حق وأنكر ذلك !! .

ثم بادره أبو سفيان قائلاً : وأنت ما تقول فيما سمعت؟

(١) أسد الغابة : ٤٧/١ .

قال الأخنس : أراه حقاً^(١) .

وذهب الأخنس بن شريق إلى رسول الله ﷺ ، وأعلن إسلامه ،
ويعلم الله ما كان يضمّر في نفسه من السوء والأذى للرسول وللمسلمين ،
ولكن يبدو أن مصلحته الشخصية ، اقتضت منه التظاهر بالإسلام والإيمان ،
ليكون أبلغ في إيذائه للمسلمين . . .

قال للرسول ﷺ : الله يعلم يا رسول الله ، أنني صادق ، وجلس
يسامر الرسول ﷺ بحديث حلو جميل ، أدهش النبي من حلاوته ،
فأعجب به عليه الصلاة والسلام ، وهو يقول : (جئت أريد الإسلام ، والله يعلم
أنني صادق)^(٢) وذلك قوله الذي أشهد الله فيه على ما في قلبه ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ
عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ .

هكذا . . جالس النبي ، وأظهر له كل الإخلاص والمودة ، وأعلن عن
إسلامه ، ثم خرج تاركاً رسول الله ﷺ ، وفي طريق الخروج من المدينة
مرّ المنافق بزرع لقوم من المسلمين ، وقد اشتدّ عودُهُ ، وأوشك على الإنتاج ،
ولم يبق على حصّاده إلا أيام معدودات ، فثارت في نفسه نوازع الشر
والأحقاد ، ودعاه الحسد والحقد الدفينين في قلبه ، لاحتراق الزرع والإضرار
بالمسلمين . . فأشعل النار في الزرع ، ظناً منه أنه لا يراه أحد ، ولم يكتفِ
بذلك . . بل وجد عدداً من الإبل التي يمتلكها المسلمون أيضاً ، فأخرج من
جيبه آلة حادة جارحة ، وراح ينحرها واحداً واحداً ، وهي تتساقط بين يديه ،
وبذلك يفرغ ما في قلبه من حقد ووحشية ، فأفسد الزرع ، ونحر الإبل ،
وعاث في الأرض فساداً .

واعتقد هذا المنافق أنه لا يراه أحد ، وأن خبره يبقى خافياً على النبي
والمسلمين ، وأنه قد خدع النبي ﷺ بحديثه الحلو ، وغفل عن أن الله عزّ
وجلّ له بالمرصاد ، وأنه تعالى مبلغ نبيه ﷺ بما يحدث منه ومن أمثاله
المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأضمروا في نفوسهم شراً للإسلام

(١) الإصابة : ٣٩/١ .

(٢) أسباب النزول للواحي : ٥٩ .

والمسلمين .

ونزل الوحي يبلغ الرسول ﷺ بواقع الحال، بأحسن مقال،
وانكشف أمر هذا المنافق الدجال الذي ظن أن حيلَه، وأساليبه الخبيثة تنطلي
على المسلمين دائماً . ولم يعلم أن الله عز وجل ناصر نبيه ﷺ
والمؤمنين، وحاميهم منه ومن أمثاله من أهل النفاق وسوء الدخيلة، وأصحاب
النفوس المريضة .

ولا ينفعهم التظاهر بالصلاح، ولا حتى التفقه في الدين، والتدرب
على وسائل إغواء الناس وإغرائهم، والضحك على ذقونهم . .

ورد في الحديث، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ ، قال :

«أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : قل للذين يتفقهون لغير الدين،
ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، ويلبسون للناس صوف
الكباش، وقلوبهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أَمَرٌ
من الصبر، إياي يخدعون؟ وبني يستهزئون؟ لأتحنن لهم فتنة تدع الحكيم
حيراناً» (١) .

ربما يظن هؤلاء، أن هذا المذق، ينطلي على الناس كثيراً، وتخفى
عليهم الحقيقة طويلاً، ولكن الواقع خلاف ذلك . فإن من أعجب ما أودع الله
سبحانه وتعالى في الذات البشرية أن جعل الإنسان - بطبعه وفطرته - يدرك
حقائق بني جنسه التي يحاولون إخفاءها، من أخلاق، وأنماط سلوكية نفسية . .
بل مطلق طبائعهم وأخلاقهم، ما يريدون إخفاءها، وما لا يريدون .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
يقول علي أمير المؤمنين عليه السلام :

«ما أضمر امرؤ شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات
وجهه» (٢) .

(١) حياة الحيوان : ٢٣٧/٢ .

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد : المجلد الأخير ص ٢٩٩ طبع بيروت، دار مكتبة
الحياة .

فأنت حين تنظر في صفحات وجه أحد، تكتشف دواخله، فلو كان حزيناً، بدت علامات الحزن في وجهه، أو كان مرتبكاً خائفاً، ظهرت عليه آثار ذلك، ولو كان فرحاً مستبشراً عبرت قسّمات وجهه عن فرحه واستبشاره.. وهكذا، أية حالة يكون عليها، تظهر علاماتها وآثارها، في عينه، وفي ملامح وجهه.. وتنكشف للآخرين، عاجلاً أم آجلاً .

يقول شاعر :

تخبرني العينان ما القلب كاتم وما جنّ بالبغضاء والنظر الشزر
وقال آخر :

وفي عينيك ترجمّة أراها تدلّ على الضغائن والحقود
وأخلاق عهدت اللين فيها غدت وكأنّها زبر الحديد
وقد عاهدتني بخلاف هذا وقال الله : «أوفوا بالعقود»

وقيل : العين والوجه واللسان، أصحاب أخبار على القلب .

وقالوا : القلوب كالمرايا المتقابلة، إذا ارتسمت في إحداهن صورة ظهرت في الأخرى .

ولعل القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى، في سورة يوسف عليه السلام ، حين دخل السجن ولقيه الفتّيان لأول مرّة، وذكر له رؤاهما، وبعد سرد الرؤى قالوا : (إنا نراك من المحسنين) ما الذي جعلهما يرياه من المحسنين؟ فلم تكن بينه وبينهما سابق معرفة أو لقاء سوى ما لاحظاه في ملامحه وقسمات وجهه، من سيماء الصالحين والمحسنين ..

على هذا الأساس، لا بد وأن تنكشف حقيقة المنافقين للناس، وينجلي أمرهم مهما حاولوا إخفاء نفاقهم، وخبث سرائرهم، والتستر عليها.. لأن النفاق نوع من أنواع الكذب.. ولكنه كذب عملي (والكذب نسيء) فإذا نسي نفسه، ظهر عليه التلون، وبدا للناس ما كان يخفيه عنهم من سوء الدخيلة .

قال عليه السلام : «خير ما أعطي المؤمن خلق حسن، وشر ما أعطي

الرجل ، قلبٌ سوءٍ في صورة حسنة»^(١) .

وربما فتح الله تعالى ، لأمثال هؤلاء أبواب الخير لفترة ، ولكن إنما يفعل ذلك استدراجاً لهم ، ليتبين مدى تماديهم في غيهم ، ثم يأخذهم على غفلة ، أخذ عزيزٍ مقتدر .

قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾^(٢) .

منهم من يثوب إلى رشده ، ويتوب إلى ربه ، ويستقيم في سلوكه ، فذلك خير . ومنهم من يظل سادراً في غيّه متمادياً في ذنبه ، لا ينفك عن النفاق والتلون ، وسوء الطبع . . . فيستدرجه الله حتى يأتي يوم التأديب والإنقام .

والمأمل في القرآن الكريم ، يجد أن السمات التي يصف بها المنافقين ، أشد وأعنف من تلك التي يسم بها الكافرين ، فبينما يعتبر الكافرين من أصحاب النار فحسب ، ويقول عنهم :

﴿ . . . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾^(٣) يشدد على المنافقين ، فيقول : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾^(٤) .

فالملاحظ : إن أسلوب القرآن ، يأخذ طابع الشدة والغلظة مع المنافقين ، بشكل أوضح وأشد مما هو عليه مع الكافرين ، ويحاول التركيز عليهم ، وتسليط الضوء على تصرفاتهم ، لتعريتهم ، وفضح أساليبهم وردعهم عن تحقيق مآربهم الخبيثة .

لقد واجه النبي ﷺ ، في حياة الرسالة ، ثلاث طوائف ، حملوا راية الحرب والعناد ضد نبي الإسلام ، وتبنوا مواجهة الإسلام ، هم (الكفار والمشركون والمنافقون) ولقد استطاع ﷺ ، أن يحدد الموقف من الفئتين

(١) ربيع الأبرار : ٥٦/٣ .

(٢) سورة الأنعام ؛ الآية : ٤٤ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٣٦ .

(٤) سورة النساء ؛ الآية : ١٤٥ .

الأولين سريعاً، ويجابهم بالأسلوب المناسب حتى انتصر عليهم، نصراً عظيماً مؤزراً . .

في حين استمرت معاناته مع المنافقين، طوال عمر التبليغ، وحتى وفاته عليه السلام ، ولم تنته مشكلتهم بوفاته، بل استمرت واستمرت . . .

روي عن علي عليه السلام ، قال: قال لي رسول الله عليه السلام :

«إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً، أما المؤمن فيمنعه إيمانه، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق»^(١).

صدق رسول الله عليه السلام ، فالمؤمن معروف بإيمانه، والكافر مكشوف للناس أمره، ولكن الخوف كل الخوف من ذوي النفوس المريضة . . من المنافقين، والمتشككين بأشكال مختلفة، هؤلاء الذين يندسّون بين أهل الإيمان، وبين البسطاء من الناس ليلبسوا عليهم دينهم، وليشككوا في معتقدات الناس .

ولا يقف المنافق عند حدّ النفاق . . بل يتجاوز حتى يصل إلى أصول الشرّ - والعياذ بالله - فتجتمع فيه خصال السوء كلّها، بحيث يُمسخ شيطاناً .

يُقال: فيه أثافي الشر، الكذب والنفاق والحسد، وهي خصال تقترب ببعض، وتتزاوج لتستقر في قلب المنافق . . فالمنافق - عادة - يكون كذاباً، ويكون حسوداً أيضاً .

إن تلوث النفس بالنفاق من الأمراض الخطيرة التي قد تجرّ إلى الويلات والمهالك، وتؤثر في الصداقات، والعلاقات العامة، وحتى في تربية الأولاد . . بمعنى أن الوالد لو كان منافقاً لأنّج جيلاً من المنافقين . . ولو كان الصديق منافقاً، لانتقلت عدوى النفاق إلى أصحابه وأصدقائه . .

ربما كان المنافق في موقع حسّاس، ربما كان في مركز اتخاذ القرار السياسي، ربما تَسَنَّم مناصب رفيعة، وتسلم زمام الأمور . . عندئذٍ لا يعلم ما تجنيه يده، أو ما يرتكب من خيانات للأمة إلا الله .

(١) ربيع الأبرار : ٦٤٧/٣ .

فمن الأحداث التاريخية التي تجلّت فيها صفة النفاق والمداهنة : قضية تعيين معاوية لولده يزيد على رأس خلافة المسلمين ، وتأميره عليهم .

فقد كان - حسبما أورد المؤرخون - متردداً بعض الشيء في إبرام هذه الصفقة ، وإنجاز هذه المهمة . . كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى . . بسبب وجود أصحاب الحق الشرعي ، كالحسين عليه السلام ، واستنكار الأكثرية الساحقة لتعيين يزيد . . وبسبب علم معاوية بعدم كفاءة ولده لهذا الأمر الجليل ، وعدم لياقته لمثل هذه المسؤولية الصعبة .

ولكن الشيء الذي شجّعه على ذلك ، وهياًه نفسياً لتحقيق هذا الغرض الخائن ، مداهنة المنافقين ، وأصحاب النفوس الوقحة ، من أرباب المصالح المادية . . هؤلاء هم الذين زيّنوا له سوء عمله فرآه حسناً . .

قال أحدهم لمعاوية ، حين عقد ليزيد : إعلم أنك لو لم تولّ أمور المسلمين هذا - يعني يزيد - لأضعتها !! والأحنف بن قيس جالس يستمع ويشاهد هذه المداهنة الخبيثة ، ولكنه فضل السكوت .

فقال معاوية مخاطباً للأحنف : يا أبا بحر ما لك لا تقول ؟

قال الأحنف : أخاف الله إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت !

فقال معاوية : جزاك الله عن الطاعة خيراً ، فما تقول في بيعة يزيد؟

قال : أنت أعلم بليله ونهاره ، فلا تلقمه الدنيا وأنت منتقل إلى الآخرة .

فلما خرج الأحنف التقى الرجل ، فسأله عن سبب مداهنته لمعاوية ، وهو يعلم ما في هذه المسألة من خطورة على الأمة .

فقال : إني لأعلم أن شرّاً من خلق الله ، هذا وابنه ، ولكنه قد استوثق من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع في استخراجها إلا بما سمعت !! .

فقال له الأحنف : أمسك يا هذا . . فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون

عند الله وجيهاً^(١) .

وهكذا المنافق . . يعطيه من لسانه ، ويمنعه ما في قلبه .

يقول الخباز البلدي ، محمد بن أحمد بن حمدان :

ولعنة الله على كل من له لسانان ووجهان .

وفقد الحسن البصري بعض من كان يختلف إليه ، فسأل عنه ، ف قيل :
استقصاه الحجاج .

فقال : أعوذ بالله من خشوع النفاق ، من الناس من يتصنع للدنيا ،
ويكمن لفرصته منها ، كما يكمن الأسد لفريسته ، فإذا تمكن منها وثب عليها ،
يوشك أن يثب الله عليه وثبةً يصطلم بها دنياء وآخرته فلم تضر أيام حتى
مات^(٢) .

ومرة أخرى نعود إلى رحاب القرآن الكريم ، لتأمل الرؤية التي يكونها
عن النفاق والمنافقين ، من خلال الآيات الكريمة . .

فالواضح جداً ، أن القرآن الكريم ، يتخذ موقفاً صلباً ، ومتشديداً مع
أصحاب هذه النفسيات السقيمة . . فقد عانى نبي الإسلام من "منافقين
كثيراً . . وعاصرهم وعایشهم . . وقد شكل المنافقون على عهد رسول
الله ﷺ ، أشد الجبهات في وجه الإسلام ، ليصدّوا عن الحق ، ويعرقلوا
مسيرة الدين ، وينفروا الناس عن الرسول ﷺ ، وكانت المحنة الكبرى
تكمن في كونهم مع الرسول في حلّه وترحاله ، في سفره وحضره ، في بيته
ومسجده . . .

يقول القرآن الكريم :

﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على
النفاق لا تعلمهم . . .﴾^(٣) .

ويقول :

(١) - (٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ٦٤٣/٣ .

(٣) ، سورة التوبة ؛ الآية : ١٠١ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾^(١) .

فكم من مؤامرات حيكّت للإطاحة بهذا الدين، والقضاء على سيد المرسلين، كان المنافقون وراءها (يورون وقذتها ويهيجون جمرتها، يسرون حسواً بارتغاء، ويمشون لأهله وأسرته بالخمر والضراء)^(٢) .

كانوا يتحينون الفرص لتثييط العزائم، وتفريق الناس عن النبي ﷺ، بشتى الوسائل.. فإذا ما أصابت المسلمين انتكاسة في حرب، أو أَلَمَت بهم شدة عمل هؤلاء على بثّ الخوف، ونشر الذعر، وبعث روح التفرقة في نفوس المسلمين..

يقول تعالى عن يوم الأحزاب، حين دهمهم المشركون، وأحاطوا بهم، واستولى الخوف والرعب على قلوب المسلمين، وزلزلوا زلزالاً شديداً.. يقول تعالى عنهم :

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٣) .

هكذا، وبكل جرأة يكذبون الله والرسول.. ويعملون على بثّ الإشاعة المغرضة، والأقاويل الباطلة، لزعزعة إيمان الناس، وثني نفوسهم عن الميل للدين الحنيف، وتقويض عزائمهم عن نصره الحق .

ولكن الله عزّ وجلّ، لا يدعهم وشأنهم، يفعلون ما يحلو لهم، ويعيشون في الأرض فساداً وخراباً، وإضلالاً وإغواءً للناس.. بل يقف لهم بالمرصاد، ويردّ كيدهم إلى نحورهم، ويكفي المؤمن شرّهم.. قال تعالى :

﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

(١) سورة النساء ؛ الآية : ١٦١ .

(٢) من خطبة فاطمة الزهراء عليها الصّلاة والسّلام .

(٣) سورة الأحزاب ؛ الآية : ١٢ .

وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صُمُّ بُكُمْ عُمِّي فهم لا يرجعون ﴿١﴾ .

يشبه الله عملهم هذا بنار مؤقتة، يؤججونها، ويستوقدونها ليستضيئوا بنورها بعض الوقت، في ظلمات الحياة.. لأنهم يحققون بالنفاق بعض المكتسبات الآنية المؤقتة، دون النظر إلى الأبعاد السيئة التي تنجم عن سلوكهم الأهوج .

إنهم يحاولون إيجاد السبل لتحقيق مآربهم في الحياة الدنيا، ويقنعون بالقليل التافه الحرام، وبأساليب الكذب واللف والدوران والاحتيال، ظناً منهم أنهم يحققون الشيء الكثير.. ولكن هيهات..

مثلهم مثل من يوقد ناراً ليستضيء بها وتنير له ما حوله، وليصل بها إلى هدفه الدنيء، فيرسل الله عليها ريحاً فيخمد لهبها، ويطفىء نورها، ويعود إلى الظلمات التي كان فيها وأكثر.. خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين .

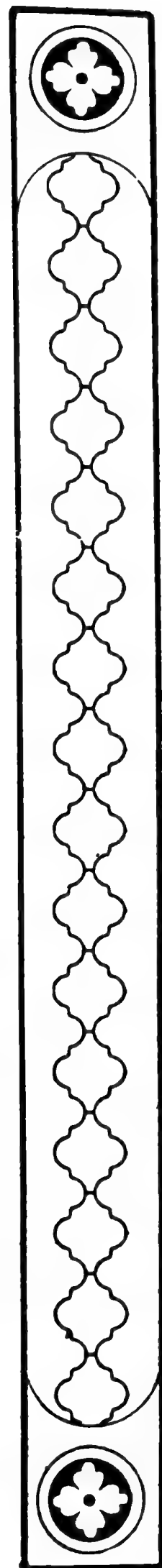
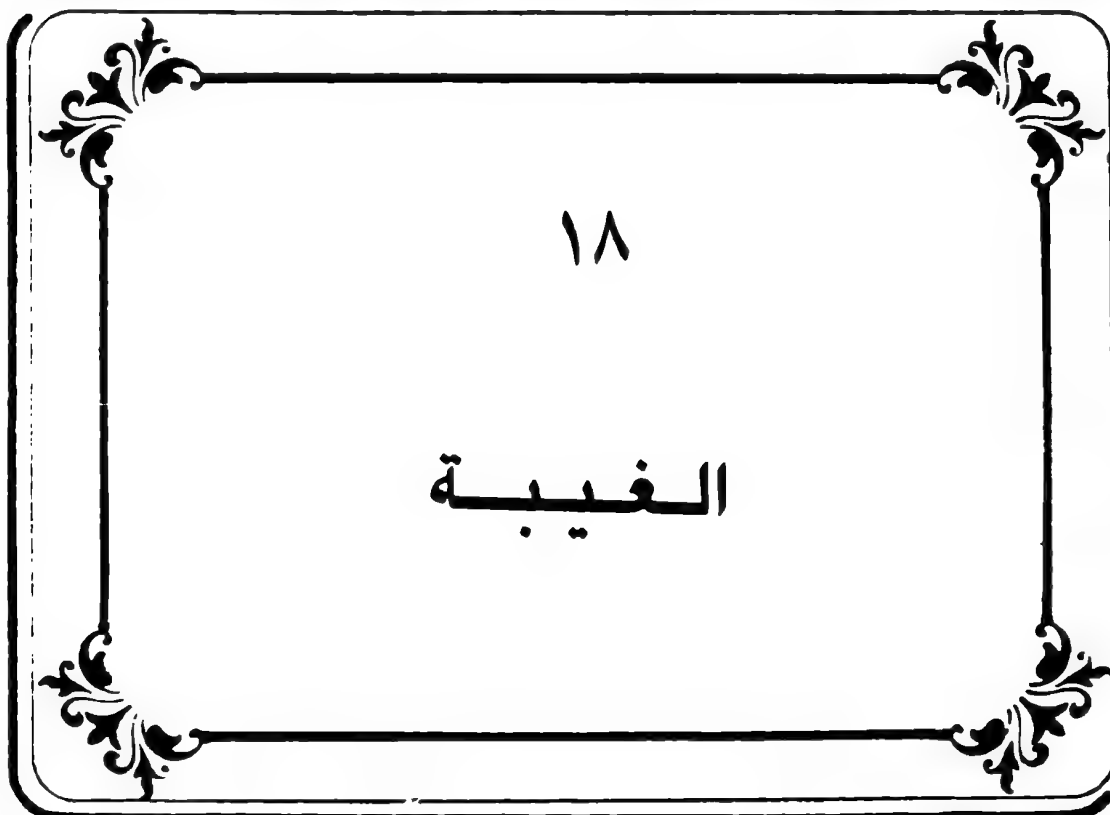
﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ ﴿٢﴾ .

إن آيات القرآن تزخر بذكر المنافقين، وذم حالهم، وانتقادهم أيما انتقاد وتوجيه اللوم إليهم بكل أسلوب.. فهم أساس المشاكل التي كانت تواجه الإسلام ونبي الإسلام، منذ صدر الإسلام، وحتى يوم الناس هذا .

أنزل الله تعالى سورة كاملة (سورة المنافقين) يتلوها أبناء الإسلام، آناء الليل وأطراف النهار، منذ نزولها وحتى يومنا هذا، لئلا يغيب عن بالهم خطر هؤلاء المنافقين، وحتى لا يغفل عنهم المسلمون أبداً، ويكونوا منهم على حذر .

(١) سورة البقرة ؛ الآيتان : ١٧ - ١٨ .

(٢) سورة النساء ؛ الآية : ١٤٢ .



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(١) .

في مجتمعاتنا لا يكاد يجتمع إثنان أو أكثر، إلاَّ ويبدأ مسلسل التنقيص والتجريح، وانتقاد الآخرين بأسلوب مشين، وهذا (الطعن من خلف) لا يقتصر على العدو بل يشمل الصديق، والقريب، والمحاييد ..

لا يقف هذا الأسلوب عند حدود المتخاصمين، بل يتعداهم إلى غيرهم من الأصدقاء والأحباء .. والعجيب في الأمر، أن الجميع يرفض هذا الأسلوب نظرياً، ولكن الجميع يمارسه عملياً .. والمستثنى قليل .

إن هذه الظاهرة يسميها الإسلام (الغيبة) ولم يترك الناس فيها على هواهم بل عالجها معالجة تناسب وخطورتها البالغة الأهمية؟ .

ولكننا لا نرى أية إشارة أو تلميح لها في علم النفس الحديث، لا من قريب ولا من بعيد قياساً إلى عنايته واهتمامه بشتى أنماط السلوك المَرَضِي النفسي في المجتمعات ..

بينما حذر الشرع منها تحذيراً بالغاً شديداً، ونَبَّه على أنها توغر

(١) سورة الحجرات ؛ الآية : ١٢ .

الصدور، وتورث العداوات وتسبب في انحلال العلائق الإنسانية، وأواصر المحبة.. . وأنها أقبح الموبقات على الإطلاق وصورها بشكل تتقزز منه النفس، كما مرَّ في الآية الكريمة، ﴿... أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ؟ .

هذا التصوير التعبيري الفني يفصح بشكل واضح عن خطورة (الاغتياب) فاللحم الميت متن كريحه بشع تتقزز منه النفس وتشمئز، وتتكور ثلاث حواس على تضخيم النفور منه ، فمن حاسة البصر، لا يقوى الفرد على رؤية بشاعة لحم الميت ، ومن حاسة الذوق فالمذاق يرفض طعمه، ويعجز عن تصوّره، ومن حيث حاسة الشم، فإن رائحته المنتنة تزكم الأنوف ..

في هذه الصورة القرآنية يتبين مدى تفاقم الخطر الناجم عن ممارسة الغيبة .

ما معنى الغيبة ؟

يحدد الشرع دلالة الغيبة وفقاً للتعاريف المتعددة التالية^(١) :

١ - أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه .

٢ - ذكرك أخاك بما يكره .

٣ - وقال عليه السلام : حدّ الغيبة أن يقول ما هو فيه، فإن قلت ما ليس فيه فذاك بهتان له^(٢)

٤ - وبهذا المعنى ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «إذا قلت في الرجل ما فيه فقد اغتبته، وإذا قلت ما ليس فيه فقد بهّته»^(٣) .

ولا يكفي الشرع بإلقاء اللوم على ممارس الغيبة، بل يتعداه إلى مستمع الغيبة أيضاً، بصفته يقوم بتشجيع من يجرح الناس بالغيبة، وبصفته

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي .

(٢) الإرشاد : ١١٧/١ .

(٣) العقد الفريد : ١٧١/٢ .

مشارك في تحقيق هذه الإرادة العدوانية القبيحة، فالشرع يطالب المستمع بكلمة دفاعية مадحة، بدلاً من الصمت والاستماع قال رسول الله ﷺ :
«من اغتیبَ عنده أخوه المسلم فاستطاع أن ينصره فنصره، فنصره، نصره الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومن خذله، خذله الله تعالى في الدنيا والآخرة» (١).

وقال ﷺ :

«ما عمر مجلس بالغيبة إلا خرب من الدين، فنزهوا أسماعكم من استماع الغيبة، فإن القائل والمستمع لها شريكان في الإثم» (٢).

ومن الواضح أن الذي يغتاب الناس، يتوقع من الآخرين مشاطرته في سواته.. أو على الأقل صمتهم حيال عمله القبيح، والمشاطرة والصمت على الغيبة، كلاهما دليل على وجود مشاعر الحقد والكراهية في النفس المريضة، وبعبارة أخرى: إن المستمع المشاطر مريض، والمستمع الصامت مريض هو الآخر.

قال رسول الله ﷺ لأبي ذر الغفاري رضوان الله عليه :

«يا أبا ذر: من ذبَّ عن أخيه المؤمن الغيبة كان حقاً على الله أن يعتقه من النار، يا أبا ذر: من اغتیب عنده أخوه المؤمن وهو يستطيع نصره فنصره، نصره الله عز وجل في الدنيا والآخرة، وإن خذله وهو يستطيع نصره، خذله الله في الدنيا والآخرة» (٣).

ونصرة أخيه تتمثل في الدفاع عنه، والوقوف بصفه، في مجابهة هذا العدوان الكلامي والتجريح.

ولو أردت أن تعرف السبب في التشديد على الدفاع عن الشخص الذي وقع عرضة للانتهاك والاعتياب، فاجعل نفسك مكانه.. فلو كنت أنت الذي اغتابوك، وذكروك بما لا ترضى.. ما الذي كان يحدث في نفسك؟ .

(١) (٢) جامع الأخبار للسيزواري : ٤١٢ .

(٣) الإرشاد : ١١٧/١ .

لا شك أن مشاعر الحقد والعداء، وحب الانتقام، كانت تغلي في نفسك تجاه من ذكرك وتجاه من سمع ذلك ولم يدافع عنك.. فسوف تكرههم جميعاً.. وتودّ لو أنك تكون قادراً فتنقم منهم جميعاً.. وبهذه الطريقة تتمكن العداوات والأحقاد من النفوس.. وهذا ما لا يرتضيه الإسلام، ويحول دون وقوعه بشدة.

هذا ويضاف إلى ذلك، أن الكرامة الإنسانية التي قررها الإسلام لبني آدم، سوف تُنتهك - لا شك - بالإغتياب، ومعلوم أن الشرع الحنيف يرفض ذلك، ويريد لهذه الكرامة أن تكون مصانةً محفوظةً، وأن لا تُمسّ بأي شكل من الأشكال.

قال عليه السلام: «الحاضر للغيبة ولم ينكرها، شريك فيها، ومن أنكرها كان مغفوراً له»^(١).

وليس مرتكب الغيبة، وحده الذي يودّ أن يشاركه الناس في قبيح فعله، بل كل الخطائين كذلك، فالظالم يحب أن يشرك الآخرين في ظلمه، والفاسق يودّ لو أن كل الناس يفسقون.. وعون الظلمة، يودّ لو أن كل الناس مثله، وهكذا...

والغيبة من الأمراض النفسية المُعدية، التي تتفشى سريعاً، لو لم يتخذ الإنسان أسباب الوقاية منها، المتمثلة في الدفاع عن الذي صار هدفاً لتمزيق لحمه، والذب عنه والانتصار له.

يقول عليه السلام : «من ردّ عن أخيه غيبةً سمعها في مجلس، ردّ الله عنه ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة، فإن لم يردّ عنه، وأعجبه، كان عليه كوزر من اغتاب»^(٢).

وفي تفسير القمي، عن الصادق عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ:
«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس في مجلس يُسب فيه إمام، أو يُغتاب فيه مسلم، إن الله يقول في كتابه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي

(١) - (٢) الإرشاد : ١١٧/١ .

آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره ﴿...﴾ (١) .

وفي أمالي الصدوق : عن الصادق عليه السلام : « لا تغتب فتغتب ، ولا تحفر لأخيك حفرة فتقع فيها فإنك كما تدين تُدان » (٢) .

والغيبة تحبط الأعمال الحسنة ، وتأتي عليها ، فلا تُبقي منها شيئاً ، كما نص على ذلك الخبر التالي ، فقد روي عن سعيد بن جبير ، عن النبي ﷺ ، أنه قال :

«يؤتى بالرجل يوم القيامة ، يوقف بين يدي الله ، ويُدفع إليه كتابه فلا يرى حسناته فيقول : إلهي ، ليس هذا كتابي ، فإني لا أرى فيه طاعتي ، فيقال له : إن ربك لا يضل ولا ينسى ، ذهب عملك باغتيابك الناس » .

ثم يؤتى بآخر ، ويُدفع إليه كتابه ، فيرى فيه طاعات كثيرة ، فيقول : إلهي ، ما هذا كتابي ، فإني ما عملت هذه الطاعات ! فيقال : لأن فلاناً اغتابك ، فدفعت حسناته إليك » (٣) .

وقال عليه السلام : « لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا يفتب بعضكم بعضاً وكونوا عباد الله إخواناً » (٤) .

وقال عليه السلام : « مررت ليلة أُسري بي إلى السماء ، على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم فسألت جبرائيل عليه السلام عنهم ، فقال : هؤلاء الذين يفتابون الناس » (٥) .

وقال عليه السلام أيضاً : « ... وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد السِّتِّهم ؟ » (٦) .

ووقفه أخرى مع القرآن :

إنه يحذر أشد الحذر من الغيبة ، فيقول عز من قائل : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (٧) .

(١) - (٢) سفينة البحار للمحدث القمي : حرف الغين ج ٦ / ٧٠٧ .

(٣) جامع الأخبار للسبزواري : ٤١٢ .

(٤) - (٦) الإرشاد : ١١٦ / ١ .

(٧) سورة الهمزة .

وقد ورد في تفسيرها: إن الهمزة الطعن في الناس، واللمزة أكل لحومهم .

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَاْفٍ مَّهِينٍ، هَمَازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾^(١) .

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مِنْ ظُلْمٍ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾^(٢) .

فالغيبة في مفهوم القرآن سوء القول، ولا يحبه الله، ويمنع من انتشاره بين الناس ولا يستثنى من ذلك إلا بعض الموارد التي ذكرها الفقهاء .

الاستثناء من الغيبة :

ذكرنا في تعريف الغيبة: إنها ذكر الناس بما يكرهون، وبما سترهم الله عليه.. وقد ورد عن شيخنا البهائي قدس سره في (الأربعين) قوله: إنها (التنبيه حال غيبة الإنسان المعين، أو بحكمه على ما يكره نسبته إليه، مما هو حاصل فيه، ويُعدّ نقصاً بحسب العرف قولاً أو إشارة أو كتابة، تعريضاً أو تصريحاً)^(٣) .

ولكن ليس كل ما يقوله المرء عن الغير، داخل في حد الغيبة، إذ قد يقول قولاً لا يعتبره الشرع ولا العرف غيبة.. وقد استثنى الفقهاء من الغيبة موارد عشرة، وهي :

- ١ - لو كان المتكلم في حال الشهادة بين يدي القضاء .
- ٢ - أو في مقام النهي عن المنكر .
- ٣ - أو في حال شكاية وتظلم من حيف أو جور أصابه وما شاكل ذلك .
- ٤ - أو كان في مقام النصح للمستشير .
- ٥ - أو في مقام جرح شاهد معين اقتضته الظروف الشرعية .
- ٦ - وكذلك الراوي للأخبار .

(١) سورة القلم ؛ الآيتان : ١٠ - ١١ .

(٢) سورة النور ؛ الآية : ٢٤ .

(٣) سفينة البحار للقمي : حرف الغين : ٧٠٥/٦ .

٧- أو في مقام تفضيل العلماء، أو أهل الصناعات بعضهم على بعض .

٨- أو غيبة الفاسق المتظاهر بالفسق، الغير مستنكف من فسقه .

٩- وذكر المشتهر بصفة مميزة له، كالأعور، والأعمش، والأعرج، والطويل . . وما إلى ذلك من الصفات التي يُشتهر بها البعض، أو تكون لقباً لهم، شريطة أن لا تذكر هذه الصفات بقصد الإحتقار والذم والإهانة .

١٠- وأخيراً التنبيه على الخطأ في المسائل العلمية ونحوها، بقصد عدم اتباع أحد فيها .

ولا تخلو هذه الموارد من تعليقات علمية، وأقوال للفقهاء . . وربما استثنوا من الغيبة طوائف معينة . . واقتصروا على حرمتها على طائفة دون طائفة . . يمكن مراجعة ذلك في مظانها في كتب الفقه المعروفة .

ويراعى في تخصيص الغيبة بمواضع معينة، الاعتبار، وتوافق مدلول الأخبار، كقوله عليه السلام : «ليس لفاسق غيبة» وقول الصادق عليه السلام : «إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة» .

وقال الشهيد الثاني رحمه الله : ولا فرق بين غيبة الصغير والكبير، والحي والميت، والذكر والأنثى، وليكن الاستغفار والدعاء له على حسبما يليق بحاله، فيدعو للصغير بالهداية، وللميت بالرحمة والمغفرة ونحو ذلك^(١) .

ويشير الشهيد الثاني رحمه الله، بقوله : (وليكن الاستغفار . . .) إلى ما ورد عن الرسول عليه السلام أنه سئل عن كفارة الاغتيال، فقال : «تستغفر لمن اغتبه كلما ذكرته»^(٢) .

وهل تجوز غيبة من يبيع اغتيابه، ويرضى بذلك ؟

يقول الشهيد الثاني رحمه الله : ولا يسقط الحق بإباحة الإنسان عرضه للناس، لأنه عفو عما لم يجب . . وقد صرح الفقهاء بأن من أباح قذف نفسه، لم يسقط حقه من حده، وما روي عن النبي عليه السلام : «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم، كان إذا خرج من بيته قال: اللَّهُمَّ إني تصدقت

(١) - (٢) سفينة البحار للمحدث القمي ج ٦ حرف الغين ص ٧٠٧ .

بعرضي على الناس» معناه أنني لا أطلب مظلمة في القيامة، ولا أخاصم عليها، لا أن غيبتها صارت بذلك حلالاً^(١).

وطبيعي أن الذي يخوض في ذكر معائب الناس، ويهتك حرمتهم بالغيبة، يكون ذا شخصية مهزوزة ضعيفة، يرى في نفسه معائب كثيرة، ويعاني من نقائص متعددة، فيحاول سدّ هذه العيوب والنقائص بذكر عيوب الناس وأكل لحومهم بالغيبة ..

عاب رجل رجلاً عند بعض الأشراف، فقال له: قد استدلت على كثرة عيوبك بما تكثر من عيوب الناس، لأن طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها. . . أما سمعت قول الشاعر:

لا تهتك من مساوي الناس ما ستروا فيهلك الله ستراً من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا . . . ولا تعب أحداً منهم بما فيكا^(٢)
وقال آخر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
ابدأ بنفسك فإنّ هها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم^(٣)

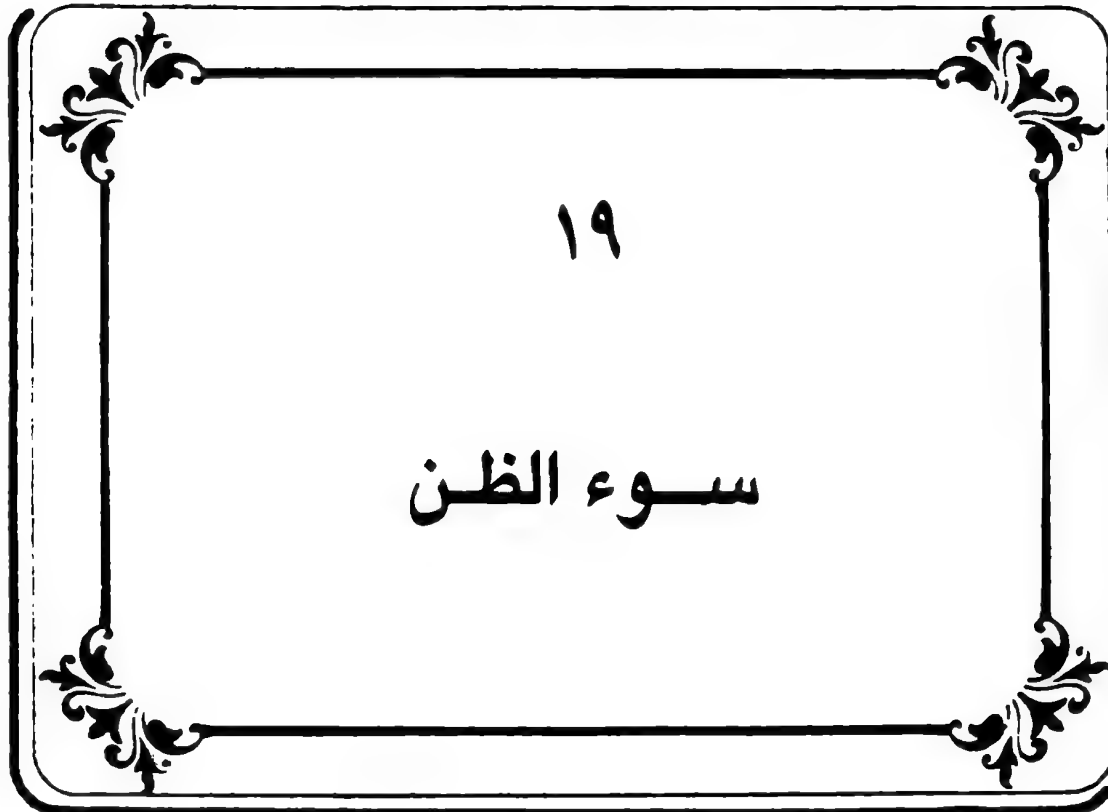
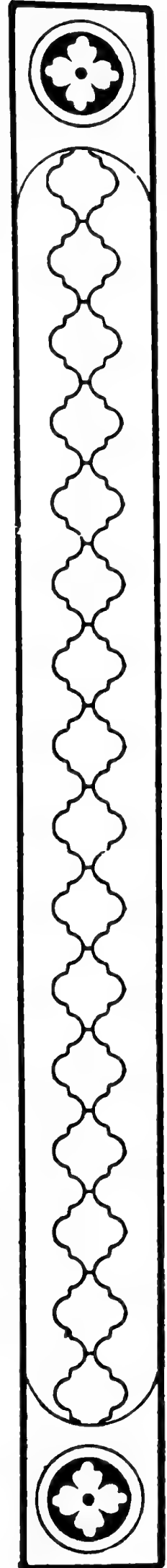
بقي أن نذكر، أن آية ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ نزلت في رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، اغتابا رفيقهما سلمان الفارسي رضوان الله عليه. . . بعثاه إلى رسول الله ﷺ ليأتي لهما بطعام، فبعثه رسول الله ﷺ إلى أسامة بن زيد، وكان خازن رسول الله ﷺ على رحله، فقال أسامة: ما عندي شيء، فعاد إليهما صفر اليدين. . . فقالا: بخل أسامة! وقالوا عن سلمان: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها!

ثم انطلقا يتجسسان عند أسامة ما أمر لهما به الرسول ﷺ. . . فقال لهما رسول الله ﷺ: «ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما» قالوا: يا رسول الله، ما تناولنا يومنا هذا لحماً، قال: «ظلمتم تأكلون لحم سلمان وأسامة» فنزلت الآية^(٤).

(١) سفينة البحار للمحدث القمي ج ٦ حرف الغين ص ٧٠٧.

(٢) - (٣) العقد الفريد: ١٧٢/٢، طبع بيروت دار إحياء التراث العربي.

(٤) تفسير مجمع البيان: سورة الحجرات وقد ذكرهما المجلسي باسميهما في (البحار).



وهو أيضاً مما تمليه النفس الأمارة بالسوء، ومن الخلق السيء الذي يجعل حياة الإنسان قائمة على الأوهام والشكوك، وتنبعث هذه الحالة من نفوس عدوانية.. تعترىها الوسوس، ويتحكم فيها التريب في حق الآخرين، فالذي تدعن نفسه للأفكار الفاسدة، والظنون السيئة، لا بد وأن تكون نفسه عدوانية، مريضة، ترفض السلامة والاستقامة .

ويجدر بنا أن نعبر عن سوء الظن (بالغيبة المستترة) لأن المبتلى بسوء الظن ينهش لحوم الآخرين في داخله.. فيحقد ويغضب.. وربما يخطط للانتقام والإساءة.. وكل ذلك من الإثم الذي لا يغفر..

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾^(١) .

ينهى الله عز وجل عن كثير من الظنون، لأن البعض منها إثم.. تشحن الصدور بالبغضاء، والعداوة، والحقد، والكراهية .

ومجتمعاتنا ملأى بمثل هذه الحالة المؤسفة، فالبعض ربما أنهى صداقته، أو قطع رَحِمَهُ، أو تملكه الغضب الشديد، بسبب وهم اعتري نفسه، أو ظن فاسد بهذا وذاك، وكم من فجائع وجرائم تحصل هنا وهناك لهذا السبب .

(١) سورة الحجرات ؛ الآية : ١٢ .

قد لا يملك الإنسان اختياراً لدفع الظنون عن نفسه، ولكن بإمكانه أن لا يُنشئ أحكاماً على هذه الظنون.. في مقدوره أن لا يرتب آثاراً سلبية على وساوسه وظنونه .

من هنا صرّح الرسول الأعظم عليه السلام ، بقوله : «... فإذا ظننتم فلا تحققوا»^(١) .

بإمكان المرء أن لا يترجم ما في النفس إلى عمل خارجي، فيصيب به الآخرين، عليه أن لا يتبع أوامر النفس.. فالنفس أمانة بالسوء، وينبغي أن يكون زمامها في يد الإنسان يقودها حسب ما يمليه العقل ويفرضه الشرع.. ولا يدع مجالاً للشيطان ليبضّ ويفرّخ في صدره...

قال علي أمير المؤمنين عليه الصلاة وعليه السلام :

«اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتخذهم له أشراكاً، فباض وفرّخ في صدورهم، ودَرَجَ في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل...»^(٢) .

ومن جهة أخرى يجدر بالمؤمن، أن لا يدع مجالاً لتشكيك الآخرين فيه، وسوء ظنهم به، فعليه أن يدفع عن نفسه موارد الشبهة، ويتجنب مواطن الشكوك والظنّة، لأنّ التعاليم الإسلامية، والنصوص الشرعية، في الوقت الذي تنهى عن التشكيك في الآخرين وإساءة الظن بهم في الوقت ذاته، تنهى أن يجعل المرء نفسه هدفاً لظنون الناس، وعرضة لشكوكهم أيضاً فقد يُسهم البعض في توجيه التهمة إلى نفسه، بسبب بعض التصرفات الغير سليمة، والغير لائقة كمن يجالس الفسقة مثلاً، أو لا يتأبى الحضور في مواطن الإتهام.. مما يجعله عرضة لسوء الظن والشبهة..

ورد في الحديث : «رحم الله امرأً جبّ الغيبة عن نفسه»^(٣) .

وورد أيضاً : «اتقوا مواقع التهم»^(٤) .

(١) ربيع الأبرار : ٤٣٧/٣ .

(٢) نهج البلاغة، الخطبة : ٨ .

(٣) - (٤) جامع السعادات : ٢٨٢/١ .

وفي هذا الصدد ينقل عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ، قال :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفاً في المسجد ، فأتته زوجته صفية بنت حيي بن
أخطب ، فحدثته ، فلما انصرفت ، قام صلى الله عليه وسلم يمشي معها . . فمرُّ به رجلان
من الأنصار ، فسَلَّما عليه ثم مضيا ، فدعاهما فقال : إن هذه صفية بنت
حيي . . قالوا : يا رسول الله ، وهل نظنُّ بك إلا خيراً؟

قال صلى الله عليه وسلم : فإن الشيطان يجري من ابن آدم . . . وقد خشيتُ
عليكما (١) .

إن الإسلام يراعي الحالات النفسية لدى الجميع . . من جهة يأمر هذا
أن يتقي مواقع التهم ويبعد عن نفسه الظنون والشبهات . . ومن جهة أخرى
ينهى ذاك عن سوء الظن ، والغيبة المستترة . . ويأمره أن يحاول الخروج
بتفسير حسن لأعمال وتصرفات الآخرين ، ويبرِّر لهم ما حَسِبَهُ قبحاً وسوءاً
وغلطاً في سلوكهم . . . وأن لا يسرع باتهام الناس ، والحمل على المحمل
السَّيِّء قال أمير المؤمنين عليه السلام : «ضع أمر أخيك على أحسنه ، حتى يأتيك ما
يغلبك منه ولا تَظُنَّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً ، وأنت تجد لها في الخير
محملاً» (٢) .

ونتائج سوء الظن كثيرة . . فمنها ما يبعث المرء على الغيبة ، ومنها ما
تحمله على احتقار الآخرين ، أو التواني في أداء حقوق الإخوان . . . وربما
سلك به سوء الظن إلى مهاوي الحقد والبغضاء والشحناء . . وهي كلها تنمُّ
عن خبث الباطن ، وتلوث النفس من هنا جاء النهي من الشارع مشدداً ،
منصوصاً عليه في الكتاب العزيز ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وروايات أهل
البيت عليهم الصَّلَاة والسَّلَام ، وقد سبق ذكرها .

سوء الظن بالله :

ثمة نوعان من سوء الظن ، نوع يستهدف المخلوقين . . . وقد اسلفنا
الحديث عنه . ونوع آخر يستهدف الخالق عزَّ شأنه .

(١) ربيع الأبرار : ٣٩٠/١ .

(٢) جامع السعادات : ٢٨٠/١ .

قال تعالى : ﴿ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾^(١) .

وقال : ﴿وظننتم ظنَّ السوء وكنتم قوماً بوراً﴾^(٢) .

وهو من لوازم صغر النفس ، وتفاهتها ، وينهى الله عز وجل عن ذلك في موارد عديدة من كتابه العزيز ، منها قوله تعالى :

﴿ولا تيأسوا من روح الله أنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾^(٣) .

فاليأس لا يأتي إلا من سوء الظن بالله تعالى . . . بل هو عين سوء الظن . . . وليس بعيداً أن يكون سوء الظن بالله تعالى ، أعظم واشد من سوء الظن بالناس ، إذ إن الأول تشكيك في أصول الإيمان ، وضعف في الدين والعقيدة .

قال رسول الله ﷺ لحبة وسواء ، إبني خالد :

«لا تيأس من روح الله ما تهزهزت رؤوسكما ، فإن أحدكم يولد أحمر لا قشر عليه ثم يكسوه الله ويرزقه»^(٤) .

قالا دخلنا على النبي ﷺ ، وهو يعالج بناءً فقال لهما : هلمَّا فعالجا ، فلما أن فرغا أمر لهما بشيء ثم قال لهما : «لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما ، فإنه ليس من مولود يولد من أمه ، إلا أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله عز وجل»^(٥) .

قال شاعر :

ولا تجزع إذا أعسرت يوماً فقد أيسرت في زمنٍ طويلٍ

(١) سورة فصلت ؛ الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الفتح ؛ الآية : ١٢ .

(٣) سورة يوسف ؛ الآية : ٨٧ .

(٤) ربيع الأبرار : ٣٦٩/٤ .

(٥) أسد الغابة : ٣٦٨/١ .

ولا تظنن بربك ظناً سوءاً فإن الله أولى بالجميل
وإن العسرَ يتبعه يسارٌ وقول الله صدق كل قيل
فلو أن العقول تسوقُ رزقاً لكان المالُ عند ذوي العقول

سوء الظن بالله يعني، خوف الضيعة، وانقطاع الرزق، وبحسب المرء أنه هان على الله عز وجل... فلا تُقبلُ توبته... وأن الله غضب عليه فلا يرزقه رزقاً حسناً... ولا يدفع عنه السوء... ويصح أن نسمي سوء الظن بالله، يأساً، وانقطاع أمل، وبهذا المعنى وردت أخبار كثيرة، نذكر بعضها :

ورد في بعض الكتب القديمة : يقول الله تعالى : يا بن آدم، أتخاف أن أقتلك بطاعتي هزلاً وأنت تتفق بمعصيتي سِماً^(١) ؟ .

ونقل عن بعضهم : انقطعتم إلى غير الله فما ضيِّعكم، فإن انقطعتم إلى الله خِفتم الضيعة^(٢) ؟ .

ونقل أيضاً : يا بن آدم، الطير لا يأكل رغداً، ولا يخبيء لغدٍ، وأنت تأكل رغداً، وتخبيء لغدٍ، فأحسنت الطيرُ الظنَّ بالله، وأسأت ظنك بالله ! .

وروي عن لقمان الحكيم : يا بني اجعل همَّك فيما خلقتَ له، ولا تجعل همَّك فيما كفيته^(٣) .

وفي وصية لأمير المؤمنين عليه السلام، لولده الحسن المجتبي عليه السلام :

«يا بني وألجئُ أمورك كلها إلى إلهك، فأنت تلجئها إلى كهف حريز، ومانع عزيز... واعلم علماً يقيناً، أنك لن تبلغ أملك، ولن تعدو أجلك، فإنك في سبيل من كان قبلك، فأحسن في الطلب، وأجمل في المكتسب، فإنه رُبَّ طَلَبٍ جرَّ إلى حرب، وليس كل طالب بمرزوق، ولا كل مجملٍ بمحروم...»^(٤) .

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال : وجدنا في كتاب علي بن أبي طالب عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال وهو على منبره : والله الذي لا إله

(١) (٣) ربيع الأبرار : ٣٧٦/٤ .

(٤) نهج البلاغة .

إلّا هو، ما أُعطيَ مؤمن خير الدنيا والآخرة، إلّا بحسن ظنه بالله، ورجائه، وحسن خلقه، والكف عن اغتياب المؤمنين. والله الذي لا إله إلّا هو، لا يحسن ظنّ عبدٍ مؤمنٍ بالله، إلّا كان الله عند ظنّ عبده المؤمن به، لأن الله كريم، بيده الخيرات. . يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن الظنّ والرجاء ثم يخلف ظنّه ورجاءه له، فأحسنوا بالله الظنّ، وارغبوا إليه (١).

وقال عليه السلام : «ليس من عبدٍ ظنّ به خيراً، إلّا كان عند ظنّه به، ولا ظنّ سوءً إلّا كان عند ظنّه به، وذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾» (٢).

وعنه عليه السلام أيضاً، قال : قال داود النبي عليه السلام : يا رب، ما آمن بك من عرفك فلم يحسن الظنّ بك (٣).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، قال : (كان في زمن موسى عليه السلام ، رجلان في الحبس، فأخرجوا، فأما أحدهما فسَمِنَ وغُلُظ. . . وأما الآخر فنحُل، فصار مثل الهربة .

فقال موسى عليه السلام للأول : ما الذي أرى بك من حسن الحال في بدنك؟ قال : حسن ظني بالله .

وقال للآخر : ما الذي أرى منك من سوء الحال في بدنك؟ قال : الخوف من الله .

قال : فرفع موسى يده إلى الله فقال : يا رب قد سمعتَ مقالتهما، فأعلمني أيهما أفضل ؟

فأوحى الله إليه : صاحب حسن الظنّ بي (٤) .

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، قال : (إنّ آخر عبد يؤمر به إلى النار، يلتفت، فيقول الله تعالى : ردّوه، فإذا أتى به قال له : عبدي، لم

(١) الكافي : ٧١/٢ .

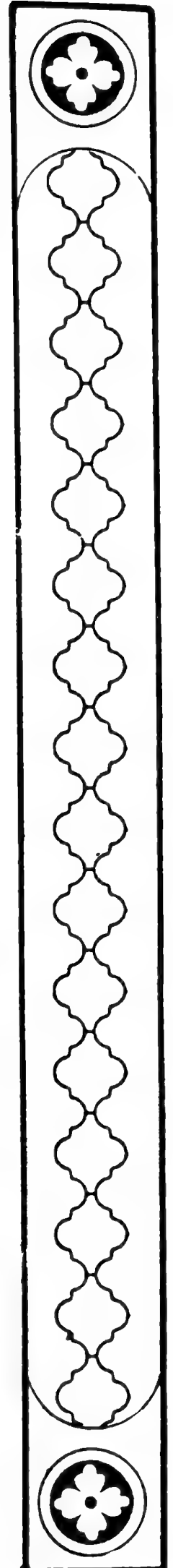
(٢) سورة فصلت ؛ الآية : ٢٣ ، ثواب الأعمال : ٢٠٦/١ .

(٣).-(٤) جامع الأخبار للسبزواري ص ٢٦٤ تحقيق مؤسسة آل البيت - قم .

التَفَتُ؟ فيقول : يا رب ما كان ظني بك هذا! فيقول الله تعالى : وما كان ظنك بي؟ فيقول : يا رب، كان ظني بك أن تغفر لي خطيئتي، وتسكنني جنتك قال: فيقول الله تعالى : ملائكتي : وعزتي وجلالي ... ما ظنَّ بي هذا ساعة من خيرٍ قط، ولو ظنَّ بي ما روعته بالنار!! أجيئوا له كِذْبُهُ، وأدخلوه الجنة .

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام : ما ظنَّ عبدُ بالله خيراً إلا كان الله تعالى عند ظنِّه به، ولا ظنَّ به سوءٌ إلا كان عند ظنِّه به، وذلك قول الله تعالى : وذلكم ظنكم الذي ظننتم ... (١) .

(١) المصدر السابق ص ٢٦٥ .



٢٠

بين النفس والروح

هل هناك فرق بين الروح والنفس؟

أم هما متحدثان في المعنى مختلفتان في اللفظ؟

قد لا نستطيع أن نصل إلى جواب قاطع بهذا الشأن، ولكن - وبمراجعة النصوص الدينية - نخرج بنتيجة : إن الروح شيء سماوي، متعلق بالله تعالى فكلما ذكره الله في القرآن الكريم، نسبه إلى نفسه، أو إلى السماء.. بينما النفس ليست كذلك.. فاللغة التي يتحدث بها عن النفس، تختلف عن التي يتحدث بها عن الروح.. وإنك لتشعر بفارق كبير بين مفهوم الروح ومفهوم النفس في القرآن الكريم.. حتى كأنك تراهما على طرفي نقيض.

يقول تعالى عن الروح : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

فالروح لا يعلم عنها إلا الله تعالى... والقليل من العلم الذي يحويه الإنسان لا يؤهله لإشباع الرغبة العارمة إلى كل المعارف والمعلومات.. والروح من المعلومات التي لا تبلغ مداها، خصوصاً بعد هذا التقرير القرآني الصريح..

وقد وردت في وصية للإمام الحسن المجتبي عليه السلام، لأخيه محمد بن

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ٨٥ .

الحنفية، عبارة تُنبئ عن الاختلاف بين الروح والنفس .

قال عليه السلام : « . . . واعلم يا محمد بن علي ، إن الحسين بن علي عليه السلام ، بعد وفاة نفسي ، ومفارقة روحي جسمي هو الإمام بعدي . . . »^(١) .

جعل الوفاة للنفس دون الروح ، ووصف الروح بأنها تفارق الجسد ، ولا تموت . . والإمام الحسن عليه السلام - وهو وريث علم أبيه وجده عليهم الصلاة والسلام - لا يمكن أن يطلق العبارة الغير مقصودة ، إنه عليه السلام يميز بين الروح والنفس . . وقد ثبت في العلوم الحديثة والقديمة ، أن الأرواح باقية خالدة ويمكن إحضارها بعد موت أصحابها ، بعشرات السنين بل ومئات السنين . . بينما النفس تموت وتنتهي كما ينتهي الجسد . . وستأتي الآيات والشواهد القرآنية على ذلك .

وقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الروح ، فقال : «الروح في الجسد كالمعنى في اللفظ» قال الصفدي : ما رأيت مثلاً أحسن من هذا^(٢) .

وقد كان للعرب مذاهب حتى في الزمن الجاهلي ، في مفهوم النفس ومفهوم الروح ، فمنهم من يدعي توافقهما في المعنى ، ومنهم من يدعي اختلافهما ، ففي كتاب المستطرف وردت بعض آرائهم عن اختلاف النفس والروح^(٣) بينما يدعي ابن أبي الحديد في شرح النهج ، أن العرب كانت لا ترى فرقاً بين الروح والنفس^(٤) فحين يأتي على شرح كلمة الإمام عليه السلام ، في وفاة الرسول ﷺ حيث قال : «وفاضت بين نحري وصدري نفسك» .

يقول الشارح : «أراد الإمام بالنفس آخر الأنفاس التي يخرجها الميت ، ولا يستطيع إدخال الهواء إلى الرئة عوضاً عنه ، ولا بد لكل ميت من نفخة تكون آخر حركاته ، ويقول قوم : إنها الروح ، وعبر عنها علي عليه السلام بالنفس ،

(١) بحار الأنوار للمجلسي : ١٧٥/٤٤ .

(٢) كشكول البهائي : ٣٦٧/٢ .

(٣) المستطرف : ١٧٧/٢ .

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٥٥٤/٣ .

لِما كانت العرب لا ترى بين الروح والنفس فرقاً»^(١) .

وبخصوص البحث في الآية الكريمة ﴿ويسألونك عن الروح﴾ نقف من خلال التفاسير على آراء متعددة عن الروح . . فثمة قول إن الروح هو ذلك الذي يسري في بني آدم، ويسبب الحياة . . ودعموا هذا القول بحكاية سبب نزول الآية، وهي أن قوماً من اليهود قالوا لقريش : اسألوا محمداً عليه السلام عن ثلاث، فإن أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي، اسألوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فسألوا رسول الله عليه السلام عن هذه الثلاثة، فقال غداً أخبركم . . .

ثم نزلت سورة الكهف، تنبئ عن أخبار أهل الكهف، وتخبر عن قصة ذي القرنين، وتبهم قصة الروح، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي . . .﴾ .

وبيّن فيها أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة ماهية الروح فقال «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً»^(٢) ولكن هذه الرواية زيفها البعض، وطعن فيها، وأوردوا أدلتهم التي تبرر التوقف فيها، وأهم ما ذكره هو أن السؤال عن الروح يقع على وجوه عديدة، والمقصود بالروح - هاهنا - لم يتحدد بعد، أهو الروح الذي يسبب الحياة، أو جبرائيل عليه السلام، أو هو غير ذلك . . ؟

فكيف لنا أن نعتبر الجواب مبهماً في الوقت الذي لم يتعين السؤال .

فربما كان السؤال عن ماهية الروح - كما وردت بذلك روايات وأقوال^(٣) - أهو جسمٌ يشغل حيزاً معيناً، أو حالٌ في متحيز؟ أو هو موجود غير متحيز، ولا حالٌ في متحيز؟ .

وربما كان السؤال عن الروح، أهو قديم أو حادث؟ أو ربما كان السؤال عن بقاء الروح بعد موت الأجسام، أو عدم بقائه؟ وربما كان السؤال عن مدى سعادة الأرواح وشقاوتها، وحقيقة ذلك بعد الموت؟ . . هذه وغيرها احتمالات

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٥٥٤/٣ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي، المجلد ٢١ - ٣٦/٢٢ .

(٣) راجع المصدر السابق، وكذلك مجمع البيان للطبرسي وكثير من كتب التفسير .

واردة في السؤال عن الروح ..

ولو افترض تحديد السؤال، يبقى أن نعرف ما هو حقيقة الجواب، أهو مُبهمٌ بالفعل كما يتصوره البعض؟ أو هو جواب واضح صريح كما يبدو في بعض التفاسير ..

وتفصيل ذلك تجده في كتب التفسير كمجمع البيان للطبرسي، والتفسير الكبير للفخر الرازي وغيرهما ضمن تفسير هذه الآية .. ونحن نذكر هنا - مجملًا - بعض ما ورد من أقوال بهذا الخصوص :

فمن الأقوال : إن السؤال في الآية الشريفة، عن ماهية الروح وحقيقته، أهو عبارة عن جسم متكون موجود في البدن، متولد من امتزاج الطبائع والأخلاط؟ أو هو عبارة عن نفس المزاج والتركيب؟ أو هو عبارة عن عرض آخر قائم بهذه الأجسام؟ أو هو عبارة عن موجود مغاير لهذه الأجسام والأعراض؟ .

فأجاب الله سبحانه وتعالى، بأنه موجود مغاير لهذه الأجسام، ولهذه الأعراض، فالروح جوهر بسيط مجرد يحدث بأمر الله تعالى وتكوينه وتأثيره ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ .

ومن الأقوال أيضاً : إن لفظ الأمر ورد في القرآن الكريم في أكثر من مورد بمعنى الفعل، كما في قوله تعالى ﴿وما أمر فرعون برشيده﴾^(١) .

وفي قوله تعالى : ﴿فلما جاء أمرنا﴾^(٢) كذلك في الآية الكريمة ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ فقد يكون معنى الأمر : الفعل، أي : من فعل ربي، ومن هذا الجواب نستنتج أن السؤال كان عن قدم الروح أو حدوثها؟ فيكون الجواب : بل هي حادثة بفعل الله تعالى، وإيجاده وتكوينه ..

ومن الأقوال : إن المراد بالروح (القرآن الكريم) لأن الله تعالى، سمى القرآن في كثير من الآيات، روحاً .. كقوله تعالى : ﴿وكذلك أوحينا إليك

(١) سورة هود ؛ الآية : ٩٧ .

(٢) سورة هود ؛ في الآيتان : ٦٦ - ٨٢ .

روحاً من أمرنا﴾^(١) .

وقوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾^(٢) واللائق بالروح في آية ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ أن يكون المقصود هو القرآن بالذات، فقد سبق الآية قوله تعالى:

﴿وَنَنْزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) كما تأخر عن الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَنذَهَبْنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(٤) .

فلما كانت الآية مسبقة بوصف القرآن، وملحوقه بوصف القرآن كذلك، كان الأجدر أن يكون المراد (بالروح) القرآن الكريم، رعاية لتناسب وتناسق الآيات.. وذلك لأن القوم استعظموا أمر القرآن فسألوا: إن كان شعراً، أو نوعاً من أنواع الكهانة؟ .

فأجابهم الله تعالى، بأنه ليس من جنس كلام البشر، وإنما هو كلام ظهر بأمر الله، ووحيه وتنزيله، فقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي أن القرآن الكريم ظهر بأمر الخالق، وليس من صنع البشر .

والمفهوم الاحتمالي الآخر لكلمة الروح المسؤول عنه في الآية: هو ملك من الملائكة، وهو أعظمهم قدراً وقوة، وهو المراد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا...﴾^(٥) .

وقد روي عن علي أمير المؤمنين عليه الصلوة والسلام، وصف دقيق لهذا الملك وعظمته...

(١) سورة الشورى؛ الآية: ٥٢ .

(٢) سورة النحل؛ الآية: ٢ .

(٣) سورة الإسراء؛ الآية: ٨٢ .

(٤) سورة الإسراء؛ الآية: ٨٨ .

(٥) سورة النبأ؛ الآية: ٣٨ .

وربما كان المقصود بالروح (جبرائيل عليه السلام) وهو ما اختاره الحسن وقتادة، والدليل عليه أن الله تعالى سَمَّى جبرائيل روحاً في قوله تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾^(١) وفي قوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾^(٢) .

وبالجملة : يمكن أن نستفيد من كل ذلك أن الروح شيء والنفس شيء آخر... وقد ذكرنا سابقاً أن النفس وصفها الله بالموت، بينما الروح لا يمكن القطع بموتها.

ومما يدل على بقاء الروح، وموت النفس، قول الرسول ﷺ في خطبة طويلة له :

«حَتَّى إِذَا حُمِلَ الْمَيِّتُ عَلَى نَعْشِهِ، رَفَرَفَ رُوحُهُ فَوْقَ النَّعْشِ، وَيَقُولُ يَا أَهْلِي، وَيَا وَلَدِي، لَا تَلْعَبْنَ بَكُمْ الدُّنْيَا كَمَا لَعَبْتُ بِي، جَمَعْتَ الْمَالَ مِنْ حِلِّهِ وَمِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، فَالْمَهْنَأُ لَغَيْرِي وَالتَّبَعَةُ عَلَيَّ فَاحْذَرُوا مَا حُلَّ بِي»^(٣) وواضح من هذا القول الصريح أن الروح تبقى حية ولا تموت، بينما النفس التي كانت تحس وتدرك ماتت، وها هو الجسد محمول على النعش لا فرق بينه وبين أي جماد... بينما روحه ترفرف عليه، وتكلم الآخرين .

ويرى الصدوق رضوان الله عليه، في رسالة العقائد: إن النفوس هي الأرواح التي بها الحياة، وإن لا فرق بين اللفظين، وإنها الخلق الأول، لقول النبي ﷺ : «أَوَّلُ مَا أَبْدَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هِيَ النَّفُوسُ الْمُقَدَّسَةُ الْمُطَهَّرَةُ، فَأَنْطَقَهَا بِتَوْحِيدِهِ، ثُمَّ خَلَقَ بَعْدَ ذَلِكَ سَائِرَ خَلْقِهِ»^(٤) ويعتقد فيها أنها خلقت للبقاء، ولم تخلق للفناء، لقول النبي ﷺ : «مَا خَلَقْتُمُ لِلْفَنَاءِ بَلْ خَلَقْتُمُ لِلْبَقَاءِ، وَإِنَّمَا تَنْقَلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ»^(٥) وأنها في الأرض غريبة وفي الأبدان مسجونة... وأنها حين تفارق الأبدان تبقى مخلدة... منها منعمة ومنها معذبة إلى أن يردها الله عز وجل بقدرته إلى أبدانها^(٦) .

(١) سورة الشعراء ؛ الآية : ١٩٣ .

(٢) سورة مريم ؛ الآية : ١٧ .

(٣) بحار الأنوار للمجلسي : ٧٧/٦١ .

(٤) (٦) بحار الأنوار : ٧٨/٦١ .

ويستشهد لتدعيم اعتقاده بآيات وأحاديث كثيرة .

ويخالفه الشيخ المفيد رضوان الله عليه في هذا الرأي . . . ويستشهد بنصوص أخرى يدعم بها رأيه ويفند قول الصدوق . . . ويفرق بين النفس والروح، ويذكر لكل منهما معاني ومفاهيم تغاير المعاني والمفاهيم التي تخص الآخر^(١) . . .

ويذكر الطبرسي نور الله ضريحه في تفسيره (مجمع البيان) مجموعة من الآراء والأقوال مما ذكره الفخر الرازي، وغيرها . . . وكذلك المجلسي رحمه الله في (بحار الأنوار) ج ٦١/٧١ يورد أقوالاً متعددة عن النفس والروح، ويعلق على هذه الأقوال جميعاً فيقول : (الا ان جوابه سبحانه وتعالى لا يليق إلا بمسألتين من المسائل التي ذكرناها، إحداهما : السؤال عن ماهية الروح، والثانية : عن قدمها وحدوثها) .

والم تأمل في كتاب الله العزيز، يخرج بالنتائج التالية عن الروح :

١ - لا يجيب القرآن الكريم عن سؤال من سأل عن كنه الروح وحقيقتها، ويترك أمرها للإبهام والمجهول، هذا على افتراض أن السؤال عن الروح التي تسري في البدن .

٢ - والروح نفحة إلهية يثبثها في الجسد ليحيا، وإنها السر الإلهي في الحياة، ورمز حركة الوجود وهي تسري في آدم وبنيه، من عند الله، تنزل نفحة إلهية، إيداناً بيبث الحياة من منبع الخلود .

﴿ . . . وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه . . . ﴾^(٢) .

﴿ . . . فإذا سويته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾^(٣) .

﴿ ونفخنا فيها من روحنا . . . ﴾^(٤) .

(١) بحار الأنوار : ٧٨/٦١ .

(٢) سورة النساء ؛ الآية : ١٧١ .

(٣) سورة الحجر ؛ الآية : ٢٩ .

(٤) سورة التحريم ؛ الآية : ١٢ .

٣ - ويسمّي القرآنُ وحيَ السماءِ روحاً، في قوله تعالى : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾^(١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾^(٢) .

٤ - ويسمى ملكاً من الملائكة روحاً... ولعله جبرائيل عليه السلام ، فيكون من أسمائه الروح^(٣) :

﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر﴾^(٤) .

ومن كل ما سبق نلاحظ التأكيد على نزول الروح من السماء، من عند الله تعالى، وتكرر كلمة الروح إنما بمفاهيم مختلفة، ومعانٍ متعددة، يجمعها جامع واحد، هو كون الروح سماوي رفيع، وفوق فهم البشر .

ويأتي في القرآن أيضاً، بمعنى الهاتف، وجند السماء، والعون، والإلهام ..

وأمر الروح يبقى سراً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلم ولن يتوصل أحدٌ أبداً، إلى ذلك السرِّ الإلهي الخالد .

وتلك هي مشيئة الله، وإرادته سبحانه وتعالى... وهو من أكبر التحديات لمن كفر وجحد وكذب وأنكر... ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ .

نعم، ربّما نستثني الأنبياء، والمرسلين، والأئمة الطاهرين المعصومين من أهل البيت، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، الذين وصفهم الله عزّ وجلّ بقوله : ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾^(٥) .

(١) سورة الشورى ؛ الآية : ٥٢ .

(٢) سورة النحل ؛ الآية : ٢ .

(٣) مجمع البيان : تفسير سورة القدر .

(٤) سورة القدر .

(٥) سورة الرعد ؛ الآية : ٤٣ .

وقد وردت التفاسير حول الآية، أنه علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام، فالنبي ﷺ والصفوة المنتجة المختارة من أهل بيته الطاهرين، ألهمهم الله تعالى علم الأولين والآخرين.. فلا يستبعد علمهم بالروح وكنهه، لأنهم مستودع علم الله تعالى، وهم الراسخون في العلم، وخزان الوحي، والمستحفظون على كتاب الله (١).

والإنسان يحيا بروح من الله عز وجل، فإذا جاء أجله انفصلت هذه الروح عن الجسد وانقطع حبل الاتصال بينه وبينها، فيموت.

تفارق الروح هذا الجسد المادي، ليعود تراباً كما كان :

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ (٢) وتفيض الروح إلى بارئها، وتندفع نورانية إلى خالقها.. فهي هبة الله وسره، فتعود إليه.

هذا كل ما نعرفه عن الروح، وليس شيء سواه.

أما النفس فشيء آخر، إنها طينية نارية (طينية الخلق، نارية الطباع) وهي التي تُنسب إليها الصفات، وتطراً عليها التحولات.. وهي تموت وتحيا، وهي تشتهي وتهوى وهي المتهمّة في القرآن.. وهي الملهمة.. وهي الأمانة بالسوء.. وهي تحب وتبغض.. وهي التي تتبع الهوى، أو تنقاد وراء الهدى.. وهي التي يمكن أن تُروّض على التقوى.. وهي التي توسوس للإنسان.. وهي وهي...

عن الوسوسة قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه..﴾ (٣).

(١) ذكر في مجمع البيان في تفسير هذه الآية، رواية عن بريد بن معاوية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، أنه قال في معنى قوله تعالى: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾: إيانا عني، وعلي عليه السلام أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي ﷺ، ويؤيد ذلك ما روي عن الشعبي أنه قال: (ما أحد أعلم بكتاب الله بعد النبي ﷺ من علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن الصالحين من أولاده...).

(٢) سورة طه؛ الآية: ٥٥.

(٣) سورة ق؛ الآية: ١٦.

وعن كونها ملهمة قال تعالى : ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾^(١) .

وعن كونها أماراة بالسوء، قال عزّ من قائل : ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾^(٢) .

وهي مخزن الأسرار : ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾^(٣) .

ويعتريها الخوف : ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾^(٤) .

وهكذا.. فهي عالم عجيب، تمثل الدافع والوازع والمانع للإنسان، وهي محطّ الشرور والآثام.. كما هي موطن لكل خير .

والجسد المادي الترابي، لا شيء سوى كونه غطاءً للنفس، وإطاراً لها، والنفس هي الأداة الفعّالة المسيطرة على الجوارح والأعضاء، وتنطلق منها كل نشاطات الإنسان، وكل أنماط سلوكه وبهذا ربما نكون قد وجدنا فارقاً بين مفهوم الروح ومفهوم النفس .

ومهما كان من أمر النفس وأمر الروح، فلا ينبغي أن يغيب عن بال الإنسان أنه موجود مكوّن من عنصرين : عنصر مادي، وآخر معنوي سماوي.. وأن العنصر المادي فيه لا تتسنى له الديمومة بدون العنصر المعنوي، وبدون الاتصال بالجانب السماوي.. وهو خير دليل على أن أزمة أمور الحياة بيد الله تعالى.. ومفتاح سعادة الإنسان أو شقائه بيده عزّ وجل.. وهو الذي يدفع السوء والبلاء، ويهون الخطب، ويغير سوء الحال.. وليس ثمة مؤثر سواه في الكون، تبارك وتعالى وأن أنفسنا مرهونة بأعمالنا.. مهما حسنت وطابت، حسنت النفوس وزالت العقد عنها واستقرت.. ومهما ساءت وخبثت، تعقدت النفوس واضطربت .

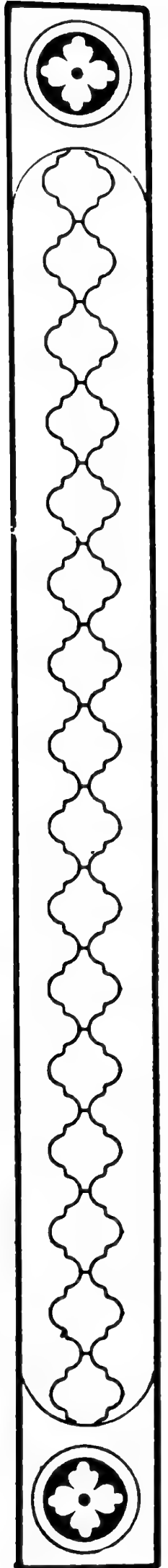
ولا طريق أسلم من طريق الله، ولا منجى إلاّ به، سبحانه وتعالى عما يشركون .

(١) سورة الشمس ؛ الآية : ٧ .

(٢) سورة يوسف ؛ الآية : ٥٣ .

(٣) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٣٧ .

(٤) سورة طه ؛ الآية : ٦٧ .



إن المؤثرات النفسية، وما يختلج في بال الإنسان تنعكس عليه صوراً ومشاهد في حال النوم، كما ينعكس في ذهنه وتصوراته في حال اليقظة أيضاً، ففي حال اليقظة قد يذهب فكر الإنسان وتصوره بعيداً... فقد يكون جالساً في بيته فيتصور نفسه، في مكان آخر، وفي بلد آخر، وينشغل ذهنه بأفكار، وصور، ومشاهد تختلف كثيراً عما هو عليه..

كذلك في حال النوم .

وليست الرؤى والأحلام التي يراها الشخص - غالباً - في حال النوم، إلا بتأثير النفس وفعلها، وما يعرض لها من أفكار وخواطر، كما تعرض لنفس الإنسان أفكار وخواطر وتصورات في حال اليقظة أيضاً، إنما الفرق بين الحاليتين، هو: إن المرء في حال اليقظة لا يعير اهتماماً بالغاً بما يجول في خاطره، وما يطرأ على باله لأنه في شغل بالحياة المادية التي يعيشها.. فلا يخلو لنفسه وتهيواتها وخواطرها كثيراً بينما هو خلو في حال النوم للنفس... لا يرى ولا يعيش سواها.. ولا يستمع إلا إلى وحيها.. من هنا كان الاهتمام بما يرى في النوم، لأن ذلك ينطبع في الذهن، ويبقى راسخاً حتى اليقظة، ويبحث الإنسان لرؤاه عن تفاسير وتحاليل...

وليس للإنسان اختيار فيها، ولا يملك أن يدفع أو يجلب لنفسه رؤيا أو حلم..

ففي كتاب الكافي والخصال عن الإمام الصادق عليه الصلوة والسلام
قال :

«ستة أشياء ليس للعباد فيها صنع : المعرفة والجهل، والرضا والغضب، والنوم واليقظة»^(١).

فكما لا سلطان له على النوم، كذلك لا سلطان له على ما يرى في حال النوم، ولعل المراد بالمعرفة والجهل تلك الفطنة التي قد تكون في شخص ولا تكون في شخص آخر، فالذكاء والفطنة وحسن الفهم لا يكون في اختيار المرء أن تتوفر فيه أو لا تتوفر.

وقد قسموا ما يراه النائم إلى نوعين :

نوع يُقال له (الرؤى) ونوع آخر، أطلقوا عليه اسم (الأحلام)، وميزوا بينهما، فالرؤى : هي تلك الخواطر والصور الصادقة التي يراها الإنسان، والتي تتحقق في حال اليقظة، وتوافق الواقع.

والأحلام بعكس تلك.. تصورات كاذبة، وأوهام لا معنى لها، ولا يمكن أن تفسر أو تعبّر.

قال عليه السلام : «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان»^(٢).

ولأن الرؤيا من الله، فهي صادقة بلا شك، بخلاف الحلم، الذي يوسوس به الشيطان في النفس، فإنه كذب وتخريف..

ويعبّر عن الرؤيا أيضاً بالإلهام، لأن الله عز وجل يلهم بها النفس النقية الشفافة في حال النوم، ثم تتطابق مع الواقع الملموس في اليقظة.

ومهما كانت النفس أكثر نقاوة وزكاوة، كانت الرؤى أصدق وأجلى وأجدي، ولعل السرّ في صدق رؤى الأنبياء عليهم السلام، وكونها وحياً من السماء على قلوبهم هو صفاء نفوسهم، وجلاؤها، فالنفس كالمرآة تعكس الصور، فإن كانت المرآة صقيلة نقيّة من الأتربة والشوائب، انعكست الصورة عليها

(١) دار السلام للنوري : ٢٣/١.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي : ١٦١/٦١.

بشكل أوضح وأجلى، ولو كانت مكدّرة ومتسخة وملوثة، فإن الصور تتشوش عليها، ولا تظهر على حقيقتها .

ولما كانت نفوس الأنبياء من الطهارة والنقاوة بمكان، فإن رؤاهم تصدق دائماً . .

وقد ورد في الخبر أن الرسول ﷺ (كان كثير الرؤيا، ولا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح) (١) (وأول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤيا الصادقة، وكان يرى الرؤيا فتأتيه مثل فلق الصبح) (٢) .

هذا عن رسول الله ﷺ ، وكذلك كانت الحال بالنسبة لسائر أنبياء الله ﷺ وقد قصَّ الله لنا في القرآن الكريم مجموعة من هذه الرؤى النبوية الصادقة، وقد ورد عن أمير المؤمنين ع، قال : «رؤيا الأنبياء وحي» (٣) .

رؤيا إبراهيم الخليل (ع) :

ومن الرؤى القرآنية، رؤيا إبراهيم الخليل على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام، وذلك أثناء أدائه لمناسك الحج، رأى نفسه وهو يتولى ذبح ولده بنفسه، قال تعالى :

﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ (٤) .

صرّح برؤياه لولده إسماعيل وأخبره أنه رآه وهو يذبحه فداءً لله تعالى، وكان الأمر الإلهي النازل لإبراهيم ع، مشروطاً بموافقة ولده إسماعيل، كما تدل على ذلك بعض الروايات والأخبار، فكان كلاهما يتعرض - من خلال هذه المهمة الشاقة - للإبتلاء والامتحان من الله عز وجل، لينكشف مدى اصطبارهما وتفانيهما في الله، وتتجلى شدة انقيادهما لأمره تعالى،

(١) بحار الأنوار للمجلسي : ١٨٢/٦١ .

(٢) بحار الأنوار للمجلسي : ١٩٥/١٨ .

(٣) دار السلام للنوري : ٩/١ .

(٤) سورة الصافات ؛ الآية : ١٠٢ .

وتسليمهما لقضائه وحكمه .

وقيل : إن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم الخليل عليه السلام ، بذلك في حال اليقظة ، وتَعَبَّدَهُ بأن يُمضي ما يأمره به في حال نومه . . من حيث إن منامات الأنبياء لا تكون إلاً صحيحة . . ولو لم يأمره بذلك في حال اليقظة ، لما كان يجوز أن يعمل على ما يراه في المنام^(١) من الإقدام على قتل نفس ، فالقتل عملية صعبة ، ينبغي التأمل وتحري الدقة فيه ، ومع ذلك هناك أخبار عديدة وأدلة كثيرة على أن رؤى الأنبياء حق وصدق ووحى ، وقد مرّ قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام (رؤيا الأنبياء وحي) ، كما روي عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : «منامات الأنبياء وحي» وروي عن قتادة : «رؤى الأنبياء حق ، إذا رأوا شيئاً فعلوه» .

وقيل أيضاً : رؤيا الأنبياء - رغم كونها صحيحة جميعاً - ضربان ، أحدهما : أن يأتي الشيء كما رأوه ، ويتحقق في اليقظة بالدقة ، ومنه قوله تعالى :

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ . . .﴾^(٢) .

فقد كان ما رآه رسول الله ، تحقق حرفياً .

والآخر : أن يكون عبارة عن خلاف ظاهر ما رآه في المنام ، مثل رؤيا يوسف الصديق عليه السلام حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين^(٣) فإن الكواكب والشمس والقمر لم تسجد له واقعاً ، إنما كانت تعني الأبوين والأخوة . . والإحاطة بمثل هذه المعاني من اختصاص الأنبياء أنفسهم .

ومهما كان ، فإن موقف النبي إبراهيم عليه السلام ، اتَّسَمَ بالعظمة ، وإنكار الذات لله ، وحير الألباب بإصراره على المضي في تنفيذ الأمر الإلهي .

(١) مجمع البيان للطبرسي : تفسير سورة الصافات .

(٢) سورة الفتح ؛ الآية : ٢٧ .

(٣) مجمع البيان للطبرسي : تفسير سورة الصافات .

يا لروعة المشهد.. أية نفس عظيمة هذه التي تستسلم لقضاء الله
ووحى السماء بهذه الصورة ؟

أي موقف عظيم، هذا الذي وقفه إبراهيم خليل الرحمن، ليقدم ولده
إسماعيل قرباناً لله ؟ !

إنه عازم على فَرْي أوداج وَلَدِهِ، وفلذة كبده بنفسه، مع كونه وحيد
أبويه، فالمستفاد من الآيات التالية، أن إبراهيم عليه السلام، لم يكن قد رُزق
بإسحاق بعد، وإنما صار له إسحاق بعد هذه الواقعة .

إن إبراهيم عليه السلام، صبر في جنب الله، وهو نبي مرسل، يعلم من الله
ما لا يعلمه غيره، ولكن الأعجب من إبراهيم نفسه، في هذا المشهد
العظيم، ولده إسماعيل، فهو الآخر استسلم لله، وقال: يا أبتِ افعل ما تؤمر
به من الله تعالى، فستصادفني - بمشيئة الله وحسن توفيقه - ممن يصبر على
الشدائد العظام في جنب الله، وسأسلم أمري إلى الله، وأكون راضياً
بقضائه .

لقد كان في إعطاء الرضا من نفسه لله تعالى، والتسليم لمشيئته، صورة
طبق الأصل عن أبيه خليل الرحمن، ولما يبعث للنبوة .

هذا الإصرار في المضي في تنفيذ حكم الله، لهو من أعجب العجب
﴿فلما أسلما وتلأ للجبين﴾ لم يستطع الشيطان، بكل أساليبه وحيله، أن يثني
الرجلين عن عزمهما، وأن يقف حائلاً دون تنفيذ هذه الإرادة الصلبة، حتى
اللحظة الحاسمة، ولكن الله عز وجل رَوَّفَ بحال إبراهيم، ورفع عنه هذا
التكليف، واسقط عنه هذه المهمة العسيرة، في لحظة كانت من أعظم
لحظات حياة هذا الرجل وولده، رحمةً به، وعطفاً عليه .

﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي
المحسنين﴾^(١) .

(١) سورة الصافات ؛ الآية : ١٠٥ .

يعقوب ويوسف عليهما السلام :

يذكر القرآن رؤيا صادقة أخرى، رآها يوسف الصديق على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام، ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا...﴾ (١).

روي عن ابن عباس رضي الله عنه : إن يوسف عليه السلام ، رأى في المنام ليلة الجمعة، وكانت تصادف ليلة القدر أيضاً، احد عشر كوكباً، نزلن من السماء، فسجدن له، ورأى الشمس والقمر نزلتا من السماء فسجدا له. قال : فالشمس والقمر أبواه، والكواكب إخوته الأحد عشر (٢).

ولما قصَّ رؤياه على أبيه يعقوب ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ ويظهر من قول أبيه هذا، أنه عَلِمَ أن الرؤيا صادقة، وعلم تأويلها، وتعبيرها، وما هو واقع له مستقبلاً ..

وربما يتبادر إلى الأذهان سؤال عن معنى السجود (سجود الكواكب والفرقدين) ليوسف، وعن سجود أبويه وإخوته له بعد ذلك ؟

فأجاب بعضهم : إنه كان سجوداً على الحقيقة، لتكرمه لا لعبادته، وأجاب آخرون : إن السجود هنا بمعنى الطاعة والخضوع (٣).

ومن الغريب الملفت للنظر في قصة يوسف عليه السلام ، أنه رأى إخوته على هيئة الكواكب يسجدون له، بينما سبق ليعقوب أن رآهم في صورة هالته وأرعبته .. فقد رأى الإخوة، على أشكال ذئاب كاسرة، وهي تنهش لحم يوسف بأسنانها، وتقطعه .. فلما أخبر يوسف أباه بالرؤيا التي رآها، علم يعقوب عليه السلام ، أن خطراً قادماً سيتوجه إلى ولده يوسف من قبل إخوته .. لهذا نهاه عن ذكر الرؤيا لهم، وأمره بكتمانها عنهم .

ووجه الغرابة : كيف يراهم يوسف على شكل كواكب، في الوقت

(١) سورة يوسف ؛ الآيتان : ٤ - ٥ .

(٢)-(٣) مجمع البيان تفسير سورة يوسف .

الذي يراهم فيه أبوهم على هيئة ذئاب كاسرة؟

وقد أجيب عن ذلك : بأن يعقوب عليه السلام ، رأى الإخوة على حقيقتهم الفعلية، ووضعهم الحالي كونهم شباباً حاسدين ليوسف، حاقدين عليه، وقد قاموا بالفعل بإيذائه، وإلقائه في الجُبِّ، وبيعه لتجار العبيد .

ولكن يوسف عليه السلام ، رآهم على حالهم المستقبلية، رآهم على حالهم التالية، بعد توبتهم، وندمهم على ما بدر منهم بحق يوسف، واعتذارهم إلى الله وإلى أبيهم، وقيامهم بالبحث عن يوسف في كل مكان .

وفي هذا إشارة واضحة إلى أن التائب من ذنبه، النادم على سوء فعله (كمن لا ذنب له) يعود طاهراً نقياً (كيوم ولدته أمه) وتحسّن صورته عند الله تعالى . . . فهو وإن كان في يوم من الأيام ذئباً كاسراً، إلا أنه يمكن أن يتحول إلى شخص طاهر، زكي، مرضي عنه، يتمتع بالإيمان والإخلاص، وذلك بالتوبة والإنابة إلى الله عز وجل .

وأمر آخر أيضاً، يدعو للتأمل في قصة يوسف عليه السلام ، وهو رؤيا الملك، والتي أثبتت الأيام صدقها، ومطابقتها للواقع، رغم كونه كافراً لا يؤمن بالله، فضلاً عن كونه سلطاناً جائراً ظالماً، يتجاهر بالفسوق والمعاصي (وشرب الخمر) فقد رأى رؤيا اهتم لها وأشكل تعبیرها على قومه، وقالوا عنها : «أضغاث أحلام» حتى عبرها له يوسف عليه السلام .

قال سبحانه : ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمانٍ يأكلهن سبع عجافٍ، وسبع سنبلاتٍ خضرٍ وأخر يابساتٍ، يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾^(١) .

رأى في منامه، سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع مهازيل، فدخلت السمان في بطون المهازيل حتى لم ير منهن شيئاً . . . ورأى أيضاً سبع سنبلات قد انعقد حبّها، وسبعاً آخر يابسات قد احتصدت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها .

(١) سورة يوسف ؛ الآية : ٤٣ .

فجمع الأشراف، أو السحرة والكهنة، وقصّ الرؤيا عليهم، والتمس منهم تعبير ما رأى في منامه، وبيان الفتوى في ذلك. . فكان تعبيرهم: إنها أضغاث أحلام، أي أباطيل أحلام، وتخاليط، ومنامات كاذبة، لا يصح تأويلها^(١). «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» .

ومحل التأمل هو: هل يمكن أن يرى الكافر أو الفاسق، ومن لا يؤمن بالله. . رؤى صادقة؟

ولما كانت الرؤيا الصادقة بشارة من الله عزّ وجلّ، كما سيأتي في بعض النصوص والأخبار، فهل هي كذلك للكافر والفاجر؟ .

وهل كانت هذه الرؤيا التي رآها عزيز مصر، بشارة من الله تعالى؟ هل كانت تكرمة أكرمه بها الله عزّ شأنه؟ أم ماذا؟ .

ليست الرؤيا الصادقة تكرمة للعبد دائماً، بل قد تكون كذلك، وقد لا تكون، قد تكون بشارة من الله عزّ وجلّ للإنسان، وقد تكون استدراجاً، أو عقوبةً، أو جزاءً، أو بلاءً، أو امتحاناً، وليست نعمة في كل حال، قد يرى الكافر والفاسق والظالم. . رؤى صادقة، ولكن لا يمكن اعتبارها تكرمة لهم من الله عزّ وجلّ بل واضح، أن وراءها أهداف أخرى، وهي لصالح الآخرين ممن يستحقون الكرامة من الله سبحانه.

ورؤيا عزيز مصر كانت بشارة وتكرمة ليوسف عليه السلام، ولم تكن تكرمة له إنما أراه الله هذه الرؤيا لحكمة ومصلحة لطيفة، فلو كان أحد غير العزيز رأى هذه الرؤيا لما كان لها هذا التأثير البالغ على مستقبل حياة الصديق يوسف عليه السلام، ولما صارت سبباً في خلاصه من سجنه. . ولما آلت الأمور إلى ما آلت إليه، من استلام يوسف لزمام الأمور فيما بعد .

إن الله عزّ وجلّ، ألهم الملك هذه الرؤيا، ليقصّها على الملاء، وليتذكر الساقى الذي صحب يوسف في سجنه منذ بضع سنين، ثم نجا وعمل ساقياً عند الملك، وهو الآن يستمع إلى رؤيا الملك، فيتذكر لقاءه بيوسف، والرؤيا التي

(١) مجمع البيان للطبرسي : تفسير سورة يوسف .

فَسَرَهَا لَهُ، وَقَدْ صَدَقْتُ، وَخَرَجَ مِنَ السَّجْنِ نَاجِيًا. . وَرَجَاهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَن يَذْكُرَهُ عِنْدَ الْمَلِكِ، فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذَلِكَ، وَكَانَ أَن لَبِثَ الصَّدِيقُ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سَنِينَ .

وَمَا هُوَ الْآنَ حِينَ سَمِعَ رُؤْيَا الْعَزِيزِ، يَمُرُّ شَرِيطَ الْأَحْدَاثِ فِي ذَاكِرَتِهِ، وَتَعَاوَدَهُ ذِكْرِيَّاتِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالظَّلَامَةُ الَّتِي أَصَابَتْهُ. . وَأَنَّهُ كَانَ عَالِمًا بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَى، وَتَفْسِيرِ الْمَنَامَاتِ .

فَجَثَا بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ وَقَالَ: يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنِّي قَصَصْتُ أَنَا وَصَاحِبُ الطَّعَامِ، عَلَى رَجُلٍ فِي السَّجْنِ مَنَامِينَ، فَخَبَّرَ بِتَأْوِيلِهِمَا، وَصَدَّقَ فِي جَمِيعِ مَا وَصَفَ، فَإِنِ أَذِنْتَ لِي، مَضَيْتُ إِلَيْهِ، وَأَتَيْتُكَ مِنْ قَبْلِهِ بِتَفْسِيرِ هَذِهِ الرُّؤْيَا. فَأَذِنَ لَهُ الْمَلِكُ، فَاتَى يُوسُفَ فِي سَجْنِهِ وَقَالَ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ أَفْتَنَّا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عَجَافٍ...﴾ (١) .

فَقَالَ يُوسُفُ فِي جَوَابِهِ مَعْبَرًا وَمَعْلَمًا: أَمَّا الْبَقَرَاتُ السَّبْعُ الْعَجَافُ وَالسَّنَابِلُ السَّبْعُ الْيَابِسَاتُ: فَالسَّنُونَ الْجَدْبَةُ الْقَادِمَةُ، وَأَمَّا السَّبْعُ السَّمَانُ وَالسَّنَابِلُ الْخَضِرُ: فَإِنَّهُنَّ سَبْعَ سَنِينَ مَخْصَبَاتٍ، ذَوَاتِ نِعْمَةٍ، وَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَ فِيهَا، فَاعْمَلُوا فِيهَا سَبْعَ سَنِينَ مَتَوَالِيَةٍ، عَلَى عَادَتِكُمْ فِي الزَّرَاعَةِ، بِجَدِّ وَاجْتِهَادٍ، فَمَا حَصَدْتُمْ مِنَ الزَّرْعِ فَذَرُوهُ فِي سِنْبَلِهِ، وَاتْرَكُوهُ عَلَى حَالِهِ، إِلَّا مَا احْتَجْتُمْ إِلَيْهِ لِأَكْلِكُمْ وَاسْتِفَادَتِكُمْ، حَتَّى إِذَا أَتَتْ السَّبْعُ الشَّدَادُ الْمَجْدِبَاتُ الصَّعَابُ الَّتِي تَشُدُّ عَلَى النَّاسِ، اسْتَفْدْتُمْ مِمَّا قَدَّمْتُمْ وَادْخَرْتُمْ مِنَ السَّنِينَ الْمَعْطَاءِ السَّابِقَةِ، وَبِذَلِكَ دَفَعْتُمْ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الضَّرَّ وَالْجُوعَ وَالْإِقْحَاطَ، وَتَدَبَّرْتُمْ لِعَيْشِكُمْ وَنَظَرْتُمْ لِمُسْتَقْبَلِكُمْ .

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ هَذَا التَّعْبِيرَ الَّذِي يُبْنَى عَنْ صَدَقِ قَائِلِهِ وَفَهَمِهِ، قَالَ: ائْتُونِي بِهِ، وَأَطْلُقْ سَرَاحَهُ، وَفَكِّ أَسْرَهُ. . وَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ الْمَحْنَةِ الَّتِي كَانَ يَعْانِيهَا طِيلَةَ سَنَوَاتٍ، وَانْكَشَفَتْ حَقِيقَةُ حَالِ النِّسْوَةِ، وَمُؤَامَرَةُ زَوْجَةِ الْعَزِيزِ، وَعَظُمَ شَأْنُ يُوسُفَ لَدَى الْمَلِكِ، وَارْتَفَعَ قَدْرُهُ عِنْدَهُ. . ثُمَّ وَلَّاهُ الْخَزَائِنَ، وَصَارَ أَمْرُهُ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ. .

(١) سورة يوسف ؛ الآية : ٤٦ .

هذا ما يخص يوسف عليه السلام .

وقد كان لرؤيا الملك أثر آخر . . وهو دفع البلاء والقحط عن أمة كاملة . . ذلك القحط الذي كان سيصيبهم ويفنيهم لولا رؤيا الملك، وتعبير يوسف لتلك الرؤيا . . ولو كان غير الملك رآها لما كان لها هذا الأثر في درء الخطر عن شعب بأسره .

كان الجوع ستربص بهم، ليفتك بالناس، وكان الجذب سيتهدهم بعد مرور السبع المخصبات ولكن البلاء انحسر بإذن الله تعالى، والسبب تمثل في رؤيا الملك وتفسير يوسف لها . .

ولا تخلو هذه الآيات من إحياء بأن الشعوب والأمم التي تسعد بالغنى، وتحيا حياة الترف والرفاه والخير، لا بد لها من أن تفكر لمستقبل أيامها، فقد لا تدوم النعمة، ولا تستمر الحال على ما هي عليه . . لا بد من الحذر من فحش قلب الليالي والأيام، ولا يصح الركون إلى الواقع القائم دون النظر للمستقبل .

أقسام الرؤى :

أسلفنا أن رؤى الأنبياء صادقة، لا تحيد عن الصواب والحقيقة، ولكن ماذا عن رؤى غيرهم ؟

إن الروايات والأحاديث، صنفت رؤى الناس إلى أنواع ثلاثة : منها ما يكون (إلهاماً) من الله تعالى، يُلهِم بها المرء ويقرع بها القلب، وتنزل على النفس النقية الطاهرة نزول الغيث على أرض جربة .

ومنها (الأحلام) الغير صادقة، فهي إما وساوس من الشيطان، وإلقاء منه على نفوس الناس أو شيء تحدث به النفس، لانشغالها به، كمن يفكر في شخص معين، طول ليله، فيراه في منامه، أو كمن يصرف اهتمامه، ويُسْغَل نفسه في قضية معينة، تهمة كثيراً، وتمس حياته، فلا ينام نومة إلا ويرى ما يتعلق باهتماماته هذه . .

مثال ذلك : منامات المسجونين، فهم - عادة - لا ينامون إلا ويرون ما

يتعلق بسجنهم ومشاكلهم ، ويتمثل لهم ما يتمنونه من خلاص ونجاة في حال اليقظة ، وما يرجون من عودٍ إلى الأهل والأسرة . . وما شاكل ذلك ، فهذا من حديث النفس ، والانعكاسات النفسية التي يعيشها الإنسان في اليقظة .

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : «الرؤيا ثلاثة : بشرى من الله ، وتحزين من الشيطان ، والذي يحدث به الإنسان نفسه فيراه في منامه» (١) .

وعنه ﷺ أيضاً : «الرؤيا على ثلاثة : منها تخويف من الشيطان ليحزن ابن آدم ، ومنها الأمر يحدث به نفسه في اليقظة فيراه في المنام ، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» (٢) .

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : «الرؤيا على ثلاثة وجوه : بشارة من الله للمؤمن ، وتحذير من الشيطان ، وأضغاث أحلام» (٣) .

وعن أبي بصير قال : قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام : جُعِلْتُ فداك ، الرؤيا الصادقة والكاذبة مخرجهما واحد؟ .

قال : (صدقت ، أما الكاذبة المختلفة ، فإن الرجل يراها في أول ليله ، في سلطان المردة والفسقة ، وإنما هي شيء يخيل إلى الرجل ، وهي كاذبة مخالفة ، لا خير فيها . وأما الصادقة إذا رآها بعد الثلثين من الليل ، مع حلول الملائكة - وذلك قبل السحر - فهي صادقة ، لا تختلف إن شاء الله ، إلا أن يكون جنباً ، أو يكون على غير طهور ، أو لم يذكر الله عز وجل ، حقيقة ذكره فإنها تختلف ، وتبطل على صاحبها) (٤) .

وفي حديث الإمام عليه السلام ، تأملات ينبغي الوقوف عندها قليلاً .

مها قوله (في سلطان المردة والفسقة) فإنه عليه السلام ، ربما يريد بهم الشياطين وإيحاءاتهم وإلقاءاتهم في نفوس الناس ، بحيث يجعلونهم يرون رؤى مخيفة ، مرعبة ، محزنة ، كما صرح بذلك الرسول ﷺ في الحديث السابق .

وربما يقصد الإمام بسلطان المردة والفسقة ، حالة القهر والظلم

والإستعباد التي يعيشها الإنسان في ظل السلطان الجائر، فهناك حيث تضيع الحقوق، وتُهدَر الكرامات، ولا يأمن الإنسان على نفسه يعيش جواً من الإرهاب النفسي والقهر الفكري، والخوف الدائم ..

وطبيعي أن مثل هذه الحالة الشاذة، تعكس آثارها السلبية على نفس المرء، وتلقي بظلالها على قلبه، مما يجعله يرى الأحلام المخيفة الباطلة .

ومنها قوله عليه السلام : (إلا أن يكون جنباً أو على غير طهور، أو لم يذكر الله . . .) فيظهر أن النوم على إحدى هذه الحالات، يغلق أبواب النفس دون وصول الرؤى الحقة إليها، ودون تلقي الإلهام من الله عز وجل، وما يمكن أن يراه النائم على الحالات الثلاث، يدخل في عداد أضغاث الأحلام، ولا مفهوم لما يراه، وذلك بسبب نومه على الجنابة، أو على غير طهور، أو من دون أن يذكر الله تعالى عند النوم .

المؤثرات في الرؤيا :

ويؤكد العلماء وأرباب الاختصاص بالرؤى والمنامات، أن هناك عوامل كثيرة تؤثر في الرؤيا، يملك الإنسان أن يتصرف فيها بنفسه، فيدفع عن نفسه الأحلام السيئة، التي تخيفه وتؤذيه، ويهيئ نفسه للرؤى الحسنة الصادقة وهذا لا ينافي ما سبق ذكره من أن الإنسان لا سلطان له على رؤاه وأحلامه، لكون ذلك راجع إلى الله عز وجل، فهذا شيء يدخل ضمن التوسل بالأسباب .

من العوامل المؤثرة :

١ - العامل النفسي : إذ إن النفسية التي يعيشها الإنسان - لا شك - لها تأثير على رؤاه وأحلامه، فالخائف يرى ما يتعلق بخوفه، والفرح المسرور ينعكس سروره على أحلامه، والذي اعترته الهموم والأحزان، لا بد وأن يكون لها تأثير بالغ على مناماته . . . وفي مثل هذه الحالات لا ينبغي الإفراط في الاغترار بمبشراتهما، كما لا ينبغي التهويل من سيئاتها .

٢ - ومن العوامل المؤثرة أيضاً : المكان الذي يستقر فيه النائم، يقول النوري في دار السلام : (يجب إصلاح المكان، ومراعاة المواضع التي ينام

فيها، فلا تكون مما تتنفر عنها طباع الروحانيين وأن لا تسكنها جنود الشياطين^(١) ويقصد بالروحانيين : الملائكة .

ولا شك أن المكان الغير مريح يسبب الأحلام المزعجة، وهذا مما ثبت في علم النفس الحديث أيضاً، فيجب تدبير الفراش المناسب للنائم جنساً ووصفاً، وما يضعه تحت رأسه، وما يلحق بذلك .

٣ - ومنها : الأوقات والأزمنة المناسبة، وعامل الوقت من العوامل الشرعية، ولا أعتقد أن العلوم الحديثة تعطي أهمية لعامل الوقت في التأثير على الرؤى والأحلام، ولكن التعاليم الشرعية تولي أهمية كبيرة لوقت النوم، وتعتبر ذلك مؤثراً في ما يراه النائم من الأحلام المزعجة، أو الأحلام الجيدة، تجد ذلك مفصلاً في كتب الآداب والأخلاق فمثلاً : يكره النوم بين الطلوعين، وتستحب القيلولة، وتُستحب المباشرة إلى النوم ليلاً . . . وكل ذلك قد يكون له أثر في الرؤيا، فالمعروف بين علماء التعبير أن الرؤيا التي يراها النائم بعد طلوع الشمس لا معنى لها، بينما التي يراها قبل طلوع الفجر، تكون صادقة في أغلب الأحيان .

٤ - الأعمال المستحبة شرعاً : ويدخل ضمن ذلك مجموعة الأدعية والأذكار الماثورة عن النبي وأهل بيته الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين . . . كقراءة آية الكرسي قبل النوم، وكذلك سورة التوحيد، والإستعاذة من الشيطان الرجيم، وكونه على ظهور، بأن يكون متوضئاً، أو متيمماً إن لم يمكنه الوضوء . . .

وأن ينام على جانبه الأيمن أو الأيسر، أو على قفاه، ويكره النوم على الوجه . . .

وكذلك تدبير البدن، بأن لا ينام على الامتلاء، وأن لا ينام طائياً . . . وكل ذلك مما يؤثر سلباً وإيجاباً في الرؤى والمنامات، وقد وردت بذلك أخبار وروايات، ذكرتها الكتب المختصة .

(١) دار السلام : ٣٨/١ .

٥ - قلنا في ما مضى من فصول سابقة إنَّ العقيدة والفكر لهما أبلغ الأثر في أنماط السلوك البشري، وتختلف النفوس باختلاف العقائد والمبادئ.. فالمسلم المؤمن تنطبع نفسيته بالأسس الأخلاقية التي تبناها الإسلام، بخلاف غيره ممن لا يعتقد بمبادئ الدين ولا يعتنق الإسلام، فلا يرى نفسه ملزماً بتعاليم وأحكام لا يؤمن بها.. بل لعله لم يسمع بها أساساً ولم يألفها، ولم يعرفها..
فالمسلم المؤمن يتحلَّى (بالغيرة) على أهله وحرمة، ولهذه الكلمة مدلولاتها عنده، تطبعت نفسه بها بشكل قهري، نشأت عن كونه مسلماً مؤمناً تلزمه بها مبادئ هذا الدين وأحكامه.. في حين لا يدرك مفهومها غيره ممن لا علاقة له بالدين والأخلاق.. لأنه لم يسمع بهذه الكلمة من قبل، ولا تدخل ضمن اعتباراته ومقاييسه.

ذكرتُ الغيرة، كمثال على التأثير العقائدي في السلوك البشري..
ولبيان أن للمعتقدات والأفكار دخلٌ كبيرٌ في الانعكاسات النفسية، وفيما يختلج في الخواطر، وما يدور في البال.

ولما كانت بعض الرؤى ناتجة عن التصورات، والخلفيات الذهنية، والمرتكزات الفكرية كان لا بدَّ للمؤمن من أن يتبنَّى إصلاح قلبه، وتهذيبه، ومحاولة استصلاح ومعالجة أمراضه كالقسوة، والحقد، والكراهية للآخرين... ليكون إيمانه أعمق، ويقينه أشدَّ رسوخاً في قلبه، وبذلك يستعدُّ لتلقي الرؤى الصحيحة المريحة، والتي اعتُبرت من فيوضات ونعم الله سبحانه وتعالى..

البحث عن التعبير للرؤيا :

ثبت في الشرع الحنيف أن الرؤى صادقة وكاذبة، وقد وصفت الصادقة بأنها جزء من النبوة، أي أنها من الصدق والصراحة بمكان، بحيث تكون شبيهة بالوحي المنزل على الأنبياء ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال :
«رؤيا المسلم الصالح جزء من سبعين جزءاً من أجزاء النبوة...»^(١).

وفي كتاب الغايات، لجعفر بن أحمد القمي، قال: قال رسول

(١) دار السلام للنوري : ١٨/١ .

الله ﷺ : «خياركم أولو النهي» قيل يا رسول الله : ومن أولو النهي ؟ فقال : «أولو النهي أولو الأحلام الصادقة»^(١) .

وهذه الرؤى عبارة عن تلاقي النفوس في عالم متسام ، وحيث إنها من فيض الله ومن جهته تعالى ، نازلة بأمره إلى هذه النفس ، لذا يتعذر على أي إنسان أن يفسر أو يؤول الرؤى . . . إنما عليه أن ينتظر حتى يتوافق ما ألقى إليه في حال النوم ، مع ما يحدث له في حال اليقظة ، فلو كان الحلم صادقاً فلا بد - حينئذ - أن يتوافق مع الواقع ، دون أن يحتاج الإنسان إلى تفاسير الآخرين ، وتأويلاتهم ، وتعبيراتهم ، وإن لم يكن كذلك فلا معنى إذن لكل التأويلات والتفسيرات .

وليس في إمكان أحد أن يدعي قدرته على تأويل الأحلام ، إلا أن يكون نبياً مرسلًا ، أو ممن منحهم الله العلم من لدنه بقدرته ، كالائمة الطاهرين من أهل البيت عليهم الصلاة والسلام ، وبعض الصفوة من الناس ، ممن له خبرة واسعة في علوم القرآن ، وإحاطة كبيرة بالمعارف والعلوم الإسلامية التي تؤهله أن ينظر بدقة في عمق مفهوم الرؤيا ، ويستنبط منها تأويلاً يكون أقرب للصحة ، وأدنى من الواقع .

ولا ننكر وجود بعض أهل التقى والعلم والفضل ممن تتبادر إلى ذهنه بعض التأويلات والتفسيرات التي يقترب بها من الصدق . . ولكن ليس لأحد - غير الأنبياء والمعصومين - أن يقطع بتفسيره وتأويله ، ويدعي مطابقة ذلك للواقع تماماً .

كما لا يمكن الاعتماد على كتب تفسير الأحلام ، لأنها لا تستند إلى أصل متين ، وبعبارة أخرى : لا يدعم هذه التأويلات والتعبير المدونة في كتب تفسير الأحلام ، علم معين ، أو نصوص معينة ، بل هي مجرد أفكار تطرأ على ذهن هذا وذاك ، ربما تتطابق مع الواقع وربما لا .

قال ﷺ : «لا تقصَّ رؤياك إلا على عالمٍ أو ناصح»^(٢) .

(١) دار السلام للنوري : ١٨/١ .

(٢) ميزان الحكمة : ١٨/٢ .

وقال عليه السلام : «الرؤيا لا تقص إلا على مؤمن خلا من الحسد والبغي»^(١).

ولا شك أن الرؤى تترك بصماتها على النفس، فربما غيرت مجرى حياة الإنسان وربما وقفت حاجزاً دون تهوّر معين.. وربما أوجدت في النفس انطباعات معينة أو أزالَت عنها انطباعات أخرى...

إننا وجدنا بالتجربة المتكررة أن الرؤى تؤثر تأثيراً بالغاً في سلوك المرء.. بل ويتعدى التأثير في بعض الأحيان إلى حياة الآخرين، لذا لا يمكن أن نطلب من الناس استغفال أحلامهم ورؤاهم، وعدم الاهتمام بها، خصوصاً وأن بعض هذه الرؤى تأتي مطابقة للواقع (مثل فلق الصبح).

ولكن المطلوب من الرائي أن ينتهج نهج الإسلام الحنيف وتعاليمه، في اعتماده على الرؤى فلا يفرط أو يبالغ في الاهتمام بها، والاعتماد عليها، بحيث يعتبر كل أحلامه حججاً بالغة ووحياً من الله تعالى إليه، كما هو الحال لدى بعض الناس.

يرى - مثلاً - أن فلاناً أعرض عنه، أو أهانه في المنام.. فينتبه وهو مملوء حقداً وغيظاً على الرجل، ويودّ الانتقام منه ليشفي غليله، ويكون على حذر منه... ويلبّش أحكاماً كثيرة على رؤياه.. وهو مما يرفضه الإسلام، ويأباه العقل.

في ذات الوقت، لا ينبغي أيضاً أن يُنظر إلى الرؤى جميعها، على أنها خرافات وأوهام، خالية من المحتوى والمفهوم، كلا، بل يمكن أن تكون الرؤيا صادقة.

ومن منطلق كون الرؤيا الصادقة (إلهاماً) من الله تعالى، فإن صاحبها ستكشف له حقيقة الرؤيا بكل جلاء ووضوح، إن عاجلاً أو آجلاً، وسيعرف مغزى ومعنى حلمه، دون الرجوع إلى أحد.. إن لم يكن بالفعل قد فهم تفسيرها وبانت له الحقيقة.

(١) بحار الأنوار : ١٧٤/٦١ .

إننا نرى بعض الناس، تصفو نفسه، فيرى في عالم المنام ما يرى، ويخبر بعد ذلك بما رأى، ويتحقق بالفعل ما أخبر به، أو قد يحذرُ راءٍ من أمر قد يقع مستقبلاً، أو ينبه عن حادث معين.. أو نازلة معينة، أو مرض أو غير ذلك... وتثبت الأيام صدق ما جاء على لسانه إلهاماً من الله تعالى .

من هنا، نصح الرسول ﷺ ، أن لا يتفوه أحد بما رأى في منامه لأحد من الناس، إلا من يلتمس فيه التدين والأخلاق الحميدة، وحسن العقل، والمتفائل في الأمور.. لكي لا يُفتنَ الناس بالتأويلات الباطلة، والتفسيرات الغير صحيحة والتي تترتب عليها آثار نفسية واجتماعية سيئة .

عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ : «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها، فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره»^(١) .

وقال ﷺ : «إذا رأى أحدكم الرؤيا الحسنة فليفسرها، وليخبر بها، وإذا رأى الرؤيا القبيحة، فلا يخبر بها»^(٢) .

وماذا يصنع من يرى رؤيا سيئة ؟

روي عن الإمام الصادق عليه السلام : «إذا رأى أحدكم ما يكره في منامه فليتحول عن شقه الذي كان عليه نائماً، وليقل : ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله﴾»^(٣) ثم ليقل : عذتُ بما عاذت به ملائكة الله المقربون وأنبيأؤه المرسلون وعباده الصالحون، من شر ما رأيت، ومن شر الشيطان الرجيم»^(٤) .

ومرة أخرى نتساءل :

(١) تفسير الأحلام، عصام الدين محمد علي .

(٢) ميزان الحكمة : ١٨/٤ .

(٣) سورة المجادلة ؛ الآية : ١٠ .

(٤) البحار للمجلسي : ٢٢٠/٧٦ .

هل الرؤيا الصادقة كرامة من الله تعالى ؟

والجواب :

إنها ليست كذلك بالضرورة، إنما ينبغي النظر إلى نوع الرؤيا، وظروفها، وحديثاتها، فقد تكون تكرمة من الله بالفعل، وقد لا تكون كذلك .

وقد سبق أن ذكرنا، أن بعض الرؤى تعتبر بشارة ومكافأة من الله، وإشارة لصالح العبد المؤمن، وتقديراً من الله تعالى لعمله . . أو علامة على قبول بعض طاعاته .

فهذه تعدّ تكرمة من الله للعبد .

قال عليه السلام : «الرؤيا الصالحة بشارة للمؤمن بما له عند الله من الكرامة في الآخرة»^(١) .

وعن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رجل لرسول الله عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال عليه السلام : «هي الرؤيا الحسنة يراها المؤمن فيُبشّر بها في دنياه»^(٢) .

وفي الكافي عن الرضا عليه السلام ، قال : إن رسول الله عليه السلام إذا أصبح قال لأصحابه : هل من مبشرات؟ يعني الرؤيا^(٣) .

وفي مجمع الزوائد للهيتمي المصري، عن أحمد، بإسناده عن رسول الله عليه السلام ، قال : «لا يبقى بعدي، بعد النبوة إلا المبشرات، قالوا: يا رسول الله ما المبشرات؟ قال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل، أو تُرى له» ورواه البزاز، إلا أنه قال: يراها الرجل الصالح^(٤) .

ومن الأحلام ما تعتبر تحذيراً، وتخويفاً، وإنذاراً من الله تعالى للعاصين والظالمين، فهي وإن كانت صادقة، إلا أنها ليست كرامة ونعمة على العبد،

(١) ربيع الأبرار للزمخشري : ٣٣٨/٤ .

(٢) دار السلام للنوري : ١٥/١ .

(٣) - (٤) دار السلام للنوري : ١٦/١ .

ومن ذلك : ما ذكره الدميري في حياة الحيوان ، أن هارون العباسي حين حبس الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام في بغداد ، دعا يوماً صاحب شرطته وقال له : رأيت في منامي رؤيا اربعيني ، رأيت حبشياً ومعه حربته ، وهو يقول : إن لم تخل موسى بن جعفر نحررتك بهذه الحربة .

ثم قال لصاحب الشرطة : اذهب وخلّ عنه وأكرمه ، قال صاحب الشرطة : ففعلت ذلك وقلت للإمام عليه السلام : لقد رأيت من أمرك عجباً!! قال عليه السلام : أنا أخبرك : بينما أنا نائم إذ أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : يا موسى ، حُبِسْتَ مظلوماً ، فقل هذه الكلمات فإنك لا تبیت هذه الليلة في السجن ، قل :

«يا سامع كل صوت ، يا سابق كل فوت ، يا كاسي العظام لحماً ومنشرها بعد الموت ، أسألك بأسمائك العظام ، وباسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون ، الذي لم يطلع عليه أحد من المخلوقين ، يا حليماً ذا أناة لا يُقَدَّر على أناته ، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع معرفته أبداً ، ولا يحصى له عدداً فرج عني» فكان ما ترى^(١) .

روي عن الصادق عليه السلام : «إذا كان العبد على معصية الله عز وجل ، وأراد الله به خيراً أراه في المنام رؤيا تروعه ، فينزجر بها عن تلك المعصية»^(٢) .

إن هذه الرؤيا التي روّعت هارون لم يكن الله عز وجل يريد بها خيراً للخليفة الظالم ، بل كان يريد بها خيراً للمظلوم موسى بن جعفر عليه السلام .

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام : «ما من أحد من شيعتنا ارتكب ذنباً ، أو خطباً إلا ناله في ذلك غمٌ مَحْصٌ عنه ذنوبه . . . فإن لم ينله في نفسه ، ففي أهله وماله ، وإن لم ينله في أمر دنياه ما يغتم ، تخايل له في منامه ما يغتم

(١) حياة الحيوان للدميري : ١٨٤/١ .

(٢) بحار الأنوار : ١٦٧/٦١ .

به ، فيكون ذلك تمحيصاً لذنوبه»^(١) .

إن الله تعالى يملك النفوس جميعاً، ويتصرف بها كيف يشاء، فيقذف بشيء في نفس هذا أو ذاك، ويريه شيئاً في منامه، تقويماً لاعوجاجه، ومراعاة لمصلحته، أو مصلحة الآخرين أو لمصلحة الدين . . .

قال رجل لعلّي بن الحسين زين العابدين عليه السلام : رأيت في عالم المنام، وكأني أبول في يدي! فقال له الإمام عليه السلام : تحتك محرم!! فنظروا فإذا بينه وبين زوجته رضاع^(٢) .

ونقل أن رجلاً جاء إلى ابن سيرين وقال: رأيت كأني أصبُّ الزيت في الزيتون! فقال: إن كانت تحتك جارية اشتريتها، ففتش عن حالها، فإنها أمك، لأن الزيتون أصل الزيت، فهو ردّ إلى الأصل. فنظر فإذا جاريته كانت أمه، وقد سُبِّت في صغره، ثم تزوجها وهو لا يعلم بذلك^(٣) .

ونقل أن رجلاً جاءه وقال: رأيت رؤيا هالتي، قال: ماذا رأيت؟ قال: رأيت كأني أعلق الدُرَّ في أعناق الخنازير! فقال ابن سيرين: كأنك تُعلم الحكمة غير أهلها!! وكان كما قال^(٤) .

إن المؤمن الصالح، يتفضل عليه الله سبحانه، بأن يلهمه في منامه، ويصدر له إشارة يرى بها حقيقة الأمور، ولا مانع أن نسمي رؤى المؤمن - ذي النفس الصافية - كرامة باعتبارها تفضلاً وتلطفاً من الله عليه .

وإليك نماذج من الرؤى الصادقة التي تحققت في اليقظة وصَحَّت :

١ - روى الحاكم أبو عبد الله النيسابوري، بإسناده في كتابه (مفاخر الرضا عليه السلام) عن أبي حبيب النابجي، قال :

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، وقد أتى بلدتي (النباج)^(٥) ونزل

(١) دار السلام للنوري : ١٥٥/٤ .

(٢) ربيع الأبرار : ٣٣٧/٤ .

(٣) - (٤) دار السلام للنوري : ٢٤٩/٤ .

(٥) النباج : قرية في بادية البصرة على النصف من طريق مكة (معجم البلدان) .

في المسجد الذي ينزل الحاج فيه كل سنة، وكأني مضيت إليه، وسلمت عليه، ووقفت بين يديه، فوجدت عنده طبقاً من خوص النخل، فيه تمر (صيحاني) وكأنه قبض قبضة من ذلك التمر فناولني إياه، فعددته، فكان ثماني عشرة ثمرة، ولما انتهت من نومتي تلك، تأولت هذه الرؤيا أني أعيش بعد ذلك ثماني عشرة سنة، بعدد كل ثمرة سنة .

فلما كان بعد عشرين يوماً، كنت في أرض لعمي، أشغل في زراعتها، فلقيني بعض أصحابي، وأخبرني بقدوم أبي الحسن (علي بن موسى الرضا) عليه السلام، ونزوله في نفس ذلك المسجد (وهو في طريقه إلى مرو) ورأيت الناس يُسرعون إليه، فمضيت نحوه فإذا هو جالس في الموضع الذي كنت رأيت النبي عليه السلام فيه، وتحتة حصير مثل ما كان تحت النبي عليه السلام، وبين يديه طبق من خوص النخل فيه تمر صيحاني، فسلمت عليه، فردّ عليّ السَّلام، وناداني وناولني قبضة من ذلك التمر، فعددته، فإذا عدده ثماني عشرة ثمرة، (بعدد الذي ناولني جده رسول الله عليه السلام) فقلت له: زدني يا بن رسول الله، جعلني الله فداك، فقال لي: «لوزادك جدي رسول الله لزدتك»^(١) .

وهذه رؤيا صادقة تماماً كما ترى، ومثل هذه الرؤيا، تعتبر - لا شك - كرامة من الله لصاحبها، وبشارة نازلة من الله إليه، وينبغي اعتبار مثل هذه الرؤى صادقة حتى قبل توافقها مع الواقع، لأن الرجل رأى رسول الله عليه السلام، ومن رأى النبي، أو أحد المعصومين عليهم السلام في عالم المنام، يكون قد رآهم بالفعل، استناداً لما ورد في الحديث الشريف: «من رآني فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي»^(٢) .

كذلك الحال بالنسبة للأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم السلام فقد ورد عنهم ما هو بمعنى قول الرسول عليه السلام .

(١) عيون أخبار الرضا : ٢/ ٢١٠، الثاقب في المناقب لابن حمزة ص ٤٨٣ باب فضائل أبي الحسن الرضا عليه السلام .

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ٤/ ٣٣٦ .

٢ - ويحدثنا الثعالبي في (اليتيمة) عن شاعر يُقال له (كولان) حجَّ سنة من السنين، وجاور بمكة المكرمة، فاعتلَّ علةً تطاولت به، وضاق معها ذرعاً، وكان قد نظم - كما يقول - في مدح أهل البيت عليهم السلام تسعاً وأربعين مقطوعة، قال في نفسه : لو أكملها خمسين ثم ابتدأ بها قائلاً :

بني أحمد يا بني أحمد . . .

يقول : ثم أرتج علي، فلم أقدر على إتمام الشعر، وتوقفت قريحتي، فعظم ذلك علي، واجتهدت في أن أكمل البيت فلم أقدر، فحدث لي من الغم بهذه الحالة ما زاد علي همي بعلي، ونمت ليلتي مهموماً أفكر في حالي، فرأيت النبي ﷺ فجئت إليه أشكو إليه ما أنا فيه، من الضائقة والهَم، وما أجده من العلة، وأخرى من القلة .

فقال لي ﷺ : تصدَّق يوسع الله عليك، وضمَّ يصُحَّ بدنك .

فقلت يا رسول الله، وأعظم مما شكوته إليك، أنني رجل شاعر، أتشيع وأخصُّ بالمحبة ولدك الحسين عليه السلام، وتُداخِلني له رحمة لما جرى عليه من القتل، وكنت قد عملت في أهل بيتك تسعاً وأربعين قصيدة، فلما خلوت بنفسي في هذا المكان، حاولت أن أكملها خمسين، فبدأت قصيدة قلت فيها مصراعاً، فأرتج علي إجازته، ونفر عني ما كنت أعرفه فما أقدر علي قول حرف .

قال : فقال لي رسول الله ﷺ قولاً قصد منه إلى أنه : ليس هذا إليَّ، لقوله تعالى : ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ ثم قال لي : اذهب إلى صاحبك، وأوماً بيده الشريفة إلى ناحية من نواحي المسجد، وأمر رسولاً أن يمضي بي إلى حيث أوماً، فمضى بي الرسول إلى ناس معهم (علي بن أبي طالب عليه السلام) فسلمت عليه، وقصصت عليه قصتي كما قصصتها على النبي ﷺ ، فقال لي علي عليه السلام : فما المصراع؟

قلت : بني أحمد يا بني أحمد . .

فقال للوقت : قل :

بكت لكم عُمَد المسجدِ

بيشربَ واهتزَّ قبر النبي	أبي القاسم السيّد الأصيلِ
وأظلمت الأفقُ أفقُ السماء	وذُرَّ على الأرضِ كالإثمدِ
ومكةٌ مادت بيطحائها	لإعظام فعلِ بني الأعبُدِ
ومال الحطيم بأركانِه	وما بالبنية من جلمدِ
وكان وليكمُ خاذلاً	ولو شاء كان طويل اليدِ

قال : وردّها عليّ ثلاثاً فانتبهتُ وقد حفظتها^(١) .

بنو أمية :

٣ - وعن تسلط بني أمية على رقاب المسلمين ، وتعسفهم على الناس ، وردت الأخبار المعتبرة المتواترة ، أن رسول الله ﷺ ، رآهم في منامه ينزون على منبره . . .

في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه، عن الحسين بن علي عليه السلام ، أن رسول الله ﷺ أصبح وهو مهموم ، فقيل له : ما لك يا رسول الله ؟ فقال : إني رأيت في المنام كأن بني أمية يتعاورون منبري هذا . فقيل : يا رسول الله لا تهتم فإنها دنيا تنالهم^(٢) .

فأنزل الله تعالى : ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن...﴾^(٣) .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عمر ، أن النبي ﷺ ، قال : رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر ، كأنهم القرّدة ، وأنزل الله في ذلك ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك...﴾ إلى آخرها يعني الحكم وولده .

وأخرج عن عائشة ، أنها قالت لمروان بن الحكم : سمعت رسول

(١) أدب الطف للسيد جواد شبر : ٧/٤ .

(٢) تفسير الميزان : ١٤٨/١٣ .

(٣) سورة الإسراء ؛ الآية : ٦٠ .

الله ^{مُزَاهَاة} يقول لأبيك وجدك : (إنكم الشجرة الملعونة في القرآن) (١) .

بذيء اللسان حتى في المنام :

٤ - ومن لطيف ما يروى من المنامات : إن نَبَطِيَّأ رأى الحجاج بن يوسف الثقفي (الطاغية الظالم) في المنام ، فأحب أن يعرف مصيره ومآله بعد الموت .

فسأله : إلى ما سِيرَكَ رَبُّكَ؟

فقال الحجاج : وماذا عليك يا بن الفاعلة !

فقال النبطي : ما سلمنا من فعلك حياً ، ولا من سَبِّكَ ميتاً (٢) .

عَفْوٌ وَمَغْفِرَةٌ :

٥ - ويروى عن أبي نؤاس (الحسن بن هاني) الشاعر المعروف ، أن رجلاً من أصدقائه رآه فيما يرى النائم ، فسأله : ما فعل بك ربُّكَ؟

قال : غفر لي بيتين قلتهما قبيل وفاتي !

قال ما هما ؟

قال : قلت :

من أنا عند الله حتى إذا العفو يرجى من بني آدم
أذنبت لا يغفر عن ذنبي فكيف لا أرجوه من ربي؟

رؤيا المستنجد العباسي :

٦ - روى ابن خلكان أن المستنجد بالله العباسي ، الخليفة الثاني والثلاثين من بني العباس وكان موصوفاً بالعدل والإنصاف بين الرعية . . . رأى في أيام خلافة أبيه في المنام ، أن ملكاً نزل من السماء وأخذ يده ،

(١) تفسير الميزان للطباطبائي : ١٤٨/١٣ .

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ٣٣٨/٤ .

فبسطها ورسم على كفه أربع خاءات (خ خ خ خ) فانتبه متحيراً في معنى ذلك، وأرسل إلى أهل الخبرة والمعرفة في المنامات، يطلب منهم تفسير هذه الرؤيا . .

فقال له بعضهم : سوف تنال الخلافة سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فكان كما قال^(١) .

حديث النفس :

٧ - ومما يؤكد أن حديث النفس، والإيحاءات النفسية في اليقظة، قد تتحول إلى أحلام في عالم المنام، ما يذكره ابن الجوزي في كتابه (الأذكياء) عن الحلم الذي رآه المهدي العباسي، وكان من إلقاء بعض الناس عليه .

قال : وافئ سعيد بن عبد الرحمن دار الخلافة، أيام المهدي العباسي، فقال للربيع الحاجب : استأذن لي على الخليفة .

فقال له الربيع : من أنت وما حاجتك؟

قال : أنا رجل رأيت للخليفة رؤيا صالحة، وقد أحببت أن أذكرها له .

فقال الربيع : يا هذا، إن القوم لا يصدّقون ما يرون لأنفسهم، فكيف ما يراه لهم غيرهم؟ فأحتل بحيلة هي أردُّ عليك من هذه الحيلة .

فقال سعيد : إن لم تخبره بمكاني، سألت من يوصلني إليه، وأخبرته أنني سألتك الإذن عليه فلم تفعل .

فدخل الربيع على المهدي، فقال له : إنكم قد أطمعتم الناس في أنفسكم، فقد احتالوا لكم بكل ضرب .

قال المهدي : هكذا صنع الملوك، فما ذاك ؟

قال : رجل بالباب، يزعم أنه قد رأى لأمر المؤمنين رؤيا حسنة، وقد

(١) وقائع الأيام للشيخ عباس القمي ص : ٢٣٠، أحداث ٨ ربيع الثاني .

أحب أن يقصّها عليه .

فقال المهدي : ويحك يا ربيع ، إني والله أرى الرؤيا لنفسي ، فلا تصح لي ، فكيف إذا ادّعاها من لعله قد افتعلها .

قال : والله قلت له مثل هذا فلم يقبل .

قال : هات الرجل .

فأدخل سعيد بن عبد الرحمن ، وكان له رؤية وجمال ، ومروءة ظاهرة ، ولحية عظيمة ولسان .

فقال له المهدي : هات - بارك الله عليك - ماذا رأيت ؟

قال : رأيت - يا أمير المؤمنين - آتياً أتاني في منامي ، فقال لي : أخبر أمير المؤمنين المهدي ، أنه يعيش ثلاثين سنة في الخلافة ، وآية ذلك أنه يرى في ليلته هذه في منامه ، كأنه يقلب يواقيت ، ثم يعدّها فيجدها ثلاثين ياقوته ، كأنها قد وهبت له ! .

فقال المهدي : ما أحسن ما رأيت ، ونحن نمتحن رؤياك في ليلتنا المقبلة على ما أخبرتنا به ، فإن كان الأمر على ما ذكرته ، أعطيناك ما تريد ، وإن كان الأمر بخلاف ذلك ، لعلمنا أن الرؤيا ربما صدقت ، وربما اختلفت .

قال سعيد : يا أمير المؤمنين ، فما أنا أصنع الساعة ؟ إذا صرت إلى منزلي وعيالي فأخبرتهم أني كنت عند أمير المؤمنين ، ثم رجعت صفراً ! .

قال له المهدي : فكيف نعمل ؟

قال : يعجل لي أمير المؤمنين ما أحب ، وأحلف له بالطلاق إني قد صدقت .

فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وأمر أن يؤخذ منه كفيلاً ليُحضّره من غد ذلك اليوم ، فقبض المال ، وقيل له : من يكفل بك ؟ فمدّ عينيه إلى خادمٍ فرآه حسن الوجه والزيّ ، فقال : هذا يكفل بي .

فقال المهدي : أتكفل به ؟ فاحمرّ وخجل وقال : نعم .

وكفله وانصرف، فلما كان في تلك الليلة، رأى المهدي ما ذكره له سعيد حرفاً حرفاً، وأصبح سعيد على الباب، واستأذن فأذن له، فلما وقعت عين المهدي عليه، قال له : أين مصداق ما قلت لنا؟

قال له سعيد : وما رأى أمير المؤمنين شيئاً ؟

فضجعَ في جوابه، فقال سعيد : امرأتي طالق إن لم تكن رأيت شيئاً !!

قال له المهدي : ويحك ما أجراك على الحلف بالطلاق ! .

قال : لأنني أحلف على صدق .

قال المهدي : فقد والله رأيت ذلك مبيناً .

فقال له سعيد : الله أكبر، فأنجز يا أمير المؤمنين ما وعدتني .

قال له : حباً وكرامة، ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار، وعشرة تخوت ثياب، من كل صنف، وثلاثة مراكب من أنفس دوابه مُحَلَّاة . فأخذ ذلك وانصرف، فلحق به الخادم الذي كان كفل به ، وقال له : سألتك بالله، هل كان لهذه الرؤيا التي ذكرتها من أصل ؟ .

قال له سعيد : لا والله ما كان لها من أصل .

قال الخادم : كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته له؟

قال : هذه من المخاريق الكبار التي لا يأبه لها أمثالكم، وذلك أني لما ألقيتُ إليه هذا الكلام، خطر بباله، وحدث به نفسه، وأسرَّ به قلبه، وشغل به فكره، فساعة نام، خُيِّلَ له ما حلَّ في قلبه، وما كان شغل به فكره في المنام .

قال له الخادم : فقد حلفت بالطلاق ؟

قال : طلقت واحدة، وبيقت معي ثنتين، فأرد في مهر عشرة دراهم، وأتخلص، وأتحصل على عشرة آلاف درهم، وثلاثة آلاف دينار، وعشرة تخوت ملابس، وثلاثة مراكب .

قال : فبهت الغلام في وجهه، وتعجب من ذلك .

فقال له سعيد : قد صدقتك ، وجعلت صدقي لك مكافأة على كفالتك لي ، فاستر عليّ ذلك .
ففعل ذلك^(١) .

إن رجلاً مثل الخليفة العباسي (المهدي) يهّمه كثيراً أن يعيش فترة أطول ، وهو في سدة الحكم يتمتع بالجاه والسلطان ، وهو أحرص ما يكون على استمرار حكمه وسلطانه ، إنها قضية تشغل باله في كل لحظة من لحظات يقظته ونومه . . وأشدّ ما يخاف منه أن لا تستمرّ معه الحياة على حالها ، يفزع من الموت ، أو أن يُتَزَعَّ منه الملك وهو بعد لم يستوفِ الكفاية من هذه الحكومة اللذيذة . .

إن سعيداً ألقى في روع الخليفة شيئاً يمسّ جوهر حياته ، فالقضية التي ذكرها له ، تشكل مسألة حساسة مهمة ، بل هي في غاية الأهمية ، إنها تتناول طول عمره في الخلافة والملك . . وبذلك شغل سعيد كل مساحة تفكير الرجل طوال ذلك اليوم وحتى الساعة التي آوى فيها إلى مضجعه . . وغلبه النوم وعقله الباطن منصرف كلياً إلى هذه الرؤيا التي ادّعاها له سعيد . . . واستمر معه التفكير حتى في حال النوم . .

ورأى بالفعل ما ألقى إليه سعيد ، وما أوحى به إليه .

إن النفس البشرية تنفعل بما يلقي إليها ، من خير أو شر ، صحيح أو باطل . . فلو قيل لإنسانٍ صحيح مُعافى : ماذا بك ؟ هل أنت مريض ؟ لماذا هذا الإصفرار في وجهك ؟

ثم لقيه آخر ، فكرر عليه مثل هذه الأسئلة . . ثم لقيه ثالث ، وأعاد عليه هذه الإستفسارات سأله عن سبب تغير سحته ، وضمور حدقة عينه . . . تكون النتيجة - لا شك - التأثير بهذه الإيحاءات . . ويمرض فعلاً . . ويستشعر العلة والسقام حقيقة ، وإن كان صحيحاً سالماً ولم يكن به أي بأس .

إن أطباء النفس يستفيدون من (الإيحاء) في مجال عملهم كثيراً

(١) (الأذكياء) عبد الرحمن بن الجوزي ص : ١١٠ .

لاستصلاح نفوس المرضى إذ ربما كان المريض لا يشكو من مرض عضوي معين، ولا من علة خاصة، إنما يعاني من أوهام وتهيئات لا أساس لها، تراكمت على نفسه فأردته مريضاً، في مثل هذه الحالة، يحاول الطبيب أن يطرد - بشكل أو بآخر - هذه الأوهام من نفس المريض ليعود صحيحاً سالماً.

فالإيحاء، أو الإلقاء النفسي، وسيلة من الوسائل المعروفة لعلاج مثل هؤلاء المرضى ..

وكما يستخدم طبيب النفس هذه الوسيلة لعلاج مرضاه، كذلك تستخدمه وسائل الإعلام، فتسخر الإيحاء النفسي مع الجماهير للتأثير في نفوسهم وأفكارهم، وتوجيههم الوجهة التي تريدها .. وبخاصة في فترات الحروب، تلقي إلى الناس بما تريد، وتوجههم كيف تشاء وتوحي إليهم بمعلومات قد تكون صحيحة، وقد لا تكون ..

ويظهر أن سعيداً كان ملماً بهذه الطريقة، فقد ألقى في روع الخليفة بشيء يهيمه كثيراً وتركه مشغول البال بهذا الموضوع ليله ونهاره .. حتى تحول هذا الإلقاء إلى رؤيا رآها المهدي في منامه .

وهذا ما يقع لكثير من الناس .. إن اهتمامات اليقظة تتحول إلى أحلام، يراها الرائي، دون أن يكون لها أي مفهوم محدد، أو تعبير خاص .. فلا ينبغي التخاوف منها .. ولا يصح البناء عليها .

العلاج :

والعلاج الناجع لدفع هذه المنامات التي لا معنى لها، هو ما كان يفعله رسول الله ﷺ ، إذا أخذ مضجعه .

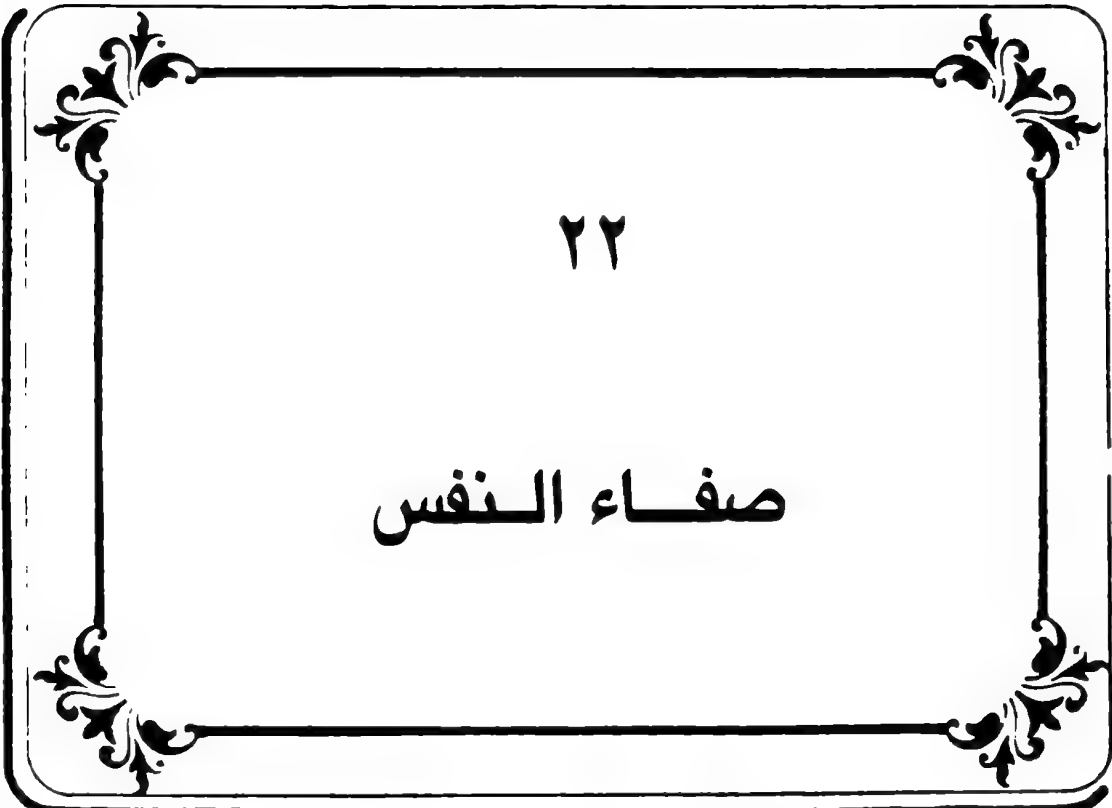
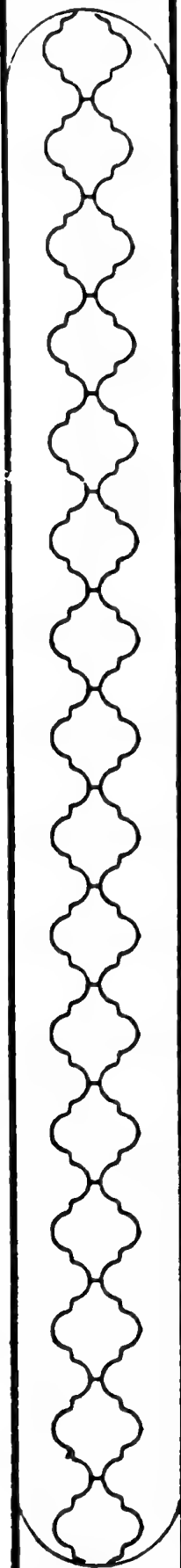
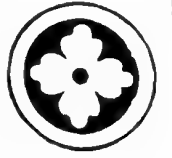
روي عن حذيفة رضوان الله عليه : كان رسول الله ﷺ ، إذا أخذ مضجعه من الليل، وضع يده تحت خدّه ثم يقول : «اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا» وإذا استيقظ قال : «الحمد لله الذي أحيانا بعد أن أماننا وإليه النشور»^(١) .

(١) تفسير الأحلام : عصام الدين محمد علي ص ٣٣ .

والملاحظ في هذا الحديث، أن الرسول ﷺ يسمي النوم موتاً.. .
وذلك إن القاسم المشترك بين الموت والنوم، هو تعطيل الحواس، وربما
مفارقة الروح للبدن، أو، لنقل : مفارقة النفس للبدن ..

وعن براء بن عازب قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا آوى إلى
فراشه، نام على شقه الأيمن، ثم قال : «اللَّهُمَّ أسلمت نفسي إليك،
ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً
ورهبَةً إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت،
وبنبيك الذي أرسلت»^(١) .

(١) تفسير الأحلام : عصام الدين محمد علي ص ٣٣ .



٢٢

صفاء النفس



أكرر القول: إن صفاء النفس وشفافيتها يشكّلان أهم عنصرين للإحلام المريحة الصادقة، ولكن الناس تتلوّث نفوسهم - عادة - باجتراح المعاصي، واتباع سبل الغي، والجنوح للحرام، والميل للهوى... فتشوب نفوسهم شوائب وأكدار مما يمتنع معها تلقي الإلهام من الله تعالى.

من هنا، فإننا بحاجة إلى تربية دائمة للنفس، وترويض لها على الخير، لتكون مؤهلة لاستقبال بشارة الله، وإلهام السماء.

وتطهير النفس لا يتأتى إلاّ باجتناب الشهوات، والملذات الممنوعة، والذنوب المهلكة... فمن الذنوب ما يقف حاجزاً دون الالتقاء بروح السماء ويغلق أبواب الفهم على الإنسان ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

لذا وجب علينا - عقلاً وشرعاً - أن نكابذ بشدّة، لعزل أنفسنا عن الشر، بعد أن أحطنا به، من كل حذب وصوب، وأن نقلع عن ممارسة الفعل القبيح، والقول القبيح، اللذين ينهى عنهما الدين، كالكذب والغيبة، والحقّد على الناس، والإفتراء والخوض في الباطل، والمكر... وما إلى ذلك، فقد اتجه العالم بنا - في هذا الزمن - إلى خواء في الأخلاق والقيم والمثل...

إننا بحاجة للنفس الصقيلة، النقية، أكثر من حاجتنا للحلم الصادق، أما لو كانت النفس محمّلة بأثقال الآثام، محجوبة بكدر الذنوب، فلا تنفعها

(١) سورة المطففين ؛ الآية : ١٤ .

الأحلام في شيء .

والنفس الشفافة تؤدي دوراً كبيراً في حياة الإنسان، في نومه ويقظته، وإذا كان للنفس هذا الأثر الفعال في تصوير الحقائق، وتجسيد الوقائع للإنسان في حال نومه، من خلال الرؤى الصادقة، فالأجدر والأولى أن يكون لها أثر في تبيان الحقائق في حال اليقظة . .

وهي كذلك بالفعل . . فالنفس البشرية تمتلك قدرة عجيبة على اكتشاف الحقائق، ورؤية المستور، وإدراك ما لا تدركه الأعضاء والجوارح . . ولكن تختلف نفوس الناس من شخص لآخر، باختلاف درجة صفاء نفوسهم وطهارتها، فمن كانت نفسه أكثر نقاءً وصفاءً كان أبعد وأعمق نظراً، وأقوى على استكشاف الحقيقة . . بخلاف من ضُعُفَت نفسه، وهانت، وتدنت في المواقف . . فهو يكون أضعف بصيرةً، بل فاقداً للبصيرة، ومعدوم الرؤية، تكتنف الظلمات قلبه .

قال تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نَوْراً فَمَا لَهُ مِنْ نَورٍ﴾^(١) .

إنه نور النفس الذي يستطيع أن يرى به ما لا تراه العين، يستطيع أن يميز بين الخير والشر، والصحيح والسقيم، والحق والباطل .

ويقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فِرْقَاناً...﴾^(٢) .

إن هذه الشفافية في النفس، يصطلح عليها العلم الحديث بـ (العقل الباطن) أو (الحاسة السادسة) لأن هناك إرشاداً وتوجيهاً ذاتياً تقوم بهما النفس، للتعريف على مواطن الصحة والسلامة، أو مواطن السوء والانحراف . . وتقوم النفس بعملية قراءة ما بين السطور .

أما في نصوص الدين الحنيف، فيعبر عنها بتعابير مختلفة، منها : (الفرقان) كما سبق في الآية الكريمة، والفرقان هو المرشد الباطني الذي ينير

(١) سورة النور ؛ الآية : ٤٠ .

(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢٩ .

الدرب في ظلمات هذه الحياة .

يشرح الطبرسي نور الله ضريحه، كلمة الفرقان بهذا الشكل (يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل) (١).

ومنها : بعد النظر، كما ورد في وصف ضرار بن ضمرة لعلي أمير المؤمنين عليه السلام (كان والله بعيد المدى . . .) فلا يمتلك بعد النظر إلا من يمتلك نفساً شفافاً لينظر بعيداً ويكتشف المستقبل بنظرته الشاقبة، كما كانت الحال في أصدق صورها مع الرسول وأهل بيته الكرام .

وربما عبّر عنها بكلمة (النور) لأن الإنسان تمتنع عليه الرؤية والحركة في الظلمة (ظلمة الحياة) إلا بنور من الله عز وجل .

قال سبحانه : ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا . . .﴾ (٢).

والمراد بالميت هنا (الكافر) الجاحد لآيات الله، والمعرض عن الدين، مثله مثل الميت لا ينفع أحداً ولا ينتفع منه أحد، وإن كان حاملاً لكفاءات عالية، وقدرات واسعة كما لو كان - مثلاً - عالماً غزير العلم، وعظيماً في أعين الناس، إلا أنه يبقى عاجزاً في نفسه عن استكشاف الطريق الصحيح، وهو بالتالي ضالّ يعيش ظلمة الكفر والضلالة. بخلاف المؤمن الذي يحمل نفساً بصيرة، ذات رؤية بعيدة وواضحة، عميقة وكاشفة .

قال تعالى : «الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . . .﴾ (٣).

وقال : «قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور» (٤).

(١) مجمع البيان للطبرسي تفسير الآية من سورة الأنفال .

(٢) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٢٢ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٥٧ .

(٤) سورة الرعد ؛ الآية : ١٦ .

وقال : ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور﴾ (١) .

وقال الرسول ﷺ : إتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ (٢) .

والفِرَاسَةُ هي عمق النظر وبعده، واستكشاف المجهول. فمن أين تأتي هذه الفِرَاسَةُ؟

إن مصدر هذه الفِرَاسَةُ في المؤمن، نفسه الطاهرة النقية، وباطنه الذي حرص على أن يبقى سليماً، وقلبه الزكي الذي يَدُلُّه على الصواب ويهديه سواء السبيل قال أمير المؤمنين عليه السلام : (المؤمن نفسه منه في تعب والناس منه في راحة) .

روي عن أحد كبار علمائنا، وهو المرحوم العالم الربّاني، الشيخ عبد الكريم الحائري رحمه الله، وقد كان نزيل مدينة (قُم) ومؤسس جامعها العلمية .

دعاه يوماً أحد الطلبة إلى ضيعة كانت لأبيه، وكان والده تاجراً غنياً يملك بستاناً كبيراً في الضيعة .

استجاب الشيخ لدعوة تلميذه، وحلّ ضيفاً عليهم في البستان، قدّم له البستاني سقطاً من عنب، ومدّ الشيخ يده ليأخذ منه، ولكنه ردّها، ولم يأخذ من ذلك العنب، فتعجبوا من فعله، وأصروا عليه أن يأكل، فلم يفعل .

انفضّ المجلس . . وبقي في نفس هذا الطالب أن يسأل الشيخ عن سبب امتناعه عن أكل العنب، رغم علمه أن الشيخ يحب العنب! فحين اختلى به سأله، فلم يرغب الشيخ أن يفصح عن سبب امتناعه، ولكنه أخيراً - أمام إصرار الطالب - ذكر له السبب .

قال : إن لديّ إحساس يمنعني عن الأكل الحرام، وحين مددت يدي إلى العنب عافته نفسي، وغلب على ظني أنه من حرام، دون أن أقطع

(١) سورة فاطر؛ الآية : ١٠ .

(٢) ربيع الأبرار: ٨٠٧/٢ .

بذلك، فلا يمكن الحكم على الظنون والشبه النفسية.. ولكني في الوقت ذاته أرى أن نفسي لا تكذبني.. ففضلت الإمتناع عن أكله، احترازاً من الحرام المظنون.

تعجب الطالب، وامتلكته حيرة.. كيف يمكن أن يكون هذا العنب حراماً، وهو مجني لتوه من شجر بستانهم؟

عزم على أن يتأكد من ذلك ويسأل أباه، فقد يكون اختلط شيء من الحرام بمال أبيه وهو لا يعلم بذلك.. ولكن الوالد حين سمع بخبر الشيخ أبدى استغراباً شديداً من ذلك، وأكد أن ماله لم يحصل عليه إلا من حل، ولا يشوبه شيء من الحرام.. والخير أن يسأل البستاني الذي باشر تهيئة العنب، ووضعه بين يدي الشيخ، لعله يعرف شيئاً لا يعرفانه.

وبالفعل أرسل الوالد إلى الفلاح، وسأله: من أين جاء بالعنب؟ قال البستاني مستغرباً من هذا السؤال: وهل كان به بأس لا سمح الله؟

قالوا: لا، ولكن الشيخ امتنع عن أكله، وقال إنه من حرام! قال: لقد صدق الشيخ!! إن العنب في بستاننا حامض، والشيخ يفضلُه حلواً، وفي بستان الجيران عنب حلو، تسوّرت حائطهم وجلبت له عنباً حلواً دون علم الجيران..

إن مثل هذا التصرف من البستاني يكون - عادة - مألوفاً بين جيرة البساتين، فربما يأخذ هذا من بستان ذاك، وذاك من بستان هذا بإذن الفحوى، وبالموافقة الضمنية..

ولكن الشيخ أدرك بقوة حاسته النابعة من تمرسه في التقوى، وجهاد النفس، ورسوخ الإيمان، بحيث صفت نفسه، ورأى ما لا يراه غيره، وأحس بما لا يحس به الآخرون.

﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده﴾^(١).

(١) سورة الأنعام؛ الآية: ٨٨.

قد يشترك الجميع - بالفطرة التي فطر الله الناس عليها - في امتلاك الحاسة السادسة، أو ما سميناه بشفافية النفس، وقراءة ما بين السطور، وتبيان الحقائق، إنما المؤمن يتمتع بالقدر الأكبر من ذلك .

ويمكن أن تذبل هذه النفس شيئاً فشيئاً، كلما اقترب المرء من المعاصي، وركب من الآثام وابتعد عن ساحة الإيمان . .

وتصلب وتقوى وتشتد كلما ازداد صفاء ونقاوة في نفسه، بالإيمان والعمل الصالح واجتناب الأخطاء . . كالضيء الذي ربما يكون في كل البيوت، ولكن بعض الناس يمتلك كشافاً يريك أبعد المسافات وينير أكبر حجم من الظلمات .

ومن ميزات النفس المتفرسة، أنها تبحث عن الحقيقة، وتحري الدقة في بحثها حتى تقع عليها، وتستأنس بها .

إن علياً عليه السلام، سبق الناس جميعاً إلى الإسلام، وكذلك خديجة بنت خويلد عليها السلام، أنهما أدركا سريعاً صدق نبي الإسلام، وأنه عليه السلام جاء بخير الدنيا والآخرة، فأعلنا عن إيمانهما به، وتصديقهما له، وقبولهما لما جاء به من عند ربه، دون أي تردد أو تأخر، وقعا على الرأي الصواب بتدليل من تفرس نفسيهما . . في الوقت الذي أشاح الناس فيه جميعاً بوجوههم عن هذا الدين، وأعرضوا عن النبي الكريم .

ولما اعترض البعض على علي عليه السلام قائلاً : هل استشرت أباك حين آمنت بمحمد ؟

أجابه قائلاً : وهل استشار الله أبي حين خلقتني ؟ رأى بفهمه الواسع، ونظره الثاقب أن الطريق الصحيح هو هذا الذي تتبّع فيه النبي عليه السلام (اتباع الفصيل أثر أمه) ففيه صلاح دنياء وآخرته، وإن كان محفوفاً بكثير من الأخطار والأهوال، والتي أحجم بسببها الكثيرون من السير وراء نهج الإسلام الجديد، فمنهم من تأخر إسلامه لضعف فراسته، ومنهم من لم يؤمن أبداً لعمى قلبه .

إن البعض يمتلك من حدة التفرس، وقوة الحدس، ما يمكنه من استطلاع

غيب القلب، وإن كثيراً من الناس يدرك بفطرته وفطنته خبايا نفوس الآخرين،
ومستور ضمائرهم.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام : «ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات
لسانه وصفحات وجهه»^(١).

ولكن يبقى أهل الإيمان والتقى أكثر قدرة على ذلك .

قال شاعر :

كأنك مُطَّلِعٌ في القلوب إذا ما تناجت بأسرارها
فكرات طرفك ممتدة إليك بغامض أخبارها

دخل داخل إلى بيت الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، واستقر به
المجلس ليستمع درس الإمام، ولما انتهى الدرس وتفرق الناس، طلبه
الإمام، وحذّره من أين يحضر جنباً في مثل هذا المكان، فلا يليق به أن يكون
بمحضر الإمام جنباً! وفي حالة نجاسة معنوية! ..

وقد كان الإمام عليه السلام كأنما ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق .
واعتذر الرجل للإمام بأنه خاف أن يفوته الدرس لو ذهب للإغتسال .

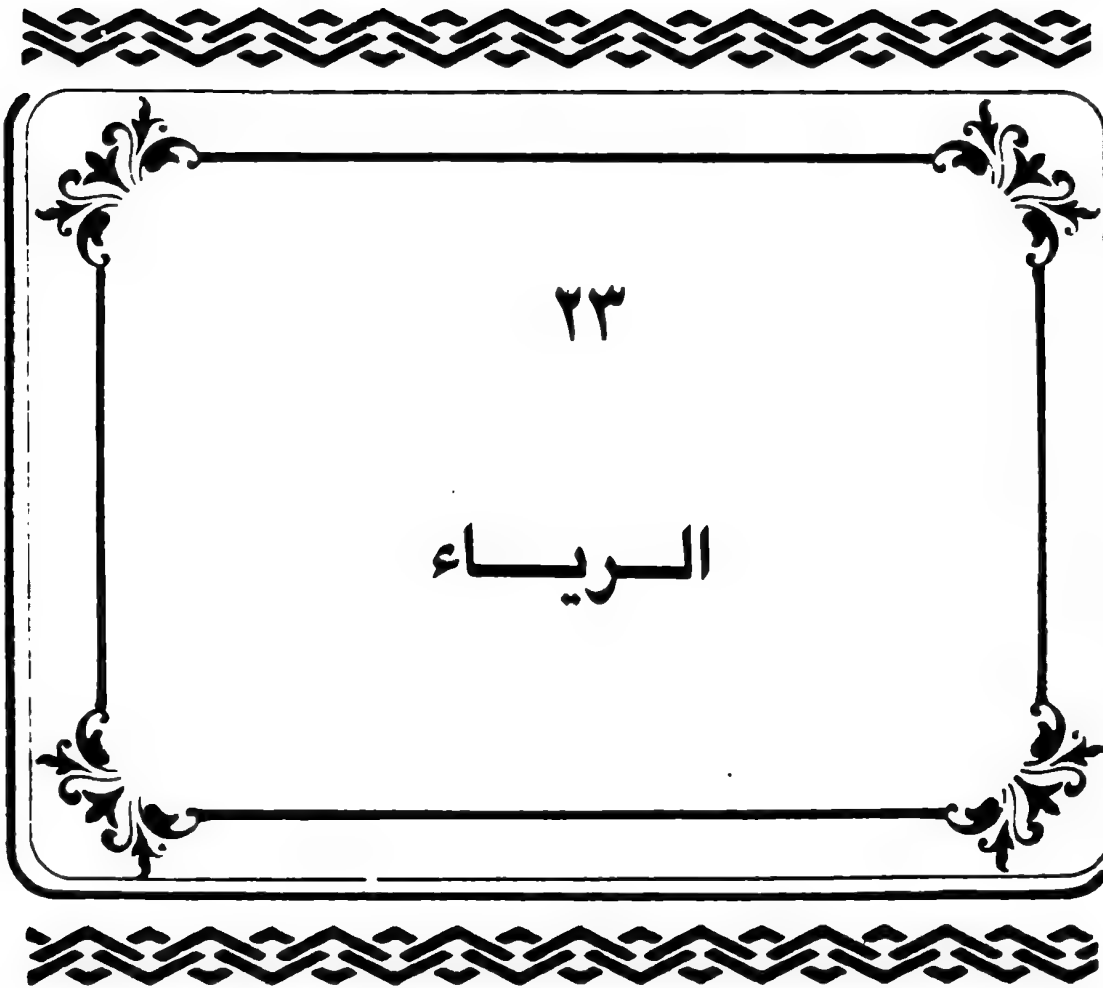
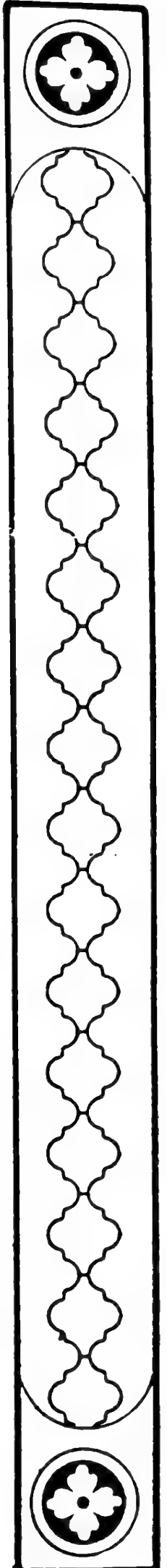
هذه صور عن صفاء النفس وشفافيتها لدى بعض الطاهرين من الناس،
ذكرتها لتكون مثلاً لمن يحاول الوصول إلى علو النفس وشرفها وطهارتها .
ولنحاول جميعاً ترويض نفوسنا على الصفاء والطهارة . . وإن كان في ذلك
بعض الجهد وشيء من المعاناة إلا أن في ذلك راحة للنفس وراحة للناس .

روي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام قوله :

«المؤمن نفسه منه في تعب، والناس منه في راحة» .

نسأل الله العون والمدد في طريق إصلاح النفس وتقويمها .

(١) نهج البلاغة : الكلمات القصار ربيع الأبرار : ٨٠٧/٢ .



٢٣

الرياء

إن الإنسان - بطبعه - لا ينطلق في هذه الحياة إلا بثمرن، ولا يتحرك أية حركة، إلا إذا كان مدفوعاً إليها، ولا يأتي بفعل إلا أن يحقق من ورائه غرضاً معيناً .

التجارة - مثلاً - يبتغي من ورائها الربح والغنى، والزراعة لا يمارسها إلا لطلب الغذاء، وحتى طلب العلم . . إنما يريد أن يصل به إلى غاية منشودة، وهكذا . .

هذا ما يخص الجانب المادي في حياة الإنسان .

كذلك الحال في نشاطاته المعنوية أو الروحية، يريد المرء من ورائها ثمناً أيضاً، ولولا اعتقاده بأن أعماله تُثْمَن عند الله، لما عمل شيئاً قط، والله عز وجل يحدث الناس في بعض الموارد بهذه اللغة أيضاً، لغة الثمن والمثمن، فهو عندما يحثهم على الجهاد في سبيله يدعوهم بهذا الأسلوب :

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمَ الْجَنَّةَ﴾^(١)
فالجهاد بالمال والنفس عملية تجارية مع الله عز وجل، صفقة بيع وشراء، وثمرن ومثمن! وأما كيف تتم هذه الصفقة؟ فيجيب القرآن الكريم :

﴿يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ١١١ .

والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهدِهِ من اللَّهِ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴿(١)﴾ .

هكذا.. يسمي الجهاد بيعاً! ويجعل الجنة له ثمناً، ويفترض المال والنفس بضاعة يقدمها الإنسان المؤمن بين يدي المشتري وهو الله عز وجل .

وورد في الخبر أيضاً : (تاجروا الله بالصدقة) على اعتبار أن المال الذي يتصدق به الشخص يشتري به ما عند الله من الثواب الجميل والأجر الجزيل.. فهي عملية اكتساب وبيع وشراء .

بناء على ذلك، فإن كل سلوك الفرد لا بد وأن يكون مدفوعاً بدوافع معينة، ولا يمكن أن يخطو خطوة عبثاً واعتباطاً من غير أن يفكر في المردود المادي أو المعنوي . .

وقد تكون هذه الدوافع معروفة معينة في بعض الأحيان، وقد تكون لا شعورية، تتطلب معرفتها شيئاً من المجهود والتحليل .

وقد قام علماء النفس (الحديث) بكثير من الدراسات لكي يعرفوا دوافع الإنسان المختلفة، الفطرية والمكتسبة، وأثرها في سلوك الإنسان، وهم يقومون بدراسة كل أنواع السلوك في الإنسان، ويهتمون بها للوصول إلى الغاية المنشودة، إنما الفرق الواضح بين علم النفس الحديث، ومناهج علم النفس الديني، هو أن الإسلام، وضع الحلول والعلاجات العامة الشاملة، عن خبرة إلهية سماوية، بكنه الإنسان وذاته وطباعه لا يحتاج معها إلى دراسة النفوس وأنواع السلوك. بينما يحتاج علم النفس الأرضي، أن يدرس بعمق، أنواع السلوك ليصل إلى الحلول الاحتمالية .

والفرق كبير بين معالجة الدين وبين معالجة العلم الحديث للنفوس.. . ونحن هنا بصدد طرح وجهة النظر الإسلامية، فيما يتعلق بالنفس والسلوك البشري .

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ١١١ .

وبما أن النفس مجبولة على أن تكون وراء نشاطاتها (المادية والمعنوية) دوافع، وضع الله عز وجل لها دافعاً حتى في العبادات والطاعات والقربات وأداء الفرائض .

قال عز وجل : ﴿فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾^(١) .

إنه تعالى أطعمهم وأغناهم ووفر لهم الأمن، وفي المقابل أراد منهم العبادة والطاعة فكأن طاعة الله لها ثمن، وهو الخير العميم والأمن والسلامة . فيكون الدافع وراء الطاعة والوحدانية لله تعالى، طلب الاستغناء والشبع وهدوء البال، وبعبارة أخرى يكرر هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً﴾^(٢) .

إن وحي السماء يؤكد على أن لكل عمل جزاء، كمردود حتمي، سواء كان هذا العمل دنيوياً مادياً، أو كان أخروياً إلهياً .

ولكن يبقى ثمة فارق كبير، بين ما يعمله الإنسان للدنيا، وبين ما يعمله لله وللآخرة . . وهو أن العامل لله وللآخرة لا ينبغي أن يطلب الأجر والثمن من أهل الدنيا، وإلا فسيكون قد أشرك غير الله في ما يتعلق بالله سبحانه . . . وهو ما يُعبر عنه بـ (الرياء) .

ومثال ذلك : من ينفق ماله زاعماً أنه أنفق لله، ولكنه - في حقيقة الحال - يريد بانفاقه الاشتهار بين الناس .

وبعبارة أخرى : يريد أن يجمع بين أجرين : أجر الدنيا وأجر الآخرة، أو الأجر من الناس والأجر من الله، وبذلك تكون الدوافع غير سليمة . . وهذا من العمل الممنوع .

﴿كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾^(٣) .

(١) سورة قريش ؛ الآية : ٣ .

(٢) سورة الجن ؛ الآية : ١٦ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٦٤ .

إن الأعمال الإلهية الصالحة، لا بد وأن تكون مقرونة بالنية الخالصة، من غير شائبة من النوايا الدنيئة، والأهداف المنحطة .

وبين الإخلاص والعمل الصالح، تلازمُ واتصال وثيقين، كتلازم النور للشمس، والروح للجسد، ولا يمكن الفصل بينهما إلا إذا خرج العمل من دائرة الصلاح والتعبد.

والنفس هي التي تتحكم في مثل هذه الموارد.. فهي التي تسمح للعمل أن يبقى خالصاً نقياً من الشوائب، وهي التي تلوّثه بالرياء، وحب السمعة، والتظاهر والتجاهر .

وجاءت تعاليم الإسلام، لتقوم انحراف النفس في هذا المجال، وتحث على الإخلاص وتحذر من الرياء، في مجموعة متكاملة من النصوص الدينية . قال سبحانه وتعالى : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾^(١) .

وقال علي عليه السلام : «...» ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، وقد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية»^(٢) .

تتضمن هذه المقطوعة من كلمات الإمام عليه السلام صوراً متعددة لأهل الرياء والنفاق ولابسي الصوف والثياب المرقوعة لغير وجه الله، الذين يتظاهرون بالعبادة والإخلاص والعمل الصالح، ولكنهم في الحقيقة، ذئاب في ملابس الحملان، يريدون أن يحققوا بأعمالهم هذه مكاسب دنيوية، وأهداف حقيرة.. وما أكثرهم!! .

قال تعالى : ﴿يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾^(٣) .

(١) سورة الكهف ؛ الآية : ١١٠ .

(٢) النص ٣٢، نهج البلاغة .

(٣) سورة النساء ؛ الآية : ١٤٢ .

الرياء لون من ألوان النفاق، ومنشأ النفاق النفسي هو إحساس المنافق بالحقارة في ذاته، وبالأذل في دخيلته.. المنافقون يتصنعون في أقوالهم وأفعالهم ويظهرون للناس على غير حقيقتهم، لكي يعوضوا عن هذا الطريق، ما يشعرون به من نقص وامتهان للذات، ويخففوا به من آلامهم النفسية.

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «نفاق المرء من ذل تجده في نفسه» (١).

الإحساس بالحقارة :

إن الذين تنقصهم القيم الأخلاقية، وينظر إليهم الناس نظرة امتهان وتحقير، يحاولون نيل بعض الكرامة الشخصية، والحصول على بعض الوزن الاجتماعي، فيتوسلون بالمخادعة والرياء، والسبل الخبيثة المضللة، ويتظاهرون بالزهد والتقوى، ويلبسون لبوس الإيمان والصلاح كذباً (كما عبر عنهم أمير المؤمنين عليه السلام) .

إنهم يريدون بالرياء والنفاق استغفال العامة، وحشر أنفسهم - زوراً - في زمرة الصالحين الطاهرين، والفوز بحسن تقدير الآخرين لكي يكونوا مثل المؤمنين الصادقين، محبوبين عند الناس.. فيخفف ذلك إحساسهم بالأذل والضيعة .

وما أحسن ما قال عنهم شوقي في مقطوعته المعروفة (الثعلب والديك) :

بَرَزَ الثَّعْلَبُ يَوْمًا فِي شَعَارِ الوَاعِظِينَا
فَمَشَى فِي الْأَرْضِ يَهْذِي وَيَسُبُّ المَاكِرِينَا
وَيَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَهِ الْعَالَمِينَا

.....
إنهم قالوا وخير القول قول العارفينَا
«مَخْطِئٌ مَنْ ظَنَّ يَوْمًا أَنَّ لِلثَّعْلَبِ دِينًا» (٢)

(١) غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي : ٧٧٧ .

(٢) الشوقيات : ١٥٠/٤ طبع بيروت دار الكتاب العربي .

من صفات هؤلاء المرائين أنهم يحبون المدح والثناء حباً جماً، وخاصة بين عامة الناس من البسطاء والطيبين . . وما هدفهم من أعمالهم (التي تبدو صالحة) والتي يقومون بها، وأدائهم الفرائض الدينية، إلا نيل استحسان الآخرين، والتأثير فيهم وتحقيق مآربهم وأغراضهم ومشتهياتهم الدنيئة، من دون أن يكونوا معنيين بأداء واجباتهم الإسلامية والإنسانية، وإطاعة الأوامر الإلهية .

إنهم لا يفعلون خيراً إلا بشرط أن يكون له صدق في المجتمع، فيراه الناس، أو يسمعون به على الأقل، وإلا فإنهم لا يقيمون وزناً للطهارة والصلاح ولا يعينهم من مقاصد الدين شيء .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : «ثلاث علامات للمرائي : ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويحب أن يحمد في جميع أمورِهِ» ^(١) .

أما المؤمن الصادق، الذي يذكر الله في جميع أحواله، وسِرُّه وعَلَانِيَتُهُ سواء، فهو صالح بتمام معنى الكلمة، دائم الشعور بالمسؤولية، يعمل حسب ما تمليه عليه معتقداته ومبادئه ولا يرضى إلا بتوافق الظاهر مع الباطن والسر مع العلانية، وإلا بتطابق الأقوال والأفعال مع الآراء والأفكار، وتماثل نواياه مع أفعاله، وأفعاله مع نواياه .

هذه الفئة من الناس، تتمتع بقلوب مطمئنة، وإرادة قوية، بسبب اتكالها على الله، وطلبها لمرضاته، تعمل ما تعمل بحزم وإصرار وثقة بالنفس، لا تخاف المشاكل، ولا تقلقها الأحداث، ولا يهملها رضا الناس بأكثر من رضا الله سبحانه .

تلك هي الفئة المطيعة لله بحق، تتميز بخلوص النية، وطهارة القلب، لا تغفل ولا تتنكر لقيمها ومبادئها، وتأبى الدناءة والضعف، وإن كلفها ذلك كثيراً. وهم كما قال علي عليه السلام : «من أخلص النية تنزه عن الدنية» ^(٢) .

(١) الكافي للكليني : ٢٩٥/٢ .

(٢) فهرست الغرر : ٩٣ .

المراؤون في القرآن :

يعرض القرآن الكريم صوراً ومشاهد من رياء العبّاد والمصلين ، فيقول عنهم :

﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون﴾^(١) .

يتلاعبون بالصلاة ويسخرونها لصالح أهدافهم الحقيرة، ويتخذونها وسيلة للإغواء والإغراء. إن الله عز وجل يسمي أعمالهم شركاً كما سبق في الآية (١١٠) من سورة الكهف، وينفي عنهم الإيمان بالله واليوم الآخر كما ورد في الآية (٢٦٤) من سورة البقرة، هذا فيما لو كانت كل أعمالهم رياء ونفاقاً، وقد يكون من بين الناس من يرضخ لهوى النفس ويتبع سبل الشيطان في بعض الأحيان، لا في كل الأحيان، يخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. هؤلاء عليهم أن يكونوا حذرين من الإنجراف في تيار الشيطان واجتناب الرياء في الأعمال، وإلا لكانوا ممن قال الله فيهم :

﴿يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾^(٢) .

ويشير القرآن الكريم إلى موقف مبدئي عظيم، اتَّسم بالإخلاص التام لله، وخلا من أي لون من ألوان الرياء والمخادعة، وتجلّى فيه الإصرار والعزم والحزم، في سورة الدهر، عند ذكر إشار الإمام عليه السلام وأهل بيته الكرام، وإطعامهم المسكين واليتيم والأسير .

وملخص القضية كالتالي : مرض الحسنان عليه السلام ، فنذر علي عليه السلام ، أن يصوم ثلاثة أيام إن عوفي السبطان من مرضهما، وحين سمعت أمهما سيدة النساء فاطمة عليها السلام بذلك، نذرت أيضاً. ولما عافاهما الله، وجب الإيفاء بالنذر .

﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شرُّهُ مستطيراً﴾^(٣) فصام أهل

(١) سورة الماعون ؛ الآيتان : ٥ - ٦ .

(٢) سورة النساء ؛ الآية : ١٤٢ .

(٣) سورة الإنسان ؛ الآية : ٧ .

البيت عليه السلام ، ولما حانت ساعة الإفطار - وكانوا قد هَيَّأُوا أقراصاً من الخبز لإفطارهم - طرق عليهم مسكين ، يسألهم أن يطعموه مما رزقهم الله ، فقدموا له إفطارهم واكتفوا بالماء القراح ، ثم صاموا لليوم الثاني ، ولما كانت ساعة الإفطار - وكان الجوع قد أضرَّ بهم لكونهم لم يذوقوا طعاماً منذ يومين - طرق عليهم هذه المرة يتيم ، يرجوهم أن يطعموه شيئاً . فأعطوه الأقراص وباتوا على الطوى ، وصاموا يوماً ثالثاً ، وفاجأهم وقت الإفطار أسير ، يريد طعاماً ، فأثر أهل البيت الجوعَ ليشبع هذا الأسير . . فعلوا كل ذلك لوجه الله تعالى ، لا يريدون جزاءً من أحد ، بل لم يكن يعرف عن حالهم أحد ، وهذا غاية الإخلاص في الطاعة ، وأعظم الإيثار ، ونهاية الكرم ، إنها نفوسهم الكريمة العظيمة التي تعينهم على الإخلاص وتقبح لديهم المراءات .

قال تعالى عنهم : ﴿وَيُطْعَمُونَ الطعامَ عَلَى حَبِّهِمْ مسكيناً ویتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾^(١) .

نزل القرآن يشيد بهذا الموقف النبيل ، ويسجله ماثرة خالدة لأهل هذا البيت صلوات الله عليهم أجمعين ، ويركز على الإخلاص في هذه البادرة ، وأنهم أرادوا وجه الله حقاً ولم تكن لهم دوافع أخرى ، وأي دافع غير الدافع الديني الإنساني ، يجعل المرء يصبر على الجوع ويبست على الطوى مع أفراد أسرته ثلاثة أيام ؟ .

إن العطاء يحسب عند الله بالكيف لا بالكم ، فلو كان قليلاً خالصاً ، كان خيراً من أن يكون كثيراً شائباً ، ينظر الله تعالى إلى النوايا قبل أن ينظر إلى الأفعال ، فكم من فعل كثير يشوبه رياء ، لا يتقبله الله ، وكم من فعل قليل يتسم بالخلوص والطهارة ، يتقبله الله قبولاً حسناً .

إن الذين أنفقوا من أموالهم على عهد رسول الله ﷺ كثيرون . . وكان ما أنفقوه كثيراً أيضاً . . ولكن القرآن سجل موقفاً لعلي عليه السلام ، وهو ينفق خاتماً يتصدق به على فقير في حال الركوع ، لخلوص هذا العمل ونزاهة صاحبه .

(١) سورة الدهر ؛ الآيتان : ٨ - ٩ .

وزير السلطان طغرل :

كان أبو منصور، وزير السلطان طغرل، رجلاً عالمًا، ومن أهل الدين والتقوى وكان من عاداته بعد كل فريضة، أن يشتغل بالدعاء والذكر والتسبيح، خاصة بعد صلاة الفجر، ثم يذهب بعد ذلك إلى عمله لدى السلطان .

وصادف في بعض الأيام أن جدّت حادثةٌ مهمة للسلطان احتاج معها لحضور الوزير باكرًا، فبعث إليه الخدم لإبلاغه رغبة السلطان العاجلة لحضوره، فذهب الخدم إلى منزله، فصادفوه جالساً على مصلاه مشغولاً بالذكر والتسبيح، فأبلغوه أمر السلطان العاجل بالحضور بين يديه، فلم يلتفت إليهم، فكرروا عليه الأمر مرتين وثلاث، فلم يلق بالاً إليهم، فرجعوا إلى السلطان، وقالوا له : إن الرجل مغرور، ومتمرد، لم يستجب لأمر السلطان، وأوغروا نفس السلطان على الوزير، وأخذ الغضب منه كل مأخذ .

أتمّ الوزير أذكاره وتعقيباته ثم توجه إلى السلطان بعد طلوع الشمس، فوجده غضباناً وصرخ في وجهه قائلاً : لماذا تأخرت عني، وقد بعثت إليك أستعجلك الحضور؟

أجاب الوزير : أيها السلطان، أنا عبد الله أولاً، وخادم السلطان طغرل ثانياً، يجب عليّ أداء حق العبودية لله أولاً، ثم خدمتك وأداء حقك !! .

نبت هذا الكلام من أعماق قلب الوزير، وبنية خالصة، مما ترك أثراً عميقاً في نفس السلطان وضميره . . ودمعت عيناه وراح يشيد به ويحترمه ويشكره ويقول :

صدقت أيها الوزير، عبادة الله مقدمة على طاعتي، وقد كبرت في نفسي اليوم كثيراً .

ثمّة نفوسٌ كبيرة، ترفض السفساف، والنزول بعمل الآخرة للدنيا، فهم المخلصون الصادقون وثمّة نفوس صغيرة تافهة تباع الآخرة بالدنيا، وترضى بالقليل الفاني على الكثير الباقي وأصحاب هذه النفوس يعملون لله في ظاهر الحال، ولكنهم - في واقع الأمر - يريدون الثمن من الناس .

ينقل الطوسي رحمه الله خبراً عن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام ، عن
آبائه عن علي أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : أتاه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ،
والله إنني لأحبك في الله .

فقال له الإمام عليه السلام : ولكني أبغضك لله !! .

قال : وَلِمَ ؟

قال : لأنك تبغي في الأذان كسباً ، وتأخذ على تعليم القرآن أجراً ، وقد
سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «من أخذ على تعليم القرآن أجراً كان حظه
يوم القيامة» (١) .

ومعلوم أن أخذ الأجر على الأعمال الدينية ، لا يتفق مع كونها يُراد بها
الإخلاص والقربة ووجه الله تعالى ، فإن كانت لله فليأخذ الثمن من الله ، وإن
كانت للناس فقد ضيّع أجر الآخرة .

وورد عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه سأله رجل : يا رسول الله ، فيم النجاة؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «أَلَّا تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَتَرِيدَ بِهَا النَّاسَ» (٢) .

وفي الحديث أيضاً : «من راعى ، راعى به الله ، ومن سَمِعَ ، سَمِعَ به
الله» (٣) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً : «إن الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به ، فإذا
صعد بحسناته يقول الله عز وجل : اجعلوها في سجين ، إنه ليس إِيَّاي أراد
بها» (٤) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا :
وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟

قال : «الرياء ، يقول الله تعالى إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى

(١) التهذيب ، باب المكاسب : ٣٧٦/٦ ، والوافي ، باب شرائط الأذان .

(٢) - (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٩٩/١ طبع بيروت دار مكتبة الحياة .

(٤) أصول الكافي ، كتاب الإيمان والكفر ، باب الرياء .

الذين كتم تراؤونهم في الدنيا، فاطلبوا جزاءكم منهم»^(١).

وقد ورد التعبير عن الرياء بالشرك، في أخبار كثيرة وأحاديث متعددة، وهو شرك في العمل، لا في العقيدة.

ففي حديث شداد بن أوس «إني تخوفت على أمتي الشرك، أما إنهم لا يعبدون صنماً، ولا شمساً ولا قمرأً، ولكنهم يراؤون الناس بأعمالهم»^(٢).

إن الرياء والتلون ينظر إليهما الإسلام، على أنهما من السيئات الأخلاقية لا ياتي بهما إلا ذوو النفوس المنحطة، وقد نهى الرسول ﷺ وكذلك الأئمة الطاهرون عليهم السلام عن ذلك نهياً شديداً، حتى عبروا عن هذا الفعل القبيح بالشرك وقد سبق القرآن الكريم بتسميته شركاً، لأنه فضلاً عن كونه فساداً أخلاقياً، وعملاً غير صالح، فهو يتنافى مع عقيدة التوحيد في العبادة.

إن الذين يعملون رياءً وتظاهراً وجلباً لرضا الناس، هم أشبه بالذين يجعلون الأصنام شركاء لله يعبدونها من دونه سبحانه، بفارق واحد، هو أن معبودات المشركين مشهودة، وشركهم علني.. بينما المراءون يعبدون الأصنام الباطنية المستورة، فيكون شركهم خفياً، لا يعلم به الناس، ولكنهم أنفسهم يعلمون بانحرافهم النفسي الأخلاقي.

عن الصادق عليه السلام : «الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله، إنما يطلب تزكية الناس، يشتهي أن يسمع به الناس، فهذا الذي أشرك بعبادة ربه»^(٣).

في هذا الكون الشاسع، يحيا آلاف المخلوقات التي ذراها الله عز وجل، وهي تحيا بفطرتها وغرائزها، لا تحيد عما رسم لها الله من منهج حياتي، ولا تريم عن هداها.. والإنسان من بينها هو الكائن الوحيد الذي خلقه الله حراً في عالم الطبيعة، وهو الوحيد القادر على التلون والتظاهر خلافاً

(١)-(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٩٩/١ طبع بيروت دار مكتبة الحياة.

(٣) سفينة البحار للمحدث القمي : ٤٩٩/١.

لحقيقته وواقعه، فيراثي وينافق، ويتخذ صوراً وأشكالاً غير حقيقية.. أما سائر المخلوقات، فلا تملك هذه القدرة، للنبات نظام في الخلق لا يقدر أن يحيد عنه، وللحيوان نظام في هذا الكون لا يملك أن يخالفه في شيء. هل سمعتم عن نبتة معينة غيرت لونها، أو بدلت طعمها، أو استعاضت عن رائحتها برائحة غيرها، لإغراء بني البشر، والضحك على ذقون الناس؟

هل استطاع (الحنظل) أن يظهر نفسه حلواً في يوم من الأيام؟

هل يملك الأسد أن يتظاهر بالوداعة والإلفة أمام الآخرين؟

كل ذلك لا يمكن أن يقع إلا من الإنسان، فالحيوان محصور ضمن نطاق الغرائز، لا مناص له من العمل وفق ما تمليه عليه هذه الغرائز دون أن يتخطاها قيد أنملة.. وكل الخلق كذلك.

الإنسان وحده الذي خلق حراً طليقاً بقضاء إلهي حكيم، فهو وحده القادر على أن يظهر بشخصية غير شخصيته الحقيقية، ويخفي شخصيته الحقيقية، ويظهر بصورة مغايرة للواقع، فلو فعل ذلك بقصد الرياء وكسب السمعة، وبنوايا سيئة فقد أساء الفعل وأشرك، وحبط عمله عند الله.

قال عليه السلام : «يؤتى يوم القيامة بالرجل قد عمل أعمال الخير كالجبال - أو قال كجبال تهامة - وله خطيئة واحدة، فيقال : عملتها ليقال عنك.. وذاك ثوابك، وهذه خطيئتك، أدخلوه بها إلى جهنم»^(١).

وقال عليه السلام : «ليست الصلاة قيامك وقعودك، إنما الصلاة إخلاصك، وأن تريد بها الله وحده»^(٢).

يطلب الملك بالصلاة :

وكان عبد الله بن الزبير، أيام استيلائه على الحرمين يحشد التأيد لنفسه، ويحاول استمالة الوجوه إليه، ويطلب البيعة من هذا وذاك، ويستقطب مشاهير الأمة لإسناد حركته، ودعم قضيته، وكان قد قام في وجه الأمويين واستقل بمكة، واعتصم فيها فتوصل إلى امرأة عبد الله بن عمر - وهي أخت

(١) (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢٦٢/١ .

المختار بن أبي عبيد الثقفي - في أن تكلم بعلمها عبد الله، أن يبايعه، فكلّمته في ذلك، وذكرت صلاته وقيامه، وصيامه . . فقال لها: أما رأيت البغلات الشهب التي كنا نراها تحت معاوية بالحجر إذا قدم مكة؟ قالت: بلى. قال: فإياها يطلب ابن الزبير بصومه وصلاته. قال الشاعر:

صَلَّى وصام لأمر كان يطلبه حتى حَوَاهُ فلا صَلَّى ولا صاما

وكان أحد العباد يؤدي صلاته جماعة في الصف الأول كل يوم، واستمر على ذلك ثلاثين عاماً، ولكنه - في بعض الأيام - تأخر في الحضور قليلاً، فاحتل مكانه مُصَلٍّ آخر فاضطرّ لأداء الفريضة في الصف المتأخر، ولما انتهت الصلاة نظر إليه المصلون فرأوه متأخراً عن الصف الأول، فشعر بالخجل والضيق من كونه في صفوف متأخرة.

وهنا تبادر إلى ذهنه أن صلواته الماضية خلال السنوات الثلاثين التي انصرمت، كانت كلها ملوثة بالرياء، وأنه كان يميل في نفسه إلى أن يراه الناس متقدماً في الصف الأول، ما الذي يجعله الآن يخجل من الوقوف في الصفوف المتأخرة؟ أهى صلاة وعبادة؟ أم هي مقامات ودرجات دنيوية؟ . .

اكتشف الآن أنه كان - منذ ثلاثين عاماً - مرئياً، أشرك في نية الصلاة غير الله فما كان منه إلا أن أعاد صلواته عن السنوات الثلاثين الماضية قضاءً، لأنه أدرك سوء عمله، فتداركه قبل فوات الأوان^(١).

يريد الله تعالى منا حسن العمل لا كثرته، يقول تعالى: ﴿لِيُكَمِّمَ أَيْكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾^(٢) ولم يقل: أَيْكُمْ أَكْثَرَ عَمَلًا، ذلك أن الاعتبار بنوع العمل، من حيث امتلاكه لشرائط الصحة والقبول، ومدى كونه خالصاً لله تعالى، وليس بالكثرة، فالكثرة وحدها لا تنفع في شيء.

والعمل لو كان مقروناً بالرياء، عمل سيئ وإن كان كثيراً، والرياء في حد ذاته - مرض من أمراض النفس، أجرانا الله وإياكم منه، وهو زيف عن الفطرة السليمة الأصيلة، وقد نهى القرآن الكريم في أكثر من مورد، سبق

(١) السيد عبد الحسين دستغيب (القلب السليم): ٩٠/٢ .

(٢) سورة المُلْك ؛ الآية : ٢ .

وذكرنا بعضها، منها قوله تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثلته كمثله صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ (١) .

يشبه الله عز وجل عمل أهل الرياء، بالصخرة التي عليها تراب، هطلت عليها أمطار الرحمة التي يفترض أن تروي الأرض، فتخرج النبات . . وتعود بالنفع على عباد الله جميعاً . . ولكن هذه الأمطار اصطدمت بصخرة صماء صلبة، فازاحت عنها التراب، وتركتها جرداء ملساء، فلا هي استفادت من هذا الخير ولا تركت المطر يروّي بذور النبات .

كذلك حال المرائي، أتى بفعل الخير، ولكن رياءه فيه أتى على أجره، فلا استفاد في دنياه ولا في آخرته، لم يبق له إلا العناء ﴿خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ .

والمرائي حال ريائه لا مكان للإيمان في قلبه، وهو معنى قوله تعالى ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ .

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، أنه قال لعباد بن كثير :

«ويلك يا عبّاد، إياك والرياء فإنه من عمل لغير الله، وكله الله إلى من عمل له» (٢) .

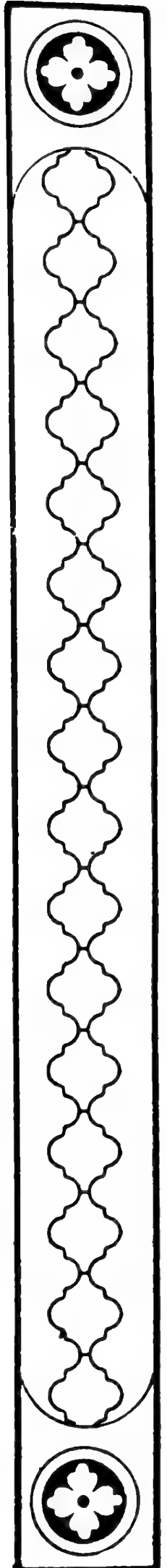
وعن الإمام الباقر عليه السلام : «الإبقاء على العمل أشد من العمل» قيل : وما الإبقاء على العمل؟

قال عليه السلام : «يصل الرجل بصلّة، وينفق لله وحده لا شريك له، فتكتب له سراً ثم يذكرها فتكتب له علانية، ثم يذكرها فتمحى وتكتب له رياء» (٣) .

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٦٤ .

(٢) أصول الكافي ، كتاب الإيمان والكفر باب الرياء .

(٣) المصدر السابق .



كما في علم النفس، طرق شتى لعلاج أمراض النفس، كذلك في بحوث الدين، علاج نفسي لكثير من الأمراض التي تعترى النفس، وتقض المضجع، وتوخز الضمير .

والعلاج الديني، أسلوب توجيه، وإرشاد، وتربية وتعليم، وتزكية للنفس.. لا بد فيه من معرفة الفرد لنفسه أولاً، ثم لدينه وربّه .

ويقوم العلاج على القيم والمبادئ الروحية والأخلاقية .

والمراد بهذا العلاج، تحرير الفرد من إحساسه بالذنب والخطيئة التي تهدد طمأنينته وأمنه النفسي، والأخذ بيده للخروج من ظلمات النفس الملوثة بالمعاصي والذنوب والخطايا .

ويتمثل هذا العلاج في الإتصال (النفسي) بالله عزّ وجلّ، القوّة المهيمنة على الكون، والتوجه إلى السماء بالوقوف بين يدي الله سبحانه عن طريق الدعاء، والتوبة، والإنابة، والإقرار بالذنب، ومحاسبة النفس، وإظهار الندم الواقعي فيها.. وبذلك يجد نفسه قد انسَلَّ من بين مخالب هذه الخطايا التي كانت تحيط به .

والقرآن الكريم يؤكد : إن من الذنوب والسيئات ما يحيط بالنفس، ويغلق دونها أبواب الرحمة والانفراج، كما يحيط قطاع الطريق بالمسافر، ولا تدع هذه الذنوب أن تفلت النفس من آثارها ونتائجها فتمنع وصول النور إليها .

﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾^(١) .

والعلاج الوحيد في هذه الحالة أن يتوجه إلى القوة المهيمنة على الكون كله، إلى الله جل وعلا بالتوبة والإستغابة، عندئذ يجد المخرج، وتتحرك النفس من شوائبها وأمراضها، ويخرج المرء إلى روح الله ورحمته .

ويمر العلاج الديني بمراحل عدّة حتى يصل المؤمن بعدها إلى نتيجة ملموسة محسوسة وهذه المراحل تكون كالتالي :

١ - الاعتراف والإقرار بالذنب :

وقد قيل (الاعتراف بالخطأ فضيلة) وإن كان ثمة من يشك في كون الاعتراف بالخطأ مع الناس فضيلة، فهو مع الله تعالى من أفضل الفضائل، ويدلّ على سمو النفس وعلوّها، وهو يتضمن شكوى النفس إلى بارئها، طلباً للخلاص والغفران، وفيه إفشاء بما في النفس إلى الله تعالى .

والاعتراف يزيل مشاعر الخطيئة والإثم، ويخفف من عذاب الضمير، ويظهر النفس المضطربة ويعيد إليها طمأنينتها .

ولسنا - نحن العبيد الخاطئون - بدعاً في إقرارنا بذنوبنا، واعترافنا على أنفسنا، بل أول من فعل ذلك أبونا آدم، وأُمنّا حواء، قال تعالى على لسانهما :

﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾^(٢) .

ولئن كان المسيحي يقرّ على نفسه، ويعترف بذنبه بين يدي عبد مذب مثله، فنحن نعترف على أنفسنا بين يدي رب العزة سبحانه، والاعتراف بالذنب يبقى سراً بيننا وبين الله لا يطلع عليه أحد .

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٨١ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٢٣ .

إن الذنوب والخطايا أوزارٌ وأثقالٌ تُثقل كاهلَ النفس، وتعصرها، والإقرار بها عند الله تعالى يزيح هذه الأثقال، ويريح النفس، ويدعها حرةً طليقة، تسمو إلى الله عز وجل في هدوءٍ وراحة، لتستقر بين يديه، وفي رحاب رحمته الواسعة، ومغفرته الكريمة .

وتسبق الإقرار والاعتراف، حالة التهيؤ لذلك، والاستعداد النفسي للإقرار بالذنب لا بدّ فيها من محاسبة النفس أولاً، ومحاکمتها ذاتياً . .

والمحاسبة لا تعني لوم النفس فحسب بل هي بمعنى نقد الذات، نقداً ينتج عنه الإطمئنان والراحة والاستقرار، وهو ما كان يفعله الأنبياء والأوصياء والأولياء وعباد الله الصالحون . . والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، كانوا يفعلون ذلك، ربما لمحاسبة أنفسهم، وربما لتعليم الآخرين وتربيتهم على هذه الطريقة، يوحون إليهم (بالنقد الذاتي) .

كما أن محاسبة النفس ووضعها تحت المراقبة، والإرصاد لها، من أهم العوامل الوقائية التي تمنع زيغها وسقوطها في المهالك، ومن ثمّ تهيتها للمثول بين يدي الله .

والمحاسبة في كثير من الأحيان تشكل الوقاية من الزلة قبل الوقوع فيها وقد قيل (الوقاية خير من العلاج) كما ورد في الحديث الشريف: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنُوا قبل أن توزنوا وتجهزوا للعرض الأكبر»^(١) .

وروي عن أبي الحسن الماضي عليه السلام : «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل صالحاً ازداد الله شكراً وإن عمل سيئاً استغفر الله وتاب»^(٢) .

ويبدو من هذا القول المأثور أن المحاسبة هي بمعنى النظر والتأمل في ما أتى به الإنسان من قول وعمل، صالحاً كان أو سيئاً، عليه أن يتوقف نهاية كل يوم قليلاً ليتأمل ماذا فعل في يومه هذا، فإن كان خيراً صالحاً فرح به وشكر الله تعالى أن وفقه للخير والعمل الصالح . . وإن كان شراً وسوءاً - والعياذ

(١) - (٢) كتاب (محاسبة النفس) لعلي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس : ١٣ .

بالله - لام نفسه وحاكمها على ذلك، وتاب وأناب إلى الله تعالى، وعاهد الله أن لا يعاود الكرّة إلى مثل هذه الأعمال، وبهذا الشكل يكون قد أنهى يومه على خير وجه، ونام قرير العين مطمئن البال، توطدت علاقته بالله عز وجل، وتعمّق إيمانه به.

روي عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام قال :

«لا يكون العبد مؤمناً حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه والسيد عبده...»^(١).

وروي عن الصادق عليه السلام :

«ما من يوم يأتي على ابن آدم إلّا قال ذلك اليوم: يا ابن آدم، أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فافعل بي خيراً، واعمل فيّ خيراً، أشهد لك يوم القيامة فإنك لن تراني بعدها أبداً»^(٢).

إننا نعتقد أن أعمالنا يراها الله عز وجل ويطلع عليها، وشبّتها الملكان الموكلان بالإنسان في صحيفة أعماله ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾^(٣).

﴿ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾^(٤).

بل أكثر من ذلك، إن الأعمال (أعمال العباد) تعرض كلّ يوم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيراها ويطلع عليها، فإن كانت حسنة فرح بها، وإن كانت سيئة ساءه ذلك، فالرقابة دائمة علينا، وإننا لا نخلو من عين الله في كل حال، إذن لا بد من محاسبة النفس محاسبة دقيقة وملاحظة الأقوال والأفعال ملاحظة جادة.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾^(٥).

(١) (٢) محاسبة النفس لعلي بن موسى بن طاووس : ١٣ .

(٣) سورة غافر ؛ الآية : ١٩ .

(٤) سورة ق ؛ الآية : ١٨ .

(٥) سورة التوبة ؛ الآية : ١٠٥ .

وروي عن أبي سعيد الخدري : إن عماراً قال : يا رسول الله وددت أنك
عمرت فينا عمر نوح عليه السلام فقال عليه السلام : «يا عمار : حياتي خير لكم ،
ووفاتي ليس بشراً لكم أما في حياتي فتحدثون وأستغفر الله لكم ، وأما بعد
وفاتي فاتقوا الله وأحسنوا الصلاة علي وعلى أهل بيتي ، فإنكم تعرضون عليّ
بأسمائكم وأسماء آبائكم وقبائلكم فإن يكن خيراً حمدت الله ، وإن يكن
سوءاً أستغفر الله لذنوبكم» .

فقال المنافقون والشكّاء والذين في قلوبهم مرض : يزعم أن الأعمال
تعرض عليه بعد وفاته ، إن هذا لهو الإفك ، فأنزل الله ﴿وقل اعملوا...﴾ .
ف قيل له عليه السلام : ومن المؤمنون؟ فقال عليه السلام : هم آل محمد عليه السلام
والأئمة منهم عليهم السلام (١) .

من هنا ، ورد الاستحباب ، أن يستغفر المرء بهذا الاستغفار آخر كل
خميس :

(أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، توبة عبد
خاشع خاضع مسكين مستكين مستجير ، لا يستطيع لنفسه صرفاً ولا عدلاً
ولا نفعاً ولا ضرراً ولا حياة ولا موتاً ولا نشوراً ، وصلى الله على محمد وعترته
الطيبين الطاهرين الأبرار وسلم تسليماً كثيراً) (٢) .

وعن الكليني بإسناده قال : كان علي عليه السلام إذا أمسى قال : (مرحباً
بالليل الجديد والكاتب الشهيد ، اكتباً ، بسم الله) ثم يذكر الله عز وجل (٣) .

إن الحزم والتعقل يحتمان على الإنسان أن يقيّد نفسه بالمحاسبة ،
ويملكها بالمغالبة ، وإن من سعادة النفس أن يتدب المرء لمحاسبتها ،
ويطالبها بما أتت به في يومها ، ويتحرى الدقة في المحاسبة ، ليطمئن أنه نأى
بنفسه عن مواطن الزلل والشقاء .

عن النبي عليه السلام : «قيّدوا أنفسكم بمحاسبتها واملكوها بمخالفتها ،

(١) - (٢) محاسبة النفس لعلي بن طاووس : ٢٢ .

(٣) محاسبة النفس لعلي بن طاووس : ٢٢ .

تأمنوا من الرعب، وتدرکوا عند الرغب»^(١) .

وعنه عليه السلام أيضاً : «الكيس من دان نفسه»^(٢) .

وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام : «إذا آويت إلى فراشك فانظر ما سلكت في بطنك، وما كسبت في يومك، واذكر أنك ميت، وأن لك معاداً»^(٣) .

وعن أبي الحسن الماضي عليه السلام : «ليس منا من لم يحاسب نفسه كل يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه»^(٤) .

وفي دعاء الصباح والمساء من أدعية الصحيفة السجادية، قال زين العابدين عليه السلام :

(. . .) وهذا يوم حادث جديد، وهو علينا شاهد عتيد، إن أحسنّا ودّعنا بحمد، وإن أسأنا فارقنا بدم، اللهم صلّ على محمد وآله، وارزقنا حسن مصاحبته، واعصمنا من سوء مفارقتة، بارتكاب جريرة، أو اقتراف صغيرة أو كبيرة، وأجزل لنا فيه من الحسنات، وأخلينا فيه من السيئات)^(٥) .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بينما هو مستظّل بظلّ شجرة، في يومٍ شديد الحرّ، إذ جاء رجل مُنزِع الثياب، ثم جعل يتمرغ في الرمضاء، يكوي ظهره مرة وبطنه مرة وجبهته مرة، ويقول : يا نفس ذوقي، فما عند الله أعظم مما صنعت بك، ورسول الله ينظر إليه ما يصنع، ثم إن الرجل لبس ثيابه ثم أقبل، فأوماً إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيده، ودعاه فقال له : يا عبد الله، لقد رأيتك صنعت شيئاً ما رأيت أحداً من الناس صنعه، فما حملك على ما صنعت؟

فقال الرجل : حملني على ذلك مخافة الله، فقلت لنفسي : يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم مما صنعت بك فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لقد خفتَ

(١) - (٢) محاسبة النفس لتقي الدين العاملي : ٥ .

(٣) بحار الأنوار للمجلسي : ١٩٠/٧٦ .

(٤) محاسبة النفس لتقي الدين العاملي : ٥ .

(٥) الصحيفة السجادية، دعاء الصباح والمساء .

ربك حقَّ مخافته، وإن ربك ليباهي بك أهل السماء .

ثم قال لأصحابه : يا معشر من حضر، أدنوا من صاحبكم حتى يدعوا لكم، فدنوا منه فقال : (اللَّهُمَّ اجمع أمرنا على الهدى، واجعل التقوى زادنا، والجنة مأبنا) (١) .

إن بعض الناس يرى مثل هذه القضايا تخصّ كبار السنّ، ممن صاروا على حافة الموت، عليهم أن ينظروا لأنفسهم، ويحاسبوها استعداداً للرحيل، أما الشاب الذي لا زال يستقبل الحياة فلا تعنيه هذه النصائح من قريب أو بعيد، ويظل سادراً في هواه وغيبه غافلاً عن أن الموت قد لا يمهله حتى يبلغ سن الشيخوخة، وأن الأجل قد يكون له بالمرصاد، وأن الشباب الذي يترصد لنفسه بالمغالبة والمحاسبة، لهو من خيرة الشباب المؤمن الصالح . . وإن التسويف والمماطلة في الاستعداد للموت، معناه التماذي في الغي والغفلة والإعراض عن الواقع والحقيقة وهو بالتالي، نوع من أنواع الانحراف النفسي الذي يحتاج معه إلى العلاج .

يقول شاعر :

المرء مرتهن بسوف وليتني وهلاكه بالليت والتسويف

إن تأخير محاسبة النفس، قد يلوّثها بشكل لا يستطيع معه إصلاحها، والتفكير لها حتى في السنين المتأخرة من حياته . فمن أدمن السيئات وارتكاب المحارم، واجترأ الموبقات، ولم يحاول إيقاف فورة النفس في حدود معينة في أيام الصبا والشباب، تعرّس عليه ذلك بعد تلك المرحلة .

يقول شاعر :

وما أقبح التفريط في زمن الصبا فكيف به والشيب للرأس شامل

إن النصائح والإرشادات الدينية، والنصوص الشرعية المختلفة، لم تصدر لفئة معينة دون فئة أخرى، بل هي للجميع للشباب والشيخ والرجال

(١) محاسبة النفس لتقي الدين العاملي : ٥ .

والنساء، وقد كانت كوكبة من الشباب تحيط برسول الله ﷺ ، وكانوا أكثر التصاقاً به، وكان هو أشدَّ اهتماماً بهم ، فكان التركيز على هؤلاء الفتية في التوجيه والإرشاد أكثر من غيرهم . . . ثمة نصائح وإرشادات وتعاليم خصَّ الرسول ﷺ بها مجموعة من أهل بيته وأصحابه وجلَّهم من الشباب، من ذلك ما خاطب به أبا ذر الغفاري رضوان الله عليه، قائلاً:

«يا أبا ذر، إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري ما اسمك غداً»^(١) .

وسألت عائشة رسول الله ﷺ ، قالت :

يا رسول الله هل يُحشر مع الشهداء أحدٌ ؟

قال ﷺ : «نعم، من يذكر الموت في اليوم واللييلة عشرين مرة، لأن ذكر الموت يوجب التفاني عن دار الغرور، ويميت الشهوات في النفس، ويقطع منابت الغفلة، ويقوّي القلب بمواعد الله . . .»^(٢) .

٢ - التوبة :

بعد التمهيد للتوبة بالمحاسبة والإقرار نبدأ بسلوك طريق المغفرة، وغسل أدران الماضي عن النفس . . نبدأ بالتوبة والاستغفار، والعودة إلى الله تعالى، لقد اعددنا قائمة بالسيئات والخطايا التي اجترحناها لعرضها على الرب الرحيم، والاعتذار منها بين يدي الله .

والتوبة تعني الأمل الكبير بالله عزّ وجلّ، إنها تجعل العبد يشعر بالتفاؤل والراحة النفسية بعد عناء شديد من الإحساس بالذنب، تجعله يعود إلى ذاته فيقبلها بعد أن كان رفضها وحقرها .

وطبيعي أن يكون ابن آدم خطّاء (وخير الخطّائين التوابون) .

(١) محاسبة النفس، تقي الدين العاملي : ٦٣ .

(٢) محاسبة النفس، تقي الدين العاملي : ٧٢ .

إن التوبة تعني الاعتذار لله عز وجل مما بدر منا من الأخطاء والمعاصي، ولا شك أن الله تعالى يقبل أعتارنا، ولا يخيب آمالنا، ولا يردنا عن بابه خاسرين.. كيف وقد أدبنا وعلمنا أن لا نرد عذراً لمعتذر، وأن نقبل الإقالة، وأن نتخلق بالإغضاء عن ذنوب الناس، والتغافل عن إساءاتهم تجاهنا.

قال عليه السلام : «من لم يقبل من متصل صادقاً كان أو كاذباً، لم يرد علي الحوض»^(١).

وعنه عليه السلام : «تجافوا لذوي الهيات عن زلاتهم»^(٢).

وعنه أيضاً : «إن الله يحب أن يعفى عن زلة السري»^(٣).

إن أصحاب النفوس الكبيرة، والأخلاق العالية، هم الذين يتصفون بهذه الصفة (الإغضاء عن الإساءة) والتنازل عن حقوقهم في الإنتقام والرد بالمثل.

﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾^(٤).

﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾^(٥).

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام : «العفو زكاة الظفر».

وإذا كان الله عز وجل أحب منا اغتفار الإساءات، والإعراض عن أخطاء الناس فهو أولى من عباده بهذا الخلق الرفيع، والصفة العالية، إن الإنسان خطأ بفطرته، ميال إلى الزيف، متعثر، لا يمكن أن يسلم من كيد الشيطان، ولا من حبائل النفس الأمارة بالسوء يتهاوى في كل آن، ولا بد له من عون، ولا يستغني عمن يأخذ بيده إذا هوى.. وهو بحاجة إلى وسيلة تنجده وتنقذه من المهالك والسقطات التي يتعرض لها في كل وقت لذا فتح الله له باب الاستغفار والتوبة على مصراعيه، وأذن له في الدعاء والإنابة، وأفهمه

(١) - (٣) ربيع الأبرار للزمخشري : ٧٢٦/١.

(٤) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٣٤.

(٥) سورة الشورى ؛ الآية : ٣٧.

أن لا يئأس من رحمة الله ومغفرته، فالله عز وجل:

﴿غَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾^(١).

﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢).

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَقَبَّلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾^(٣).

وإنه «يحبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»^(٤).

وإنه تعالى يريد اقناع المذنبين بقبول توبتهم بكل أسلوب، وبكل وسيلة، من خلال آي الذكر الحكيم .

إن ملف التوبة والاستغفار في القرآن ملف ضخم كبير، استخدم فيه الباري عز وجل أساليب مختلفة لطمأنة النفوس الزائغة المريضة، بتوفر العلاج الحاسم والدواء الناجع لأمراضهم النفسية التي تسببت الذنوب والمعاصي فيها، فتارة يوجه الخطاب المباشر للمؤمنين ويعرض عليهم التوبة، ويدعوهم إليها بأسلوب قرآني بديع، وبلغة متينة، لا تدع مجالاً للشك في قبول التوبة .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾^(٥).

وتارة أخرى يطمئن أولئك الذين بالغوا في الذنب، وأسرفوا في الخطيئة، بأنه تعالى سيغفر لهم ويتوب عليهم، وإن عليهم أن لا يقنطوا من رحمة الله، ولا يقطعوا الأمل به سبحانه، ولا يئأسوا من برد عفوه وحلاوة غفرانه، فيخاطب العباد جميعاً على لسان نبيه ﷺ قائلاً :

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ

(١) سورة طه ؛ الآية : ٢٠ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٦٧ .

(٣) سورة الشورى ؛ الآية : ٢٥ .

(٤) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٢٢ .

(٥) سورة التحريم ؛ الآية : ٨ .

الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم»^(١) .

والمتبع لأي الذكر الحكيم، قد لا يجد صفحة في القرآن خالية من آيات المغفرة ووعود التوبة، حتى إن بعضهم أفرد كتاباً شاملاً لآيات الرحمة والغفران في القرآن، ناهيك عما ورد من ذلك في الأحاديث الشريفة والأخبار والروايات التي لا تحصى كثرة، ولا تُعدُّ وفرةً، ففي حديث رسول الله ﷺ :

«يذا الله مبسوطتان لمسيء الليل ليتوب بالنهار، ولمسيء النهار ليتوب بالليل حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٢) .

وقال رجل لرسول الله ﷺ : إني أذنبُ ذنباً. قال ﷺ : استغفر ربك، قال : وإني أتوب ثم أعود، قال : «كلما أذنبت فُتِبَ واستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو الحسير»^(٣) .

وعنه ﷺ : «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(٤) .

وروي أن حبيب بن الحارث قال له : إني مقرافٌ للذنوب! قال ﷺ : «فُتِبَ إلى الله يا حبيب» قال : إني أتوب ثم أعود! فقال ﷺ : «كلما أذنبت فُتِبَ حتى قال : «عفو الله أكبر من ذنوبك يا حبيب»^(٥) .

وعنه ﷺ : «المؤمن مثل السنبلة، يستقيم أحياناً ويميل أحياناً»^(٦) .

وعنه ﷺ أيضاً : «إن المؤمن ليذنب الذنب فيُدخله الجنة!» فقالوا : يا نبي الله، كيف يدخله الجنة؟ .

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ٥٣ .

(٢) ربيع الأبرار : ١/٧٢٦ .

(٣) ربيع الأبرار للزمخشري : ١/٧٢٦ .

(٤) محاسبة النفس لابن طاووس، باب التوبة .

(٥) - (٦) ربيع الأبرار للزمخشري : ١/٧٢٦ .

قال عليه السلام : «يكون نصب عينيه، تائباً عنه، مستغفراً منه حتى يدخل الجنة» (١).

وقال عليه السلام : «التائب حبيب الرحمن» (٢).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، قال : قال رسول الله ﷺ :
«طوبى لمن وجد في صحيفته عمله يوم القيامة تحت كل ذنب : استغفر الله» (٣).

يقول شاعر :

وقد كانت تحدثني ذنوبي بأني من عذابك غير ناجي
ولكنني وإن أحدثتُ شراً لعفوك بعد ذاك الشرِّ راجي
سئل أعرابي عن التوبة فقال : إن الله أفرح بتوبة العبد، من المضلِّ
الواجد، والظمانَّ الوارد، والعقيم الوالد (٤).

وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُوراً﴾ (٥)
قال : الأواب : التواب، يذنب الذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب (٦).
وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام : «لا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين :
محسنٌ يزداد كل يوم إحساناً، ومسيءٌ يتدارك بالتوبة» (٧).

وعن ابن المسيب يرفعه : «إذا تاب العبد إلى الله، فتاب عليه أنسى
الحفظة ما علّموا وقال للأرض ولجوارحه : اكتمي عليه مساوئه، ولا تُظهري
عليه أبداً» (٨).

يقول شاعر :

-
- (١) ربيع الأبرار للزمخشري : ٧٢٦/١ .
(٢) - (٣) محاسبة النفس لابن طاووس، باب التوبة .
(٤) ربيع الأبرار : ٧٣٧/١ .
(٥) سورة الإسراء ؛ الآية : ٢٥ .
(٦) ربيع الأبرار : ٣٧٨/١ .
(٧) ربيع الأبرار : ٧٣٨/١ .

أنا المذنبُ الخطاء والعفو واسعٌ ولولم يكن ذنبٌ لَمَأْغِرَ العفوُ
وسأل رجل أحدَ الزهاد فقال : إني عصيتُ اللهَ، أفتراه يقبلني؟
فقال : ويحك، إنه يدعو المدبرين عنه، فكيف لا يقبل المقبلين
إليه^(١) !

وكان رجل يُقال له (الجحاف بن حكيم) أغار على قوم من بني تغلب
في وادٍ لهم ليلاً فقتلهم شرّاً قتلة، قتل الأطفال والنساء، وبقر بطون الحوامل
منهن، وقطع أثداء النساء . . كل ذلك بسبب شعر قاله بعضهم ذكره بسوء
فيه، فغضب لذلك وفعل ما فعل . . ثم ندم على ذلك، وتألّه، وخرج إلى
الحج مع مشيخةٍ ممن شهدوا معه الواقعة، وقد لبسوا الصوف، وأحرموا،
وأبروا أنوفهم، ومشوا إلى مكة، فجعلوا يطوفون بالبيت، ويقولون: اللهم اغفر
لنا وما نراك تفعل !! .

فسمعهم بعض الصحابة، فقال: يا هؤلاء، قنوطكم من رحمة الله
أعظم من إخراجكم^(٢).

إن الله عزّ وجلّ أكرم مما تتصوره عقول البشر، وإنه تعالى لا يمكن أن
يرفض نادماً سعى إليه، وكُلُّهُ أملٌ ورجاء أن يتقبله ويعفو عنه .

سمع جبرائيل عليه السلام إبراهيم الخليل على نبينا وآله وعليه الصلاة
والسلام، يقول : (يا كريم العفو) فقال له : أو تدري يا إبراهيم ما كرمُ عفوه؟
قال : لا يا جبرائيل، قال : إن عفا عن السيئة كتبها حسنة^(٣) .

رأى بعضهم أبا نواس بعد موته في المنام، فأحب أن يعرف ما آل إليه
أمره عند الله، فقال له : ما فعل بك ؟ فقال : غفر لي بيتين قلتها قبيل
وفاتي !! قال : ما هما؟ قال : قلت :

من أنا عند الله حتى إذا أذنبتُ لا يغفر لي ذنبي
العفو يُرجى من بني آدم فكيف لا أرجوه من ربي^(٤) ؟

(١) - (٣) ربيع الأبرار للزمخشري : ٧٥٠ / ١ .

(٤) الكنى والألقاب للمحدث القمي ج ١ ترجمة أبي نواس ص ١٧٠ .

إن الذنوب تُحدثُ في النفس ضيقاً، وكثيراً ما تُسبب في حدوث الاضطراب والقلق، وتشويش البال، وقد يستولي الهمُّ على قلب الإنسان، ويهجم عليه الحزن لما اقترفت يداه وما عمل من معاصٍ .

وربما تشكل هذه الحالة ظاهرة إيجابية تنتهي بالمرء إلى الاستغفار والندم ومراجعة السلوك الخاطيء الذي اتسم به في ما مضى، والقرآن الكريم يعرض علينا واقعة تاريخية من حياة الرسول الكريم ﷺ وأصحابه الأجلاء الذين كانت سيرتهم منهجاً وعظة نستفيد منها لتقويم سلوكنا، وتهذيب نفوسنا.

هذه القضية تتجسد فيها الحالة التي نحن بصدددها؛ ارتكاب الخطأ، ثم الندم على ذلك إلى حد ضيق النفس، وتراكم الهموم على القلب، ثم التوبة النصوح والخروج من الأزمة بطهارة القلب ونزاهة النفس وعميق الإيمان .

بدأت الواقعة بالشكل الآتي : في غزوة تبوك، خرج الرسول ﷺ مع أصحابه للجهاد في سبيل الله، ومحاربة العدو الكافر، ولكن الظروف المحيطة آنذاك كانت صعبة للغاية، فقد أصابتهم عُسرةٌ وشدة، وقل زادهم كثيراً، ولم تتوفر المؤونة الكافية، حتى بلغ بهم الجوع حداً لا يُطاق بحيث كان الرجل لا يحصل في اليوم إلا على ثمرة واحدة، وجرعة ماءٍ واحدة . .

وحدث أن تخلف ثلاثة من الأصحاب عن الالتحاق بركب المجاهدين، وهم : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، ولم يكن تخلفهم عن الرسول وأصحابه عن نفاق أو توانٍ، بل كان أحدهم تخلف بسبب رعاية ضيعة له، والآخر منعه أهله من الخروج، والثالث أثر الراحة والسكون .

وبقيّ التخلف عن الجهاد من غير عذر مشروع إثمًا عظيمًا ومعصيةً كبيرةً مهما كانت الأسباب، فلا تقوم عذراً للتخلف . .

ولحق هؤلاء ندم شديدٌ على تخلفهم، وضائق نفوسهم، وأصابهم قلق واضطراب، وكادت الحسرة تقتلهم، خاصة وأن النبي ﷺ والمسلمين معه، قاطعوهم بعد عودتهم من تبوك، ولم ينفعهم الاعتذار وإظهار الأسف،

فلم يكلمهم النبي ، وهجرهم الناس ، حتى النساء والصبيان واشتركت نساؤهم في المقاطعة ، فلم يسمح لهم بمقاربتهم ، حتى ضاقت عليهم المدينة ، فخرجوا إلى رؤوس الجبال ، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ولا يكلمونهم ..

قال تعالى عنهم : ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِي خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١) .

دامت معهم هذه الحالة خمسين يوماً يتضرعون إلى الله تعالى ، ويتوبون إليه ، وبلغ بهم الندم أن تهاجروا فيما بينهم أيضاً . . حتى تداركتهم رحمة ورأفة من الله عز وجل ، فتاب عليهم . وقد كان تأخير قبول التوبة لاستصلاحهم ، واستصلاح غيرهم ، لئلا يعودوا إلى مثله^(٢) .

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام : إن رجلاً قال بحضرته أستغفر الله ، فقال له الإمام عليه السلام :

«ثكلتك أمك ، أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معانٍ :

أولها : الندم على ما مضى .

والثاني : العزم على ترك العود إليه أبداً .

والثالث : أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملساً ليس عليك تبعة .

والرابع : أن تعتمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها .

والخامس : أن تعتمد إلى اللحم الذي نبتَ على السحت فتذيه بالأحزان حتى تُلصقَ الجلد بالعظم ، وينشأ بينهما لحم جديد .

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ١١٨ .

(٢) تفسير مجمع البيان للطبرسي ، تفسير سورة التوبة .

والسادس : أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية .
فعند ذلك تقول : أستغفر الله»^(١) .

٣ - الاستبصار :

وهي المرحلة الثالثة، فإذا أقر المرء على نفسه، واعترف بما عنده من السيئات والخطايا، ثم تاب منها واستغفر، وسأل الله الغفران لما بدر منه، فإن ذلك يؤدي به إلى إدراك وفهم أسباب شقائه النفسي، ومشكلاته الروحية، والدوافع التي أدت به إلى اقتراف الذنوب والمعاصي .

وفهم الإنسان لنفسه، وطبيعته الإنسانية، وإدراك ما في نفسه من خير وشر، وتقبل المفاهيم الجديدة، والمثل الدينية العليا . كل ذلك يكرس في نفسه معرفة الله عز وجل ويعزز في داخله الإيمان بالله تعالى . . وقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مجموعة من الأقوال بهذا الخصوص :

«من عرف نفسه فقد عرف ربه»^(٢) .

«العارف من عرف نفسه فأعتقها ونزّهاها»^(٣) .

«أعظم الجهل جهل الإنسان أمر نفسه»^(٤) .

«أعظم الحكمة معرفة الإنسان نفسه»^(٥) .

«أفضل العقل معرفة المرء بنفسه، فمن عرف نفسه عقل، ومن جهلها ضل»^(٦) .

إن فهم النفس وإدراكها من أعظم أشكال الاستبصار، فإذا تمّ هذا الاستبصار، أو قل : هذه البصيرة للنفس، فإن المرء ينطلق ويرقى بمستوى نفسه إلى تقبل الذات، وتقبل الآخرين، وسوف يمتلك القدرة على ترويض نفسه، وتحمل مسؤوليات هذه الحياة، من تضحية، وخدمة للناس، واتخاذ أهداف واقعية مشروعة في الحياة، كالقدرة على الصمود، وعلى العمل

(١) نهج البلاغة : شرح محمد عبده الجزء الأخير، باب الكلمات القصار ص : ٩٧ .

(٢) - (٦) تفسير الميزان للطباطبائي : ١٧٣/٦ .

والإنتاج، والوقوف إلى جانب الله في كل حال . .

إن الإنسان حين يجتاز مرحلة الإقرار والتوبة والاستبصار بنجاح، فإن معنى ذلك أنه قضى على شياطين نفسه، واغلق الأبواب دونهم، ومن استطاع أن يفعل ذلك، فإنه يستطيع أن ينظر إلى ملكوت السموات قال ﷺ : «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض» (١)

أي أنه حين يتم له تطهير نفسه من أدرانها: من الرغبات المحرمة، والشهوات الممنوعة، والهوى والأخلاق السيئة . . يكون بذلك أقرب إلى الله عز وجل، بشفافية في النفس وفراصة في العقل، وإدراك للواقع .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فِرْقَانًا...﴾ (٢) .

إن اللذة التي يشعر بها المستبصر المهتدي ما فوقها لذة، لا يمكن أن يعرفها إلا المتخلي عن الذنوب، التائب منها، العائد إلى الله تعالى، فهو وحده الذي يدرك هذه اللذة، فيمتلىء وجدانه اطمئناناً وراحة، ويهدأ باله، وتستريح نفسه من عناء الأوزار وثقلها، يشعر وكأنه انطلق من قيد، وانفلت لتوه من الأغلال .

٤ - الدعاء :

ولعل الجامع لمفهوم المراحل الثلاث الآتية الذكر هو : الدعاء، وللدعاء برنامج حافل في الإسلام، وبخاصة عند أهل البيت الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين، فقد أرشدوا الأمة، ووجهوا الناس وعلموهم، انتهاج المراحل الثلاث عن طريق الدعاء .

والنفوس التي تزعزعها حوادث الأيام، النفوس التي يصعقها الشيطان، لا بد لها من مصلٍ لتستقر وتطمئن . . وخير وسيلة يعيد بها الإنسان الطمأنينة

(١) إجماع السعادات محمد مهدي النراقي : ١١/١ .

(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢٩ .

إلى نفسه الشاردة، هو ذكر الله العظيم ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١) .

هذه حقيقة يقررها القرآن الكريم، ويؤيدها العقل، لأن التائه الضال يبحث دائماً عن ركن شديد يأوي إليه، وذكر الله عز وجل وتلاوة آياته العزيزة والدعاء، كلها تشكل الركن الشديد والجانب الوثيق الذي ينشده التائه، والحصن الحصين الذي يأوي إليه الخائف، فتستقر نفسه ويطمئن قلبه .

ومن منطلق كون الإسلام دين الإنسانية، فهو لا يدع شأناً من شؤون الحياة إلا ويرمج له وينظمه، سواء على المستوى الفردي أو الاجتماعي . . . ويواكب حياة المؤمن بمناهجه، لكي تبقى آمنة مطمئنة مستقرة، ملاحظاً في ذلك الطبيعة البشرية، والفطرة الإنسانية، فيسايرها، ويرافقها لكي يمنع عنها تأثيرات القوى الشريرة . . . ولتكون بمأمن من آثارها السيئة، مثل القلق، والوحشة، والاضطراب . . .

والدعاء يعتبر من الوظائف الروحية في الإسلام، التي تسعى لتقوية العلائق بالله العظيم لتصفو النفس من المشاكل . . . بل هو من أهم الوظائف الروحية في هذا الدين العظيم .

ولا يمكن اعتباره مجرد عبادة، إنما هو استمداد من القوي العزيز لحلّ أزمات الحياة، والتغلب على مشاكل الدهر، إنه أمل يحيي القلب، ويبعث على الحيوية والنشاط .

والدعاء يشكل لائحة بأهم مفاهيم الإسلام، وأصوله ومعتقداته، والمؤمن الذي يلتزم تلاوة الأدعية، ويمارس قراءتها دائماً، يكون - عادةً - مثقفاً بثقافات إسلامية متنوعة .

وقد ترك الأئمة الطاهرون من أهل البيت عليهم الصلوة والسلام - بعد القرآن والرسول ﷺ - ثروة ضخمة من الأدعية والأذكار، وخلفوا تراثاً عظيماً من المعارف والعلوم، من خلال هذه الأدعية، واتخذوا من الدعاء أساساً في علاج النفوس الحائرة، وتقويمها، وشرح الصدور، والتنفيس عن الكربات . . .

(١) سورة الرعد ؛ الآية : ٢٨ .

ولكن المشكلة تكمن في أن الناس قلما يتوجهون إلى هذا المنهج لاستصلاح نفوسهم، وبأذراً ما تجد من ينهل من هذا المعين العذب لحل مشكلاته وأزماته الروحية .

وقد كان للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، قسط وافر، ومجهود كبير في مجال تهذيب النفوس وتقويمها، وتربيتها من خلال الأدعية العظيمة الماثورة عنه، والمثبتة في الصحيفة السجادية وغيره من كتب الأدعية والتراث .

(فقد استطاع هذا الإمام العظيم، بما أوتي من بلاغة فريدة، وقدرة فائقة على أساليب التعبير العربي، وذهنية ربانية تتفق عن أروع المعاني، وأدقها في تصوير صلة الإنسان بربه، ووجدته بخالقه وتعلقه بمبدئه ومعاده، وتجسيد ما يعبر عنه ذلك من قيم خلقية وحقوق وواجبات، أقول : قد استطاع الإمام علي بن الحسين، بما أوتي من هذه المواهب، أن ينشر من خلال الدعاء، جواً روحياً في المجتمع الإسلامي، يساهم في تثبيت الإنسان المسلم، عندما تعصف به المغريات وشده إلى ربه حينما تجره الأرض إليها، وتؤكد ما نشأ عليه من قيم روحية . . لكي يظل أميناً عليها في عصر الغنى والثروة، كما كان أميناً عليها وهو يشد حجر المجاعة على بطنه^(١) .

ولنلق نظرة على القرآن الكريم - أولاً - لنرى الاهتمام البالغ الذي أولاه الباري عز وجل بالدعاء والتركيز على أثره الفعال في العلاج النفسي، وتهذئة القلوب والضمائر .

ففي القرآن منهج متكامل للدعاء، يحتوي على الأساليب المتينة، والمحتويات العظيمة، والدقة في اختيار الأدعية التي ينبغي أن يتعلمها المؤمن ويرددها . . ومقاطع من أدعية الأنبياء عليهم السلام وغير ذلك من الملاحظات التي قد نشير إليها على عجل . . .

فقد ورد الأمر بالدعاء، والتأكيد عليه، وصرح القرآن بضمان الإستجابة

(١) الشهيد محمد باقر الصدر مقدمة الصحيفة السجادية .

من قبل الله عز وجل لتشجيع الناس وحثهم على ممارسته والإكثار منه .

قال تعالى : ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾^(١) .

ويأمر نبيه ﷺ أن يسوق الناس باتجاه الله عن طريق الدعاء :

«وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون»^(٢) .

ويعتبر الدعاء تذكراً متبادلاً بين الخالق والمخلوق، وعلاقة وثيقة بين العبد وربّه، فالعبد الذي لا يغفل عن ذكر الله بالدعاء، يذكر الله بالرحمة والمغفرة، وكشف الكربات وحلّ الأزمات . . .

﴿فاذكروني أذكركم . . .﴾^(٣) .

﴿واذكر ربك إذا نسيت . . .﴾^(٤) .

﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾^(٥) .

﴿فإذا قضيتُم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾^(٦) .

كل ذلك إشارة إلى أن الدعاء غذاء روحي، ومهدىء يبعد الوسواس عن النفوس، ويزيح عنها قهر الحوادث باتصالها بخالق الكون، ورب السموات والأرض، ولولا دعاء الإنسان، ومناجاته مع الله عز وجل، لانقطعت الصلة بينه وبين السماء، فالذي لا يدعو، ولا يناجي الله سبحانه، يكون قد أعرض عن الله، وجزأه : إعراض الله عنه .

﴿قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم . . .﴾^(٧) .

(١) سورة غافر ؛ الآية : ٦٠ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٦ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ١٥٢ .

(٤) سورة الكهف ؛ الآية : ٢٤ .

(٥) سورة آل عمران ؛ الآية : ٤١ .

(٦) سورة النساء ؛ الآية : ١٠٣ .

(٧) سورة الفرقان ؛ الآية : ٧٧ .

ومعنى ذلك أنه يبقى من غير أمل، لا يجد ملجأ يأوي إليه، أو قوة يستند إليها، وتظل نفسه تائهة قلقه تتعلق بأسباب واهية لا تغني عن الله شيئاً .

يحكي لنا القرآن الكريم عن النبي يونس على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام، حين صار في بطن الحوت، وأطبقت عليه ظلمات ثلاث : ظلمة الليل، وظلمة قاع البحر، وظلمة بطن الحوت، لم يجد أية قوة قادرة على انقاذه وإسعافه من هذه الورطة، سوى الاتصال بالله سبحانه، بالدعاء والتضرع إليه، وقد كان اليأس من الفرج والنجاة في تلك الساعات الحرجة القاسية يعتصر قلبه، ويضيق عليه، ووجد الأبواب كلها مغلقة دونه، سوى باب واحد، وهو باب الله تعالى .

يقول القرآن الكريم عنه : إنه لو لم يكن على ارتباط وثيق - في تلك الأزمة الشديدة - مع الله سبحانه لكان محكوماً عليه باللبث في مكانه إلى يوم القيامة، ولكن الأمر الذي عجل له بالخلاص والنجاة، هو دعاؤه واتصاله بالله عز وجل .

﴿فلولا أنه كان من المسبحين لَلَبِثَ في بطنه إلى يوم يبعثون﴾^(١) .

وما من نبيٍّ من أنبياء الله، إلا وتسَلَّح بالدعاء في كل أحواله، خاصة للثبات والصمود في وجه الملمات والمصاعب، وفي حالات الشدة والعسر والضيق، وفي ساعات الخوف والاضطراب وهجوم الأحزان على النفس . . .

نقرأ في القرآن الكريم نماذج من أدعيتهم التي كانوا يرددونها في الشدائد، ويستمدون العون من الله تعالى من خلالها، ويستلهمون القوة والعزم منها .

﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾^(٢) .

﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾^(٣) .

(١) سورة الصافات ؛ الآية : ١٤٤ .

(٢) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٨٣ .

(٣) سورة القمر ؛ الآية : ١٠ .

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(١) .
﴿...إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾^(٢) .

وهكذا . . تجد القرآن حافلاً بأدعية الأنبياء .

وفي القرآن منهج خاص بالدعاء، لا يمكن أن يستغني عنه المؤمن في حياته، لأنه العلاج الأنجع لمشاكله وآلامه .

وقد كان للنبي ﷺ وآله الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين، دور كبير في تعليم الأمة أساليب الدعاء، وطرائقه، وآدابه، ومحتوياته، ومضامينه، وترويضهم على ممارسته في كل حال، بشكل لا ينقطع معه المؤمن عن الدعاء أبداً

وقد قال رسول الله ﷺ : «لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد»^(٣)

وعن جابر (رض) يرفعه : «لقد بارك الله للرجل في حاجة أكثر الدعاء فيها، أعطوها أو منَعها»^(٤) .

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام : «ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء»^(٥) .

وعن الرسول ﷺ : «وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٦) .

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «سلاح المؤمن الدعاء، وهو عماد الدين ونور السموات والأرض»^(٧) .

وعنه عليه السلام أيضاً : «جعل في يديك مفاتيح خزائنه، بما أذن لك فيه من مسأله، فما شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب

(١) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٨٩ .

(٢) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٩٠ .

(٣) - (٦) ربيع الأبرار للزمخشري : ٢٠٨/٢ .

(٧) ربيع الأبرار للزمخشري : ٢١٧/٢ .

رحمته، فلا يقنطنك إبطاء إجابته، فإن العطية على قدر النية، وربما أخرت
عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الأمل، وربما
سألت الشيء فلا تؤتاه، وأوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً، أو صرفت عنك بما
هو خير لك .

فلربّ أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته»^(١).

واعتمر عليّ عليه السلام، فرأى رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول :

(يا من لا يشغله سمعٌ عن سمعٍ، ولا تغلظه المسائل، ولا يبرمه إلحاحُ
الملحين، أذقني بردَ عفوك، وحلاوة مغفرتك) .

فاستحسن الإمام عليه السلام هذه العبارات، وهذه الصياغة المتينة، لألفاظٍ
عذبةٍ رائعةٍ في هذا الدعاء .

فقال له عليه السلام : «والذي نفسي بيده لو قلتها وعليك ملىء السموات
والأرضين من الذنوب لغفر لك»^(٢) .

وقيل : ما قرعت أبواب السماء بمثل مفاتيح الدعاء .

وصلى رجل إلى جنب أحد الزهاد، فلما أتمّ صلاته بادر بالقيام،
فجذب الزاهد ثوبه وقال له : أما لك إلى الله حاجة ؟ .

وهكذا نجد الدعاء في المنهج الإسلامي خير وسيلة وأحسن سبب لدفع
الملّات والشدائد مهما ثقلت، وهو السبيل الأمثل لراحة النفس، وسكون
الخاطر . . ولقد وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقدم الدعاء على غيره في كل
محنة وشدة، ويتخذ وسيلة لدرء الأخطار ودفع المزعجات . . . بل حتى
مع استقرار الحياة، واستتباب الأمن والدعة، كان لا ينفك عن الدعاء . .
خاصة في مظان استجابته كليالي القدر، وفي عرفات، وغير ذلك من مواطن
الدعاء والإنابة .

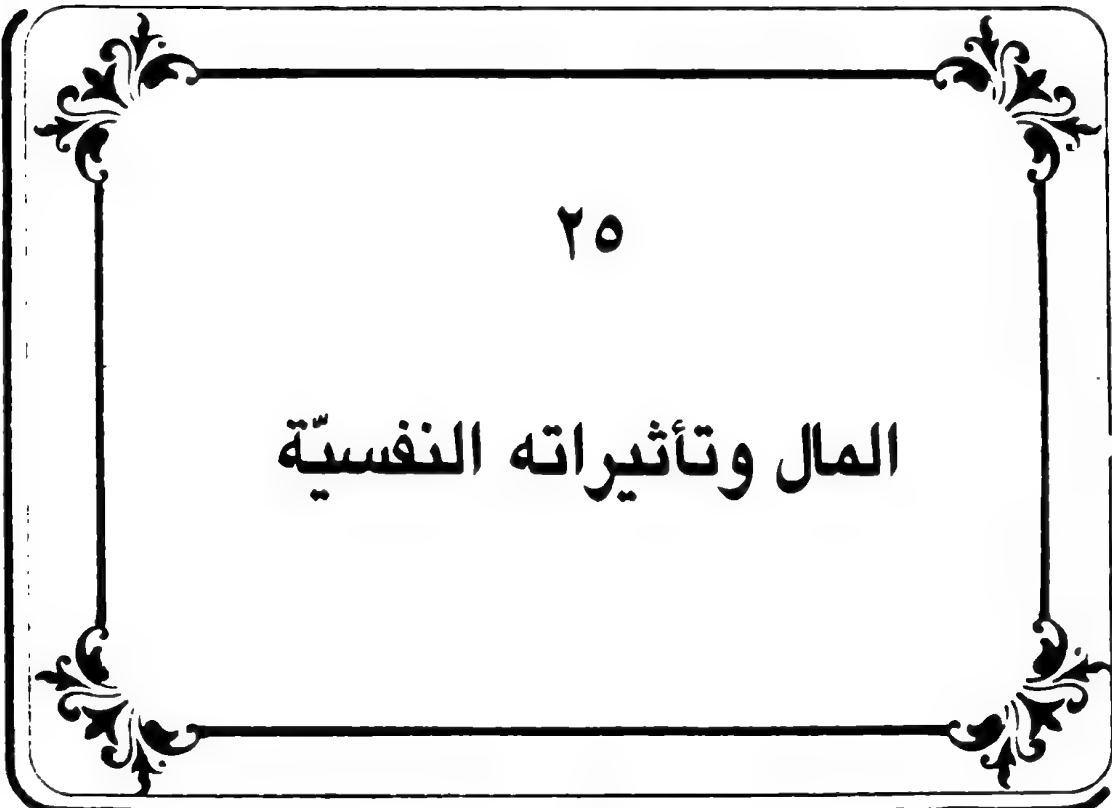
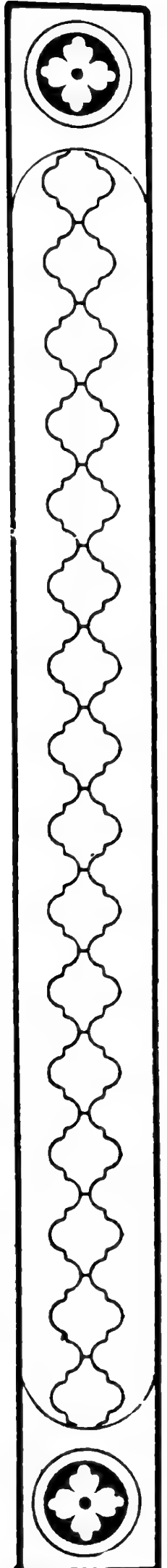
(١) نهج البلاغة .

(٢) ربيع الأبرار : ٢١٧/٢ .

وسار الأئمة الطاهرون عليه السلام على هذا النهج، والتزموا بالدعاء،
كمنهج في الحياة وسلوك دائم. . فكانت لهم مدارس ومناهج في هذا
المجال .

وكان (دعاء كميل) و (دعاء الصباح) و (دعاء أبي حمزة) و (دعاء
الحسين يوم عرفة) وغيرها من النماذج القيمة للأدعية المروية عنهم عليه السلام ،
من أعظم الآثار الخالدة عنهم .

وقد ثبت بالتجربة لكثير من الناس، أن هذه الأدعية لها أثر فعال عظيم
في انفراج الأزمات وإزاحة الكرب عن النفوس .



إن المال يشكل عاملاً مهماً في إثارة كوامن النفس، ولا يمكن لأحد أن يُنكِرَ استجابة النفوس لإغرائه، والانفعال به، فالنفس مجبولة على حب المال منذ أيام الصبا والطفولة .

إن الإنسان يتعلق بالمال ويحبّه بدافع غريزي، ويحب الاقتناء بطريقة لاشعورية، ويود أن يضيف ما لا يملك إلى ما يملك، ويزداد اقتناءً . . وتنمو هذه الغريزة في نفسه كلما نما عقله، وتكبر معه كلما كبرت سنّه . . ولقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا المعنى في قوله : «إذا شاب ابن آدم شبّت فيه خصلتان : الحرص وطول الأمل» .

ففي الصغر ينحصر حبه للمال في امتلاك اللعب والدمى، والحرص على الأشياء الصغيرة التافهة . . ويطمع إلى ما في يد غيره من الأطفال وإن كان يمتلك مثلها . . وربما دخل في منازعات وخصومات مع أقرانه ليحقق مكاسب صغيرة . . حتى إذا بلغ سنّ الرشد، وأدرك معنى المال، كبر فيه حب المال، وأحبّ الإمتلاك لمجرد الامتلاك، وإن كان مستغنياً عن المال، إنما هي الغريزة، ولا بد من اشباعها .

قال ﷺ : «لو كان لابن آدم واديان من مال، لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»^(١) .

(١) صحيح مسلم حديث ١١٦ ويذكر البخاري هذا الحديث أيضاً على أنه كان آية في القرآن الكريم .

ولقد صرح القرآن الكريم بهذا الحب الفطري للمال، في أكثر من مورد، منها قوله تعالى : ﴿وتحبّون المال حُباً جمّاً﴾^(١) .

وقوله : ﴿وإنه لحبّ الخير لشديد﴾^(٢) .

والمراد بالخير هنا : المال، كما ورد في قوله تعالى : ﴿إن ترك خيراً الوصية للوالدين﴾^(٣) مما يوحي أن المال ليس شراً على كل حال . . بل ربما كان خيراً، كما لو عاد بالنفع على صاحبه وعلى الآخرين، واستثمر استثماراً حسناً بشكل يرضي الله تعالى .

وليس كل طلب للمال مذموم، بل ربما كان بعض السعي للحصول على المال واقتنائه حسناً محموداً .

ولما كان للمال هذه المكانة الراسخة في النفس، كان لا بدّ له من تأثير كبير على السلوك البشري، والصفات النفسية في حياة الإنسان، وكان لا بد أيضاً، من أن يتخذ حبّ المال أشكالاً مختلفة في أخلاق الناس، وأن يكون المال محوراً في مجال الأفعال وردود الأفعال، والمثيرات والاستجابات النفسية . . وعلى هذا الأساس كان الشحّ والجود، وعلوّ النفس وصغرها، والغضب، والحسد، وما إلى ذلك من أنماط السلوك . . .

وإنني - من خلال هذا البحث - أحاول أن أطرح وجهة النظر الإسلامية في المال والثروة، وأعرض بعض الصور النفسية التي تتأثر بالمال أو تؤثر فيه .

١ - الغنى المشروع :

ربما يعتقد البعض أن الإسلام يرفض الغنى، ويفضّل أن يكون المؤمن فقيراً، لما في الغنى من مشاكل نفسية واجتماعية، كالبطر، والتكبر، والافتتان، وربما يدعم هؤلاء رأيهم هذا بنصوص وأخبار وروايات شرعية

(١) سورة الفجر ؛ الآية : ٢٠ .

(٢) سورة العاديات ؛ الآية : ٨ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٠ .

يستفاد منها هذا المنحى في التفكير. ولكن الواقع يخالف هذا المذهب. فقد وردت نصوص كثيرة تدل على مدح المال، وتحث على اجتلاب الغنى، والعمل والاكتساب، لتحقيق وتوفير الثروة المشروعة . .

فالنصوص الواردة في الحث على الحج، وإيتاء الزكاة والخمس، والتصدق، والهبة، والعطاء، والإحسان والإنعام، والإطعام، ومطلق الإنفاق في سبيل الله، وغيرها من الصالحات التي لا تتم إلا بالمال . . كلها تحمل في طياتها مدحاً غير مباشر للمال، وتشجيعاً على الامتلاك والإثراء .

ولم يكتفِ الشرع بذلك، بل وردت نصوص بالمدح المباشر للمال فسماه القرآن خيراً، كما مرَّ في الآية (١٨٠) من سورة البقرة .

وقال رسول الله ﷺ : «نعم المال الصالح للرجل الصالح»^(١) .
وعن علي عليه السلام : «من مات تعباً في كسب الحلال، مات والله عنه راضٍ»^(٢) .

وذكر رجل - عند الإمام الصادق عليه السلام - الأغنياء، ووقع فيهم، فقال أبو عبد الله : (اسكت! فإن الغني إذا كان وصولاً لرحمته، باراً بإخوانه، أضعف الله له الأجر ضعفين، لأن الله تعالى يقول: وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زُلْفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون»^(٣) .

إذن : فالمال المشروع، والكسب الحلال لتحصيله شيء حسن، والغني ربما ضوعف له الأجر . . ولو مات المرء في سبيل الحصول على الثروة المشروعة مات مرضياً عنه، مثاباً على عمله .

وفي خبر آخر، أن رجلاً قال للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام :
يا بن رسول الله، إننا نحب الدنيا، ونحب أن نؤتاها .

(١) السيد عبد الله شبر، الأخلاق : ٢١٧ .

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ١١٥/٤ .

(٣) تفسير الميزان : ٣٩٢/٦، سورة سبأ : الآية : ٣٧ .

فقال ﷺ : وتصنع بها ماذا؟

قال : أعود بها على عيالي ، وأصل رَجَمِي ، وأحج وأعتمر ، وأنفق في سبيل الله .

فقال ﷺ : إنها الآخرة ، وليست الدنيا ! .

إن المال لو كان من مورد حلال مشروع ، وأريد به الإنفاق المشروع فهو الخير كل الخير ، وبعبارة أخرى : يعتبر المال وسيلة ، شأنه شأن أي وسيلة أخرى ، لا يكون مذموماً في نفسه ، ولكن لو اتخذت هذه الوسيلة للوصول إلى غايات غير مشروعة ، وتسببت في الانحطاط النفسي والخلقي ، فبئست الوسيلة ، وأما لو كانت طريقاً للوصول إلى أهداف حسنة ، وغايات نبيلة ، مرضية عند الله تعالى ، فنعمت الوسيلة .

٢ - الافراط في حب المال :

إن النفس بميولها وتوجهاتها ، هي التي تتحكم في المال ، وفي اتخاذ وسيلة خير أو شر ، فقد تكون النفس قوية صلبة عالية تجاه إغراء المال ، عازفة - لسبب أو لآخر - عن فتنه ، فيتصرف الإنسان تصرفاً سليماً في تحصيل المال ، وفي صرفه .

وقد تكون النفس ضعيفة أمام الثروة ، فينعكس ذلك على تصرفاته في جمع المال وانفاقه . . ولو كان هناك ذم في نصوص الشرع للمال ، فالذم ليس لعين المال ، ليس للمال باعتباره مالا ، إنما الذم الحقيقي للسلوك النفسي ، لزيغ النفس عن الحق ، واستغلال المال استغلالاً بشعاً ، لاتخاذ وسيلة لتحقيق الأغراض الدنيئة ، والنوايا الخبيثة ، للبخل به .

لا يمكن أن ننكر أن للمال إغراءً بالغاً ، وتأثيراً كبيراً في نفوس الناس تتوارى أمامه الأخلاق والقيم والمبادئ ، فقد قال تعالى :

﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾^(١) .

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢٨ .

ولكن رغم ذلك، لا يمكن أن يُعَابَ المال بذاته، ولا الغنى بذاته، إنما العيب واقع على النفوس المتسمة بالحب المفرط للمال، والتعلق الشديد به، بحيث تزيغ عن الإستقامة في الحياة، وعن المعايير والموازن الإسلامية .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ...﴾ (١) .

إن الإفراط في حب المال هو المعيب لدى الشخص، لأنه سيضطر إلى ركوب المآثم، والنزوع إلى الشر، والسير في مسالك السوء والرديلة .

قال عليه السلام : «حب المال والشرف يُنبِتَانِ النفاق، كما ينبُتُ الماء البقل» (٢) .

ولا شك أن الرسول عليه السلام ، يريد الحب المفرط الشديد، ولا يريد مطلق الحب للمال والشرف، لأن من ذلك ما هو من الإيمان، والأخلاق الحسنة ولكن الإفراط فيه، بحيث ينسى المرء الفضائل والمبادئ والقيم، ويكون كلُّ همِّه الإثراء على حساب الدين والأخلاق، وتحقيق المكانة والسمعة بين الناس بالمال.. هو الخطر الأكبر، إذ لا بد للشخص - والحال هذه - من أن يتخطى الحواجز الدينية والأخلاقية، والأصول والقواعد الشرعية إلى الخديعة، والنفاق، والتلون، والكذب، وغيرها من الأخلاق السيئة، والانحرافات النفسية ! .

ولقد أدّى حب المال المفرط - في بعض الأحيان - إلى اتخاذ المواقف الخطيرة.. وإلى إشعال نيران الفتن والحروب.. وإلى إضلال الناس وإغوائهم.. وإهلاك أمم...

كل ذلك حاصل بالفعل تاريخياً، ويحصل في كل آن، والباعث لذلك غالباً هو التهافت والتهالك على المال بحرصٍ وجشع .

(١) سورة المنافقون ؛ الآية : ٩ .

(٢) ربيع الأبرار : ١٤٩/٤ .

هاهنا دراهم كثيرة :

ذكر ابن أبي الحديد عن وهب بن جرير قال : قال رجل من أهل البصرة لطلحة والزبير : إن لكما فضلاً وصحبة ، فأخبراني عن مسيركما هذا وقتالكما؟

أهو شيء أمركما به رسول الله ﷺ ، أم رأي رأيتماه^(١) ؟ .

فأما طلحة ، فسكت ، وجعل ينكت في الأرض .

وأما الزبير ، فقال : ويحك ، حُذِّثْنَا أَنَّ هَهُنَا دَرَاهِمُ كَثِيرَةٌ ، فَجِئْنَا لِنَأْخُذَ مِنْهَا^(٢) !!

لقد قامت حرب شرسة طاحنة ، ذهبت بأرواح الآلاف من الناس . . كان السبب فيها المال ، والحب المفرط له .

حديث بأربعمائة ألف درهم :

وربما أدى حب المال إلى تزيف الحقائق ، والتلاعب بالنصوص الشرعية والتلفيق والتزوير على الله ورسوله ، كما حصل مع سَمُرَةَ بن جندب حين طلب منه معاوية بن أبي سفيان ، أن يتلاعب بالدين ويحرف الكلام عن مواضعه ، ويغيّر الصورة الواقعية لأسباب النزول .

فقد روي أن معاوية بذل لَسَمُرَةَ بن جندب مائة ألف درهم ، ليروي أن آية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجَبُكُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(٣) نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام ، وأن آية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٤) نزلت في قاتله عبد الرَّحْمَنِ بن ملجم لعنه الله ، وقد ذكر جل المفسرين أن

(١) يسألهما عن خروجهما لحرب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل .

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ، المجلد الثالث : طبع دار مكتبة الحياة - بيروت ص ٣٥٨ .

(٣) - (٤) سورة البقرة ؛ الآيات : ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٧ .

الآية الثانية نزلت في علي عليه السلام وذلك ليلة مبيته في فراش رسول الله ليلة الهجرة .

توقف سُمرة أول الأمر، وامتنع من الإستجابة لطلب الخليفة ولم تستهويه المائة ألف درهم، ورفض ذلك، فضاغف له معاوية البذل وجعله مائتي ألف درهم، ولكن سُمرة واجهه بالرفض أيضاً، فبذل له ثلاثمائة ألف، فلم يقبل أيضاً، فجعلها أربعمائة ألف درهم . فلم يقو على رفضها، فقبلها، واستطاعت هذه الدراهم من أن تكتسح من طريقها إلى قلب الرجل كل القيم والأخلاق والذمم، واستجاب أخيراً لمطلب معاوية ووضع له ما أراد!! وهكذا تفعل الدراهم بالنفوس^(١) .

الواقفية :

ومما يروى بهذا الصدد أيضاً : إن السبب الذي دعا قوماً من شيعة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى القول بالوقف^(٢)، أن بعض أصحابه كان قد اجتمع عندهم من الأموال الشيء الكثير، ولم يكن بمقدورهم أن يسلموا هذه الأموال إلى الإمام للظروف التي كان يعيشها آنذاك وهو محبوس في سجون هارون العباسي . وبقيت الحال كذلك حتى استشهد موسى بن جعفر مسموماً في حبسه فأعمت الأموال بصائرهم فاستولوا عليها وأنشأوا فكرة الواقفية، وكان على رأس هؤلاء (علي بن حمزة البطائني) و (زياد بن مروان القندي) و (عثمان بن عيسى الرواسي) وكان عند الأول : ثلاثون ألف دينار، وعند الثاني : سبعون ألف دينار، وعند الثالث : ثلاثون ألفاً أيضاً، وكان عليهم أن يسلموا هذه الأموال للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ، وقد طالبهم الرضا، فبعث إليهم أن احملوا إليّ ما قبلكم من المال، وما كان اجتمع لأبي عندكم .

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد المجلد الأول ص ٧٨٩ .

(٢) الواقفية جماعة كانت تقول بإمامة الأئمة من أهل البيت حتى الإمام السابع موسى بن جعفر عليه السلام ، وتوقفوا عنده ولم يقولوا بإمامة ولده الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ، زعماء منهم أن موسى بن جعفر لم يمت بل رفعه الله إليه كما فعل بعيسى بن مريم عليه السلام ثم اضمحلت الفكرة وزالت العقيدة فاليوم لا أثر لهم .

فأما علي بن حمزة فأنكر ولم يعترف بما عنده، وكذلك زياد القندي! وأما عثمان فإنه كتب إليه: إن أباك صلوات الله عليه لم يمت وهو حي قائم! ومن ذكر أنه مات فهو مبطل! . . . وهكذا استهوتهم الدنيا وطمعوا فيها، ومالوا إلى حطامها. . . واستمالوا قوماً فبدلوا لهم شيئاً مما اختانوه من هذه الأموال فاستجاب لهم البعض لضعف دينه، ولفرط حبه للمال. . . ورفض البعض الآخر ممن عصمه دينه وتقواه .

فقد روي عن يونس بن عبد الرحمن، قال: لما مات موسى بن جعفر عليه السلام جحد موته قوم طمعاً في الأموال، فدعوت الناس إلى الإمام من بعده (علي بن موسى) عليه السلام، وأنكرت على هؤلاء الجاحدين، فبعث إلي زياد بن مروان القندي وعلي بن حمزة البطائني، وقال لي: ما يدعوك إلى هذا؟ إن كنت تريد المال أغنيك، وضمنا لي عشرة آلاف دينار، وقال لي: كُفَّ عن هذا، فأبيتُ وقلت لهما: إنا رويناه عن الصادقين عليهم السلام، أنهم قالوا: (إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يظهر علمه، فإن لم يفعل سلب نور الإيمان) وما كنت لأدع الجهاد في أمر الله على كل حال، فغاضباني وأضمرا لي العداوة^(١) .

وبذلك كان مذهب جديد، ومروق عن الدين الصحيح، وإغواء لكثير من الناس. . . كل ذلك بسبب التهافت على حطام الدنيا، والحب الزائد للمال، حتى السقوط في الضلال .

ولا شك أن المال الحرام يترك آثاره السيئة على النفس ويقودها نحو الانحطاط والخسة، ويحطّ من قدرها، فاللقمة الحرام كالسمّ القاتل لها أثر وضعي سلبي على النفس تزعزع أركان المروءة وتأتي على المبادئ السامية لدى المرء فتقضي عليها بحيث يُصبح لا همّ له في الحياة إلاّ المال الحرام، يلهث وراءه، ويستولي عليه حلالاً كان أو حراماً، ثم لا يسدّ جوعته إلى المال إلاّ الموت، ولا يملأ عينه إلاّ التراب .

فكم سمعنا ورأينا أناساً كان يُضربُ المثل بإيمانهم وأخلاقهم وعفة

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ٤٨، ص ٢٥٠ فما بعدها .

نفوسهم . . استهوتهم الأموال ، وأفرطوا في حبّها . . مكنتهم الظروف من التصرف في أموالٍ غير مشروعة ، وواتتهم الفرص فصارت في أيديهم أموال وثروات لا يملكون أي حق فيها . . ووجدوا أنفسهم فجأة يتقلبون في الغنى والثراء ، وكانوا من قبل لا يملكون قوت يومهم ! فذابوا فيها ، وأسقطوا كل القيم والاعتبارات من حياتهم ، وصار همّهم الوحيد الزيادة في المال ، والإكثار منه ، دون رعاية لأصول الأخلاق ، وقواعد الشرع . . فبنوا ، وأسسوا ، واستملكوا ، وخاضوا في التجارة ، وتضاعفت الأموال وكثرت ، ولكنهم لم يزدادوا إلا خسةً وضعةً وابتعاداً عن الله .

أذكر منهم (شريك بن عبد الله بن سنان النخعي القاضي) المتوفى سنة ١٧٥ هجرية ، كان يُعرف بالزهد والتدين . . عرض عليه المهدي العباسي تولي القضاء عدة مرّات وكان شريك يرفض ذلك حيطة لدينه . .

ذكر المسعودي أنه دخل يوماً على المهدي العباسي ، فخيّره بين ثلاثة أمور يقبل واحداً منها : إما أن يعمل قاضياً لديه ، أو يعلم أولاده ، أو يأكل عنده وجبة طعام ، ولم تكن نفس شريك تستريح لكل هذه العروض ولكنه وجد نفسه مضطراً لقبول أهون الثلاثة ، فوافق على أن يأكل عنده أكلة .

فأمر المهدي طبّاخه أن يهيئ ألوان الطعام اللذيذ ، كالمخ المعقود بالعلس وأنواع الحلوى . . وجلس شريك على المائدة يأكل ، واستطابت نفسه الأطايب ، فلما فرغ من طعامه ، نظر إليه قيم المائدة وقال : (ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً) .

يقول الفضل بن الربيع : فوالله لقد رأيت شريكاً بعد ذلك ، يجالس العباسيين ، ويعلم أولادهم ، وعمل قاضياً لديهم^(١) .

هكذا تركت اللقيمات آثارها في نفس الرجل ، وسلبت منه لباس التقوى وجعلته ينقاد للظالمين ويسايرهم .

(١) وقائع الأيام للشيخ عباس القمي حوادث الأول من ذي القعدة .

٣- دوافع حبّ المال :

لو تسألنا عن العلة الحقيقية وراء حب الناس للمال، والدافع وراء هذا التعلق النفسي الشديد بالمال، والإنشداد إليه؟ لأجبنا : إن الدافع في الحقيقة دافعان :

الأول : ما أسلفنا عنه الحديث من أن النفس البشرية مجبولة على حب المال، واقتنائه فطرياً، ويعتبر حب المال غريزة تسكن النفس كحب البقاء وحب الولد، وغير ذلك من الغرائز التي أودعها الله في النفس .

يقول القرآن الكريم : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ...﴾ (١) .

ولا يستبعد أن يكون الفعل المجهول (زُيِّنَ) في الآية راجع إلى الله سبحانه فهو الذي فطر هذه النفس، وأودع فيها ما أودع من الغرائز والشهوات وذلك لتستقيم الحياة، ولتسير شؤون الخلق سيراً طبيعياً، إذ لولا هذه الشهوات - كما يسميها القرآن - لتوقف الجميع عن الحركة والعمل، ولتوقفت الحياة، وفي ذلك حكمة بالغة، ومصلحة جليلة لا تخفى على كل ذي لب . فالعلة الأولى، علة غريزية، يشترك فيها جلُّ بني البشر .

قال الحسن المجتبي عليه السلام لأبيه أمير المؤمنين عليه السلام : يا أبة، أما ترى حب الناس للدنيا؟ فقال عليه السلام : هم أولادها، أفلام المرء على حب والدته (٢) .

ولا يستثنى من هذه الحالة أحدٌ إلا بدافع أقوى، يطفئ على الدافع الأول كأن يبلغ الزهد بأحد درجةً ينتزع بها من قلبه حبّ المال، والتهالك عليه، أو يهيمن عليه من حبّ الله والآخرة، ما يشغله عن سفاسف الدنيا، ويصرفه عن حبّ المال . وإليك مثال ذلك :

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٤ .

(٢) ربيع الأبرار ١/ ٤٥ .

ذكر الشعبي قال : دخلت الرحبة في الكوفة - وأنا غلام - في غلمان فإذا بعلي بن أبي طالب عليه السلام ، قائماً بين صبرتين^(١) من ذهب وفضة ومعه مخفقة، وهو يطرد الناس بها، ثم يرجع إلى المال فيقسمه بين الناس، حتى لم يبق منه شيء، ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلاً ولا كثيراً. فرجعت إلى أبي، فقلت له : لقد رأيت اليوم خيراً الناس، قال : من هو يا بني؟ قلت : علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، رأيته يصنع كذا، وقصصت عليه فبكى، وقال : يا بني، نعم، رأيت خيراً الناس^(٢) .

وروى محمد بن فضيل، عن هارون، عن زاذان، قال : انطلقت مع قنبر غلام علي عليه السلام ، فإذا هو يقول للإمام : يا أمير المؤمنين قم فقد خبأت لك خبيئاً، قال : ما هو ويحك؟ .

قال : قم معي . فقام أمير المؤمنين معه، وانطلق به إلى بيته، فإذا بغرارة مملوءة من جامات، ذهباً وفضة .

فقال : يا أمير المؤمنين، رأيتك لا تترك شيئاً إلا قسمته، فادّخرت لك هذا من بيت المال! .

فقال علي عليه السلام : ويحك يا قنبر! لقد أحببت أن تدخل بيتي ناراً عظيمة؟ ثم سل سيفه وضرب الغرارة ضربات كثيرة، فانتشرت من بين إناء مقطوع نصفه، وآخر ثلثه، ونحو ذلك، ثم دعا بالناس فقال : اقساموه بالحصص، ثم قام إلى بيت المال، فقسم ما وجد فيه، ثم رأى في البيت إبراً ومسالاً، فقال : ولتقسموا هذا أيضاً، فقالوا : لا حاجة لنا فيه، فضحك عليه السلام ، وقال : ليؤخذن شره مع خيره^(٣) .

وروي أيضاً أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، قال للإمام عليه السلام : يا أمير المؤمنين لو أمرت لي بمعونة أو نفقة! فوالله ما لي نفقة إلا أن أبيع دابتي .

(١) الصبرة: بالضم، ما جمع من الطعام أو غيره بلا كيل ولا وزن .

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد طبع دار مكتبة الحياة بيروت المجلد الأول ص ٤١٤ .

(٣) المصدر السابق .

فقال ﷺ : لا والله ، ما أجد لك شيئاً إلا أن تأمر عمك فيسرق فيعطيك^(١) .

وصرح ﷺ ، في كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصاري رضوان الله عليه ، بإعراضه عن الدنيا وزخرفها ، وزهده فيها ، فقال ﷺ :

« . . . ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ، ومن طعميه بقرصيه . . . فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ، ولا ادخرت من غنائمها وفراً ، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً ، ولا حُزت من أرضكم شبراً^(٢) .

أجل ، هيمنت صلابة الإيمان ، وقوة التقوى على نفس الإمام ﷺ فغلبت حب المال ، واستثنى من بين الناس عن هذه الغريزة . . وقليل من هم على هذه الشاكلة . . فيكون بإمكانهم التغلب على هذه الجبلة بالرياضة والتصبر .

الثاني : والدافع الآخر يتمثل في خوف الفقر . . فالبعض من الناس يحرص على المال وازدياده ، لئلا يقع في الفقر ، والكثير من الناس يخشى أن يفقد المال ، فيتعرض للعوز والحاجة ، بمعنى أن إفراطه في حب المال - في بعض الأحيان - احترازي احتياطي ، ناشئ عن الخوف من المستقبل ، إنه يحذر أن تبليه الأيام بالحاجة المذلة للآخرين . . والتي لا طاقة له بها . فلو وثق من عدم نضوب المادة عنه ، واطمئن إلى تأمين اقتصادي مضمون بشكل أو بآخر ، فإنه لا يحرص الحرص الكثير على المال . .

من هنا وضعت قوانين الضمان الاجتماعي ، لتطمئن النفوس إلى مستقبل آمن ، ولإزالة الخوف من الفقر عن هذه النفوس . فالإنسان بطبعه يخاف الفقر ، وقد يرتكب المرء ما لا يحمد عقباه لدفع الفقر عن نفسه . . وقد يؤدي خوف الفقر في بعض الأحيان إلى القتل ، وزهق الأرواح .

والقرآن الكريم يؤكد هذا المعنى ، حين يعرض صوراً من حياة

(١) المصدر السابق .

(٢) شرح نهج البلاغة : الأصل ٢٨٨ .

الجاهلية، حين كان الرجل منهم يفضل أن يقتل أولاده، على أن يعيش معهم حياة العوز، ويؤثر أن يتحمل محنة قتل فلذة الكبد، على محنة الفقر والحاجة . . . وبنهاهم الله عن ارتكاب مثل هذه الحماقات . . . ويؤكد لهم أن الأرزاق بيد الله، وأن الله تعالى يتكفل بأرزاقهم فكيف بأرزاق أبنائهم :

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيراً﴾^(١) .

فلا ينبغي أن يخاف فقر المستقبل، وإن كثرة الأولاد لا تكون بحال من الأحوال عاملاً في افتقار المرء، وإن الإيمان بالله وبكونه هو الرزاق والمعطي والمغني . . . يقتضي أن يكل المرء أموره إليه تعالى، ولا يقدم على مثل هذا الشطط الفاحش، والسيئة الكبيرة .

ربما كان لهم بعض الحق في خوفهم من الفقر، ولكن لم يكن لهم أي حق في القتل بسبب هذا الخوف، لأن النفوس - كما أسلفنا - تخاف أن تُمتن بالفقر وتُذل، فالفقر أبو المشاكل، وأصل المعاناة .

قال عليه السلام : «إنما يخشى المؤمن الفقر مخافة الآفات على دينه»^(٢) .

وفي حديث لقمان لولده: (يا بني، قد أكلت الحنظل، وذقت الصبر، فلم أر شيئاً أماً من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس كيما لا ينتقصوك . . .)^(٣) . فمن سيئاته أيضاً امتهان الناس للفقير، وعدم الاعتناء به، وبذلك كان دافعاً قوياً للحب المفرط للمال .

٤ - ذم الفقر :

ومع الفقر يعجز الإنسان عن أداء مسؤولياته وواجباته تجاه النفس والبيت والأسرة والحياة كلها . . . وتبقى النفس محرومة من كثير من مشتياتها، ومتطلباتها، لأن الفقر يحتجر إشباع الحاجات الأساسية بنحو عام، ويؤدي إلى

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ٣١ .

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ١٤٢/٤ .

(٣) ربيع الأبرار : ١٤٤/٤ .

التوتر والصراع مع النفس وإلى نتائج أخرى مريرة، ناجمة أصلاً، عن عدم إشباع الدوافع الشخصية والأسرية والعامّة .

لذا نجد من خلال النصوص الشرعية، كمّاً لا بأس به من الأحاديث والأخبار تلوّح بسلبية الفقر .

فللإمام أمير المؤمنين عليه السلام - في هذا المجال - اهتمام خاص نابع من التزامه بالمسؤولية الشرعية والأخلاقية تجاه الأمة، فقد كان أشدّ شيء عليه أن يرى بعض المسلمين فقراء معوزين، تعتصرهم الحاجة الملحة إلى ضرورات الحياة، في الوقت الذي يرى فيه آخرين يرفلون بالنعمة الموفورة والخير الكثير، ويتنعمون بوفرة المال، ومن غير حيلة في بعض الأحيان .

قال عليه السلام : «الفقر الموت الأكبر»^(١) .

وعنه أيضاً : «كاد الفقر أن يكون كفراً»^(٢) .

وعنه عليه السلام أيضاً : «لو كان الفقر رجلاً لقتلته»^(٣) .

ويحدّد عليه السلام أربع سماتٍ تطبع شخصية الفقير في قوله :

«من ابتلي بالفقر فقد ابتلي بأربع خصال : بالضعف في يقينه، والنقصان في عقله، والرقّة في دينه، وقلة الحياء في وجهه»^(٣) .

وهي كما ترى تشكل أعراضاً مرّضية بالغة الخطورة، تصيب النفوس في أعماقها، إذ إن الضعف في اليقين، والرقّة في الدين ناتجان عن الالتواء الدائم بطلب الرزق والقوت، والنظر لما في أيدي الآخرين والتلهف إلى لقمة العيش، يصيب النفس بالوهن، ويضعف الإيمان، ويضعضع أركان اليقين بالله تعالى .

وأما نقصان العقل وقلة الحياء، فإفرازان لكثرة التسوّل والسؤال والركض وراء هذا وذاك لتحصيل المال، وسدّ الجوعة، وإشباع الحاجات

(١) ربيع الأبرار : ١٤٩/٤ .

(٢) نهج البلاغة باب (الكلمات القصار) .

(٣) دراسات في علم النفس الإسلامي : ٢٢٦/٢ .

إذ كيف يمكن للمرء أن يجمع بين الحياء الكامل وحفظ ماء الوجه من جهة، وبين سؤال الناس وطلب المعونة منهم؟

ومما يؤيد هذا الواقع، شعر الأعرابي الذي وقف على باب الإمام الحسن عليه السلام، معبراً عن رزيقه بالفقر قائلاً :

لم يبقَ لي شيء يُباع بدرهمٍ يكفيك رؤيةً منظري عن مخبري
إلا بقية ماء وجهٍ صنته من أن يباع وقد وجدتكَ مشتري

فالأعرابي بسجيته وفطرته يرى أنه لا بد من التضحية بماء الوجه، للحصول على الصدقة المعنوية، ولكنه لا يرى أهلية وقابلية لبذل ماء الوجه في أكثر الناس، ثم لما وجد هذه الكفاءة في الحسن المجتبي عليه السلام، لم يَأْب من الوقوف عنده يسأله ويسكب ماء وجهه بين يديه فقال البيتين .

ولكن سمو نفس الحسن، وعلو همته، وشموخه في شخصيته الإسلامية النبيلة منعتَه أن يرى ذلَّ السؤال في وجه الأعرابي . . فكان أن أعطاه ما أراد، وأجزل له العطاء، وأجابه قائلاً :

عاجلتنا فأتاك وابلٌ برّنا طلاً ولو أمهلتنا 'م تخسُر
فخذ القليل وكنْ كأنك لم تبع ما صنته وكأننا لم نشتر

ومجمل القول: إن الفقر مذموم في بعض الأحيان، وممدوح في أحيان أخرى . . فلو صار عاملاً لإذلال النفس، وامتهان الشخصية فهو مذموم لا شك .

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام، لابنه محمد بن الحنفية :

«يا بني : إنني أخاف عليك الفقر، فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصةٌ للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت» ^(١) .

وأما لو كان مقروناً بالصبر والإستقامة، وسبباً لصقل المواهب، وتنمية الطاقات، وعاملاً للتفوق والنجاح، كما يحصل للكثير من الفقراء . . فإنه لا

(١) ربيع الأبرار : ١٥٠/٤ .

شك محمود، بل لا بد منه في حياة بعض الناس ! .

روي : «أحبُّ الناس إلى الله الفقراء، وكان أحبَّ خلقه إليه الأنبياء فابتلاهم بالفقر»^(١)، وقد سمعنا ورأينا كثيراً من الناس، صقل الحرمان مواهبهم، وأطلق عنانها، وعملوا في سبيل رفعه وسدّه على تحصيل العلم، واستعمال الفكر، حتى فاقوا أقرانهم . وتجاوزوا المصاعب والعثرات إلى السمو والرفعة، فنالوا مقامات محمودة ودرجات كريمة يحسدون عليها، ويشار إليهم من بين الناس . كل ذلك نتيجة لما كانوا فيه من فقر وحرمان .

٥ - السؤال من الناس :

وأخشى ما يخشاه الإسلام على الفقير، أن يكون سؤالاً، يريق ماء وجهه هنا وهناك، ولهذا وذاك، فالفقر في حدّ ذاته محنة، فلو صار الفقير كثير السؤال من الناس، زاد في الطين بلّة، وتضاعفت محنته، باذلال نفسه، وامتهان كرامتها وعزّتها وهو عمل مخالف تماماً للمبادئ الإسلامية التي تريد للمسلم أن يكون عزيزاً كريماً مرفوع الرأس بين الناس ﴿ولقد كرّمنا بني آدم...﴾^(٢) ولو أكثر الفقير السؤال اعتاده، وهانت عليه نفسه، حتى يبلغ به الحال إلى حدّ يكون معه بغيضاً عند الله، وعند الناس .

عن النبي ﷺ : «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: ألا ليقيم بغضاء الله، فلا يقوم إلا سؤال المساجد»^(٣) .

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ :

«من فتح على نفسه باب مسألةٍ من غير فاقة نزلت به، أو عيالٍ لا يطيقهم، فتح الله عليه باب فاقةٍ من حيث لا يحتسب»^(٤) .

يضيق الرسول ﷺ دائرة السؤال، ولا يبيح ذلك إلا مع الفاقة (وهي

(١) ربيع الأبرار : ١٥١/٤ .

(٢) سورة الإسراء ؛ الآية : ٧٠ .

(٣) ربيع الأبرار للزمخشري : ٦٣٩/٢ .

(٤) ربيع الأبرار للزمخشري : ٦٢٣/٢ .

الفقر الشديد) ويقرر عليه السلام أن السؤال من غير ضرورة ملحة، يوقع المرء في فاقة حقيقية، لم يكن يحسب لها أي حساب، فكأن ذلك عقوبة له من الله عز وجل على إذلال نفسه بغير سبب وجيه .

وواضح أن الذي يسأل ويعطي، فقد أعطى وأخذ، أعطى من حياته وماء وجهه وكرامته، وأخذ تافهاً يسيراً مهما كان كثيراً .

يقول شاعر :

إذا أعطيتني بسؤال وجهي فقد أعطيتني وأخذت مني

ويقول آخر :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله بدلاً وإن نال الغنى بسؤال
وإذا النوال مع السؤال وزنته رجح السؤال وخف كل نوال

فالشاعر يؤيد فكرة أن العطاء مقابل السؤال قليل حقير، وإن كان كثيراً لأن المال مهما عظم لا يوازي الحياء المبذول، والكرامة المهدورة .

وقد روي عن سيدنا أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : إن سائلاً جاءه فلما بادر بالسؤال قال له الإمام عليه السلام : (اكتبها على الأرض باصبعك) لئلا يرى ذل السؤال في وجهه .

ولو امتنع الفقير عن سؤال الناس، حفاظاً على عزته وكرامته وشرفه . . كان عمله عند الله مقدراً ثميناً، ولا بد أن الله تعالى يغنيه من فضله ورحمته، فقد روي عن ثوبان مولى رسول الله عليه السلام قال : قال رسول الله عليه السلام :

«من يتقبل لي واحدة، أتقبل له الجنة؟» فقلت : أنا، فقال : «لا تسأل الناس شيئاً» فامتنع ثوبان عن السؤال بتاتاً، فكان إذا سقط سوطه لا يأمر أحداً يناوله، وينزل هو فيأخذه احترازاً عن أي سؤال^(١) .

والإنسان بفطرته يدرك ذل السؤال، ويستنكف منه، ويأتي الإسلام ليؤكد هذه الفطرة، والإحساس النفسي، في مجموعة من التوجيهات والتعليمات القيمة التربوية، وقد كانت سيرة الرسول عليه السلام، وعترته

(١) ربيع الأبرار : ٦٢٣/٢ .

الطاهرين مثلاً لدعم هذه القاعدة النفسية .

في (بحار الأنوار) روي عن إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب، قال: كنا عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام، وعنده المعلّى بن خنيس إذ دخل عليه رجل من أهل خراسان، فقال: يا بن رسول الله، أنا من مواليكم أهل البيت، وبينى وبينكم شقة بعيدة، وقد قلّ ذات يدي، ولا أقدر أن أتوجه إلى أهلي، إلا أن تعينني .

قال: فنظر أبو عبد الله عليه السلام، يميناً وشمالاً وقال :

ألا تسمعون ما يقول أخوكم؟ إنما المعروف ابتداءً فأما ما أعطيت بعدما سأل فإنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه .

ثم قال: فبييت ليلته متأرقاً متململاً بين اليأس والرجاء، لا يدري أين يتوجه بحاجته، فيعزم على القصد إليك... فأتاك وقلبه يجب^(١) وفرائضه ترتعد، وقد نزل الدم في وجهه، وبعد هذا لا يدري أينصرف عنك بكآبة الردّ، أم بسرور النجح؟ فإن أعطيته فقد وصلته، وقد قال رسول الله ﷺ: (والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، وبعثني بالحق نبياً، لما يتجشم من مسألته إياك، أعظم مما ناله من معروفك) .

فجمعوا للخراساني خمسة آلاف درهم ودفعوها إليه^(٢) .

وهذا الخبر وغيره من الأخبار والروايات تُنبئ عن مدى اهتمام الأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم السلام، بمشروع القضاء على الفقر، وقلع جذوره من أوساط المجتمع، فقد عملوا بمثابرة وجدّ في سبيل تحقيق هذا الهدف السامي وعملوا كثيراً في طريق إغناء الناس، وإزاحة كابوس الفقر عن صدورهم وقلوبهم تجدد مثل هذا الاهتمام عند غيرهم .

روي أن عروة بن الزبير بن العوام سأل أخاه مصعباً حاجة فلم يقضها له، فقال: علم الله أن لكل قوم شيخاً يفرعون إليه، وإنّا نفرع منك^(٣) .

(١) الوجيب : اضطراب القلب وشدة ضربانه .

(٢) بحار الأنوار للمجلسي المجلد الخاص بالإمام الصادق باب كرمه وعطاياه .

(٣) ربيع الأبرار : ٢ / ٦٣٣ .

وإن كان لا بدّ من سؤال، حين تلحّ الحاجة، وتقتضي الضرورة، وتُكرهُ
الفاقة على السؤال، فليكن السؤال من الشرفاء والكرماء، ومن معادن الخير
الذين يؤمّل منهم العطاء دون امتنان، ويستبعد منهم الردّ والمنع، لا من
الوضيع الخسيس الذي نال الغنى لتوّه فأبطره وأسكره.

قال علي عليه السلام : «فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها»^(١).

وفي الحديث القدسي : «إن كنت لا بدّ تسأل عبادي، فسأل معادن
الخير ترجع مغبوطاً مسروراً، ولا تسأل معادن الشرّ ترجع ملوماً
محسوراً»^(٢).

وعن الصادق عليه السلام : «إذا طلبت الجود فعليك بمعادنه، فإن للجود
معادن. . . ولا أصل لا بمعدن طيب»^(٣).

ثمة حالات استثنائية قهرية، تحمل الفقير على السؤال، كما سلف في
حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، مما يضطر معها إلى الوقوف منكسر النفس بين
يدي المسؤول، وهي أشدّ الحالات على ذي النفس الأبيّة، يتقدم فيها
خطوة، ويتأخر خطوات، لعرض حاجته على الناس، فالتشريع الإسلامي
- في هذه الحالة - يقف إلى جانب السائل، ويحثّ المسؤول على عدم الردّ،
ولكن يوجه السائل بحيث يسأل معادن الخير، وذوي النفوس الكبيرة الكريمة،
ممن يتوسم فيهم الكفاءة والأهلية لعرض الحاجة عليهم، وينهاه عن سؤال
الأراذل، وفقراء النفوس، والمعروفين باللؤم والخسة، فقد ورد في خبر (لا
تسأل من يفرّ من أن تسأله) وروي عن الإمام الصادق عليه السلام ، أنه قال :

«إني لأسارع إلى حاجة عدوي خوفاً من أن أردّه فيستغني عني»^(٤).

ما أروع الإمام، يعمّ بخيره الجميع، إنه كالشمس، تشرق على البرّ
والفاجر يسارع في إسعاف المحتاجين، وإن كانوا أعداء ! .

(١) نهج البلاغة : الجزء الرابع : ١٥ .

(٢) كلمة الله للشهيد السيد حسن الشيرازي .

(٣) بحار الأنوار للمجلسي : ٢٠٢/٧٨ .

(٤) ربيع الأبرار : ٦٢٩/٢ .

وروي عن ابن عباس، قال : (ما رأيت رجلاً أسعَفْتُه بحاجة إلا أضاء ما بيني وبينه، ولا رأيت رجلاً رددته، إلا أظلم ما بيني وبينه)^(١) .

وسأل رجل أعرابياً عَمَّن يمكن الرجوع إليه في طلب المعونة، فقال : (عليك فلاناً، فإنه لا ينظر في قفا محرومٍ قط)^(٢) كناية عن أنه لا يردّ أحداً ممنوعاً من قضاء حاجته .

وروي عن عطاء بن ميسرة الخراساني، قوله : (الحوائج عند الشبان أسهل منها عند الشيوخ، ألم تسمع قول يوسف : «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم» وقول يعقوب «سوف أستغفر لكم ربّي»^(٣) يشير إلى أن يوسف الصديق عليه السلام - وهو شاب - استجاب ولأن لأخوته سريعاً وقبل عذرهم، ولكن يعقوب عليه السلام - الشيخ - تباطأ وتمهل في قبول أعذارهم، ولم يستجب لهم سريعاً فقال : سوف استغفر لكم .

ونحن إذ نوافق عطاءً في أصل الموضوع، نتوقف عند مثاله، ونعترض عليه، فقد وردت الأخبار في تفسير هذه الآيات من سورة يوسف أن يعقوب عليه السلام ، إنما أصر أولاده انتظاراً لِسَحَر الجمعة ففيه تستجاب الدعوة . . ولم يفعل ذلك تباطؤاً في الإجابة وقبول العذر، والله أعلم .

وفي الحديث : (اعتمد لحوائجك الصباح الوجوه، فإن حُسْنَ الصورة أول نعمةٍ تتلقاك من الرجل)^(٤) .

ولما كان الشرع الحنيف ينهي عن سؤال اللئماء، فإنه - في الوقت نفسه - يحثُّ المقتدرين والأغنياء على عدم الردّ والمنع، ويشجع على العطاء والبذل .

قيل للحسن المجتبي عليه الصلوة والسلام : لأي شيء نراك لا تردُّ سائلاً، وإن كنت على فاقة؟ .

فقال عليه السلام : (أنا لله سائل، وفيه راغب، وأنا أستحي أن أكون سائلاً

(١) - (٣) ربيع الأبرار : ٦٣٦/٢ .

(٤) ربيع الأبرار : ٦٣٩/٢ .

وأردُّ سائلاً، وإن الله تعالى عودني عادة: أن يفيض عليَّ بِنِعَمِهِ، وعودته: أن أفيض بنعمه على الناس، فأخشى إن قطعت العادة، أن يمنعني العادة) وأنشد يقول:

إذا ما أتاني سائلٌ قلتُ مرحباً بمن فضله فرضٌ عليَّ معجَّلُ
ومن فضله فضلٌ عليَّ كل فاضل وأفضل أيام الفتى حين يُسأل^(١)

إنه ^{بالتثنية} لا يعرف المنع، ولا يعرف قول (لا) في وجه السائل لأن السؤال يحملون إليه هدية الله ونعمته حين يتوجهون بمسائلهم وحاجاتهم إليه.

قال الفرزدق عن علي بن الحسين ^{بالتثنية}:

ما قال (لا) قط إلا في تشهده لولا التشهدُ كانتْ لاؤُهُ نَعَمُ
ونقل عن بعضهم أنه قال: أقلوا عند مسألة الحوائج من قول (لا) فإنه ليس في الجنة لا.

وفي الأثر: من عَظُمَت عليه نعمة الله، عَظُمَت عليه مؤونة الناس.
وقال شاعر:

ليس في كل وهلةٍ وأوانٍ تهياً صنائع الإحسان
فإذا أمكنت فبادر إليها حذراً من تعذر الإمكان

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، في وصية لكميل بن زياد:

(يا كميل، مُرْ أهلك أن يروحوا في كسب المكارم، ويدلجوا في حاجة كل نائم فوالذي وسع سمعه الأصوات، ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا وأخلق الله له من ذلك السرور لطفاً، فإذا نزلت به نائبة جري إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه، كما تطرد غريبة الإبل)^(٢).

(١) نور الأبصار للشبلنجي: ١٧٧.

(٢) نهج البلاغة: ٦٥/٤.

وروي عن الصادق عليه السلام : (إن الله وجوهاً في خلقه، خلقهم لقضاء حوائج عباده، يرون الجود مجداً، والإفضال مغنماً، والله يحب مكارم الأخلاق) (١).

وعنه عليه السلام : (ما أنعم الله على عبد نعمة فلم يحتمل مؤونة الناس إلا عرض تلك النعمة للزوال) (٢).

إن الناس يختلفون باختلاف نفوسهم، في العطاء أو المنع، فمنهم من يستبشر بالسائل، ويفرح لقدمه، ويعتبر استقرار الحاجات عنده نعمة وفضلاً من الله عليه، كما مرَّ عن الحسن بن علي عليه السلام .

ومنهم من يقطب في وجه السائل، ويغلب عليه المنع، ولا يرتاح لأرباب الحاجات.. وذلك كله راجع إلى النفس ومدى تأثرها بالمبادئ والأخلاق والإرشادات الإسلامية، فالتوجيهات الإسلامية التي نقلت عن الرسول ﷺ والطاهرين من أهل بيته، تؤثر كثيراً في تربية نفس المؤمن وتوجيهها الوجهة الصحيحة، وحملها على الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة..

يصف شاعرٌ رجلاً تعود العطاء حتى صار ملكة عنده :

ضحوكُ لسؤاله قطوبٌ إذا لم يُسَلْ
كأن (نعم) نحلة تمجُّ فيه العسل

وكان الصادق عليه السلام يقول : (اللهم ارزقني مواساة من قترت عليه رزقك، بما وسعت علي من فضلك) (٣).

٦- لا يرجون أحدكم إلا ربّه :

ويواصل الشرع الحنيف رسم المناهج والطرائق التي تُسهِم في رفع المعنويات، وتسمو بالنفوس، وتهذب المجتمع، وتوجه عامة الناس إلى جادة الصلاح والصواب.. ولكنه يولي طبقة الفقراء عناية خاصة لأنها الطبقة

(١) (٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ٦٦٢/٣ .

(٣) ربيع الأبرار : ٦٧٤/٣ .

المحرومة التي يعوزها الاهتمام والرعاية، فيعوض نقصهم المادي بالدعم المعنوي . . . فيأمرهم بالصبر، والتحلي بعزة النفس، والتعفف . . . وينهاهم عن الإبتذال والهوان، ويؤكد في أكثر من مورد من القرآن الكريم، أن الغنى قدرٌ مقدور وقضاء من الله تعالى، إن شاء أغنى، وإن شاء أفقر، وأنه تعالى لا يدع عزيز النفس، عفيف الطبع، يضيع في ظلمات الفقر، بل سيعينه ويغنيه من فضله .

﴿وإن خفتُم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله﴾^(١) .

﴿ . . . أن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله والله واسع عليم﴾^(٢) .

﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾^(٣) .

﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾^(٤) .

وتؤكد الأحاديث والروايات هذا المفهوم، وتنبه على أهمية التعفف لدى الفقير، والتصبر والتجمل في محنته، وتنهاه عن أن يبيع آخرته بديناره، ولا تمنعه من ذل السؤال فحسب، بل تنهاه عن اظهار فقره، والإعلان عنه أمام الناس، وتحثه على الطلب والسؤال من الله تعالى لا غير، وأن لا يرجو إلا ربّه (ألا لا يرجون أحدكم إلا ربّه)^(٥) .

روي عن لقمان الحكيم، أنه اجتمع بولده يوماً يعظه وينصحه، فقال له فيما قال : (يا بني قد أكلت الحنظل، وذقت الصبر، فلم أر شيئاً أَمراً من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس، كيما لا ينتقصوك، ولكن سل الله، فمن الذي سأل الله فلم يُعطه؟ أو دعاه فلم يجبه؟ أو تضرّع إليه فلم يكشف ما به؟)^(٦) .

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ٢٨ .

(٢) سورة النور ؛ الآية : ٣٢ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٢١٢ .

(٤) سورة الذاريات ؛ الآية : ٢٢ .

(٥) من وصايا علي عليه السلام ، نهج البلاغة .

(٦) ربيع الأبرار للزمخشري ١٤٤/٤ .

وعن التعفف، يقول النبي ﷺ : «إن من أمتي من لا يستطيع أن يأتي مسجده من العري، يحجزه إيمانه أن يسأل، منهم أويس القرني، وفرات بن حيان»^(١).

فالحاجات تطلب بالرجاء من الله تعالى، لا بالسؤال والتذلل إلى الناس وإن الذي يقدر أن يصرف عنه عما في أيدي الناس، لهو أكثر سخاء من الذي يبذل ماله، وينفق ما عنده.

وقد تكون النفس كبيرة إلى حد أن صاحبها يستر فقره، ويظهر الغنى، حتى لا يقول عنه أحد إنه فقير، ويعتمد اعتماداً كلياً على الله.

يقول القرآن الكريم : ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾^(٢).

وهو من يحبه الله، فقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ : «إن الله يحب عبده المؤمن الفقير المتعفف أبا العيال»^(٣).

وعنه ﷺ : «إن الله يحب الحيي الستعفف، ويبغض السائل المُلحف»^(٤).

وعندما تكون العفة هي سمة الفقير، لا يملك إلا أن يتوجه إلى الله، ويستعين به، ويعتمد عليه، ويمتنع عن النظر إلى ما في أيدي الآخرين.. عندها يتمتع بالقناعة والانقطاع إلى الله، المُفضِّلُ المُنعم المعطي الرزاق الكريم قال ﷺ : «يا معاشِر الفقراء، اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا»^(٥).

وقال الإمام الباقر عليه السلام : (إياك أن تطمع بصرك إلى من هو فوقك وكفى بما قال لنبیه ﷺ ﴿وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ وقال : ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنِكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش رسول الله ﷺ ، فإنما كان قوته الشعر، وحلواه

(١) ربيع الأبرار : ٦٢٧/٢ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٧٣ .

(٣) - (٤) ميزان الحكمة : ٣٦٠/٦ .

(٥) السيد عبد الله شبر، الأخلاق : ٢٢١ .

التمر، ووقوده السَّعَف إذا وَجَد^(١).

وربما وجد الغني في نفسه بعض الغرور، فينتظر من المحتاج أن يتذل بين يديه، لينال منه بعض الحظوة والخير، ولكن عزّة النفس لدى الفقير، ورجاءه بالله تعالى يمنعانه أن يتصاغر في مثل هذه المواطن، فيربأ بنفسه عن الذلة والمهانة، ويستمر عاقداً الأمل بالله، راجياً منه سبحانه، مستغنياً عن الغني الضعيف، راجياً الغني العزيز.

روي عن سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموي) أنه دخل المسجد الحرام، وجلس بجوار الكعبة، وفي المسجد جمعٌ من الناس ثم قال لسالم بن عبد الله : ارفع حوائجك، وكأنه كان يعجبه أن يُسأل أمام الناس في بيت الله الحرام، ولكن سالماً بن عبد الله أبت نفسه أن يسأل سليمان، فقال له : والله لا أسأل في بيتِ اللَّهِ غيرَ الله^(٢).

وأنشد أعرابيٌ :

أباهاني لا تسأل الناس والتمس بكفّيك فضل الله والله واسع
فلو تسأل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملّوا ويمنعوا

ويكاد الشاعر أن يأخذ المعنى من الآية الكريمة :

﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربّي إذاً لأمسكنكم خشية الإنفاق﴾^(٣).

ولما كان من واجب النبي ﷺ ، وأئمة الهدى، أن يوجّهوا الناس في طلب الحاجات إلى الله تعالى، ويحملونهم على الاستعانة به تعالى في كل الأحوال، كان ﷺ ربما منع العطاء ليحثّ على الدعاء، والتوجه بالسؤال إلى الله سبحانه.

روي أن رجلاً جاء النبي ﷺ يطلب معونة، فقال له : (ما أصبح

(١) السيد عبد الله شبر، الأخلاق : ٢٢١ .

(٢) ربيع الأبرار : ٦٣٧/٢ .

(٣) سورة الإسراء ؛ الآية : ١٠٠ .

عند آل محمد غير هذا المَدِّ، فنسأل الله) فرجع الرجل إلى امرأته، فحدثها بما سمع من النبي ﷺ ، فقالت: نَعَمْ المردود إليه : فتوجَّه بالسؤال والدعاء إليه تعالى، ليدفع ضرَّه، ويكشف فقره، فردَّ الله نِعَمَهُ إليه أوفر مما كانت .

فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، وأمر الناس أن يسألوا الله، ويرغبوا إليه، وقرأ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (١) .

وكان ﷺ يقول :

«سلوا الله حوائجكم حتى في شسع النعل فإن الله إذا لم يسره لكم لم يتيسر» (٢) .

٧ - الحثُّ على العمل والإكتساب :

إن الإسلام يحارب الفقر أساساً، ويتخذ وسائل الحيلة لدفعه عن المجتمع، لأنه يريد الحفاظ على كرامة المسلم، ولا يريد فقيراً معوزاً يُستهان بالتصدق عليه، ومَدِّ يَدِ العون من الآخرين إليه .

ولئن وردت بعض النصوص حول كيفية السؤال، ولمن ينبغي أن يوجَّه الفقير سؤاله، وحول الحثُّ على البذل والتصدق . . . فذلك كله مراعاةً للواقع الذي يعيشه بعض الفقراء والمحتاجين الذين لا يخلو منهم أي مجتمع في أي مكان ولا تعني تلك النصوص أن الإسلام يشجّع على الفقر، ويحبّذه بين الناس . . . كلاً إن الشرع يحاول جاهداً أن يدرأ هذا الخطر عن الأمة، ولا يرضى أن يرى بعضهم ممتحناً بالفقر . .

ومن هنا حثُّ على العمل والإكتساب والإتجار، ونهى عن التهاون والتكاسل في ذلك، والشواهد على ذلك كثيرة .

إن الإسلام يفرض على الفقير حكماً شرعياً أن يدفع الفقر عن نفسه لو

(١) سورة الطلاق ؛ الآية : ٢ ، ربيع الأبرار : ٦٤٤/٢ .

(٢) ربيع الأبرار : ٦٥٣/٢ .

استطاع ذلك، يفرض عليه أن يستغني عن الناس، ويحرم عليه السؤال مع القدرة على الاستغناء، وقد حذرته حتى من دعائه للطلب من الله مع إمكان الاستغناء، كما لو كانت ظروف الإكتساب والعمل مهياة له . . أو كان يملك أسباب الغنى بالقوة أو بالفعل .

فالغنى أفضل من الفقر في أغلب الأحوال . . والغنى المؤمن أوفر حظاً عند الله من الفقير المؤمن، لأن الثاني يعجز عن أداء كثير مما يقوى عليه الأول . . ولأن الغنى يمكنه بغناه أن يؤسس دُنياً طيبة، وآخرة عامرة، ويمكنه أن يعود على عياله وأهله وأرحامه وأصدقائه بالخير . . يمكنه أن يسد ثغرات الحاجة في حياة المجتمع . . وينفق في سبيل الله، وفي موارد الخير . وطبيعي أن الإنفاق في سبيل الله، والتصدق على الفقراء، وسائر أعمال الخير لا تتم إلا أن يكون المرء غنياً، قادراً على العطاء يفعل ما يعجز عن فعله الفقير .

يقول الشاعر :

ذريني للغنى أسعى فإنني رأيت الناس شرهم الفقير

يقصد الفقير الذي يكون عالة على المجتمع، ويرضى بالذل والهوان لنفسه، ويمتنع التسكع والإستجداء، ولا يحفظ لنفسه كرامتها وعزتها، ولا يصونها عن التبذل والهتك .

لهذه الأسباب مجتمعة، جاءت تعاليم الإسلام تحث على العمل والإكتساب، ولأن العمل قوة الإنتاج الكبرى، فُرض على المؤمن ليحيا كريماً في هذه الدنيا، لا يجوع فيها ولا يعرى، أو تجرفه القوى والتيارات، أو يفسده الفراغ، أو تفسده طراوة الدعة . . .

من هنا كان لقادة الإسلام، مواقف وآراء واضحة، تؤيد العمل وتشجع على الإكتساب .

روي أنه أصابت أنصارياً حاجة، فأخبر رسول الله ﷺ فقال : ائتني بما في منزلك، ولا تحقر شيئاً، فأتاه بحلّسٍ وقدر، فقال ﷺ : من يشتريها؟ فقال رجل : هما عليّ بدرهم، فقال ﷺ : من يزيد؟

فقال رجل : هما عليّ بدرهمين .

فقال : هما لك .

ثم قال للأ نصاري : ابتع بأحدهما طعاماً لأهلك ، وابتع بالآخر فأساء ،
فأتى بالفأس ، فقال عليه السلام : من عنده نصاب لهذا الفأس ؟

فقال بعض أصحابه : عندي يا رسول الله .

فأخذه رسول الله ، فأثبتته في يده وقال : إذهب واحتطب ولا تحقرن
شوكاً ، ولا رطباً ولا يابساً خمس عشرة ليلة .

فأتاه بعد ذلك وقد حسنت حالته ، فقال عليه السلام :

« هذا خير لك من أن تجيء يوم القيامة ، وفي وجهك كدوح
الصدقة »^(١) .

وروي عن أم الدرداء قالت : قال لي أبو الدرداء : لا تسألي أحداً شيئاً .
قلت : فإن احتجت فما أصنع ؟ قال : تتبعي الحصادين فانظري ما يسقط منهم
فخذيهِ فاخبطيه ثم اطحنه ثم اعجنه ثم كليه ولا تسألي أحداً شيئاً^(٢) .

وذكروا أن أعرابياً لمست ابنته كفّه فألفتها خشناء ، فقالت :

هذه كفّ أبي خشنها ضربُ مسحاةٍ ونقلٌ بالزبيل

فأجابها :

ويلك لا تستنكري مسّ يدي ليس من كدّ لعزّ بذليل
إنما الذلّة أن يمشي الفتى صاحب الذيل إلى باب البخيل

وكان الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، يشجّع على الإكتساب
والتجارة والعمل ، وينهى عن التقاعس والتهاون في الحصول على الرزق
الحلال فقد ورد في البحار (المجلد الخاص بالإمام) أنه قال :

« لا خير فيمن لا يحبّ جمع المال من حلال ، فيكفّ به وجهه ويقضي

(١) ربيع الأبرار : ٦٢٤/٢ .

(٢) ربيع الأبرار : ٦٢٦/٢ .

به دينه»^(١) .

ويصف المؤمن بأنه (من طاب مسكنه، وحسنت خليقته، ووضحت سريرته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من كلامه، وكف الناس شره وأنصف الناس من نفسه)^(٢) وأنى يطيب مسكنه إلا بالمال والغنى؟

ويوصي عليه السلام بالإجمال في الطلب، وينادي بالحكمة في الإنفاق فيقول : (إن السرف يورث الفقر، وإن القصد يورث الغنى)^(٣) .

ولم يكن الإمام عليه السلام يرى بأساً في أن يمارس الكسب والعمل والتجارة بنفسه، ليكون قدوة للآخرين، وليوجه أنظار الناس إلى أهمية العمل والإتجار إن أمكن ذلك .

وأي عيب في العمل؟ ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعمل بيده؟ واعتبر العمل عبادة، وأعطى اليد العاملة المؤمنة أماناً من النار! ونبه عليه السلام على قيمة الوقت واستثماره للعمل الدؤوب النافع، في قوله :

«لو قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها، وإن استطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها»^(٤) .

كناية عن العمل المتواصل، والكد الدؤوب .

وأمر المؤمنين عليه الصلاة والسلام، ألم يضرب بالمسحاة في أرضه؟ وعمل في أرض يهودي مزارعاً؟ وكان يحمل التمر والبلح لأهله في ثوبه ويقول :

لا يُنْقَصُ الكاملُ من كماله ما جرَّ من نفع على عياله

وأما الإمام الصادق فإنه يريد العمل لأسباب شتى، فهو يريد أن يستغني عن الناس، وليفضل له فضل فينفقه في سبيل الله، وليشجع الناس عليه .

يقول عبد الأعلى، مولى آل سام : استقبلت أبا عبد الله في بعض طرق

(١) - (٢) الإمام الصادق والواقع المعاش : ١١٧ .

(٣) الإمام الصادق والواقع المعاش : ١١٧ .

(٤) ربيع الأبرار : ٢ / ٦٢٤ .

المدينة في يوم صائف شديد الحرّ، فقلت: جعلت فداك، حالك عند الله عزّ وجلّ، وقرابتك من رسول الله ﷺ وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم؟ .

فقال: يا عبد الأعلى، خرجت لطلب الرزق، لأستغني عن مثلك^(١) . ولعله يريد (بكلمة مثلك) عموم الناس، إنه يريد أن يكون مستغنياً عما في أيدي (مثله) من الناس . . وربما أراد هو بذاته، وأمثاله ممن يخوض فيما لا يعنيه، ويعترض حتى على مثل الإمام الصادق! .

وعن إسماعيل بن جابر، قال: أتيت أبا عبد الله عليه السلام، وإذا هو في حائط له بيده مسحاة، وهو يفتح بها الماء، وعليه قميص شبه الكرايس، كأنه مخيط عليه من ضيقه . . .

وقد أعطى مرة بعض أصحابه ألفاً وسبعمائة دينار، وقال له اتجر لي بها، ثم قال: أما إنه ليس لي رغبة في ربحها، وإن كان الربح مرغوباً فيه ولكنني أحببت أن يراني الله عزّ وجلّ متعرضاً لفوائده .

قال: فربحت له فيها مائة دينار ثم لقيته فقلت له: قد ربحت لك فيها مائة دينار، قال: ففرح أبو عبد الله بذلك فرحاً شديداً، ثم قال: أثبتها في رأس مالي، ثم تبرع بها لفقير من أصحابه^(٢) .

ولا بأس أن يجد العامل في عمله بعض مشقة، فما هي إلا زيادة في الفضيلة، كما كان الصادق عليه السلام، يتأذى - أحياناً - في طلب المعيشة .

عن أبي عمر الشيباني قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام، وبيده مسحاة وعليه إزار غليظ، يعمل في حائط له، والعرق يتصبب عن ظهره، فقلت: جعلت فداك، أعطني أكفك .

فقال لي: إني أحب أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة^(٣)!

وسأله بعض أصحابه أن يدعو الله له، لئلا يجعل رزقه على أيدي العباد

(١) (٣) الإمام الصادق والواقع المعاش: ١١٧ .

فأجابه الإمام عليه السلام : (أبى الله عليك ذلك، آلى الله إلا أن يجعل رزقه على أيدي العباد، بعضهم من بعض، ولكن أدع الله أن يجعل رزقك على أيدي خيار خلقه، فإنه من السعادة، ولا يجعله على أيدي شرار خلقه فإنه من الشقاوة)^(١) .

ولئن كان الإمام عليه السلام يرغب ويرغب في الإتجار والإكتساب فإنه كان يؤكد على الربح الطيب الحلال المشروع، ويعترض بشدة على ممارسة السبل الملتوية الرخيصة في العمل.. ويحارب استغلال الناس والطمع والجشع، وكان يعلم أصحابه، ليختاروا القنوات المشروعة السليمة والسبل القويمة في اكتساب الرزق .

روي أنه دعا مولياً له، يُقال له (مصادف) فأعطاه ألف دينار وقال له : تجهّز حتى تخرج إلى مصر، فإن عيالي قد كثروا .

قال : فتجهّز بمتاع، وخرج مع التجار إلى مصر، فلما دنوا منها، استقبلتهم قافلة خارجة من مصر، فسألوهم عن المتاع الذي معهم، ما حاله في المدينة؟ وكان متاع العامة، فأخبروهم أنه ليس بمصر منه شيء! وتحالفوا وتعاهدوا على أن لا ينقصوهم من ربح دينارٍ ديناراً، فلما قبضوا أموالهم انصرفوا إلى المدينة. فدخل مصادف على أبي عبد الله عليه السلام، ومعه كيسان، في كل واحد ألف دينار، فقال : جعلت فداك، هذا رأس المال، وهذا الآخر ربح .

فقال عليه السلام : إن هذا الربح كثير! فما صنعتُم في المتاع؟

فحدثه كيف صنعوا، وكيف تحالفوا .

فقال عليه السلام : سبحان الله، تحلفون على قوم مسلمين ألا تبيعوهم إلاّ بربح الدينار ديناراً؟ ثم أخذ أحد الكيسين وقال : هذا رأس مالي، ولا حاجة لي في هذا الربح .

ثم قال : يا مصادف، مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال^(٢) ! .

(١) الإمام الصادق والواقع المعاش : ١١٨ .

(٢) المصدر السابق .

فالعمل لاكتساب المعاش وسيلة من وسائل العيش الكريم، ووقاية من الإبتلاء بالفقر، وليس وسيلة لاستغلال الناس، وأكل أموالهم بالباطل.

ولا تتسع هذه العجالة لذكر الأخبار والأحاديث والروايات الكثيرة التي تشجع على العمل، وتضاعف عزيمة المرء لاكتساب الرزق الطيب الطاهر الحلال، ليأكل من كد يمينه ويواصل التحرك المستمر لكسب العيش.

ولا يخفى أن الاستقرار النفسي غالباً ما يكون مرهوناً بالاستقرار الاقتصادي للفرد، فكثير من الناس يعاني من اضطرابات نفسية، ومشاكل روحية بسبب الانتكاسات الاقتصادية..

ولو استطاع أن يحقق الكسب المشروع بالعمل والإتجار، واستغنى بذلك، لنفى عن حياته المشاكل النفسية.

٨ - غنى النفس :

وربما يُقال: إن الغنى الحقيقي، ليس في وفرة المال وكثرته، بل هو في النفس، فقد يكون المرء فقيراً، خلواً من المال، ولكنه يحمل بين جوانحه نفساً كريمة تجود بما تملك حتى في ساعة العسرة والضيق.

قد يكون غنياً تتابعت عليه نعم الله تعالى، ولكنه لئيم النفس خسيسها، لا تجود يده بشيء، فالغنى غنى النفس، لا غنى الأموال، والنفس هي التي تجود أو لا تجود، حسبما جبلت عليه.

كان معن بن زائدة (وهو من الأجواد الذين يضرب بهم المثل) من خواص يزيد بن عمر بن هبيرة، وكان ابن هبيرة والياً من قبل (مروان الحمار) آخر سلاطين بني أمية، على الكوفة والبصرة، فلما سقطت الدولة الأموية، وقامت على أنقاضها دولة بني العباس، أخذ السفاح ابن هبيرة وولده وقتلهما، فخاف معن على نفسه، والتجأ إلى الفرار والتخفي، وتوارى عن أعين الناس، حتى كانت أيام المنصور العباسي، فضاقت نفسه من الاستتار، وعزم على الخروج من مخبئه، ولكنه كان يحذر أن يُعرف فيؤخذ، فعرض وجهه للشمس حتى تغيّر لونه، وخفف لحيته وعارضيه، ولبس جبة صوف،

وغير من هيئته وشكله، وخرج متنكراً على جملٍ متوجهاً إلى البادية .
يقول معن : فتبعني غلام أسود، متقلد سيفاً، حتى إذا غبتُ عن
الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه، وقبض علي .

فقلت : ما شأنك؟

قال : أنت بُغية الخليفة (يعني المنصور) .

فقلت له : ومن أنا حتى يطلبني الخليفة؟

فقال : أنت معن بن زائدة .

قلت : يا هذا، اتق الله ! وأين أنا من معن؟

فقال : دع عنك هذا، فأنا والله أعرفُ بك .

فقلت له : فإن كانت القصة كما تقول، فهذا جوهرٌ حملته معي، قيمته
أضعاف ما بذله المنصور لمن جاء بي، فخذهُ ولا تسفك دمي .

فقال : هاته، فأخرجته إليه، فنظر إليه ساعة وقال : صدقت في قيمته
ولستُ قابله حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتك .

فقلت : قل .

فقال : إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني : هل وهبتَ مالك كله

قط؟

قلت : لا .

قال : فنصفه؟

قلت : لا . قال : فثلثه؟

قلت : لا . حتى بلغ العشر، فاستحييتُ وقلت : أظنّ أني قد فعلت

هذا .

فقال : وما ذاك بعظيم، ولم تفعل شيئاً، أنا والله راجل^(١) ورزقي من

(١) راجل : ضد الفارس .

المنصور عشرون درهماً، وهذا الجواهر قيمته ألف دينار، وقد وهبته لنفسك، ولجودك المأثور بين الناس! ولتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك، فلا تعجبك نفسك، ولتحقّر بعد هذا كل شيء تفعله، ولا تتوقف عن مكرمة، ثم رمى بالجواهر إليّ، وخلّى خطام الجمل وانصرف.

فقلت : يا هذا قد فضحتني! وَلَسَفْكَ دمي أهون علي مما فعلت، فخذ ما دفعته إليك، فإنني عنه في غنى.

فضحك ثم قال: أردت أن تكذبني في مقامي هذا؟! فوالله لا آخذه، ولا آخذ لمعروف ثمناً أبداً، ومضى.

يقول معن : فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت، وبذلت لمن يجيء به ما شاء، فما عرفت له خبراً، وكأن الأرض ابتلعه^(١).

ويعرض الشاعر صورة عن غنى النفس، ونزعة الجود والعطاء فيها، في هذين البيتين :

يقول في العسر: إن أيسرتُ ثانيةً أقصرتُ عن بعض ما أعطي وما أهبُ
حتى إذا عاد أيام اليسار له رأيت أمواله في الناس تُتَهَبُ

فهو ينفق وينفق، حتى إذا صفرت يده يراجع نفسه فيلومها، ويعزم على أن لا يبالغ في الإنفاق، لو قُدِّر له الغنى مستقبلاً، ولكنه حين يستغني يغلبه طبعه الكريم، وسجيته السمحاء، وتأبى نفسه إلاّ العطاء والإنفاق.

قال بعضهم: الكريم يكرم وإن افتقر، كالأسد يُهاب وإن كان رابضاً واللئيم لا يكرم وإن أيسر، كالكلب يخسأ وإن طوّق وحلّي.

لأن كليهما يعكس صورة نفسيته وذاته وطبعه، بغض النظر عن وفرة المال لديه أو عدم وفرته.

يقول شاعر :

وإنّي آمرو لا تستقرّ دراھمي على الكفّ إلاّ عابرات سبيل

(١) قصص العرب : ٢٥٢/١ ، وقائع الأيام للمحدث القمي : حوادث ١٧ ذي القعدة .

ويقول آخر :

فتى ترهب الأموال من ظل كفيه كما يرهب الشيطان من ليلة القدر

قال رجل غني لآخر فقير: اقبل مني هذا الثوب .

قال : إن كنت غنياً قبلته منك، قال : أنا غني، قال : كم تملك؟

قال : ألفين، قال : أيسرك أن تكون أربعة آلاف؟

قال : نعم، قال : فأنت فقير، لا أقبله منك ! .

أي أنت فقير النفس، لأن غني النفس لا يفكر في زيادة ماله، لما تعودته من إنفاق وبذل، يفيض بماله على الناس، فكيف - والحال هذه - يزداد ماله ويتضاعف؟ أما وأنت تفكر في إكثار مالك ومضاعفته، فمعنى ذلك أنك فقير في نفسك غني بمالك .

وغنى النفس يعني الاستغناء بالله تعالى وحده، سواء كان المرء غنياً بماله، أو لم يكن كذلك، فالمرء حين يعرض عما في أيدي الناس، ويرى نفسه فقيراً إلى رب العباد، يصبح كريم النفس، كثير الخير، لأنه يجد نفسه ينفق من معين لا ينضب، ومن كنز لا ينفد .

يقول تعالى : ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقي﴾^(١) .

وورد في القول المأثور : (من استغنى بالله افتقر إليه الناس) .

وفي حديث يرفعه أنس : يقول الله عز وجل : «يا بن آدم، أقبل إليّ أملاً قلبك غني، وأنزع الفقر من بين عينيك، وأكف عليك ضيعتك، فلا تصبح إلا غنياً، ولا تمسي إلا غنياً، وإن توليت عني نزعت الغنى من قلبك وأنسيت عليك ضيعتك فلا تصبح إلا فقيراً، ولا تمسي إلا فقيراً»^(٢)

وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضاً بثمانين ألفاً، ف قيل له : لو

(١) سورة سبأ ؛ الآية : ٣٩ .

(٢) ربيع الأبرار : ١٣٥/٤ .

اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً، قال: بل أجعله ذخراً لي عند الله، وأجعل الله ذخراً لولدي، وقسمه بين ذوي الحاجة (١).

إن دناءة النفس، وخساسة الطبع تغلب الإنسان حتى مع الغنى وتظهر عليه سواء كان فقيراً، أو كان يملك ما يملك، فلو كانت النفس تافهة اتّسمت سيرته بها في كل حال، يؤيد ذلك ما روي عن (ربيعه بن ثابت الرقي) (٢) أنه امتدح رجلاً من بني العباس يُقال له: العباس بن محمد بن علي بقصيدة لم يُسبق إليها في سبكها ومعانيها، يقول في بعض أبياتها:

لو قيل للعباس يا بن محمد	قل: لا، تكون مخلداً ما قالها
ما إن أعد من المكارم خصلة	إلا وجدتكم عمّها أو خالها
وإذا الملوك تسايّرت في بلدة	كانوا كواكبها وكنّت هلالها
إن المكارم لم تزل معقولة	حتى حللت براحتيك عقّالها

فبعث إليه العباس العباسي (بدينارين!!) وكان الشاعر يقدر في شعره ألفين، فلما نظر إلى الدينارين كاد يجنّ غضباً، وقال للرسول: خذ الدينارين فهما لك على أن تردّ إليّ الرقعة التي عليها شعري من حيث لا يعرف العباسي بذلك، فاستجاب الرسول لطلبه، فأخذها ربيعة وكتب في ظهرها:

مدحتك مدحة السيف المحلّي	لتجري في الكرام كما جريت
فهبها مدحة ذهب ضياعاً	كذبت عليك فيها وافترت

ثم دفعها للرسول وقال: ضعها في الموضع الذي أخذتها منه، ففعل، وأعاد الرقعة إلى مكانها، فلما كان من الغد أخذها العباس فنظر فيها، فلما قرأ الأبيات غضب، وقام من فوره وركب إلى الخليفة (الرشيد) وكان أثيراً عنده يبجله ويقدمه، وكان قد همّ أن يخطب إليه ابنته، فلما دخل عليه والغضب بادٍ عليه، بادره الرشيد قائلاً: ما شأنك؟

قال: هجاني ربيعة الرقي.

(١) ربيع الأبرار: ٦٨٢/٣.

(٢) من الشعراء المكثرين المجيدين، ولكن خمل ذكره لكونه بعد عن العراق وولد ونشأ في الرقة، ولم يخالط الشعراء مات سنة ١٩٨ هـ.

فأحضره الخليفة، وقال له : أتتهجو عمي ، وهو أثر الخلق عندي؟ لقد هممت أن أضرب عنقك .

فقال ربيعة : والله يا أمير المؤمنين لقد امتدحته بقصيدة ما قال أحد من الشعراء مثلها في أحد من الخلفاء، ولقد بالغت في الثناء، وأكثر من الوصف، فإن رأيت أن تأمر بإحضارها وتنظر فيها .

فلما سمع الخليفة ذلك سكن غضبه واشتاق أن ينظر إلى القصيدة فأمر العباس بإحضارها، فتلكأ عليه . . فقال الرشيد : سألتك بحقي عليك إلا أمرت بإحضارها، فأحضرت، فلما قرأها الرشيد أعجبته كثيراً واستحسنها، واستجادها وقال : لقد صدق ربيعة وبر، فوالله ما قال أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء مثلها .

ثم التفت إلى العباس فقال : كم أصبته عليها؟ فسكت العباس وتغير لونه، وغصَّ بريقه .

فقال ربيعة : أثابني عليها بدينارين يا أمير المؤمنين!!

فتوهم هارون أنه قال ذلك من الموجدة عليه، فقال : بحياتي يا رقي، كم أثابك؟

فقال : وحياتك يا أمير المؤمنين، ما أثابني إلا بدينارين! .

فغضب الرشيد غضباً شديداً، ونظر في وجه العباس وقال : سوء لك أية حال قعدت بك عن إثابته؟ أقله مال؟ فوالله لقد مولتك جهدي . أم انقطاع المادة عنك؟ فوالله ما انقطعت . أم أصلك؟ فهو الأصل الذي لا يدانيه شيء (إشارة إلى نسبه العباسي) .

أم نفسك؟ لا ذنب لي! بل نفسك والله فعلت بك ذلك، حتى فضحت أجدادك وفضحتني، وفضحت نفسك .

فنكس العباسي رأسه ولم ينطق، وفتر هارون عما كان قد هم به من تزويج ابنته، وطرده، وأعطى ربيعة ثلاثين ألف درهم^(١) .

(١) قصص العرب : ٣٠٥/٢ .

أجل . . إنها دناءة متأصلة في نفس الرجل ، إنه مجبول على فقر النفس وتفاهتها وصغرها . . فلا يقوى على مخالفتها . . أو لا يريد ذلك ، رغم ما يمتلك من وفير المال ، ورغم إتصال المادة به . . وما يحظى به من مكانة في البلاط العباسي ، ولا سيما الخليفة !

وليس كل الناس بهذه الصفة ، بل بعضهم بخلاف ذلك ، يتسم بكبر النفس وعلو الهمة ، من ذلك ما روي عن عمارة بن حمزة ما ينبىء عن شرف النفس وغناها ، فقد قيل إنه دخل يوماً على المنصور العباسي ، فلما استقرَّ به المقام في مكان بجانب الخليفة ، قام رجل وقال : أنا مظلوم .

قال المنصور : من ظلمك ؟

قال : ظلمني عمارة بن حمزة ، غصبني ضيعتي .

فقال المنصور : يا عمارة ، قُم فاقعد مع خصمك .

فقال : ما هو لي بخصم . . إن كانت الضيعة له ، فلا أنازعه فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له ! ولا أقوم من مقام شرفني به الخليفة ورفعني ، وأقعدُ في أدنى منه لأجل ضيعة^(١) .

وتحدّث السفاح وزوجته يوماً في نزاهة نفس عمارة بن حمزة ، وكبرها ، فقالت له : ادعُ به ، وأنا أهبُّ له سبحتي هذه ، فإن ثمنها خمسون ألف دينار ! فإن هو قبلها علمنا أنه غير نزيه النفس .

فوجّه إليه فحضر ، فحادثته ساعة ، ثم رمت إليه بالسبحة ، وقالت : هي لك فجعلها عمارة بين يديه ، ثم قام وتركها ، فقالت : لعلّه نسيها ، فبعثت إليه بها مع خادم ، فلما جاء الخادم قال له : هي لك . فرجع الخادم فقال : قد وهبتها لي فأعطت أم سلمة (زوج المنصور) للخادم ألف دينار واستعادتها منه^(٢) .

(١) المستطرف في كل فنٍّ مستظرف : ٢٩٨/١ .

(٢) المستظرف : ٢٩٨/١ .

وهكذا وجدنا أن الغنى والفقر، صفتان مستقرتان في النفس، لا يمكن النظر إليها إلا من قناة النفس، فلا الكريم يستطيع أن يتخلى عن كرمه وغنى نفسه وإن كان معدماً لا يملك شيئاً من حطام الدنيا.. ولا اللئيم يقوى أن يفك هذا الغل عن نفسه، وإن كان متمولاً ذا ثراء، لأنه مطبوع عليه.. إلا بمجاهدة النفس مجاهدة مستمرة، ومخالفتها مخالفة دؤوبة.. عليه أن يتصنع الكرم والجود، ويغالب بهما نفسيته وطبعه، ويجنبها أن تسلك مسالك البخل واللؤم.

٩- البخل :

من هنا جاءت الآيات القرآنية، محذرة من البخل، ومصورة نتائجه تصويراً عجيباً، لا يكاد المرء يقرأ منها حتى يهتز منها كيانه ويقشعر بدنه .

قال تعالى : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾^(١) .

ويعتبر الذين بخلوا وامتنعوا عن الإنفاق طالحين سيئين، ويعدهم شراً سيلحقهم ندم بالغ على منعهم الإنفاق وبخلهم بالمال ..

قال تعالى : ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾^(٢) .

فهو الآن شقي طالح يستمهل الله أجلاً قريباً لينفق ويخرج بذلك من عداد الطالحين إلى عداد الصالحين . ولكن هيهات له ذلك ..

﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون﴾^(٣) .

ويعد القرآن العطاء طهارة للمال وتركية للنفس، لأن الإنفاق في سبيل الله عبادة تنفي عن النفس أدرانها .

(١) سورة التوبة ؛ الآيتان : ٣٤ - ٣٥ .

(٢) سورة المنافقين ؛ الآية : ١٠ .

(٣) سورة المنافقين ؛ الآية : ١١ .

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ بِهَا وَتَزَكِّيهِمْ...﴾ (١) .

وتبقى الحياة مع البخل مشوبة بالكدر . وتبقى النفوس ملوثة تنزع إلى الشر إذا ما بخل المرء بالمال واستأثر به . . وسوف لن يجد البخيل راحة ولن يكسب نفعاً من ماله ، وتكتنف حياته الشدائد والمحن ، ويعيش ضيقاً وعُسرًا ذلك بما بخل بالمال ومنع العطاء .

يقول تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (٢) .

ويقول عزّ من قائل : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٣) .

ويعزّو هؤلاء البخلاء والمانعون ، من المفرطين في حب المال ، وعُبادِهِ، حرمان المحرومين ، وجوع الجائعين ، ومسكنة المساكين ، إلى الله سبحانه ، ويلقون الهجينة على ربّهم ، بخلاً وعناداً ، وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . فلا تكفيهم خطيئة المنع ، بل يلقون بالتبعة على الله !! يقول عنهم القرآن :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤) .

وأي ضلال أبين من هذا المقال؟ يقولون: لو كانت الأرزاق مقدرة من قبل الله ، نازلة من عنده سبحانه ، فلماذا يكون علينا أن نشركهم في أموالنا ونطعمهم من طعامنا؟ لو أراد الله تعالى لأغناهم كما أغنانا ، وأعطاهم كما أعطانا ، وبهذا القول جمعوا بين البخل وبين الافتئات على الله تعالى حين نسبوا إليه سبحانه قطع الأرزاق عن هؤلاء المحرومين .

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ١٠٣ .

(٢) سورة الليل ؛ الآيات : ٨ - ١٠ .

(٣) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٨٠ .

(٤) سورة ياسين ؛ الآية : ٤٧ .

وقد علموا أن الله تعالى قد جعل في أموالهم حصصاً وحقوقاً لهؤلاء المحتاجين، وأنه تعالى أجرى أرزاق البعض على أيدي البعض الآخر، وأن الأموال لم تكن بحال من الأحوال لهم خاصة، بل هم مستخلفون عليها، ومؤتمنون عليها بنص القرآن.. ولكنهم ظلموا المحرومين والجائعين والمساكين، وأهل الحاجة فغصبوا الحقوق، وسرقوا الأرزاق، وأسرفوا في المعاش، وجاوزوا الحدود وقارفوا الذنوب، وإن هم إلا في ضلال مبين .

يقول الشاعر يصف بعضهم مخاطباً له :

لو أن دارك أنبت لك وأحتشت إبراً يضيقُ بها فناء المنزل
وأناك يوسفُ يستعيرك إبرةً ليخيطَ قد قميصه لم تفعل

ولعل الشاعر أخذ هذا المعنى من الآية الكريمة، حيث يقول تعالى عن أنانية بعض النفوس وشحها :

﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً﴾^(١) .

يروى عن أبي الفضل المعروف بابن القطا : إنه قعد يوماً يأكل مع زوجته - وكان بخيلاً - فقال لها : اكشفي عن رأسك، ففعلت، فقرأ سورة الإخلاص، فقالت : ما الخبر؟

قال : بلغني أنه إذا كشفت المرأة رأسها لم تحضر الملائكة، وإذا قرئت سورة الإخلاص هربت الشياطين.. وأنا أكره الزحمة على المائدة!! .

قال شاعر آخر :

رأى الصيفَ منقوشاً على باب داره فصَحَّفه (ضيفاً) فقام إلى السيفِ
فقلنا له خيراً؟ فظنَّ بأننا نقول له : (خبزاً) فمات من الخوفِ

يقال : الجواد يأكل ماله، والبخيل يأكله ماله! .

استأذن أحمد بن جعفر البرمكي على صديق له، كان يعرف بالبخل،

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ١٠٠ .

فقيل له : هو محموم . فقال : كلوا بين يديه حتى يعرق .

عن رسول الله ﷺ : «إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم»^(١) .

ومن عجيب أمر البخيل أنه يبخل خوف الفقر، ويكنز المال خشية الإملاق ويمتنع عن الإنفاق لئلا يقع في الفاقة، وبذلك يعيش كل حياته فقيراً مرةً في الواقع، ومرة بالبخل . . حتى إذا هلك ترك الأموال لغيره، ولم يستفد هو منها شيئاً أبداً .

يقول أمير المؤمنين ﷺ : «عجبتُ للبخل، يستعجل الفقر الذي هربَ منه ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيشَ الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء»^(٢) .

ويقول ﷺ أيضاً : «البخل أحد الفقرين»^(٣) .

قال الشيخ محمد عبده المصري في شرح هذا الكلام (الفقر: ما قصر بك عن درك حاجتك، والبخل تكون له الحاجة فلا يقضيها، ويكون عليه الحق فلا يؤديه فحاله حال الفقراء يحتمل ما يحتملون، فقد استعجل الفقر وهو يهرب منه بجمع المال) .

وللإمام أمير المؤمنين ﷺ سجل خاص عن البخل والبخلاء، يتحدث عن نتائجه السيئة كثيراً . . ويصوره بصور مختلفة، ويحاول ﷺ ، بقوة تعبيره أن يشجع البخيل على الإقلاع عن هذه الصفة المذمومة، والعادة الكريهة المهلكة ويعكس الحالة النفسية المتردية التي يعيشها البخيل بين الناس، وما يعانيه هو والآخرين من نتائج هذه الخصلة السيئة . .

وإليك مجموعة من أقواله ﷺ بهذا الخصوص :

قال ﷺ : «البخل عار»^(٤) .

(١) جامع السعادات للتراقي (باب البخل) .

(٢) نهج البلاغة : ١١٤٥ .

(٣) الحياة للحكيمي : ٥٩/٦ .

(٤) نهج البلاغة : ١٠٨٩ .

«البخيل خازن لورثته»^(١) .

«لا غربة كالشح»^(٢) .

«لا سوء أسوأ من الشح»^(٣) .

«البخل جلاب المسكنة»^(٤) .

«لا مروءة مع الشح»^(٥) .

ولا تقتصر كلماته عليه السلام على هذه بل له بخصوص البخل والشح كلام كثير يحذر من عبادة المال والتلذذ باكتنازه، ويعتبر ذلك أصل المساوىء وأنه ينم عن سوء ظن بالمعبود الخالق الرازق.. وجاءت تحذيراته عليه السلام معللة كاشفة عن النفسية المنحطة التي يتصف بها البخيل، مما يحتاج معها إلى المبادرة لإصلاح نفسه، وتقويم ذاته، قبل أن يهوي في نار جهنم، ولات حين مندم .

وليعلم البخيل أن شحه بالمال لا يؤثر سلباً على نفسه فحسب، بل إن آثار البخل ومساوئه تنسحب على الآخرين أيضاً، فرب الأسرة - مثلاً - لو اتصف بالبخل، فإن ذلك يؤثر على نفسية أفراد أسرته جميعاً، فتتفشى فيهم هذه الخصلة، ويجبلون عليها.. وربما تمنوا موته لأنهم شقوا ببخله.. وربما تسبب البخل في مشاكل أسرية واجتماعية كثيرة .

يقول أمير المؤمنين عليه السلام : «.. وإذا بخل الغني بمعروفه، باع الفقير آخرته بدنياه»^(٦) .

ويقول عليه السلام : «.. ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن

(١) غرر الحكم : ٣١ .

(٢) غرر الحكم : ٣٤٧ .

(٣) غرر الحكم : ٣٤٨ .

(٤) الحياة للحكيم : ٥٨/٦ .

(٥) غرر الحكم : ٣٤٥ .

(٦) نهج البلاغة : ١٢٦١ .

الفضل ويعذك الفقر»^(١) .

وقد تجد بين الناس من تجود نفسه بالمال، ولكنه يبخل بالطعام ولعلك لا تجد تفسيراً لهذا التصرف، وهذه النفسية الشاذة... ولكنه واقع حصل ويحصل قديماً وحديثاً، ولعل ذلك ناتج عن أسلوب التعامل التربوي الذي تلقاه هؤلاء في صغرهم .

فقد ذكروا عن (الأمين) الخليفة العباسي المخلوع أنه كان - على رغم ما زعموه من سخائه - بخيلاً بالطعام^(٢) .

وكذلك كان معاوية بن أبي سفيان، يقول عنه أمير المؤمنين عليه السلام : «رحب بالعلوم مندحق البطن يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد...»^(٣) .

ويروي ابن أبي الحديد عنه في شرح نهج البلاغة: إنه كان جواداً بالمال والصلات، بخيلاً على الطعام، ويُقال: إنه رأى أعرابياً على طعامه، وبين يديه خروف أمعن الأعرابي في تقطيعه وأكله، فقال له معاوية: ما ذنبه إليك؟ أَنْطَحَكَ أبوه؟

فقال الأعرابي: وما حُنُوكَ عليه؟ أَرْضَعْتَ أُمَّهُ^(٤)؟ .

ويروى عن الرسول ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع»^(٥) .

وربما جاء المرء بالطعام، وبخل بالمال... وكل ذلك شَحٌّ وتقدير منهبي عنه في شرع الإسلام .

ومن الخلفاء الذين وُصفوا بالبخل أيضاً (هشام بن عبد الملك) فقد كان معروفاً به، وتناقلت كتب كثيرة أخبار بخله ولؤمه، رغم ما كان قد جمع من أموال لا حدَّ لها ولا حصر، فقد خرج مرة حاجاً فحُمِلَتْ معه ثيابه على

(١) الحياة للحكيمة : ٦١/٦ .

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ٧١٩/٣ .

(٣) شرح النهج للحديدي : ج ١ ص ٧٧٦، طبع دار مكتبة الحياة - بيروت .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الكافي : ٦٦٨/٢ .

ستمائة جمل، ودخل المدينة بها^(١). وترك بعد موته اثني عشر ألف قميص وشي، وعشرة آلاف تكة حرير، وترك أيضاً : أحد عشر ألف دينار^(٢) ولكنه - رغم ذلك - اتصف ببخل شديد، حتى عابه عليه أهله من بني مروان، وكانوا يقولون له : أنطمع بالخلافة وأنت ببخل جباناً^(٣) ؟ .

وذكر ابن جرير قال : بعث معي مولى لهشام، كان على بعض ضياعه بطيرين ظريفيين، فدخلت عليه وهو جالس على سرير في عرصة الدار . فقال : أرسلهما في الدار. قال : فأرسلتهما، فنظر إليهما، فقلت : يا أمير المؤمنين جائزتي؟ قال : ويلك وما جائزة طيرين؟ قلت : أي شيء كان . قال : خذ أحدهما .

فغدوت في الدار عليهما، فقال : مالك؟

قلت : أختار خيرهما. قال : أختار أيضاً خيرهما وتدع شرهما لي، دعهما ونحن نعطيك أربعين درهماً أو خمسين درهماً^(٤) (وفي مروج الذهب أعطاه درهمين) .

ومنهم أيضاً : المنصور الدوانيقي، وأخباره في البخل كثيرة . .

وفد (المؤمل) - وهو شاعر كوفي مخضرم - على المهدي العباسي ابن المنصور وكان والياً على الري أيام خلافة أبيه، فامتدحه بقصيدة، فأمر له بعشرين ألف درهم، فاتصل الخبر بالمنصور، فكتب إليه يعذله ويقول : إنما كان من حق الشاعر إذا وقف ببابك سنة، أربعة آلاف درهم ! .

وكتب إلى بعض رجاله بإلقاء القبض على الشاعر وإنقاذه إليه، فقبل له : سافر إلى مدينة السلام، فأنفذ المنصور قائداً من قواده إلى حيث يتواجد (المؤمل) فوقف له على الطريق يتصفح وجوه الناس رجلاً رجلاً ممن يمر به

(١) العقد الفريد : ٢١٢/٤ .

(٢) خفايا أموية للسيد محمد القزويني ص ١٧٨ .

(٣) تاريخ الطبري : ٥١٧/٥ .

(٤) خفايا أموية للسيد محمد القزويني : ١٨٢ .

حتى ظفر به، وأتى به المنصور وأدخله عليه .

يقول المؤمل : دخلت عليه وسلمت عليه سلام مروّع، وكاد قلبي ينصدع منه خوفاً وريبة. فردّ علي السّلام، وقال : أتيت غلاماً غِراً كريماً فخدعته؟!

قلت : إنما أتيتُ ملكاً كريماً فمدحته، فوصلني وبرّني، ثم أنشدته شعري .

فقال المنصور : أحسنت، ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم .

ثم قال : أين المال ؟ .

قلت : هوذا، فقال : يا ربيع، أعطه منه أربعة آلاف درهم وخذ الباقي .

قال المؤمل : فأخذ مني ستة عشر ألفاً، فأليت على نفسي ألا أدخل العراق وللمنصور بها ولاية^(١) .

ولا يسعنا في هذه العجالة أن نحصي أخبار البخل والبخلاء، ولكن التاريخ كان لهم بالمرصاد، تتبع أخبارهم ودونها، ونشر معايبهم، وفضح أساليبهم . . وهكذا شأن الأيام، تدّخر أخبار الناس، لتعرضها على الأجيال من بعدهم ليعتبروا منها، ويتعظّوا بها.

١٠ - وجهة النظر الإسلامية في الثروة :

للإسلام وجهة نظر دقيقة في المال، ومفهوم خاص يختلف عن المفاهيم الأرضية الأخرى، وله في هذه الوسيلة الحيوية في حياة الإنسان رأي خاص ولعلي أشرت إلى بعض الآراء الإسلامية عن المال في ما سبق من الحديث .

وأودّ أن أعرض - هنا - بشكل إجمالي بعض المفاهيم الإسلامية الأخرى، عن المال وكيفية استعماله، وإن كان ذلك خارجاً - بعض الشيء - عن موضوع الكتاب، ولكن رأيت أن أكمل الحديث عما يتعلق بالمال في

(١) قصص العرب : ٢٨٧/٢ .

هذا الفصل لتتم به الفائدة .

١ - الملكية المطلقة والمحدودة :

إذا كانت الرأسمالية تنظر إلى المال لدى الفرد على أنه ملكية شخصية مطلقة، لا يحق لأحد التدخل في أشكال تصرف الفرد المالك للمال فيه، فهو وحده يحق له أن يتصرف به كيف يشاء . . فإن الإسلام لا يقر ذلك، لأن المال الذي بين يديه ليس ملكاً مطلقاً له، بل هو أمين عليه مستخلف فيه كما أسلفنا، وسوف يحاسب ويُسأل عن كيفية تصرفه في ذلك المال .

والذي يقرأ حول النظام الرأسمالي، ويتفحص الأسس الفعلية، والمنطلقات الفكرية التي يقوم عليها . . ويقارن كل ذلك بالنظام الإسلامي من حيث تشريعه الاجتماعي والاقتصادي . . لا يحتاج إلى ذكاء كثير وفطنة بالغة ليستنتج التعارض الواضح بين النظامين، ومن موارد الاختلاف ما أسلفنا من حرية التصرف في المال (الحرية المطلقة) في النظام الرأسمالي و (المقيدة) في النظام الإسلامي .

فإذا كان الفرد في النظام الرأسمالي له مطلق الحرية في أن يتصرف بالمال الذي يملك وبالشكل الذي يرضيه، ولو كان في ذلك إسراف وتضييع للمال وإفساد له فإن النظام الإسلامي، يحدد الأطر التي ينبغي على الفرد التقيد بها في تصرفه في الثروة التي بين يديه، فلو خرج عن تلك الأطر المرسومة له حُجِرَ عليه، باعتباره سفيهاً لا يُحسن التصرف .

وحسن التصرف له أهمية بالغة في الإسلام، نوه بذلك القرآن الكريم على لسان النبي موسى عليه السلام، مخاطباً (قارون) رمز الفساد والطغيان المالي حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿وَابْتَغِ فِي مَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١) .

(١) سورة القصص ؛ الآية : ٧٧ .

فالإطار العام هو التعامل مع المال بشكل حسن، والإنفاق منه للدنيا والدين، دون فسادٍ أو إفساد، ومن يقرأ في باب (الحجر على السفيه) في الفقه الإسلامي يجد المجتمع الإسلامي - ممثلاً بالحاكم الشرعي - له الحق المشروع في انتزاع المال من يد السفيه، على أن يحفظ له الحد المعقول من العيش اللائق بالإنسان .

والسفيه - كما يعرفه ويحدده الفقهاء - هو الذي يتصرف في ماله بخلاف ما يقتضيه العرف والشرع، حتى وإن أنفق كل ماله في بناء المساجد وغيرها، هاملاً واجباته التكافلية نحو العائلة والمجتمع . .
فهذا يعتبر سفيهاً مسرفاً يجب الحجر عليه .

٢ - عدم المشاركة :

ينفي النظام الرأسمالي : أن يكون لصاحب المال شريك فيه، سواء كان ذلك الأفراد أو الدولة، بينما يؤكد الإسلام أن للمستخلف على المال شركاء لهم حقوق في ماله يجب أن يؤديها إليهم، ومن يتعمد رفضها، ورفض تأديتها، مثل الزكاة الواجبة، يعتبر مخالفاً لقوانين الإسلام، كذلك الحقوق المفروضة للمعوزين ﴿وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾^(١) ، ﴿وآت ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل﴾^(٢) وليس لصاحب المال أن يوصي بأكثر من الثلث، لصرفه في مصالحه الخاصة ورغباته، أما الثلثان الباقيان فليس له أي حق فيهما بعد موته، بل يقسمان تركة حسب ما ورد في آيات الموارث من سورة النساء .

وهكذا نجد أن أحكام الصدقات، ومساعدة ابن السبيل، وحقوق ذوي القربى من آل البيت عليهم السلام ، وكفاية الفقراء والكفارات والزكوات وغيرها . . . تؤكد هذه المشاركة الجماعية في المال الخاص، وهو ما يتميز به الإسلام عن باقي المبادئ والأفكار .

(١) سورة القصص ؛ الآية : ٧٧ .

(٢) سورة الذاريات ؛ الآية : ١٩ .

٣- التصرف المطلق : ويضع الإسلام العقوبات في طريق التصرف المطلق في المال، ولا يسمح بأي شكل من الأشكال أن يتصرف صاحب المال في ماله بشكل مطلق.. بل هناك موانع في طريق التصرف الغير المشروع، وثمة خطوط حمراء لا يحق له تجاوزها .

والإسلام يحدد الإطار العام الذي ينبغي أن تتم ضمنه العملية الإستثمارية والإنتاجية، ويجعل تنمية المال مقيدة في حدود لا يجوز تجاوزها، ويمنع الفرد من تنمية ماله بطرق محرمة معينة .

منها على سبيل المثال: القمار بأنواعه، والربا باعتباره صورة من صور الظلم والاستغلال لجهد الناس، وهو أجر بغير عمل، وكذلك الغبن الفاحش، والاحتكار والتدليس في البيع، والمتاجرة بما لا يُستفاد منه عادة، وإعادة تأجير الإجارة من غير إحداث أي تغيير... وهذه كلها وسائل لا يعترض عليها النظام الرأسمالي، بل إن معظم النشاط الاقتصادي الرأسمالي في مجال الاستثمار والانتاج، يقوم على هذه الوسائل المحرمة في الشرع الإسلامي، لأن الرأسمالية تؤكد على حرية الاستثمار وحرية وسائله وكذلك الإنتاج بشكل مطلق .

من هنا نجد أن المؤسسات الربوية، والاحتكارية، في الأنظمة الرأسمالية، مؤسسات مشروعة، يحميها القانون، وكذلك دور القمار وعلب الليل، وتجارة الخمور ونتاجها والمقامرة بالأوراق المالية، والاحتكار الصناعي، واستضعاف الآخرين، وهدر حقوقهم في سبيل استغناء فئة معينة، كل هذه الوسائل تعتبر من حيث الرؤية الرأسمالية: وسائل مشروعة للكسب والإنتاج، ولا يرى فيها من بأس . بينما يخالفها الإسلام، ويحاربها جميعاً، وهدفه الأول هو تحقيق الفائدة العامة التي يتمتع بها عامة الناس، ومن ضمنهم المستثمر .

إذن : ليس لصاحب المال الحق المطلق في التصرف بماله، إنما هناك إطار عام لا يجوز أن يتخطاه بحال من الأحوال يتمثل بالاستثمار المشروع الذي يبيحه الإسلام .

ولا يخفى ما في الأنظمة المالية التي تسلك طريقاً مخالفاً للإسلام، من آثار سلبية على النفسية البشرية، وخير دليل على ذلك: الحياة الجافة التي يعيشها غير المسلمين والتي تقوم على الأسس المادية البحتة، والحسابات الدنيوية فحسب، وحتى العلاقات الاجتماعية والأسرية تسيرها الأموال، ولا مكان للمعنويات والأخلاقيات عندهم إلا قليلاً . .

ولو استبدَّ حب المال، وكان هو الحاكم المطلق في مجتمع ما، يلهث الناس وراءه ولا يعرفون غيره . . لضاعت القيم، وماتت المبادئ، وانهارت الأخلاق وانحطت النفوس .

١١ - السخاء :

إن كلاً من (السخاء والقصد) وما يقابلهما من (البخل والسرف) يتصلان بسلوك الإنسان النابع من نفسيته، والشخصية السوية، أو قل : الإنسان المتصف بالسلوك السوي، هو الذي يتنازل عن ذاته ويتجه إلى الآخرين، والسخاء من هذا النوع، صفة تُخرج المرء من دائرة ذاته إلى الاتجاه نحو الآخرين، فتفيض من ممتلكات ذاتها على الناس، فهو سمح كريم، يجود بما عنده على الناس . . . وبذلك يكون محموداً بين الناس، سعيداً عند الله .

ومهما نقل في السخاء والتكرم، فلن نبلغ ما أدلى به رسول الله ﷺ من أقوال عظيمة شريفة بهذا الخصوص، فقد اعتبر الكرم من أخلاق الله تعالى، وأخلاق أنبيائه وأوليائه .

قال ﷺ : «السخاء خلق الله الأعظم»^(١) .

وقال ﷺ : «إن ربكم حيي كريم»^(٢) .

وقال أيضاً : «إن الله أكرم الكرماء»^(٣) .

وقال أيضاً : «ما جَبَلَ اللَّهُ ولياً له إلا على السخاء»^(٤) .

(١) ميزان الحكمة : المجلد الرابع، باب السخاء ص : ٤١٨ نقلاً عن ميزان الحكمة .

(٢) - (٣) ميزان الحكمة : المجلد الثامن، باب الكرم ص : ٣٦٤ .

(٤) ميزان الحكمة : المجلد الرابع، باب السخاء ص : ٤١٨ نقلاً عن ميزان الحكمة .

وقال علي عليه السلام : «الجواد في الدنيا محمود وفي الآخرة مسعود»^(١) .

وعنه عليه السلام : «الكريم عند الله مجبورٌ مثابٌ وعند الناس محبوب مهاب»^(٢) .

والسخاء صفة تنبع من النفوس الهيممة العالية، التي تستبشر بالبذل وتفرح بالعطاء والإنفاق، ويظهر ذلك على وجوههم، هشاشة وبشاشة ويتمتع الكرماء بطيبة وصفاء لا يخفيان على أحد .

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام : «الكرم نتيجة علو الهمة»^(٣) .

وقال عليه السلام : «يُستدل على كلام الرجل بحسن بشره وبذل برّه»^(٤) .

وعنه عليه السلام : «السخاء خلق الأنبياء»^(٥) .

ومن منطلق كون السخاء صفة نفسية نابعة من نفس كريمة طاهرة نقية محبة للخير والصلاح، فلا بد أن تتجاوب النفوس مع هذه النفس، وتتأثر بها، ويكون لها مردود حسن لهذا الخلق السوي والصفة المثالية . . ولا بد من نتائج إيجابية تترتب على السخاء والجود في نفوس الآخرين، وهو ما نلاحظه من حب الناس للكريم، وتعاطفهم معه في قضاياهم، وميلهم إليه، وتفضيلهم له على غيره في موارد الاختيار .

فقد سُئل بعضهم: بَمَ سدت قومك؟ .

فقال : أكرمت إليهم، واسعفت حاجاتهم، وقمت على شؤونهم كالأب الرؤوف على أولاده .

وعن هذه الآثار والنتائج الإيجابية النفسية المتبادلة بين السخي وبين الناس، يقول أمير المؤمنين عليه السلام :

(١) ميزان الحكمة : المجلد الثاني : ١٨٦ .

(٢) ميزان الحكمة : المجلد الثامن : ٣٦٦ .

(٣) - (٤) ميزان الحكمة : المجلد الثامن : ٣٦٢ .

(٥) ميزان الحكمة : المجلد الرابع : ٤١٨ .

- ١ - «السَّخَاءُ يَزْرَعُ الْمَحَبَّةَ»^(١) .
 - ٢ - «السَّخَاءُ يَثْمُرُ الصَّفَاءَ»^(٢) .
 - ٣ - «السَّخَاءُ يُكَسِّبُ الْمَحَبَّةَ وَيَزِينُ الْأَخْلَاقَ»^(٣) .
 - ٤ - «السَّخَاءُ يَمَحِّصُ الذُّنُوبَ وَيَجْلِبُ مَحَبَّةَ الْقُلُوبِ»^(٤) .
 - ٥ - «عليكم بالسَّخَاءِ وحسن الخلق فإنهما يزيدان الرزق ويجلبان المحبة»^(٥) .
 - ٦ - «السَّخَاءُ مَسْتَرُ الْعُيُوبِ»^(٦) .
 - ٧ - «غَطَاءُ الْعُيُوبِ : السَّخَاءُ وَالْعَفَافُ»^(٧) .
 - ٨ - «غَطُّوا مَعَايِبَكُمْ بِالسَّخَاءِ فَإِنَّهُ سِتْرُ الْعُيُوبِ»^(٨) .
 - ٩ - كثرة السَّخَاءِ تَكْثُرُ الْأَوْلِيَاءُ وَتَسْتَصْلِحُ الْأَعْدَاءُ»^(٩) .
- وكما أن السَّخَاءَ يثمر النتائج الحسنة في الدنيا، كذلك هو في الآخرة، يعطى السخي فوق حقه، ويخصه الله بلطفه .
- قال عليه السلام : «السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة»^(١٠) .
- وقال عليه السلام لعدي بن حاتم الطائي : «دَفَعَ عَنْ أَبِيكَ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ لِسَخَاءِ نَفْسِهِ»^(١١) .
- وقال عليه السلام : «شَابَ سَخِيٌّ حَسَنُ الْخَلْقِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ شَيْخٍ بَخِيلٍ عَابِدٍ سَيِّئِ الْخَلْقِ»^(١٢) .
- وروي أن جماعة من الأسرى جيء بهم النبي عليه السلام ، فأمر من يضرب أعناقهم . ثم أمر بإفراد واحد منهم لا يقتله! فقال الرجل : لِمَ أفردتني من أصحابي والجنابة واحدة؟ .

(١) - (٥) ميزان الحكمة : المجلد الرابع، باب السخاء ص ٤٢٠ .

(٦) - (١٢) ميزان الحكمة : المجلد الرابع، باب السخاء ص ٤٢٠ .

فقال له : إن الله تبارك وتعالى أوحى إلي : إنك سخي قومك ولا أقتلك .

فقال الرجل : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت محمد رسول الله ﷺ (١) .

وقد لا يكون الإنسان سخيّاً بطبعه وذاته ، وفي هذه الحالة ، عليه أن يتصنع السخاء ، ويحتذي بالأسخياء جهده ، ويحاول أن يعمل عملهم ، ويسير بسيرتهم ، ليتطبع بهذا الطبع العظيم ، ويتخلق بهذا الخلق السامي .

ولو تيقّن الإنسان أن ما يبذله وينفقه على الآخرين لأجل الله ، سيعود عليه بأضعاف ذلك ، ولو وثق أن الله عزّ وجلّ يعوّض المال الذاهب في السخاء بأكثر منه في الدنيا والآخرة ، لهان عليه البذل والعطاء ، ولسهل عليه أن يتخلق بالسخاء والجود .

قال ﷺ : «من أيقن الخلف سخت نفسه بالنفقة» (٢) .

وعن الصادق عليه السلام : «من صدّق بالخلف جاد بالعطيّة» (٣) .

وربما لاحظ الكثير منا أن السخي الباذل ، يوسع الله عليه أكثر من غيره ، ويفتح له أبواب الرزق ، ويعينه على سخائه وكرمه ، ولا يدعه يفتقر بسبب ما أنفق في سبيل الله .

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : «السخي الحسن الخلق في كنف الله لا يتخلّى الله عنه حتى يدخله الجنة وما بعث الله نبياً إلا سخيّاً وما زال أبي يوصيني بالسخاء وحسن الخلق حتى مضى» (٤) .

يأخذ الله بيد الكريم السخي ، يقيه عثراته ويسعفه في الشدائد والملمات .

وتاريخ الإسلام يزخر بأمثلة كثيرة عن الأسخياء والأجواد ، ممن علت

(١) ميزان الحكمة : المجلد الرابع ، باب السخاء ص ٤٢٠ .

(٢) - (٣) تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي : ٣٩٢/١٦ .

(٤) الإمام موسى بن جعفر : للدخيل (الأقوال والحكم) .

نفوسهم وعظمت هممهم فأنفقوا وبالفوا في الإنفاق حتى خلدتهم التاريخ وكتب أسماءهم في العظماء . . وراحوا مثلاً في الجود والعطاء .

وربما سأل سائل عن سرّ هذه الكثرة من أهل الجود والسخاء في تاريخ المسلمين، وبخاصة بين العرب . . بشكل يندر وجوده في مجتمعات أخرى ؟

والجواب يتلخص في أن العرب قوم كرماء بالطبع، وأسخياء بالفطرة حتى قبل ظهور الإسلام فيما بينهم . فقد عرفوا ببسط اليد منذ العصور القديمة كانوا يرون الجود فضيلة، والبخل رذيلة يُعاب عليها المرء، ويذكر المتصف بأحدهما في حياته وبعد موته، فالجواد يبقى جوده مفخرة لبنيه وذريته بعده، والبخل يبقى سبّة في أهله وذويه بعده . . وأرى نفسي في غنى عن ذكر أمثلة ذلك من التاريخ لكثرة هذه الأمثلة والشواهد، ووفرته، وتواترها منهم (هاشم) جدّ الرسول ﷺ ، الذي طعم قومه في سنة جذب وهشم لهم الثريد، حتى لُقّب بهاشم . . وهذا حاتم طي زين التاريخ بقصص جوده وكرمه .

ثم جاء الإسلام، وصبغ السخاء بصبغة دينية روحية . . واعتبره عملاً معنوياً يقرب إلى الله، فوق كونه خلقاً اجتماعياً عالياً، ووردت النصوص الشرعية المتواترة الكثيرة التي تقيم السخاء، وتمدح الجود وتشجع على الكرم، وتمنح الأجواد مكانة خاصة، ودرجة عالية . .

فكان أن توافق الدين مع نداء الفطرة في قوم تأسست حياتهم - أصلاً - على القيم والمبادئ . . فاعتبروا البخل والشح ومنع العطاء وصمات عار تناقض هذه المبادئ والقيم، فعافتها نفوسهم . . وكرهوا البخل والبخلاء، وتعلقت نفوسهم بالبذل والجود، وأحبوا الكرم . . وهو عين ما أراده الإسلام وحثّ عليه . . وجرت خصلة الكرم في دماء البعض منهم، وتوارث الأبناء والأحفاد صفات آبائهم حتى اليوم . . بخلاف غيرهم من الشعوب والأمم .

وثمة أقوام يعتبرون السخاء سخفاً، والجود جهلاً، والكرم حمقاً أجازنا الله منهم، وأبعدنا عنهم، تأصل فيهم البخل، وجرى الفقر في دمائهم، حتى فخروا به، وادعاه الجميع حتى الأغنياء منهم .

ولقد اخترت في هذا الفصل نموذجاً واحداً من معادن الكرم، لأجعله زينة هذا الفصل واختتم به الحديث . .

إنه سيد من سادات أهل البيت عليهم السلام ، ممن أشاد مجداً شامخاً ببذله وعطائه، وبني صرحاً سامياً من السؤدد والتلاد العظيم ولم يقتصر سخاؤه على ماله، بل جاد بنفسه وحياته في سبيل الله أيضاً . . وراح شهيداً وكتب اسمه في سجل الخالدين . . وهذه ميزة الكرم تجعل المرء معطاءً لا يبخل بشيء، حتى بحياته حفاظاً على مبادئه وقيمه، وكثيراً ما يقدم القرآن انفاق المال على انفاق النفس، لأن الذي يعجز عن انفاق المال لا يقوى - بطبيعة الحال - على بذل نفسه .

إنه (الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) عليهم الصلاة والسلام^(١) .

عرف عنه الجود الكثير، والعطاء المتواصل، وقد وقع اختياري عليه، لأن شخصيته مجهولة لدى كثير من الناس، ولم ينل حظه من التعريف به، والإشادة بحياته الكريمة، أحببت أن أنوه بذكره هنا من خلال الحديث عن الكرم والكرماء .

كان رضوان الله عليه أعجوبة دهره في البذل والانفاق، والتنازل عن الذات لصالح المحتاجين والمعوزين والعافين .

روى الأصفهاني في (مقاتل الطالبين) عن الحسين بن هذيل، قال: بعث للحسين بن علي حائطاً بأربعين ألف دينار، فلما صارت الأموال إليه

(١) كنيته : أبو عبد الله، وأمه زينب بنت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وكان يُقال لها ولزوجها علي بن الحسن : الزوج الصالح، لعبادتهما، وهما أبناء عم، قتل المنصور الدوانيقي أباهما وأخاه وعمومتها وبنهيم وزوجها، فكانت تلبس المسوح، ولا تجعل بين جسدها وبينها شعاراً حتى لحقت بربها . .
ثار الحسين المعروف (بشهيد فخ) أيام الهادي العباسي، لما ناله وأهله من الظلم والجور وقتل شهيداً رضوان الله عليه. تجد أخباره في (مقاتل الطالبين) لأبي الفرج الأصفهاني .

جلس على باب داره، وجعل يثرها على الفقراء والمحتاجين، فما دخل إلى أهله منها شيء أبداً، وكان يعطيني كفاً كفاً، فأذهب به إلى فقراء المدينة^(١).

وروى أيضاً عن يحيى بن سليمان، قال: اشترى للحسين بن علي صاحب فخ، ثوبان، فكسا خادمه أبا حمزة ثوباً منهما، وارتدى هو بثوب، فبينما هو في طريقه إلى المسجد إذ استوقفه سائل وسأله، فقال: اعطه يا أبا حمزة ثوبك، فقال أبو حمزة: أمشي بغير رداء؟ فلم يزل يأمره أن يعطي ثوبه للسائل حتى أعطاه.. ولكن السائل ظل يمشي وراءه حتى أتى منزله، فنزع الحسين ثوبه أيضاً وقال له: ائزر برداء أبي حمزة وارثد بهذا!

يقول أبو حمزة: فتبعته فاشتريت الثوبين منه بدينارين، وأتيت الحسين بهما. فقال: بكم اشتريتهما؟ قلت: بدينارين.

فأرسل إلى السائل يدعوه ليعيد عليه الثوبين، فقلت له: امرأتي طالق إن رددتهما عليه أو دعوته، فحين حلفت تركه^(٢).

ومن لطيف ما يروى عنه: عن هاشم بن قريش، قال: أتى رجل الحسين بن علي صاحب فخ، فسأله، فقال الحسين: ما عندي شيء أعطيكم ولكن أقعد حتى يجيء أخي الحسن - وكان الحسن مكفوفاً - فإذا جاء فقم فخذ حماره!

فلم يكن أسرع أن جاء الحسن، فنزل عن حماره، فقاده غلامه إلى مجلس الحسين فلما استقر به المكان أشار الحسين إلى السائل أن قم فخذ الحمار، فجاء إليه ليأخذه فمنعه الغلام، فأشار إليه الحسين، وأمر الغلام أن يدفع الحمار للرجل، فمضى الرجل بالحمار، وقعد الحسن عنده، فتحدث ما شاء الله، ثم قام وقال: يا غلام، قدّم الحمار. فقال الغلام: جُعِلت فداك أمرني أخوك أن أدفعه إلى سائل فدفعته إليه.

فأدار الحسن وجهه إلى أخيه الحسين وقال: جُعِلت فداك، أعزّت أم

(١) مقاتل الطالبين : ٤٣٩ .

(٢) مقاتل الطالبين : ٤٣٩ .

وَهَبْتُ؟ ثُمَّ اسْتَدْرَكَ قَائِلًا : بَلِ وَاللَّهِ لَا أَرَىٰ مِثْلَكَ يَعْجِرُ، يَا غَلَامُ قُدْنِي ^(١) .

وَيُرَوَّى أَيْضًا عَنْ جُودِهِ وَبَذْلِ يَدِهِ، أَنَّهُ جَاءَهُ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ يَعْطِيهِ، فَأَقْعَدَهُ، وَبَعَثَ إِلَىٰ أَهْلِ دَارِهِ قَائِلًا لَهُمْ : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَغْسِلَ ثِيَابَهُ فَلْيُخْرِجْهَا، فَأَخْرَجُوا ثِيَابَهُمْ لِيَغْسِلُوهَا، فَلَمَّا اجْتَمَعَتْ، قَالَ لِلرَّجُلِ : خُذْهَا ^(٢) .

وَحِينَ لَامَهُ بِبَعْضِ خِدْمِهِ عَلَىٰ مِبَالِغَتِهِ فِي الْإِنْفَاقِ، قَالَ لَهُ : (يَا فُلَانُ، إِنْ لَنَا رَبًّا يَعْرِفُ الْحَسَنَاتِ، وَإِنِّي لِأَخَافُ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنِّي، لِأَنَّ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَالتَّرَابَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ) ^(٣) .

وَرَبَّمَا اعْتَرَضَ الْبَعْضُ عَلَىٰ هَذَا الْأَسْلُوبِ فِي الْإِنْفَاقِ، وَاسْتَهْلَاكَ الْمَالُ، وَيَعْتَبِرُ ذَلِكَ مُخَالَفًا لِمَا أَمَرَ بِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْ الْقَصْدِ، وَعَدَمِ السَّرْفِ، حَيْثُ قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ^(٤) .

وَقَدْ نَهَىٰ الْبَارِي عَنْ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَوَارِدِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَعَدُّ ذَلِكَ مِيلًا عَنِ الطَّرِيقِ الْأَمْثَلِ، بِاتِّجَاهِ التَّطَرُّفِ فِي الْإِنْفَاقِ، وَإِتْلَافِ الْمَالِ .

وَالْحَقِيقَةُ : لَيْسَ الْأَمْرُ حَيْثُ يَذْهَبُ هَؤُلَاءِ الْمَعْتَرِضُونَ ، إِذْ إِنْ السَّخَاءُ وَالْإِنْفَاقُ عَلَىٰ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْفُقَرَاءِ . . . قَدْ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ مُضَادٌّ لِسِمَةِ الْاِقْتِصَادِ فِي الْبَذْلِ، وَالتَّعَامُلِ مَعَ الثَّرْوَةِ بِشَكْلِ مَعْقُولٍ، إِلَّا أَنَّ التَّأَمُّلَ وَالنَّظَرَ بِدَقَّةٍ يَقُودُنَا إِلَىٰ اسْتِخْلَاصِ أَنَّ السَّرْفَ الَّذِي هُوَ بِخِلَافِ الْقَصْدِ، يَخْتَلِفُ عَنِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ، اخْتِلَافًا كَبِيرًا .

فَالسَّرْفُ عِبَارَةٌ عَنِ الْإِنْفَاقِ الْمَقْتَرَنِ بِالْأَنَانِيَّةِ، وَحُبِّ الذَّاتِ، وَتَبْذِيرِ الثَّرْوَةِ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، مَعْنَاهُ : الْإِنْفَاقُ عَلَىٰ النَّفْسِ، وَالْإِكْثَارُ مِنْهُ، إِشْبَاعًا

(١) - (٣) مقاتل الطالبيين : ٤٤٠ .

(٤) سورة الإسراء ؛ الآية : ٢٩ .

للشهوات والأطماع والأهواء، دون التوجه إلى الآخرين . . كما كان يفعل بعض الخلفاء من بني أمية وبني العباس وأمثالهم، ممن كان يتصرف بأموال المسلمين، دون رضاهم، ويبذرها في سبيل رغباته المحرمة، ويسرف في البذخ على حساب الفقراء والمساكين ومن لم يكن يجد قوت يومه من عامة الناس هذا هو الإسراف والتبذير، فلا يصح أن يعد ذلك منهم كرمًا وجوداً .

قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : «ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس، ويهينه عند الله، ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه، ولا عند غير أهله، إلا حرمه الله شكرهم . . .» (١) .

إن التصرف في المال بشكل أناني تبذير وهدر له، وهو منهي عنه في الشرع الحنيف .

أما لو كان المال يستهلك في إغاثة الملهوفين، وإعانة المعوزين، وسد الثغرات في حياة ذوي الحاجة . . إن كان يُصان به العرض والشرف . . فإنه ليس سرفاً ولا تبذيراً، ولو كان الكرم سرفاً، لما كان محموداً، ولما اتصف به كل أولياء الله، من الأنبياء والأئمة والصالحين، كما مر في النصوص السابقة .

فهذا رسول الله ﷺ ، كان يعطي - كما روي عنه - عطاء من لا يخاف الفقر ! .

روي عن أنس : إن رجلاً سأل النبي ﷺ فأعطاه غنماً ملأت بين جبلين فأتى قومه، فقال : يا قوم أسلموا، فوالله محمداً ليعطي عطاء إن لا يخاف الفقر (٢) ! .

وهذا الحسن والحسين عليهما السلام ، ضرب بهما المثل في عطاءهما وجودهما وكذلك عبد الله بن جعفر، وغيرهم ممن زينوا تاريخ المسلمين

(١) نهج البلاغة : النص ١٢٦ .

(٢) حياة الحيوان للدميمي، : ١٢٢/٢ .

بأمثلة سخائهم وكرمهم .

عن الحسن البصري قال : إن الحسين بن علي عليه السلام ، ذهب ذات يوم مع أصحابه إلى بستانه ، وكان في ذلك البستان غلام للحسين ، يُقال له : صافي ، فلما قرب من البستان رأى الغلام قاعداً يأكل الخبز ، فجلس الحسين عليه السلام عنه بعض النخل ، بحيث لا يراه الغلام فنظر إليه وهو يرفع الرغبة ، فيرمي نصفه إلى كلب كان عنده ، ويأكل نصفه .

فتعجب الحسين من فعل الغلام ، فلما فرغ من أكله ، أقبل إليه الحسين وقال : يا صافي ، فقام الغلام فزعاً وقال : يا سيدي وسيد المؤمنين إلى يوم القيامة ، إني ما رأيته فاعف عني .

فقال الحسين : إني رأيته ترمي نصف الرغبة إلى الكلب وتأكل نصفه ، فما معنى ذلك ؟ .

فقال الغلام : إن هذا الكلب نظر إليّ وأنا آكل ، فاستحييت من ربي ، وهو كلبك يحرس بستانك ، وأنا عبدك نأكل رزقك معاً .

فبكى الحسين عليه السلام ، وقال : إن كان كذلك ، فأنت عتيق لله تعالى ووهبت لك البستان ، ووهبت لك ألفي دينار .

فقال الغلام : إن اعتقتني ، ووهبتني بستانك ، فإني أقوم عليه ، وقد سبّلتُ لأصحابك وشيعتك ^(١) .

وهكذا يكون السخاء في حد ذاته فضيلة ، وشعوراً بالمسؤولية ، ويمثل سمواً في النفس ، وعلواً في الهمة ، وزيادة في الشرف ، ونبلاً من الشخص . . ولو صار مقروناً بالإيمان والتقوى ، فلا توازيه فضيلة ، ولا يماثله عمل .

(١) المجالس السنية للسيد محسن الأمين : ٢٦/١ ، وذكر نظير هذا الخبر في كتاب قصص العرب : ٢٢٣/١ ، ونسبه إلى عبد الله بن جعفر .

خاتمة

الحمد لله رب العالمين حيث أعانني ووفقني لإتمام هذا العمل المتواضع، وأرجو أن يقع موقع القبول من الله تعالى، والرضا من الناس .

وربما كان في هذا الكتاب ما لا ينبغي أن يكون، أو لم يكن فيه ما كان ينبغي أن يكون، أو لعلني تخطيت الصواب عن غير قصد . .

لذلك كله أرجو أن يصفح عني قرّاءه من أهل الفضل والأدب والعلم، وأن ينبهوني إلى مواطن الزلل والتقصير .

وإن كان لي شيء من الأجر والثواب عند الله تعالى، على عملي هذا فإني أهديه لوالديّ الكريمين اللذين غرسا في نفسي الإيمان بالله والحبّ للنبي وآله الأطهار .

ربّ اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً واجزهما بالإحسان إحساناً وبالسيئات غفراناً .

«ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين»^(١) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلّى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين .

رمضان / ١٤١٦ هـ

السيد عبد الحسين القزويني

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨٦ .

مصادر الكتاب

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - نهج البلاغة - من خطب سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .
- ٣ - غرر الحكم - للآمدي .
- ٤ - بحار الأنوار - للعلامة المجلسي .
- ٥ - تحف العقول - لابن شعبة .
- ٦ - دراسات في علم النفس الإسلامي .
- ٧ - علم النفس والحياة - للدكتور محمد نجاتي .
- ٨ - تفسير الميزان - للطباطبائي .
- ٩ - التحليل والصحة النفسية - إبراهيم عبد الله والدكتور محمد مصطفى زيدان .
- ١٠ - تفسير مجمع البيان - للطبرسي .
- ١١ - جامع السعادات - للنراقي .
- ١٢ - قصص العرب - لمجموعة مؤلفين .
- ١٣ - حياة زين العابدين - للدخيل .
- ١٤ - الكشكول - للشيخ البهائي .
- ١٥ - شجرة طوبى - للمحدث المازندراني .
- ١٦ - في النفس والمجتمع - لمحمد قطب .
- ١٧ - ربيع الأبرار - للزمخشري .
- ١٨ - ميزان الحكمة - للري شهري .
- ١٩ - الإمام الصادق والمذاهب الأربعة - أسد حيدر .

- ٢٠ - المناقب - لابن شهر آشوب .
- ٢١ - شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد .
- ٢٢ - الإمام الصادق - للمظفري .
- ٢٣ - تاريخ الدولة العلية العثمانية - لمحمد فريد بك المحامي .
- ٢٤ - حياة الحيوان - للدميمري .
- ٢٥ - إرشاد القلوب - للديلمى .
- ٢٦ - الأخلاق - للسيد عبد الله شبر .
- ٢٧ - العلاج النفسي الحديث قوة للإنسان - الدكتور عبد الستار إبراهيم .
- ٢٨ - الأخلاق - محمد تقي الفلسفي .
- ٢٩ - سفينة البحار - للمحدث القمي .
- ٣٠ - مقاتل الطالبين - لأبي الفرج الأصفهاني .
- ٣١ - وقائع الأيام - للشيخ عباس القمي .
- ٣٢ - الكافي - للكليني .
- ٣٣ - المستطرف في كل فن مستظرف - للأبهيشي .
- ٣٤ - أئمتنا - للدخيل .
- ٣٥ - جامع الأخبار - للسبزواري .
- ٣٦ - الإستهباب - لابن عبد البر .
- ٣٧ - الكنى والألقاب - للمحدث القمي .
- ٣٨ - معاوية - لعباس محمود العقاد .
- ٣٩ - نساء النبي - لبنت الشاطىء .
- ٤٠ - صحيح مسلم .
- ٤١ - الأذكياء - لابن الجوزي .
- ٤٢ - معراج السعادة .
- ٤٣ - تفسير القرطبي .
- ٤٤ - الإصابة في تمييز الصحابة - لابن حجر .
- ٤٥ - العقد الفريد - لابن عبد ربه الأندلسي .
- ٤٦ - أسد الغابة - لابن الأثير .
- ٤٧ - التفسير الكبير - للفخر الرازي .

- ٤٨ - دار السلام - للعلامة النوري .
٤٩ - تفسير الأحلام - لعصام الدين محمد علي .
٥٠ - الثاقب في المناقب - لابن حمزة .
٥١ - عيون أخبار الرضا - الصدوق .
٥٢ - أدب الطف - للسيد جواد شبر .
٥٣ - الشوقيات - ديوان أحمد شوقي .
٥٤ - التهذيب - للطوسي .
٥٥ - أصول الكافي - للكليني .
٥٦ - القلب السليم - السيد عبد الحسين دستغيب .
٥٧ - محاسبة النفس - لعلي بن موسى . . بن طاووس .
٥٨ - محاسبة النفس - لتقي الدين العاملي .
٥٩ - كلمة الله - للسيد حسن الشيرازي .
٦٠ - نور الأبصار - للشبلنجي .
٦١ - الإمام الصادق والواقع المعاش - للسيد عبد الحسين القزويني .
٦٢ - الحياة - للحكيمي .
٦٣ - خفايا أموية - للسيد محمد القزويني .
٦٤ - المجالس السنية - للسيد محسن الأمين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
١ - تعريف علم النفس واهتماماته	١١
٢ - علم النفس الديني	٢٣
٣ - النفس والرؤية القرآنية	٣١
النفس اللوامة	٣٧
٤ - التوافق فكرة أساسية	٤٥
الدوافع	٥١
٥ - النفس وصفاتها الذاتية والعرضية	٥٣
تغاير النفوس	٦٠
٦ - تقلبات النفس	٦٣
الحجاج يخالف سجاياء	٧٢
انشراح الصدر	٧٤
وقفة مع الآيات	٧٧
٧ - النفس المؤمنة	٨٣
التقوى	٨٨

٩١	٨ - الانفعالات
٩٤	خصائص السلوك الانفعالي
٩٧	٩ - الخوف
١٠٢	الخوف الواقعي
١٠٣	الخوف الغير واقعي
١٠٥	العلاج
١٠٧	الخوف لدى الأطفال
١١١	١٠ - الخوف من الله تعالى
١١٧	القسوة وليدة الأمن
١٢٣	التقوى
١٢٥	الرجاء بالله
١٢٩	١١ - القلق
١٣٢	مصادر القلق
١٣٨	السحر
١٤١	القلق الواقعي والموهوم
١٤٢	مراحل العلاج
١٤٣	الوقاية
١٤٩	تقلبات الدهر
١٥٦	العلاج
١٦٩	١٢ - الغضب
١٨٥	١٣ - الحلم
١٩٣	معاوية والحلم
١٩٩	١٤ - الحسد
٢١١	١٥ - الوسواس

٢١٨	العلاج
٢٢٥	١٦ - الطيرة
٢٣٣	طيرة ابن الرومي
٢٣٧	١٧ - النفاق وسوء الدخيلة
٢٥٧	١٨ - الغيبة
٢٦٤	الاستثناء من الغيبة
٢٦٧	١٩ - سوء الظن
٢٧١	سوء الظن بالله
٢٧٧	٢٠ - بين النفس والروح
٢٨٩	٢١ - الرؤى والأحلام
٢٩٣	رؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام
٢٩٦	يعقوب ويوسف عليه السلام
٣٠٠	أقسام الرؤى
٣٠٢	المؤثرات في الرؤيا
٣٠٤	البحث عن التعبير للرؤيا
٣١٣	بنو أمية
٣١٤	بذيء اللسان حتى في المنام
٣١٤	عفو ومغفرة
٣١٤	رؤيا المستنجد العباسي
٣١٥	حديث النفس
٣١٩	العلاج
٣٢١	٢٢ - صفاء النفس
٣٣١	٢٣ - الرياء
٣٣٧	الإحساس بالحقارة
٣٣٩	المراؤون في القرآن

٣٤١	وزير السلطان طغرل
٣٤٤	يطلب الملك بالصلاة
٣٤٧	٢٤ - بين يدي الله
٣٥٠	١ - الاعتراف والإقرار بالذنب
٣٥٦	٢ - التوبة
٣٦٤	٣ - الاستبصار
٣٦٥	٤ - الدعاء
٣٧٣	٢٥ - المال وتأثيراته النفسية
٣٧٦	١ - الغنى المشروع
٣٧٨	٢ - الإفراط في حب المال
٣٨٠	هاهنا دراهم كثيرة
٣٨٠	حديث بأربعمائة ألف درهم
٣٨١	الواقفية
٣٨٤	٣ - دوافع حب المال
٣٨٧	٤ - ذم الفقر
٣٩٠	٥ - السؤال من الناس
٣٩٦	٦ - لا يرجون أحدكم إلا ربه
٤٠٠	٧ - الحث على العمل والإكتساب
٤٠٦	٨ - غنى النفس
٤١٣	٩ - البخل
٤٢٠	١٠ وجهة النظر الإسلامية في الثروة
٤٢٤	١١ - السخاء
٤٣٥	خاتمة
٤٣٧	مصادر الكتاب
٤٤١	الفهرست

